

سلسلة الكتب الجديدة

١٢

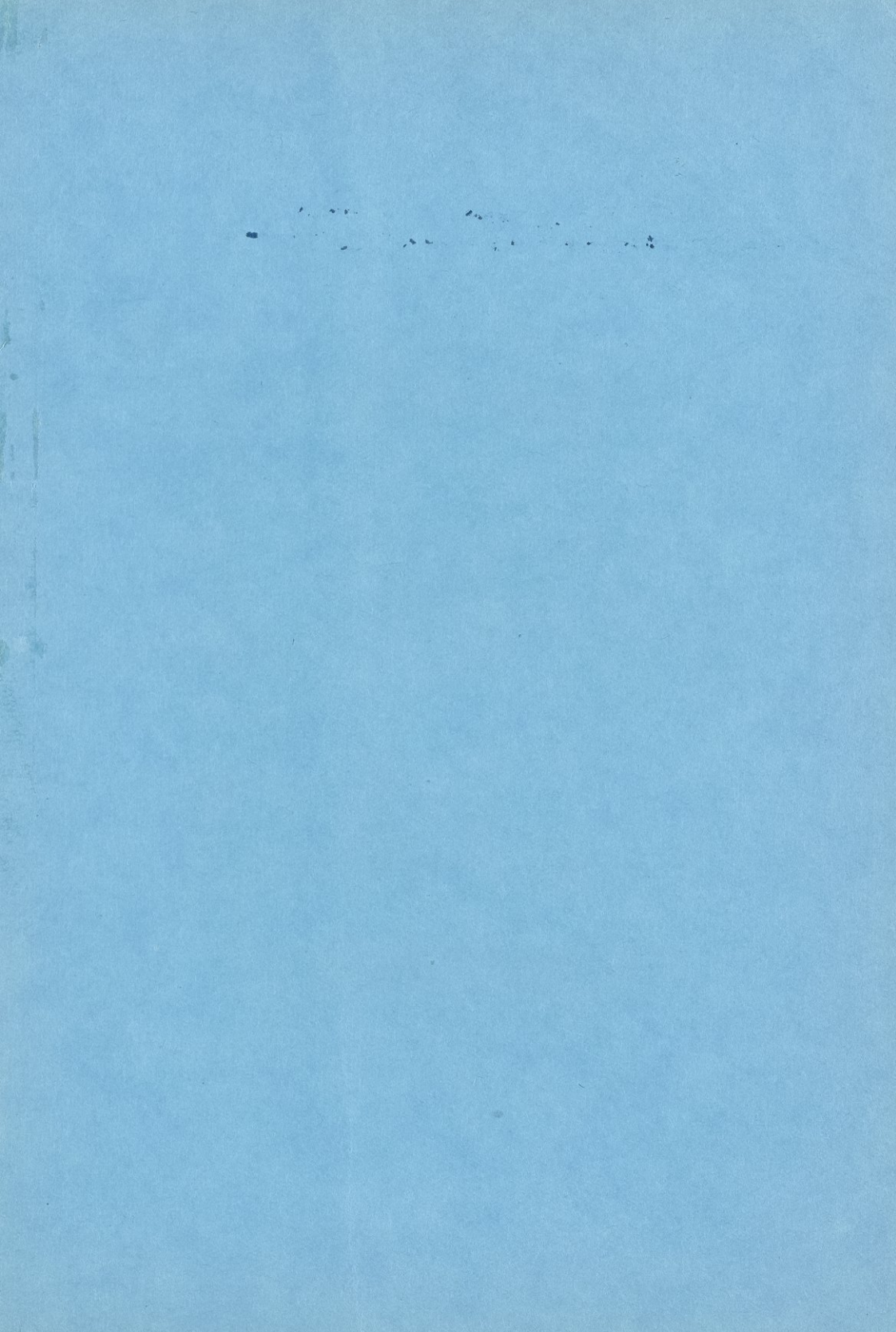
وزارة الثقافة والأشياء
مديرية الثقافة العامة

هدية
المكتبة المركزية
لجامعة بغداد

محمد كرد علي

تأليف

جمال الدين الآلوسي



مكتبة
المكتبة المركزية
جامعة بغداد

محمد كرد علي

956
Ir 27
12-13

دار الجمهورية
بغداد
١٩٦٦

محمد كرد علي

تأليف

جمال الدين آلوسي



الاستاذ الرئيس العلامة محمد كرد علي

نموذج رسالة من محمد كرد علي الى المرحوم طه الراوي

سيدي الاخ العلامة الاستاذ

افترضت فرصة ذهاب الصديق الدكتور العلامة عبد الوهاب بن عزيم بحاسته العلمية الى العراق
فاردت ان تتعارفا ولا شك انك تعرفه وتعرف فضله وعلمه ، وستعرف بالامتزاج به ما انطوى عليه من نبل
عليه من نبل موسيكوني المحض الاوفى انه كنت صلة هذا التعارف النافع فاعتبطا بالايام القليلة
التي ستقضيها معاً ، رث بصحة وعافية

محمد كرد علي

رثته ١٢/٢٠

سيدي الاخ العلامة الاستاذ

افترضت فرصة ذهاب الصديق الدكتور العلامة عبد الوهاب بك عزام بمهمته
العلمية الى العراق فاردت ان تتعارفا ولا شك انك تعرفه وتعرف فضله وعلمه ،
وستعرف بالامتزاج به ما انطوى عليه من نبل ، وسيكون لي الحظ الاوفى ان
كنت صلة هذا التعارف النافع فاعتبطا بالايام القليلة التي ستقضيانها معا ،
ودمت بصحة وعافية .

محمد كرد علي

دمشق ٢٠-١٢-٣٦

تحيته

الى محمد كرد علي

للشاعر معروف الرصافي

تَعَوَّدتْ إنشادي القريض المَهْدبًا
ومن أجل حبي للحقيقة لم أكنْ
ومن أجل جهدي في استقامة منطقي
وسافرتُ في البلدان طَوْرًا مُشْرِقًا
وصاحبتُ من عُرْبٍ وَعَجَمٍ أفاضلاً
فلم أرَ في عُرْبٍ وَعَجَمٍ لقيتهم
هو العالمُ الحبر الذي كنتُ مغرماً
فقد كان في (مصر) صريرُ يراعه

ونزهتُ نفسي فيه أن أتكذبا
مع الزمن الغاوي إذا ما تقلبا
أبيتُ لرأيي أن يكون مذبذبا
أرودُ العلى فيها وطوراً مغرباً
بهم كنتُ في شتى المواطن معجبا
(ككرد علي) في الرجال مهذباً
بأدابه منذ الشبيبة والصبأ
يؤانسني بالمتع الغض مطرباً

(بمقتبس) من نوره ما تحجبا

لمجمعها أمسى الرئيس المرتبها

سواك إليها يا محمد (معربا

وكم كنت في الآداب والعلم كاشفاً

إلى أن أثار (الشام) بالعلم عندما

إذا معجمات العلم عنت فلا نرى

مُقَدِّمَةٌ

بقلم الاستاذ العلامة
محمد بهجة الاثري

الأستاذ الرئيس « محمد كرد علي » ، رحمه الله ، المؤلف فيه هذا الكتاب الجامع ، أمة في رجل •• أهله مواهب العديدة لأن يكون أحد بناء النهضة الحديثة وقادتها الكبار في بلاد العرب ، وسيرته مثال رائع لمضاء العزيمة ، وخلوص النية ، وصدق العمل ، وحب الخير ، واردة الاصلاح • نافع عن العروبة والاسلام ، ودعا الى الحرية ، وقاوم الاستبداد ، وأجال قلمه في ميادين مختلفة مستنهضاً وباعثاً على الحركة والاحياء والتجديد ، وكتب ما كتب في الأدب والتاريخ والاجتماع والسياسة بيان سهل ممتنع ورأي سديد ، ووفر لمؤلفاته مادة غزيرة ، وتحقيقاً جيداً ، فزخرت بالمفيد الممتع ، وجمع علمه بين أفضل ما في القديم وأمتع ما في الحديث من المعارف الانسانية •

وقد تتبعه الأستاذ جمال الدين الألوسي في حياته من لدن مولده الى يوم وفاته •• فصحبه فتى طريراً يطلب العلم ويثاقن كبار مشيخته في بلاد الشام ، وتابع خطاه في ميادين جهاده في الصحافة والسياسة وفي رحلاته الى الغرب ، وترصد أفكاره في العلم والأدب والاجتماع والتاريخ والعمران ، واستقصى آراءه في الحياة •• وكتب كتابه هذا فيه ، وبين عينيه جميع آثاره ومصادر الكلام عليه ، ولا سيما كتبه ومقالاته وبحوثه ، ينهل منها ما شاء له بحثه أن ينهل مما يجلو صورته النفسية بطبيعتها من غير افتعال أو تزويد ، ويشخص حقيقته تشخيصاً جامعاً مانعاً بقدر المستطاع ، فوضع بذلك أمام الأنظار أجمل صورة للاقتداء والاحتذاء والاعتبار •

وقد وصف لنا « الأستاذ الرئيس » كما ينعت بحق وجدارة ، ناشئاً
دائباً على الطلب والاستزادة من مناهل العلم والأدب ، وشاباً ناهضاً منافحاً
عن وطنه ومصالح بلاده وبلاد العرب جمعاء ، وصحفيّاً داعياً الى الحرية ،
ونافداً للاستبداد وسوء الادارة السياسية في الحكم ، وشريداً طريداً هائماً
على وجهه في الصحراء ، وعاملاً في الصحافة في « الكنانة » مشاركاً كبار
كتابها في تحرير الفصول السياسية ، وعالماً باحثاً متقياً : يرحل الى الغرب
رحلات عدة ، ويعكف فيه على مصادر العلم يتقصى فيها ما ينفع به أمته ،
ولداته عاكفون على المعاقرة والمغازلة واللهو ، ومؤسساً لصرح علمي ضخم
في دمشق يشع نور المعرفة ، ومؤرخاً قومياً محققاً ، وكتاباً سياسياً قديراً ،
 واجتماعياً ذا بصر نافذ في شؤون الحياة وطبائع الاجتماع والعمران ، ومفكراً
عربياً اسلامياً : يترصد الشعوبيين وحركات الاستشراق ، ويرد زيف نظراتها
الى العروبة والاسلام •• الى غير ذلك مما جسد حياة « محمد كرد علي »
وأعماله وأفكاره وآرائه تجسيدا كاملاً وصحيحاً ، يؤول الى أصول
سليمة ومصادر غنية ، فعرض بما كتب صورة حية لعظيم من عظماء العرب في
القرن العشرين •• تزخر بالقوة والجمال والخير ، وفي كل لمحة من
لمحاتها حافظ الى المثل العليا والقيم الجليلة • فعسى أن يكون كتابه هذا هادياً
لشباب الأمة ، وباعثاً لهم على الاقتداء بصاحب السيرة المتحدث عنه في أهم
وجوه نشاطه واجتهاده ، وأصدق جوانب حياته وعلمه وفكره واصلاحه ،
والله من راء القصد .

محمد بهجة الاثري

الاستاذ الرئيس

محمد كرد علي

جِهَادُهُ وَأَسْرَتُهُ

يعد محمد كرد علي من أبرز رواد النهضة الإسلامية العربية الحديثة ،
ومن رجال الإصلاح والتجديد ، والمنافحين عن الإسلام والمسلمين ،
جاهد بقلمه ولسانه ، ونصب نفسه رقيباً على من يتصدى للعرب بلمز أو
للإسلام بغمز ، وكتب في الإصلاح الديني ، ودعا إلى الإصلاح الاجتماعي
والسياسي ، وشدد النكير على أهل الضلالات والبدع ، وكتب في الصحف
السورية والمصرية ، واشترك في المجمع العلمية واللغوية والمؤتمرات
الدولية ، ورأس « المجمع العلمي العربي » بدمشق ، وألف عشرات الكتب
النافعة القيمة وما زال يجهر في الحق ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة
والموعظة الحسنة ويجادل بالتي هي أحسن ، إلى أن التحق بالرفيق الأعلى
سنة ١٩٥٣م . كان يحتدم غضباً على من يمس الإسلام بسوء أو تدليس ،
أو يثلب العرب أو يحط من شأنهم ، وكان يشدد النكير على الشعوبيين
وأهل الأهواء والبدع ، ويحمل الحملات القاسية على الجهلة من
المتصدين باسم الدين ، كإفح الزيغ والضلال ، ورد على خصوم الإسلام
من أمثال لامانس ولويس شيخو واضرايهما ، ونقد الريحاني في كتابه
« النكبات » الذي سجل فيه الجوانب السيئة ، ونبش عن الهفوات التي هي
من صنع أعداء العرب ، وجسد الأخطاء ، وأغفل جوانب الخير والإصلاح
والعمران ، بل أغفل كل صالحة من تاريخنا ، ورد على الدكتور رضا
نوري من غلاة الأتراك ، وكان عنصرياً جره تعصبه لقومه إلى أن يرمي
العرب بكل نقيصة ، ويحرف الحقائق ، ويتجاوز النهج العلمي ، ويזור

مادة التاريخ ، ويعزو الصالح منها الى قومه وألصق برجال العرب ، من علماء وخلفاء وقادة اسوأ الاتهامات ، فأنبى الاستاذ الرئيس محمد كرد علي ، رحمه الله لتعرية آرائه ، وفند اتهاماته ، وزيفها بالحجة والبرهان ، كما انبرى لتعرية عدد من المستشرقين ، وفضح جهلهم ، وأوضح تحاملهم على الاسلام ، وتحريفهم الكلم عن مواضعه عمداً وقصداً ، وأبان اخطاءهم الناجمة من جهلهم أو تورطهم في استنباطات لا تركز على علم .

ومحمد كرد علي من أصل عراقي كردي الجنس ، عربي المربي ، شامي الموطن والولادة والوفاة ، اسلامي التفكير والمعتقد ، سلفي النزعة ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، صريح لا يعرف التقية ولا المواربة ، مما جرّ عليه الخصومات طوال حياته ، وجد نفسه بعد الدراسة الثانوية يعيش في بيئة يكتنفها الظلم والجهل ، ويطبق عليها الفساد من كل جانب ، وتنتشر بين سكانها الأمية ، وتعم ربوعها الفوضى في مختلف نواحي الحياة ، في الدين ، في الاجتماع ، في السياسة ، في الأسرة ، في البيأة ، والظلم ومصادرة حرية الناس وانتهاك أموال أبناء الشعب أمور عادية تجري لأتفه الاسباب ، يسمعها الناس ويرونها تمثل في كل مكان في المدينة ، في القرية ، في الريف على حد سواء : يقول : « كان الوالي اذا غضب على ناحية يبعث اليها جنداً يأمرهم بتحطيم أشجارها ، كما فعل والي دمشق فقطع توت « حاصبيا » او بتخريب قراها ، وحرقتها كما خرب عسكر الوالي من قرى الشوف ثلاث عشرة قرية ، والوالي العادل هو الذي سلب نعمة الاهلين ، ليعمر جامعا أو تكية ، أو يعطي جوائز للشعراء والصلحاء والفقراء » . فتح محمد كرد علي عينه على مجتمعه فرأى تاريخ الولاة والحكام مشحوناً بحوادث النهب والسلب والقتل والمصادرات والتمثيل بالاحياء من الخصوم الذين كانوا يجراًون فيجاهرون بالحكام الظالمين بمظالمهم ، أو أنهم انتقدوا استبداد الطغاة ، فأصابهم من جراء دعوتهم الى الحق التنكيل بهم بقطع الأناف وصلم الآذان وسمل العيون وتقطيع الأرجل

والأيدي ، من ذلك تأريخ الجزائر في سورية ، وسياسة حكام الترك في معظم الأدوار التي حكموا فيها أقطار العروبة ، هي نمط واحد ، وكانت المركزية من أشد ما عهد من نوعها ، مع كل ما في الحكم الاستبدادي من عوج وسوء وفجائع ، وكان كل امرئ يطلب اصلاحاً في أرجاء هذا الملك الواسع من الانبراطورية العثمانية سواء كان تركيا او عربيا ، أو من عنصر آخر يعامل أسوأ معاملة ، كان يلقي النفي أو السجن ، ويصادر ، وربما يحكم عليه بالقتل ومن يقول بقوله ، وقل ما يتهم أنه مارق من الدين ، أو تطاول على (البادشاه) الخليفة الى آخر أكاذيبهم • والى جانب الاستبداد والظلم الذي جرد محمد كرد علي قلمه لمحاربه شعوزة المشايخ ، فانه تعقب جهالهم الذين كانوا يضللون الناس بوعظهم ونصحهم الناس السذج بالتزامن للظلمين ، واصدار الفتاوى الناطقة بضرورة الطاعة لأولي الامر وان كانوا من المستبدين الفاسقين ، راح يكافح الفساد ، ما ظهر منه وما بطن ، وأعانه على دعوته والمجاهرة بأرائه نشأته السليمة ، وفكرته التجديدية التي أخذها من اساتذته المصلحين المتجددين السلفين أمثال الشيخ طاهر الجزائري ومحمد المبارك وصليم البخاري في الشام • وامثال الشيخ محمد عبده ، وما سمعه من آراء جمال الدين الأفغاني ودعوته الاصلاحية التي انتشرت في الاقطار الاسلامية وتناقلها الناس من قطر الى قطر ، وأشار في مذكراته الى نزعة الاصلاحية وكشف عن عقيدته السلفية ، وانتقد عصور التخلف والتقسيم والطائفية المقيتة ، قال : « منذ فقدنا استقلالنا ، وقبض على زمام ادارتنا أغراب ليسوا من جنسنا ، وأحيانا من غير أهل ملتنا ونحلتنا ، ويسن قوانيننا غيرنا ، وقد يسنون مالا يلائمنا ، وضعفت فينا خلال هذه القرون الطويلة ملكة العلم ، وانحططنا في أخلاقنا وتفكيرنا وصناعاتنا ، وانفرجت مسافة الخلف بين الطبقات ، وابتعدت كل طبقة عن احتها لا تشاركها عواطفها ، كان في هذا المجتمع المنحط طبيعياً أن يأكل القوي الضعيف ، وأن تغرق البلاد في بحران من الجهل • وكانت ان هبت تلمس سبل النجاة لا تهتدي الى النجاة »

لم ير وسيلة لتحقيق اغراضه الاصلاحية ومطاردة الظالمين وبعث المسلمين وحفرهم الى اليقظة والتنبه ، أرشد سبيلا ولا أقوم مسلكا من الصحافة ، فمارسها ، وقد أولع بها من نعومة أظفاره ، ولاقى فيها الاضطهاد والملاحقات والتجريم ، وكانت أولى الصحف التي كتب فيها (الشام) التي كانت تصدر قبل اعلان الدستور العثماني مرتين في الأسبوع ، فكان يجبر المقالات الضافية ، وينقل من التركية ، ويترجم من الفرنسية ، وظل يحرر فيها ثلاث سنوات ، ثم اتصل بمجلة (المقتطف) ، وكان يجبرها صاحبها من ألفها الى يائها ، ولا يتجاوز عدد صفحاتها المئة صفحة ، واخذ يشارك في تحرير البحوث اللغوية والأدبية الاصلاحية والتأريخية ، وكتب في جملة من الجرائد المصرية ، وهو في مصر كتب في (المصري) و (الرائد) و (الظاهر) و (المؤيد) فطارت شهرته في الآفاق ، وأصدر (مجلة المقتبس) الشهرية • ولما عاد الى الشام أصدر (جريدة المقتبس) اليومية ، وهي اول جريدة يومية عربية وما صدر قبلها اما اسبوعية ، واما

• صف اسبوعية

وكان وهو يكتب في الجرائد المصرية يشارك كتاب مصر في عواطفهم وآمالهم ، لا نجد فرقا بينه وبين أي كاتب مصري ، بشاركتهم في أمانهم الوطنية والسياسية والاجتماعية ، ويحسن التعبير عن رغبات الجماهير من أبناء الأمة العربية أينما كانوا ، وهل المسلم الا مواطن عربي ، لا تحده حدود ، ولا تصده سدود ، ولا تحول دون عواطفه شهوات الحاكمين الطغاة ، أساس هذه الوشائج التراحم والتعاطف وتستند الى تعاليم العقيدة التي لا تفرق بين جنس وجنس تجمعهم وشائج الرحم ، وتلاحم المصالح المشتركة ، وأوطان العروبة والاسلام كلها وطن للمسلم ، وآصرة المواطنة أقوى الأواصر وأمتن الروابط ، تحتم على المواطن الصالح الاخلاص والتعاون على البر والتقوى وصد كل من تمول له نفسه التعاون على الاثم والعدوان •

ظل محمد كرد علي يصور في مقالاته عصور الظلم والاستبداد ،

ويحارب الجهل والجهلاء ، ويدعو الى التحرر من الخرافات ، ويدعو الى التجديد والأخذ بالصالح من وسائل المدنية الحديثة ، ولا سيما العلوم والصناعة ، وثار على القديم الفاسد ، ودعا الى احياء التراث النافع ، وناشد الناشئة ان يعرفوا ماضي أمتهم ، ويتعمقوا في دراسة آدابها ومعارفها ، ويتفهموا التاريخ العربي تفهماً مجرداً عن التعصب والجمود ، وكان في مقالاته وخطبه الاصلاحية يفصح عن الرأي العام في العالم العربي ، ولذلك كان لها صدى وتجاوب في الأقطار العربية قلما كانت كتاباته وآراؤه تأخذ طابعاً محلياً أو تعرب عن فكرة ضيقة .

كان يعد السكوت عن الظلمة ضرباً من الخيانة ، وتديلسا للحق ، كما كان يحسب غض النظر عن أرباب الارتشاء مشاركة لرشاويهم ، ويرى ان لا سبيل للوطن العربي ان يتخلص مما هو فيه من التخلف الا اذا كثر الداعون الى الحرية والناقمون على الاستبداد ، وهو في كل ما يكتب لا يتغني الا الاصلاح ، وكم كان يؤلمه ويحز في نفسه ان يغمط حق أصحاب الفكر والقلم من أهل الرأي والعلم الذين أناروا دروب الحرية ، ومهدوا السبيل الى الثورات ، وعانوا ما عانوا من ظلم الظالمين وعنت عملاء الاستعمار ، فهم الذين غرسوا ثورة العقول قبل قيام ثورة السيوف ، وهم الذين اناروا السبيل للثائرين ، وهم الذين كانوا مع الثائرين من البداية الى النهاية فلا يصح بل لا يجوز ان تركز عين الرضا على كل من حمل السلاح ، ويغفل اولئك المفكرون العاملون الذين شقوا في اعداد الأفكار للثورة على الظلم والجهل ، وجاهدوا سنين ، حتى لقنوا المواطنين معنى الوطن والوطنية والعرب والعربية . * عقوق الا يكون لهم حظ من الذكر والتكريم والتقدير ، لمجرد انهم ما حملوا السلاح مع الحاملين وقد يكون بين من حملوا السلاح من اذا تولى سعى وأفسد وتكبر ، وحرف الثورة الى خدمة اهوائه وشهواته ، وتنكر لرفاق الجهاد ، وراح يكيدهم سرا وعلانية ، يقتل فريقاً ، ويزج في السجون فريقاً ، (واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم ، فحسبه جهنم ، وبئس المصير) . *

وعقد الاستاذ الرئيس فصلا في « المذكرات » في لقب اسرته في فكاهاة كثيرة لما عاناها من هذا اللقب الذي اتخذته لنفسه ، احياء للقب اسرته قال : « جاء جدي مدينة السللمانية من بلاد الأكراد (شمال العراق) ، وسكن دمشق قبل نحو ١٥٠ سنة • وامي شركسية من قفقاسية ، فأنا على رغم من آمن وكفر من جنس آري لا يقبل النزاع ، وليس للغربي ولا الشرقي ما يقول في دمي • سماني أبي (محمدا) وكناني بـ (فريد) • فلما دخلت المدرسة الثانوية ، سألني الناظر التركي : من أي محللة أنا ، وكان من عادتهم ان ينسبوا التلميذ الى حيه الذي يسكنه فحرت في الجواب لأن اسم محللنا (زقاق البرغل) ما كان من الرشاقة بحيث اجوز لنفسي أن يطلق علي اسمه ، فقلت أنا من (التعديل) اسم محللة أخرى كان يسكنها أبي لما كان طفلا ، فكت «محمد تعديل» ست سنين مدة الدراسة الثانوية ولما دخلت في الحكومة ، لم يرض رئيس الديوان أن يعيدني الى اسم اسرتي ، فأكتفى « بمحمد فريد » ، وحذف اسم عائلتي على عادة الاتراك • ولما بدأت اكتب في الصحف ، كان اقصى همي أن أعود الى اسمي الأول والى لقب بيتنا القديم ، فأصبحت (محمد كرد علي) • وقال : « نعم ظلت في كرب من هذا اللقب ، وهو وان لم استسغه كثيرا لانه ليس ببلغ ولا فصيح ، لكنني رأيت في المحافظة عليه معنى من معاني الثبات ، وقد صقل على الايام بعض الشيء » • وعانى من فوضى الألقاب والتحريف والنوعت التي كان اصداقؤه وزملاؤه يصفونها عليه ما سببت له تعباً وبلبله ، وكاد يفقد راتبه التقاعدي بسبب بلبله الألقاب والاسماء ، ذلك أن موظفي المالية لم يصدقوا أن محمد فريد الذي كان موظفا في قلم الامور الاجنبية هو محمد كرد علي • قالوا : محمد فريد كان تركيا ، مات من سنين ، رحمه الله - ولولا شهود وعدول من ذوي النفوذ استشهد بهم ، ولولا اعاز من مصدر عال يؤيد صحة ادعائه لما حصل علي تقاعده •

هذا ما اورثه لقبه المركب من اضطراب وتحريف وتقديم وتأخير

مما اضجره واضطره أن يصحح لخلصائه النطق باسمه الصحيح ، وما كان
يغنيه تكرار التصحيح •

وكان يرد على الذين يحاولون تغيير اسمه الى اسم ولقب يخف النطق
بهما ، ولا يوحيا معنى ثقيلًا ، كان يقول لهم : « ان في أجدادنا الماضين من
كانت كنيثهم أوحش وأسمج ، مثل ابن بصاقة وابن أبي كدية ، وابن
كتاكت • وكم في الرجال الأجلة من لازمتهم ألقاب قبيحة ك معاوية بن
عبد الكريم الضال • وانما ضل في طريق مكة ، وعبد الله بن محمد
الضعيف ، وانما كان ضعيفاً في صحته لا في حديثه •

نشأته وثقافته

أعجب محمد كرد علي بالكتب ، واستهوته صورتها قبل أن يعرف القراءة والكتابة • ذكر أنه استصحبته والدته ، وهو في السادسة من عمره ، لتزور الشيخ محمد الطنطاوي ، فأدخلوها قاعة ، وقع نظر الطفل فيها على رفوف في الحيطان صففت عليها مجلدات ، فشهق متعجباً مما نظر، وسأل والدته عن هذه الأشياء التي رآها على الرفوف ، فقالت هذه كتب ، يقرأ فيها العلماء • فقال لأمه « انا أحب ان اتعلم هذه الصنعة » • وكانت تذكره كلما ارادت ان تبعث همته على الحفظ ومتابعة الدرس ، وكان ابوه ينشطه على الدرس • ولما اصبح يافعاً ، وشاهد استغراقه في القراءة حتى الهزيع الثاني من الليل ، أخذ ينصحه بالاعتدال في المطالعة خشية منه على صحته •

اسلمه أهله الى مدرسة (كافل سيبي) الابتدائية ، وسنه لم تتجاوز الخامسة ، ليتعلم القراءة والكتابة ومبادئ العلوم وفق المناهج المتبعة يوم ذاك ، وفيها رأى ذات يوم شيخاً ما كان قد راه من قبل ، يوبخ تلميذاً بلهجة مغربية ، ويضربه بذيل جنته ، فاستغرب صورة الضرب بالحجة ، فسأل عن الرجل الغريب ، ف قيل له : هذا المفتش ، وهو أعلم من شيخنا ، ويقدر ان يعزله !

فقال في نفسه ليتني أكون مثله وما كان هذا المفتش الا أستاذه وصديقه [من بعد] العلامة الشيخ طاهر الجزائري واستراد من اقتناء الكتب ، وابتاع له ابوه جملة صالحة مما كان يباع في الجامع الأموي بعد صلاة الجمعة في «مزاد» التركات ، فصحب الفتى اليفع الكتب ، ولازمها،

وقرأ فيها الثقافة العربية والاسلامية ، ومال الى قراءة الجرائد اليومية
والمجلات الشهرية وسنه لم تتجاوز الثالثة عشرة ، وحين أنهى الابتدائية ، دخل
المدرسة الثانوية وكانت لغته العربية والفرنسية تؤهله لان يطالع الصحف باللغتين ،
واشترك في جريدة فرنسية اسبوعية كانت تصدر في باريس اسمها
(صديق الريف) ، واولع بمطالعة جريدة (لسان الحال) لان فيها أخبارا
طريفة معربة عن الانكليزية ، كما كان يطالع بعض الصحف التركية
الصادرة في استانبول ، ولا سيما المجلات الادبية والتأريخية ، فشأ فيه ميل
عميق الى الأدب والصحافة والثقافة بصورة عامة ، وما بلغ السادسة عشرة
حتى اخذ يكتب أخباراً ومقالات في الجرائد ، وقال « ما كنت اظن هذه
البداءة تنتهي بي الى الغرام بالصحافة » وراح يرتشف من مناهل الأدب
والعلم على يد زمرة صالححة من علماء عصره ، وفي مقدمتهم الشيخ طاهر
الجزائري والسيد سليم البخاري والشيخ محمد المبارك ، ونما في نفسه
حب العربية وادابها ، وأحب الكتب القديمة التي كان لشيخه الفضل
الأكبر في تحبيبها اليه وتعريفها وتيسيرها له ، فجمع منها عدداً وافراً من
مجلداتها برغم ندرتها يومئذ . ووصف الأستاذ محمد كرد علي ثقافته ،
وعدد لنا قراءته ، فقال : « واهم ما أولعت بمطالعة بعد درس المطبوع من
كتب الادب العربي وجانب من المخطوط الذي عثرت عليه من كتب
الفلاسفة وعلماء الاجتماع وأحوال الشعوب ومدنياتهم ، وطالعت
بالفرنسية اهم ما كتبه فولتير وروسو ومونتسكيو وبنام ، وسبسر وفوليه
وتين ورنان وسيمون ، وتدارست المجلات الفلسفية والاجتماعية والتأريخية
والادبية باللغة الفرنسية ، وجربت منذ نشأت على قاعدة مطردة لم أتخلف
عنها قيد شبر ، وهي أن اقرأ أكثر مما أكتب ، وقلما دونت موضوعاً لم
أدرسه في الجملة ولم تتشربه نفسي » وعدد من الكتب العربية ، فقال :
« واني ما أزال اذكر ما كنت اكثر من مطالعته واستظهاره ايام ولوعي
بالأدب من مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي والصابيء والاصفهانى
والزمخشري ، ولما كتب لي الاطلاع على الآداب الفرنسية والتركية

انشأت أبحث عن كتب بلا تكلف ولا تعمل ككتابات الجاحظ وابن المقفع
وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هارون وأبي حيان التوحيدي «
وتأثر بالقرآن الكريم ، قرأه على أساليب مختلفة ، وتمثل بلاغته ،
وطالع طرفا صالحا من كتب الحديث ، وحفظ المعلقات السبع بشروحها ،
وعدداً من دواوين العرب ، وحفظ نحو نصف ديوان المتنبي وعدة قصائد
لعمر بن ابي ربيعة والبحثري وأبي تمام والرضي وابن الرومي والظفراني
والأرجاني والمعري وعلي بن عبد العزيز الجرجاني وغيرهم من الشعراء
المحدثين والمخضرمين قال : « وتدارست الكامل للمبرد والعقد الفريد لابن
عبد ربه ، وتاريخ العتبي ، والمثل السائر لابن الأثير ، واستظهرت أشياء
كادت تفسد علي ملكتي مثل مقامات الحريري ورسائل الهمداني ومقاماته
ورسائل الخوارزمي وبديعة النابلسي » وقال عن أسلوبه : « ما أخرجني
عن تكلف النسخ على منوال المتأخرين كالقاضي الفاضل والصابيء وابن
الأثير الا الولوع بعد حين برسائل عبد الحميد الكاتب وابن المقفع
والجاحظ والتوحيدي ، أما ما وصل الي مما كتبه وكتبه امثالهم من
السهل الممتع ، فقد قرأته مرات ومرات ، ولا أزال أقرأه » ♦

وعمد الى الكتابة المرسله من غير ان يتكلف الأسجاع والازدواج ،
وراح يعنى بالتحريير أن يخلو من التعقيد ، وأن يكون التعبير واضحاً يهدف
الى المعنى بايجاز ، وليس الايجاز عنده الا عدم التكرار ♦ اما
الفكرة فقد يقبلها بحثا ودرسا ، وقد تستوعب الصفحات فلا
يعده تطويلا ، يتخير اللفظ ، ويسعى لاستعمال الكلمة البليغة ، واقرب
الالفاظ عنده ما خف على اللسان ، وراق السمع ، وتغلب على مقالاته
طبيعة الاستقصاء ♦ حتى عد بين اصحاب الأساليب من (مشهوري أدباء
الشرق) وقرنه الأستاذ محمد عبد الفتاح في كتابه (أشهر مشاهير ادباء
الشرق) بالعقاد وطه حسين ومحمد عبده وجمال الدين الافغاني
والرافعي والمنفلوطي وقاسم امين ، وعده الأستاذ جمعة اسماعيل في الأدباء
الخمسة أصحاب الاساليب ، وثقافته لا تعتمد على الصحافة بقدر اعتمادها

على ما يقرأ من الكتب في العربية والفرنسية والتركية ، ومراجعاته في مكتبة « كايثاني » جعلته يطلع على مصادر ومعلومات ما كانت تيسر له وهو في الشام ، مكنته دراساته وما حصل من ثقافة قديمة وحديثة غربية وشرقية ان يتبوأ زعامة المجمع العلمي العربي بدمشق طوال حياته وأصبح حجة في بحوثه وكتبه ، وكما قال الدكتور سامي الدهان « ليست الثقافة في صورة الشهادة ورنين اللقب ، وانما هي في قراءة الكتب الامهات التي تكون العقل وفي مبلغ هضمها واستساغتها » • كان المجمع الذي رأسه كعبة القصاد والباحثين من شرقيين وغربيين ، عرب وغير عرب ، وهم يجدون عنده ما يتبعون من توجيه وتذليل للصعوبات التي كانوا يلاقونها في مراجعة الامهات والكشف عنها في مظانها • وكان الاستاذ محمد كرد علي مديناً لتوجيه أساتذته ، وعلى رأسهم الشيخ طاهر الجزائري الذي كان الباعث له على الارتشاف من مناهل هذه الثقافة ، والمدرّب على الكتابة ، والموجه للدعوة الاصلاحية ، والمشجع على التأليف والنشر ، وكان له وللمبارك والبخاري الفضل في نقيفه الثقافة الاولى ثم طبعه على حب البحث والدرس والكتابة • كان الشيخ طاهر الجزائري يحثه على بعث التراث العربي في كنوزه المطمورة في خزانات الكتب قال : « فما زلت ألزمه منذ اتصلت به الى أن ذهب الى ربه » وقد ترجم له ترجمة ضافية أوضح فيها الاثر الكبير الذي تركه في نفسه فما كاد يغفل ناحية من نواحي الشيخ طاهر الا وسطرها في سيرته • هو الذي بصره فيما يختار من كنوز الأجداد ، واليه والى الشيوخ الذين اتصل بهم واخذ عنهم علمه ترجع ثقافته الاسلامية ، قال : « تشبعت نفسي بكتب الغزالي وابن حزم وابن تيمية وابن القيم ، وأخذت الشريعة من أصفى مصادرها ، واحييت جملة من علمائنا ، ودأبت زمناً أنظر فيما كتبوا • ولما جاءت نوبة العمل كنت ادون ما علمت » وقد انتفع من هذه الثقافة حين تصدى للرد على كثير من المتصدين باسم الدين الذين جعلوا الدين وسيلة لأغراضهم الدنيوية ، ومن يطلع على بحثه القيم « الانشاء والمنشؤون »

الذي نشره في مجلة المجمع العلمي ، يدرك وفرة الكتب التي طالعها في
القديم والحديث •

بدأ بالأدب الجاهلي وانتهى بالعصر الحديث • عرف الشعراء
والخطباء والكتاب من كل عصر ، ووصف آثارهم وصفاً يدل على وقوفه
التام على مصنفاتهم ورسائلهم ، وحكم على أذواقهم حكم الناقد العالم ، ونقد
أساليبهم ، وتبع العصر الحديث فدرس كتابه على نحو ما فعل مع المتقدمين ،
فاطلع على ما كتبه أحمد الشدياق والجزائري والموليجيين واليازجي ناصيف
وابنه ابراهيم وشكيب أرسلان والمنفلوطي ، وقال : « اني منذ أكثر من
خمس وعشرين سنة وأنا أنظر في الكتب العصرية التي تخرجها المطابع
العربية في الشرق والغرب » • وقرأ شعر الشعراء ، وطالع دواوينهم من
عهد البارودي الى الرصافي والزهاوي وشوقي وحافظ والمهندس •

قرأ المخطوطات ، وبحث عنها في خزائن الاسنانه ودمشق والقاهرة
وليدن وروما وفي مكتبة الامير كايثاني ، وأحاط علماً بالمستشرقين ، وله
صداقات مع أكثرهم ، وجرت بينه وبينهم مناقشات ومساجلات وردود
وتعليقات وأسئلة وأجوبة ، واطلع على ما كتبوه وألقوه في الاسلام
والعرب ، وكتب فيهم مقالات ضافية ، وحاضر في دراساتهم محاضرات
مستفيضة ، قال في احداها : « يحتاج الوقوف على ما نتج للغرب من تلك
النهضة في الأخذ من علوم العرب الى بحث مستفيض خاص ، وتهمنا الآن
معرفة أثر تلك النهضة فينا وفي لغتنا ، اي نعرض للجهة التي تخصنا من
ذلك الجهاد العظيم الذي جهدوه في احياء العربية فقط ، وذلك للتبويه
بمن نشروا كتبنا فأسدوا الى لغتنا المحبوبة أياديهم البيضاء ، وعلمونا بما
أحيوه دروسا في تاريخ امتنا ومدنية أجدادنا كنا نجهلها ، مع ان أعمالهم
هذه قد وصلتنا عرضاً ، اذ لم يكن علماء المشرقيات او جمعياتهم ومجامعهم
يقصدون خدمتنا ، بل خدمة أنفسهم وخدمة العلم او الافكار التي يريدون
بها ، ليتخذ بعضهم من كتب أسلافنا مادة تنفعهم في موضوع قد يرون غير
رأينا فيه ، أو غير ذلك من المقاصد ولكن مهما كانت النيات ، فقد

استفادت العروبة والعربية من هذه المهمة ، ولذلك تقضي علينا أخلاقنا ان نعرف الفضل لصاحبه « • ومحمد كرد علي حجة في كل ما ينصل بالمستشرقين وما انتجوا من بحوث أو أحيوا من كتب ، أحاط علماً بما نشره علماء الاستشراق الفرنسيون والامان والروس والانكليز والهولنديون والايطاليون ، وأحاط علما بما نشرته الجامعات الامريكية مثل جامعة شيكاغو وييل وبرنتون •

والى القارىء الكريم شهادة صديق له ، زامله في وزارة المعارف ، وزامله في المجمع العلمي ، وعاشه في الشام ، وعرف حقيقة حاله واسرار حياته ، ذلك الصديق هو الشاعر والكاتب شفيق جبيري ، قال :

« لقد خالطته في وزارة المعارف ، فكان وزير المعارف في سورية ، فوقفت على كثيرٍ من خصائصه وطبائعه ومزاجه ، فما عرفت رجلاً أولع بمطالعة الكتب ولعه ، فكثيراً ما كان يطلب الى أصحاب المكتبات الفرنسية في أكثر الموضوعات ولا سيما موضوعات الاجتماع ، وما اذكر أنه كان يمر عليه شهر وأحياناً اسبوع دون أن يطلب كتباً جديدة للمطالعة من باريز وليسك وروما ولندن » ، وقال : (اذا خلا الى نفسه فانما يخلو الى كتبه ، واذا اعتزل دمشق الى ريفه في الغوطة ، فانما يعتزلها ليصغي الى أحاديث كتاب يجالسه اصغاه الى حفيف شجره وزقزقة طيره وثناء غنمه وخوار بقره ، فما عرفنا في عصرنا من غلبت عليه محبة القراءة وشغله الميل الى التأليف مثل الاستاذ الرئيس ، فقد فتن بالكتب فتنة الجاحظ بها في القديم ، فأفضت به هذه الفتنة الى الاكثار من التأليف ، حتى اشتهر بوفرة الانتاج ولم يقتصر الأستاذ الرئيس على القراءة بكل أنواعها حسب وانما أضاف الى نهمه للعلم والمعرفة ما اكمله بالأسفار - فسافر الى الأستانة ومصر ولبنان ، ورحل الى أوربة أربع رحلات ، كتب بعد احدى رحلاته هذه مقالات ومحاضرات في وصف ما وقف عليه بنفسه في الغرب من غرائب • وصف فرنسا وزار ريفها ووصف مدارس الريف ودور الحضانة ، وزار علماء الاستشراق في بلجيكا وهولندا ، وزار مكتبة ليدن كما زار جامعتي

اكسفورد وكمبرج • قال في مذكراته : « زرت أوروبا أربع مرات : في سنة ١٩٠٩ ، ١٩١٣ ، ١٩٢١ و ١٩٢٨ ، وكانت الغاية من رحلاتي تجديد ما رث من قواي ، وترويض الجسم ، وتسلية الروح ، والتعرف الى مدينة الغرب ، ودرسها في أرضها درساً عملياً بعد صرف جانب من الوقت في درس النظريات »

وكان يبحث العلماء والمتعلمين من أبناء الأقطار العربية على الاستزادة من العلم والبحث والتأليف ويضرب لهم الأمثال من أسلافهم في الدهر الغابر كيف أنهم في تفضيلهم المعنويات على الماديات قد انتجوا وألقوا آلاف المجلدات في مختلف صنوف المعرفة بما عقت الأيام عن تحقيق عشر معشاره اليوم على أيدي من خلفهم ، ويقارن بين تقاعس علمائنا اليوم ونشاط علماء الاستشراق في اخراج كنوزنا وعنايتهم العجيبة في تحقيق الكتب الاسلامية الخطية ، فيقول : « نحن لو رزقنا جانباً من همم المستشرقين ودؤوبهم ما احمرت وجوهنا خجلاً عند ارادة التنظير بين ما يفعل الغريب بمال غيره وما يفعل القريب بمجده وتراثه ، وفي الحق أن من شهد روح الاخلاص بما قمنا به في هذا السبيل وقابله بما تم على ايدي اولئك الأعاجم لا يسعه الا أن يبالغ في الشاء على ما بذلوه من خدمة العلوم والأداب ، فأحيوا ما كان مدفوناً ، وعرفونا بما كان عندنا مجهولاً . خدمونا بالعرض ، وخدموا العلم بالذات ، جزاهم الله خيراً »

« بدأ علماء المشرقيات بطبع كتب العرب والاسلام يوم اخترعت الطباعة في الغرب خلال القرن السادس عشر من الميلاد ، وما زالوا يبالغون بالناية فيما يطبعون ، ويقربون مناله على الباحثين بما يعارضون عليه الكتب من النسخ ويحلونها به من الفهارس ، وقد طبعوا من هذا التراث العظيم الى الآن ما تتألف منه خزانه عظيمه في مختلف العلوم والفنون ، ولولا عنايتهم لقيت أمهات كثيرة من كتب السلف مهملة لا ينتفع بها ، ولعميت علينا اسرار عظيمه من كنوز مدينتنا • أما الشرق الاسلامي ، فلم يشرع بطبع كتبه الا بعد قرنين من هذا التاريخ ، وقلما جود الطبع وعني بالتصحيح والتعليق ووضع

الفهرسات ، ذلك لأن معظم من عانوا هذه الصناعة صناعة الطبغ والنشر كان قصدهم الربح ، لا الخدمة العامة ، خلافاً لعلماء المشرقيات من الغربيين ، فإنهم يتوخون الفائدة العلمية قبل كل شيء^(١) . يقول مترجموه : « انه كان يقرأ كثيراً ، وكان طلعة ، لا يميل المطالعة . وكان ينتفع من مطالعته ، ويهضم ما يقرأ ، وفي غالب الأحيان يعرض ما انتفع به على الناس ، ويشركهم في المعرفة التي حصل عليها من قراءته . ولو أنه استعان بالجزازات كما يفعل علماء الاستشراق فيما يقرأون لكان انتفاعه من مطالعته أكثر ، ولكن نفعها أجزل . كان يقرأ المراجع بتدبر ، ولكنه ما كان يسجل محاسن ما فيها ، ويتكل على ذاكرته ، والذاكرة يعني عليها الزمن ، فتضيع المعلومات ، ويعسر الحصول عليها حين يتطلبها . هذه آفتنا : نقرأ كثيراً ، واذا ذكرنا قرأنا ، وأردنا الانتفاع مما قرأنا ، فاتتنا مصادره ، وصعب العثور على النصوص التي نرغب في أن نستفيد منها ، لو سجل الأستاذ الرئيس كل ما استحسنت من الافكار لكان أكثر انتفاعاً وابداعاً ولكن ذاكرته كانت متوقدة ، وقلما خاتته فيما يريد اقتباسه من النصوص ، ويقول عن نفسه انه ما قرأ بحثاً منذ ثلاثين سنة او اكثر وأراد الرجوع اليه ، الا وتذكره وعرف مصدره والصفحات التي تحويه اذا لم نقل الاسطر التي اشتملت عليه ، وكان يعنى على علمائنا تقاعسهم عن التأليف ، ويعجب لحمول همتهم ، يقول : « ليث شعري ماذا اصاب هذه الأمة ، وهوأؤها هوأؤها وسماؤها سماؤها ، وأرضها ما زالت تلك الارض التي سار على اديمها الآباء والجدود ، ونحن نرى اليوم أدوات العلم والعمل موفورة ، والعلماء غير مقتر عليهم كما كانوا في سالف الاعصر يستمتعون بحرياتهم والعبر تأتيهم تترى ، فيعتذرون عن التصور والانتكال بما لا يقبله المنطق ولا يقره العقل » ويقول : « لا أحد يضمن لأحد في هذا الكون نجاحه ، وما وقف مشروع قط الا بضعف في تراكييه وخور في عزيمة القائم به ، وليس في مقدور أحد أن يشغل مكان

(١) المذكرات ١ : ١٩٤ - ١٩٦ .

غيره يستصفيه هينا لينا ، ويتصدر من دون صاحبه ان لم تؤهله له نفسه ،
والعاقل العاقل يشق أبدأ بذاته طريق نجاحه ، ولا يعتمد على غير
جهده وكده ♦

قل لمن يتعلمون : لو تعلمتم العلم للعلم ، وآمنت أن العلم يقصد لنفعه
ولذاته ، وقمتم بواجبكم من دون جلبه ، لحمل اليكم علمكم شيئاً من
الماديات ♦

لو فكر كل واحد في موضوعه حق التفكير ، وخدم اختصاصه ما
وسعته الخدمة ، ونشر للناس تحقيقاته ومبتدعاته ، لأصبحت الخزانة
العربية في جيل واحد غنية بأبحاثكم ومبتدعاتكم ودراساتكم ، واستغنى قومنا
في الآداب والفنون عن الكتب الاجنبية ♦ وداء الشرق الاتكال ، وداء الشرق
قلة الاحتفال بالكفايات ، وداء الشرق اهمال التنظيم وقلة الدؤوب والملل
من الاتقان ♦ فهل نياتنا على معالجة هذه الادواء لئستوي أمة رشيدة ؟
وهل تتعلم أن العظمة بممارسة العمل ؟ ♦

أَسَاتِذَةٌ

الشيخ طاهر الجزائري

قدم لنا محمد كرد علي عن أستاذه الذي تآثر به ترجمة وافية من يطالع عليها يحصل على معرفة تامة بسيرة الجزائري وكأنه يحيا معه أو كأنه ما زال يحيا بيننا ، وكأننا لم نفقده • ووفاءً لحق أستاذه عليه ، نراه قد توج كتابه كنوز الاجداد بسيرة معلمه الأول ، وان كان الزمن بينه وبين بقية أصحاب السير من الذين اشتمل عليهم كتابه بعيدا ، قال بعد ان كتب في اصله ونشأته : « ولم يغفل الأستاذ خلال سني الدراسة عن دروس الطبيعة والرياضية والفلكية والتاريخية والأثرية ، أخذها من علماء الترك وغيرهم ، فكان اذا رأى أعلم منه بفن ، أخذ عنه فنه ، وأفاد فيما لا يحسنه من فنون العلم ، و من مثل لعينه كيف كانت بيأة من محطة أوائل النصف الاخير من القرن الماضي أيام كان يتهم بالمروق كل من تعاطى علما لا يعرفه المتفهمة ، يدرك ما عاناه الاستاذ لتلقف علوم القدماء ، ولم يبلغ الثلاثين من عمره ، حتى أتقن العربية والفارسية والتركية ، ونظم بالفارسية كالعربية ، وكان نظمها أرقى من شعر الفقهاء ، ودون شعر الشعراء ، والى السجع ثم تخلى عنه ، وأصبح يكتب المرسل بلا كلفة ولا تعمل ، وتعلم الفرنسية والعبرانية والحبشية والقبائلية البربرية لغة أهله الأصلية ، ومما ساعده على فتح صدره الرحب لجماع المعارف البشرية غرامه منذ نشأته بجمع الكتب ، وهو لما يزل في المدرسة الابتدائية ، فقد اخذ يتاع الدشوت والرسائل المخطوطة من دريهمات كان يرضخ بها له والده لخرجه ، وكانت الكتب والرسائل المخطوطة تباع في «الكلاسة» شمالي الجامع الأموي على مقربة من ضريح صلاح الدين ، وكلما احرز الشيخ شيئا من الأوراق والأسفار

طالعه بامعان وخبأه وحرص عليه ، فأستنار عقله ، وكثرت معلوماته ، وآجتمعت له بطول الزمن خزانة مهمة من الأسفار بلغت بضعة آلاف مجلد ، فيها كثير من النوادير المخطوطة ، ٠٠٠ درس في المدرسة الظاهرية الابتدائية ، ولما أسست الجمعية الخيرية من علماء دمشق وأعيانها سنة ١٢٩٤ هـ ، دخل في عداد اعضائها ، وكان من اكبر العاملين فيها ، ثم استحال هذه الجمعية «ديوان المعارف» فعين مفتشاً عاماً على المدارس الابتدائية التي أنشئت على عهد المصلح الكبير مدحت باشا والي سورية عام ١٢٩٥ هـ ، وكان للشيخ الأثر العظيم في تأسيس المدارس الابتدائية بمعاونة صديقه بهاء الدين أمين سر الولاية ، وهو أديب كان يحب نهضة العرب كما يحب العلم والأدب ، وفي هذه الحقبة ظهر نبوغ شيخنا وعبقريته في تأسيس المدارس واستخلاص القديمة من غاصبيها ، وحمل الآباء على تعليم أولادهم ، ووضع البرامج ، وتأليف الكتب اللازمة ، كان يقوم بهذه الاعمال المهمة ، ولا يفتأ يزداد كل يوم علماً وتجربة وتفانياً في نهضة البلد ، وتحسين الملكات ، وصقل الأخلاق والعادات ، وانشأ على ذلك العهد أيضاً بمعاونة بضعة من أصدقائه (دار الكتب الظاهرية) بدمشق ، ، وجمع فيها سنة ١٢٩٦ م ما تفرق من المخطوطات العظيمة في عشر مدارس تحت قبة الملك الظاهر (بيرس البنقداري) ، ولقي ممن استحلوا أكل الكتب والأوقاف مقاومة شديدة ، وهددوه بالقتل ان لم يرجع عن قصده ، فما زادوه الا مضاء واقداما » .

وتكلم على علم الشيخ طاهر وعمله فقال :

« رأينا منهاج الدروس الواسعة التي أخذ الشيخ نفسه بدراستها منذ حدثه ، وانه ليندر في المتأخرين من علماء دور الانتحطاط الفكري نبوغ رجل مثله ، وعى صدره من ضروب المعارف ما وعى ، وطبق مفصل الشريعة مع علوم المدنية ، فقد كان متضلعا من علوم الشريعة ، وتاريخ الملل والنحل ، منقطع القرين في تاريخ العرب والاسلام وتراجم رجاله

ومناقشات علمائه ومناظرتهم وتأليفهم ومراميمهم ، ساعده على التبريز في هذا المضمار قوة حافظته التي لا تكاد تنسى ما يمر بها مهما طال العهد ، وكان اماماً في الأدب واللغة ، اذا سألته حل مسألة تظن الشيخ لا يعرف غير هذا العلم ، واذا استرشدته في الوقوف على مكان موضوع تريده ، أطلعك في الحال على ما لا يتيسر لغيره الظفر به بعد الكشف عنه اياماً • وهكذا هو في علوم الشريعة ، ولا سيما التفسير والحديث والاصول • وكان يعرف السياسة وما ينبغي لها ، وحالة الغرب واجتماعه ، والشرق وأممه وأمراضه ، معرفة اخصائي ، لا معرفة نتفة ، ولا يكاد جلسه يصدق اذا انكفأ الشيخ يتكلم في هذه الموضوعات ، خصوصا اذا كان غربيا ، أن محدثه شيخ من شيوخ المسلمين يعيش في أمة قد لا تقيم وزنا لهذه المعارف •

اتسع صدر الشيخ لجماع علوم المدنية الحديثة ، الا الموسيقى والتمثيل ، فلم يكن له حظ فيهما ، وربما قاوم سرا المشتغلين بها ، مخافة أن تكونا سلماً الى التبذل وخلع ثوب الحياء ، وكان يراها مدرجة الى اللهو والصبوة ، وهذا مما لم يدخله الشيخ في جريدة أعماله ، وذلك لا يعني بالتسامح مع القائمين عليهما مما أوردوا له من الحجج على نفعهما ، وصعب على من حلف ان يعيش عيش جد وتبتل أن يتساهل في الصغائر لئلا تؤدي الى الكبائر • اما الرسم والتصوير والنقش ، فكانت مما يتسامح فيه ، لكنه يغمزه عرضاً ، وكثيرا ما يقول ان اجيال الفرنجة في هذا العصر أفرطوا في الغرام بالتصوير والتعويل عليه في كل امر ، فأضعفوا قوة التفكير والتصوير « وتلخص سياسة الشيخ ظاهر الجزائري في التعليم ، في ضرورة تعلم المسلمين أصول دينهم ، والاحتفاظ بمقدساتهم وعاداتهم الطيبة واخلاقهم القويمه ، وان يفتحوا قلوبهم لعامة علوم الاوائل والأواخر ، وكان يقاوم المتعصين مقاومة عاقل ، وذلك بتكثير سواد الدارسين لها وارشادهم الى طرقها العملية المنتجة ، لا الوقوف بها عند حد الانكار • فهم المسلمين في الشام درس علوم نرى اليوم الاخذ بحظ منها ، من البديهيات اللهم الا عند بعض ممن جهلوا ، ومن جهل شيئا عاداه » •

وفي منهجه في بث افكاره ، قال : « كانت للشيخ طرق مبتكرة في بث الأفكار التي تخالف معتقد الجمهور ، يبثها في العقول بدون جعجعة ، ويقرب منالها من المستعدين للأخذ بها ، وذلك بتلقيهم أمهات مسائلها اثناء الحديث على صورة لا ينفرون منها ولا يخطر لهم أنها من البدع المنكر ، مثال ذلك أنه أولع في صباه بكتب شيخ الاسلام ابن تيمية ، وكانت جمهرة الفقهاء في عصره تكفر ابن تيمية تعصباً او تقليداً لمشايعهم ، فلم ير الشيخ لتجب ابن تيمية اليهم الا نشر كتبه بينهم من حيث لا يدرون ، فكان يستنسخ رسائله وكتبه ويرسلها مع من يبيعها اليهم في سوق الوراقين بأثمان معتدلة ، لتسقط في أيدي بعضهم فيطالعونها ، وبذلك وصل الى غرضه من نشر آراء شيخ الاسلام التي هي لباب الشريعة . هذا ، وليس الشيخ في مذهبه حنبلياً ولا مالكياً ولا حنفياً ، بل هو مسلم ، يأخذ من اصل الشريعة باجتهاده الخاص ويحسن ظنه بأئمة المذاهب المعروفة ، ويتجهج لمن يجروء على النيل من أحد العلماء عامة . يعمل بما صح له من الدليل في الكتاب والسنة ، ولطالما اعطى الحق لعلماء الشيعة أو الأباضية او المعتزلة في مسائل تفردوا بها ، فكان يعطف عليها وعلى المشتغلين بها ، وينحي باللائمة على المتأخرين الذين أوصدوا بابها ، فأظلمت العقول ، وضعف مسنواها . كان ينكر على الظالمين سيرتهم ، ويقبح الظلم وان نال عدوه ، وينصف الناس من نفسه بعض الشيء . وكان الحكم معه في بلية ، يعرفون انه ينزع الى القضاء على سلطتهم الغاشمة ، ولا يستطيعون ان يظهروا العداة له وكذلك المشايخ كانوا يبغضون افكاره ، ولا يجراون على مقاومته بسلاحه ، سلاح العلم والبرهان ، وكان كثيراً مايقول : مالنا وللناس ؟ ليس لهم من سلطان علينا غير سلاطة السننهم ، وكلمات ينفسون عنهم بها ، وهي لا تخرج الى أبعد من سقوف حجرهم . وحدث لبعض اغمارهم ان استعانوا غير مرة بالسلطة الزمنية على توقيف تيار أفكاره وأفكار أنصاره ، فكان الشيخ يصددهم بما له من التأثير في أهل الحل والعقد ممن كانوا يتمثل لهم عقل الرجل ، وكان يحسن مخاطبتهم بلسانهم ، والقائمون لا يحسنون محاورتهم

حتى ولا بلغتهم الأصلية ، وسلاحهم دسائس يحوكونها وتعصبات ينفثونها ، ولم يزل جهال الناس ، كما قال ابن المقفع ، يحسدون علماءهم ، وجباؤهم شجعانهم ، ولثامهم كرماءهم ، وفجارهم أبرارهم ، وشرارهم خيارهم • من أجل هذا كان الأستاذ يتفنن في بث أفكاره بين الخاصة والعامة على صور شتى ، ويتفانى في نشر العلم والتهذيب والأخذ من القديم والحديث ، وكم من عامي أصبح بتعاليمه وتلقيه بالعمل مسائل بسيطة من العلم معدوداً من المتعلمين •

وقال : « وكم من جريدة أو مجلة أو كتاب أو رسالة نشرت في مصر والشام بارشاده ، وكم من أديب أو عالم أرشده الى السبيل السوي في أدبه وعلمه ، وعلمه المظان وأساليب المراجعة ، وكثير ممن اشتغلوا بالآداب او تعلموا التعليم الثانوي أو العالي في الديار الشامية ان لم يكونوا استفادوا منه مباشرة فبالواسطة ، وتلاميذه ومريده من المسلمين يعدون بالعشرات ، وأكثرهم اليوم يشغلون مقامات سامية في دور العلم والحكم والتجارة والزراعة ، وقال : « بحق ما قيل في الشيخ انه معلمة (انسيكلويديا) سيارة ، أو خزانة علم متنقلة ، وكيف لا يكون كذلك من آتاه خالقه حافظة قوية وذها وقادراً وعقلاً يستعمله ، فقد قرأ جميع ما طالت يده اليه من الكتب العربية التي طبعت في الشرق والغرب ، أما المخطوطات التي طالعها ولخصها في كتابتيه وجزازاته ، فتعد بالمئات ، وقل أن يدانيه أحد في علم الكتب ووصفها ومؤلفيها وأماكن وجودها وما عرض لها ، واطالما رحل من بلد الى بلد بعيد ليطلع على مخطوط حفظ في بعض الخزائن الخاصة وبالنظر لاحاطته بالمظان ، وتدوينه في الحال كل ما يقع استحسانه عليه من الفوائد ، كان يسهل عليه التأليف حينما ترتاح اليه نفسه من الموضوعات ، وقد يؤلف الكتاب في بضعة أسابيع على شرط أن يوقن أنه سيطلع ، اذ كان عصبي المزاج ، يسارع الى النشر متى افترص الفرصة المناسبة لأخراج التأليف ، وكان يقول : ان الاتقان لاحد له ، والأعلاط تصحح مع الزمن • انه واسع الرواية ، واسع الدراية ، أو كما قال صديقه العلامة أحمد زكي باشا

في برقية أبرقها الى الشام بالتعزية به « كنت أرى فيه الأثر الباقي والمقال الحي والصورة الناطقة لما كان عليه سلفنا الصالح من حيث الجمع بين الرواية والدراية في كل المعارف الاسلامية ، وبين الدأب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص واستشارة خباياها وابرار مفاخرها * » هذا الى النفاي في توسيع نطاقها بقبول ما تجدد عند الأمم التي تلت تراث العرب باليمن والدعوة الى الإقبال عليه ، مضموما الى آثار الابناء ومآثر الاجداد * »

ومن يقرأ الفصل الذي كتبه الأستاذ محمد كرد علي في الشيخ طاهر الجزائري تظهر له صورة الشيخ بارزة ، وير ملامحه ماثلة في تضاعيف السطور وكأنه يحيا بيننا بصورته وأخلاقه وعاداته * قال :

« ان سيرة الشيخ طاهر كانت نمطاً واحداً طوال حياته ، هكها كان متعلماً ومعلماً وعالمياً ، يجب العمل ويدعو اليه ، جد في حركته لايبالي بالعوائق مهما عظمت ، وكلما حاول اعداؤه أن يقفوا دون بث دعوته يزداد قوة وعرامة ، شأن كل الدعوات كلما حاربتها زدتها انتشاراً * »

عرضت عليه وظائف كبرى (بعد وظيفة التفتيش العامة) في غير السلك العلمي ، فأبى ، لأنه كان يعرف انه لايد له في هذه المناصب من معايشة الظلمة والجهل ، وجعل جل اعتماده في عيشه آخر أيامه على الكتب التي اقتناها طوال حياته ، وأخذ يبيع منها بالتدريج ، وتسمح نفسه ببيعها اذا تأكد أنها مستحفظ في معاهد عامة كدار الكتب المصرية والخزانتين التيمورية والزكية في القاهرة ، فان معظم نفائس خزائنه نقلت اليهما ، وتمزز الشيخ أثمانها نحو أربعة عشر عاماً ، وكان اشتراها في صباه بأثمان بخسة ، فأرتفعت أسعارها عشرة أضعاف أو أكثر * »

وقال : « كان الشيخ عف النفس ، يستكف أن يأخذ شيئاً من أحد بلا مقابل مهما كان الواجب ، فقد عرض عليه صديقه الاستاذ أحمد زكي باشا - رحمه الله - أن يوقع على طلب ، وهو يتعهد له راتب جيد من الأوقاف المصرية على عهد الخديوي عباس الثاني ، فتصل واعتذر * ولما اشتد صديقه في تقاضيه ذلك اتهره ، حتى قال الاستاذ أحمد زكي : لو

كنت أعتقد أن رجلا يعيش من تحت السجادة لاعتقدت ذلك الشيخ طاهر لأنه كان يقيم في بلد كمصر يشكو فيه الأغنياء من الغلاء ، ولا يحب أن يأخذ من أحد شيئاً يستعين به في حياته • وكان كثيراً ما ينشد قصيدة القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في عزة النفس التي منها :

يقولون لي فيك انقباض ، وانما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من دانايم هان عندهم ومن أكرمه عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم ان كان كلما بدا طمع صيرته لي سلما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما

ثم قال :

« لا أكون الى المبالغة اذا قلت ان عزة النفس كان مما تفرد به ففيه اباء الملوك الصالحين وزهد الزاهدين العابدين ، لم يظهر ظالما لغنم يصيبه ، ولا صحب غنياً للانتفاع بغناه ، وكان يؤثر الخمول وعدم الظهور لا تهمه الشهرة ، استفاضت أم لم تستفض ، لانه يهزأ في باطنه بمظاهر الأبهة والرفعة ، ويزهد في اعتبارات كثيرة يتفانى الناس في تحصيلها • يزهد حتى في نسبه الى الشرف ، ولم يذكر ذلك الا مرة واحدة ذكر فيه أحد صلحاء الجزائريين أمامي ، وسألته بعد ذلك عن نسبة بيتهم الى الشرف يريد (العترة) ، فقال : هكذا يقولون ، ولا عجب فشرف العلم أعظم نسب • هاجر الشيخ طاهر من دمشق لما كثر ارهاق العلماء في العصر الحميدي فنزل القاهرة من ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) الى سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠م) • وكان لا يعتر بقوانين الترك ، ولا بثرثرة السياسيين ، فانزوى في مصر حتى استحكم منه مرض الربو ، وقفل راجعا الى مسقط رأسه قبيل وفاته بأشهر قليلة ، فعين مديرا لدار الكتب التي انشأها في صباه وعضوا في المجمع العلمي العربي ، وناداه ربه الى جواره يوم ١٤ ربيع الثاني سنة ١٣٣٨هـ (٥ كانون الثاني سنة ١٩٢٠م) • كان الشيخ فيلسوفاً بكل ما في

الفلسفة من معنى شريف ، لا تلتوي أخلاقه ، ولا ينزل بحال من عاداته ، متشديداً في دينه زاهداً في دنياه ، لم تبهره زخارف الحياة ، ولم يتزوج حتى لا يشغل ذهنه بزواج وأولاد ، وليكون مطلق العنان ، يسبح في الأرض متى اراد ، أو يقبع في كسر داره وسط كتبه ودفاتره • ولئن خلا من هم نفسه ، فما خلا ساعة من الاهتمام بأمر المسلمين • يجب العلم والعمل اليهم ، ولا سيما الناشئة منهم ، وفي تربية النشء كان يصرف جل وقته • وفي صلواته ولقاءاته ، قال : « عقد الشيخ صلوات مستديمة مع علماء عصره على اختلاف طبقاتهم وأديانهم وأجناسهم • صحب صديقه الأستاذ الامام محمد عبده ، كما صحب صديقه العالم المجري (غولد زيهر) اليهودي ، وكثيراً ما كانت صلته بعلماء المشرق باعثة على تخفيف حملاتهم على الاسلام ولو قليلا ، وهذا مما كان يهتم له ، ثم يهمله من أمر المستعربين من المستشرقين توفرهم على خدمة آدابنا بشرهم كتبنا النفيسة ، وكان يعاونهم فيما هم بسيله اذا استرشدوه ويفتيهم راضياً مختاراً اذا ما استفنوه فيما يتعذر وقوفهم عليه » • وقال : « وأدخل النور على كثير من الأذكياء والعلماء ، وكان منهم الذين ذرفوا على الستين ، فعالجوا التأليف والوعظ والتعليم فانتفع بهم الناس ، وكان يغضي عن كثير من النقد على رجال الدين من غير المسلمين ، ويقول : هم اقرب الناس الينا ، يعتقدون بالله واليوم الآخر وخلود النفس ، وكانت جميع الطوائف تحب عشرته • كان يتفنن في بث الافكار الصحيحة واخراج قومه من الأمية ، ويحمل خاصته ومن يصل صوته اليهم على تعليم أولادهم غرب العلم الذي يتناسب وحالتهم ، وكثيراً ما قال لنخرجن من بيوت الأغنياء أولاداً يحاربونهم بسلاح التربية الصحيحة ، وقد وفق الى ذلك • وكان من رأي الشيخ أن يتعلم كل طالب مع العلم صناعة أو تجارة أو نحو ذلك من أسباب المعاش ، ليستغني عن الناس وعن تكلف العظماء ، وتعزف نفسه من تناول الرزق من الأوقاف والتمرغ في حمأة القضاء ، ويشأ على الاستقلال ، لأن هذا العلم يطلب لذاته وفائدته في الدارين ، لا للتكسب

• عند السلاطين وعمال الحكامين »

وكان يقول عن تقدمهم اياه وعتهم له : «انه صاحب اطوار وغرائب»

يقول : « هم احرار ، ونحن لانكم افواه الناس عن التحدث بما يروقهم » •
وكان « صاحب فراسة بعيد النظر ، يصدع بالحق ، ولا يماري أحداً •
اذا دخل مجلساً ، ورأى فيه بعض الظالمين أو المخرفين ، غلب عليه
الجلال • واذا رأى من احد تمويهاً في أمر وخروجاً عن الصدد ، جبهه
وخرج عن مألوف الناس في الملاينة والملاطفة ، وهذا سر من أسرار
ازورار الناس عنه ، واتفق أن أحد أتزابه ارتقى في الدولة العثمانية حتى
أصبح الحاكم المتحكم في العهد الحميدي فقاطعه الشيخ بلا سبب ظاهر ،
فلما ألح المتوسطون في ارضائه قال : اكتبوا له : اننا لا نتعرف اليه ما دام
لا يعرف أمته » •

« وحدث أن صديقه احمد زكي باشا نال بواسطة أحمد حشمة
باشا وزير معارف مصر اعتماداً بعشرة الاف جنيه لطبع مجموعة من الكتب
العربية القديمة النادرة تبلغ فيما أذكر سبعة وعشرين كتاباً ، ومنها ما
يدخل في بضعة مجلدات ، فتباطأ زكي باشا في الطبع ومضت السنة فقيد
المبلغ على السنة المقبلة ، ولم يخرج الباشا شيئاً ، وهكذا الغي الاعتماد
باستقالة حشمة باشا ، فغضب الشيخ غضبة مضرية من عمل زكي باشا
وصارحه : انك أسأت الى الأمة العربية بابطائك في اخراج الكتب
للناس ، واذا ادعيت انك تقصد نشرها سالمة من الخطأ مشفوعة كلها
باختلاف النسخ والتعليق ، فالتأنق لا حد له ، ويكفي أن ينتفع الناس
بالموجود » • وظل الشيخ لا يكلم زكي باشا شهراً ، فان الشيخ يجب اتمام
كل عمل لساعته • وكان يستشيط غضبا من رجل يقول له ان لك عندي
كتاباً ، ولكني أنسيته في داري أو حانوتي أو مدرستي ، وكان يقول في
مثل هذه الاحوال : لعل في الكتاب أمراً مستعجلاً يستدعي أن يجاب
عليه ، وكان من عادته أنه يجيب عن الكتب التي يتناولها في الحال •
وقال في سمته وهندامه :

« كان سمت الشيخ وهندامه سمت العوام وهندامهم في عصره ومصره ، عمامته من (الأغباني) في جبة بسيطة وقفطان قطن وزنار مزدوج يخبأ فيه بعض الدراهم ، وألبسته من صنع الوطن الا النظارتين والطربوش ، ويختار من القمصان والسرراويل ما خف ثمنه ليطرحة اذا اتسخ ولا يشغل ذهنه بغسله ، وكثيراً ما يلبس قميصين وزوجين من السرراويلات وقفطانين وصدرتين وجبتين ليكون على أتم استعداد لما يطرأ على أحد الزوجين ، فينبذه في الحال ، ويستعين عنه بأخيه دون انتظار ، وقد لا يستعمل المناديل المتعارفة المعمولة من القطن فيعمد الى اتخاذ مناديل من الورق الغليظ ، وكان يظهر جسمه ولا ينظف ثيابه كثيراً خصوصاً بعد وفاة والدته » قال محمد كرد علي : ورأيت في بعض تعليقاته في ترجمة عبدالله بن الخشاب وكأنه بنقله لها ترجم نفسه ، فقال بلسان الحال :

« وهذا رجل مثلي كان الى الخمول • كان وسخ الثياب ما تأهل ولا تسرى ، له معرفة بالحديث والمنطق والفلسفة والهندسة ، بل بكل فن ، وكان يترك عمامته شهراً ولا يغسلها ويلبسها كيف اتفق ، فاذا قيل له في ذلك ، يقول : « ما استوت العمامة على رأس عاقل قط » وشيخنا رحمه الله كان من هذا الطراز ، والعبقرية على ما يظهر تكمل من صاحبها ناحية واحدة ، وتنقص منه من الناحية الأخرى بقدرها • أراد الشيخ أحد اصحابه في القاهرة خلال الحرب العظمى الأولى ان يغير جبته ، لأنها بليت بعض أطرافها ، فسكت الشيخ من اجابته • فلما الح عليه مرتين أو ثلاثاً ، أجابه « يا فلان تريدني على اقتناء جبة جديدة واهل الشام يموتون جوعاً ؟ » • وأضافه أحد أصحابه في بيروت ، وأخذ ذات يوم ثيابه بدون استئذان ، ليغسلها ، وعوضه عنها ثياباً جديدة ، فحنق الشيخ ، وما زال بمضيفه حتى أعاد اليه ثيابه ورأيته مراراً وقد تتأ مسمار أو مسامير من حذائه ، فكان يخصف من ورق الشجر يجعله في الحذاء ليتقي ضغط المسمار على رجله ، واذا قلت له في ذلك ، أجابك : ان الوقت لا يساعدني • وكان مداسه متسعاً في الشتاء ، يجرف من الأرض طيناً كثيراً

يعلق بجبته ، فيصبح وجهها شكلاً وقفهاها شكلاً آخر • وطالما تبرم بزيارته أيام المطر بعض ربات البيوت لأن طين جبته يعلق في المقعد الذي يقعد عليه ، وأنت لا تملك نفسك من الضحك إذا رأيت تصرفاته ، وتستغرب من عظيم يسخر بعادات مجتمعه الى هذا الحد ، ولا يبالي النقد ولا الملام ، ولطالما قال : أنا شاذ ، ولا أحب أن يقتدي بي أحد • « أقول : كم فيه شبه بالمرحوم العلامة محمود شكري الألوسي في زهده وعلمه وابائه وترفعه عن الوقوف باب الحكام وتبتله • فقد كان ضرورة مثله • وبسخريته بتقاليد مجتمعه يلبس ما يجد ويأكل ما يقدم اليه ، لا يتشهى ولا يتسخط • ولو اراد الدنيا لكان له منها ما فيه الوفير والننى • هما في عصر واحد • ونهلا من منبع واحد • ويلتقيان في الثقافة الاسلامية والعربية ، والحب للكتاب والكلمة وللتأريخ العربي والدفاع عن الاسلام ومحاربة الجامدين والمخرفين والقناعة والمساعدة للفقراء والمحوجين • يختلف الشيخ طاهر باطلاعه على العلوم العصرية ومعرفته للفرنسية والتركية والفارسية وكثرة الأسفار ، وفي ذلك وحده يجعل الشيخ طاهر واسع الاطلاع صادق التجربة ، ويقول الأستاذ محمد كرد علي : « ان من عادة الشيخ ان يحمل في جيوبه وعبابه بعض الدفاتر والرسائل ، بل يحمل دواة وأقلاماً ومقراضاً وسكيناً وخبوطاً وشيئاً مما يحمل من النواشف والخبز والجبين والزبد والتين والزبيب ، وفي بعضها مادة دهنية دسمة يخشى أن تسيخ كالشواء • وما داخله سمن او زيت من المآكل يضع ذلك في مقوى أو ورق غليظ ويستعمله عندما يريد ، ويطعم منه أصحابه ان احبوا • اما الدخان او السكر والربى فيحمل منه مؤونة أيام أحياناً ، وقد يطبخ من القهوة في داره مقداراً وافراً ، ويجهز منها ما يكفيه اسبوعاً حتى لا يضيع وقته بطبخها كلما أراد تناول فنجان منها ، وهكذا يشربها باردة بائنة اياماً لثلا يشغل بها كل ساعة عن مطالعته ، وكان مغرماً بالتدخين ، ومنعه الطبيب منه ، واراده على ابطاله فتعذر عليه ذلك • ومن عادة الشيخ خلال الأربعين سنة الاخيرة من حياته ان لا ينام الا اذا

صلى الصبح • يساهر أصحابه هزيعاً من الليل ، ثم يفشى حجرتة يطالع
 ويؤلف ، وقد لا يراعي أوقات أحبابه ، فيوقظهم بعد الهزيع الثاني من
 منامهم ليسهر عندهم • وكان يحب السباحة والعموم ، ويهوى السير على
 الأقدام للتريض ، ولطالما قطع عشرات الأميال بين المدن والقرى والجبال
 والأودية سائراً على قدميه • ومن أغرب أطواره أنه اذا استعدت نفسه
 للقلولة ، قال وهو وسط اخوانه يتذاكرون ويتدارسون ، يقيل وهو قاعد
 ويضع على وجهه منديلاً ، وربما أتم اغفائه عند انجاز المذاكرة • ولم يكن
 يحب أن يطيل الدرس أكثر من نصف ساعة • ويقضي الساعات في
 مطالعته • كان الشيخ لا يعرف الهجر ولا يشتم شتماً ينبو عن حد الأدب
 مع حدة فيه ظاهرة • وكان اذا صفا ذهنه تفصح عبارته في محاضراته ، والا
 فيعتبرها شيء من اللكنة المغربية ممزوجة بالعامية الدمشقية ، وله تعبيرات
 خاصة واساليب في مصطلحاته ، ونبرته لطيفة تحلوا من فمه ، يمزج
 احماضاً من الجد وما أحصي عليه ان نطق يوماً بفحش أو هراء أو استعمل
 ما ينافي الأدب والمروءة « أغرى به بعض لداته وهو في (دمر) يستظل
 في ظل شجرة يطالع ، أغروا اسرائيلية جميلة أن تستدعيه اليهم وتداعبه ،
 وجعلوا لها مالا • فلما أبصر بها قال لها : ايه بارك الله لك أتاكليين قمر
 الدين يا قمر الدنيا ؟ وناولها قطعة ، وبهذه المداعبة اللطيفة صرفها عنه ،
 وسأله أحد الطلبة عن حكم التقييل ، فاجابه : هذا موضوع لا أعرفه سل
 غيري » وسأله احد الفقهاء ممن الفوا كتباً دينية حشوها بما لا يقره الشرع
 الصحيح ولا العقل الصريح : « كيف تجد كتبي ، يا شيخ طاهر ؟ فأجابه
 في الحال متخلصاً أجمل تخلص : اشتغلوا ونحن نشغل ، لنرى لمن تكون
 النتيجة ! » • وكان يكره المتشدين من المؤلفين والكتابين ، خصوصاً في
 الدين والسياسة ، بل يكره كل من يقول بغير علم ويحاسب الذين يرمون
 الكلام على عواهنه حساباً غير يسير ويسميهم الحشوية • ومن يطلع على
 مختلف التفاسير يجد أكثرها قد حشي فيها من الاساطير والخرافات
 والروايات التي تخالف النقل والعقل ، كل ذلك لأن النقد عندهم ضعيف ،

أو لا يريدون أن يتحملوا تبعه تفضيده، وحصل مثل ذلك في كتب التاريخ والادب والتراجم والأخبار • ولو ردوا اخبارهم ورواياتهم الى الشرع والى العقل السليم ، لما وقعوا في تلك الأخبار ، وهذا ابن سعد في طبقاته على جلالة قدره حين يروي عن أينا آدم ، يقص أساطير في بسطة جسمه لا يقبلها ذو حجا ، وأخبار فلان تلب أنسى لأنه شرب من بشر كذا وعاد رجلا وتزوج من قبيلة بني فلان • وعلان تزوج بالجن ، وفلان قتله الجن وزيد بن أرقم عاش مئتي سنة ، وكتاب الرحلات والجغرافيين والرحالين يروون عن المخلوقات عجائب لا وجود لها أخذوها عن رواها لهم زيادة في الاغراب واثارة الترقب والتعجب ، قال « ومذهبه تقوية القلوب وازالة غشاء الأوهام عن الأحلام ، ويحاط أبدأ فينسب كل قول لقائله في أحاديثه وكتبه ، وغايته نشر الفكر والخلاص بسلام من تبعته ، وكان يرفق بالضعفاء ، ويرفع من قدر الصغاليك ، ويحمل على العظماء وترفيع عن ملاستهم ، وكان يقول « ان من الحكمة الا تجعلوا بينكم وبين العامة حجاباً كثيفاً ، واذا أحببتم هدايتهم والاتفاع بهم عليكم ان تقتفوهم أن ليس بينكم وبينهم من الدرجات الا قليل ، يوشكون هم اذا اشتغلوا قليلا أن يساموكم أو يفوقوكم • فهو بهذا كالطبيب الحاذق يعطي المريض الجرعة التي تناسبه ، ويتدرج بالمقويات درجة درجة • وهكذا كان مع كل طالب ومستفيد •

كان يكره الاستعمار كرهاً شديداً ، ويحب المدنية ، ويحث على تعلم لغات الغرب ، ويكره السياسة العثمانية ، ويقول : ان استيلاء الترك على أرض العرب أضر بها وازال مدنيتهها وغير أخلاقها ، ولم يكن ينكر على الأتراك أدبهم في عشرتهم ، ونظامهم في بيوتهم وحسن معاملتهم لكبرائهم • وكان يحب من الأمم الحديثة كل أمة ترفق بالمسلمين ، ويحب من الناس من يصرف في خدمة المسائل العامة شيئاً من وقته وماله ، وكان يقول وهو على فراش الموت : « عدوا رجالكم واغفروا لهم بعض زلاتهم ، وعضوا عليهم بالنواجذ ، لتستفيد الأمة منهم ، ولا تنفروهم لئلا يزهدوا في

خدمتكم • وشبه الاستاذ الرئيس شيخه بالمهاتما غاندي الفيلسوف الهندي والمصلح الكبير ، وعدد أوجه الشبه : الرفق بالضعفاء ، والشجاعة وكره الاستعمار ، وحب العلم والرغبة في نشره ، والعمل على مبدأ تفاني الفرد أمام المصلحة العامة وفي سبيل الجماعة ، ولا عبرة الا للعمل الصالح ، وان العدل يجب أن يشمل المواطنين من كل جنس وملة •

وعن تأليفه ورسائله قال : « المؤلفات التي وضعها الشيخ طاهر والتي تيسر له طبعها لا تتناسب مع علمه وشهرته ، وأحسب أن انشغاله في التدريس والارشاد والتفنيش واتمائه الى الجمعيات والأسفار ، كل هذه أمور تشغل صاحبها عن الانقطاع للتأليف ، وبعض مؤلفاته أخرجها في صباه فهي لا تأتلف مع النضج الذي حصل له مع الأيام •

ومن مؤلفاته المطبوعة : (الجواهر الكلامية في العقائد الاسلامية) ، و (منية الأذكياء في قصص الأنبياء) ، و (مد الراحة الى أخذ المساحة) ، و (مدخل الطلاب الى فن الحساب) ، و (الفوائد الجسام في معرفة خواص الاجسام) ، ورسالة في النحو ، وأخرى في البديع ، وثالثة في البيان ، ورابعة في العروض ، وكتاب (تسهيل المجاز الى فن المعنى والألغاز) ، وشرح ديوان خطب ابن نباتة ، ومن كتبه (ارشاد الالباء الى تعليم ألف باء) ، ورسالة في الخطوط القديمة والحديثة ، و (البيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن) ، و (التقريب الى أصول التعريب) ، و (توجيه النظر الى علم الأثر) ، و (مختصر ادب الكاتب) لابن قتيبة ، و (مختصر أمثال الميداني) ، و (مختصر البيان والتبيين) للجاحظ •

اما المخطوط فنتفسيره الكبير ، ويدخل في أربعة مجلدات محفوظة في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، ومن المخطوط والمحفوظ كتابته وجزائره ، وفيها خلاصة مما طالعه من الأسفار وعرض له من الأفكار ، وله من المخطوطات كتاب (الامام بأصول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام) ، و (مقاصد الشرع) وقد احيا بالطبع عشرات من الكتب منها : (ارشاد القاصدين) لابن صاعد الانصاري و (روضة العقلاء) لابن حبان البستي ، و

(الادب والمروءة) لصالح بن جناح ، و (الادب الصغير) لابن المقفع ،
و (أمنية الالمعي) و (تفسير الثشأتين) للراغب الاصفهاني ، و (الفوز الاكبر)
لمسكويه ، الى غير ذلك من مقالاته في المجلات العلمية واملاءات جملة
كتبت بتواقيع مستعارة ، الف الشيخ معظم هذه الكتب بحسب الدواعي
خصوصاً مبادئ العلوم في زمن كانت فيه الكتب المدرسية في حكم المعدوم ،
وذلك لينهض بالتعليم الابتدائي ، ويقدر الاستاذ محمد كرد علي من كتب
استاذة الشيخ طاهر الجزائري اربعة كتب وهي : (شرح خطب ابن
نباتة) و (ارشاد الالباء) و (التبيان والتقريب) و (توجيه النظر) ففيها لباب
علمه وأثر من آثار قريحته تجلي فيها بحثه وغوصه على المسائل الدقيقة قل
ان تسنى لغيره ممن عاصروه الوصول اليها قال : وبلغني انه دون بعض
الوقائع التي شهدا ولم نعر عليها بين اوراقه التي سرق بعضها وقت
انتقاله من مصر الى الشام ، ويقيني ان الرجل لو وفق الى طابعين اغنياء
فضلاء يحملونه على العمل على ما خص به من النشاط وشدة الحركة
لأنتجت قريحته اكثر مما أنتجت في الفروع العلمية المختلفة التي اخذها على
نفسه في المسارعة لأنهاض امته دعواه الى أن يكتفي بما يتهيأ له وضعه
وتأليفه ناظراً فيه الى مصلحة الناس لا الى مصلحته الخاصة »

الشيخ سليم البخاري

١٣٤٧ - ١٢٦٨

١٩٢٨ - ١٨٥١

من الشيوخ الاعلام الذين اخذ عنهم وتأثر بهم وانتفع بعلمهم محمد كرد علي هو الشيخ سليم البخاري الدمشقي : وكان من طلائع الاصلاح الديني ورواد النهضة الحديثة في سورية ومن المناهضين للجمود والداعين الى التجديد ، ولد في دمشق وتوفي فيها وكان ابوه من ضباط الدرك يعرف بالداية الصغير ، وتعلم الشيخ سليم في المدارس التركية ثم قرأ علوم الدين واللغة والأدب على علماء عصره وتولى منصب الافتاء في الفيلق الخامس من فيالق الجيش العثماني واستمر نحو ربع قرن في خدمة الجيش وجاهر بأرائه في الإصلاح الديني والسياسي وكان مهيبا وقورا ، والى كتاب (حل الرموز في عقائد الدروز) ورسالة في (آداب البحث والمناظرة) وجمع مكتبة حافلة بالمخطوطات النادرة ، ولقي اشد انواع الاذى في اواخر العهد العثماني فسجن وسبق الى ديوان الحرب العرفي في عاليه والحق به احب ابنائه اليه جلال الدين حيث حكم عليه بالشنق فقتل شهيدا مع شهداء سوريا من قبل محكمة السفاح^(١) سنة ١٩١٦ اما الشيخ فبعد ان برأت المحكمة ساحته من التهمة نفي هو واسرته الى اقاصي الانضول ، وبعد زوال حكم العثمانيين رجع الى سوريا وعين ايام الحكم العربي عضواً في المجمع العلمي العربي سنة ١٩٢١ وتولى بعد ذلك رئاسة العلماء ، ثم اعتزل معتكفا ولم ينقطع عن التدريس والارشاد والجهر بالاراء التجديدية والاصلاحية رحمه الله .

(١) الاعلام ٣ : ١٧٦ - ١٧٧ ، معجم المؤلفين ٤ : ٢٤٣ - ٢٤٤ .

مُحَدِّثٌ عَلَى فِي الصَّحَافَةِ

الاستاذ محمد كرد علي من الرواد الاوائل الذين عبدوا طريق الصحافة العربية في سورية ، فقد كان أول من أصدر صحيفة عربية يومية في دمشق ، هي (المقتبس) ، أصدرها في سنة ١٩٠٨م على أثر عودته من مصر بعد اعلان الدستور ، ظنا منه أن عهد الاستبداد قد زال ، وأن فجرًا جديدًا قد بزغ على الامة العربية ، قدم الى الشام بروح المتفائل فأصدر المقتبس اليومية بجانب المقتبس الشهرية ويرتقى تأريخ اشتغاله بالصحافة الى سن مبكرة من سني عمره ، فقد ترك الوظيفة في قلم الامور الاجنبية سنة ١٨٩٨م بعد أن سلخ فيها ست سنوات وما كان عمره يوم تركها ليزيد على اثنتين وعشرين سنة ، ومارس العمل في الصحافة التي أحبها منذ نعومة أظفاره ، كان دؤوبًا على قراءة الصحف العربية المصرية ، ومتابعة قراءة الصحف التركية والفرنسية ، وحين وجد من نفسه القدرة على الكتابة طفق يرسل الصحف ، ويكتب المقالات بأسمه ، ولم تكن كتاباته الا كما قال فيها : لم تصل الى أكثر من أقوال مبتدئ • ووصف نفسه فقال : « لم أكن يومئذ أكثر من طائر لا زغب له أمام بواشق كاسرة » ، وقال : « خرجت الى ميدان العمل اعزل ، لا أحسن الحرب ولا الضرب » وما ان مشيت خطوات قليلة حتى وقف المثبطون في طريقي يحاولون صرفي عما عقدت العزم على التمحض له « وما خرج ما نشرته لاول نشأتي عن مقالات لم تصل الى أكثر من أقوال مبتدئ ، وكان جمهور الناقدین من المشايخ غالبًا يتطلون لان يكونوا المهيمين على كل ما له اتصال بالدين والدينا » ♦

بدأ يقرأ الجرائد العربية ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، اشترك في جريدتين : «بيروت» الاسبوعية ، و «لسان الحال» وكانت تصدر مرتين في الاسبوع بالتركية والعربية ، وعربيتها مثال للركاكة ولضعف التعبير ، وأسلوبها غث أقرب الى العامية ، وتعنى بنشر الاوامر الرسمية والاماديح التي ينبرع بها المتزلفون للباب العالي ولجناب الوالي • أولع بمطالعة (لسان الحال) ، لان فيها أخبارا طريفة معربة عن الانكليزية ، وفيها مناقشات ومساجلات وادبيات • واشترك وهو في السنة الثانية من المدرسة الثانوية في جريدة فرنسية أسبوعية تصدر في باريز اسمها (صديق الريف) ، وكان أهم مباحثها الزراعة وما اليها ، تحبب السكنى في الارياف لسكان المدن ، وفيها من كل فن فشغف بدرسها ، قال : « وكنت اقرأها قراءة تدبر ، لا قراءة تفكك ، وقد أتصفحها مرتين وأكثر حتى يجيء العدد الجديد » • وكانت لوالده مزرعة يستغلها وطالما قضى الاستاذ عطلة المدرسة فيها ، فكانت هذه الجريدة تحبب اليه السكنى في الريف • وكان يطالع الصحف التركية الصادرة عن الاستانة ، ولاسيما المجلات الادبية والتاريخية ، وربما قرأ بعض المقالات التي تروقه أكثر من مرة ، وخاصة مقالات كبار الكتاب المفكرين في السياسة والاجتماع ، وما بلغ السادسة عشرة حتى أخذ يكتب أخبارا ومقالات في الجرائد • هذه البداية والغرس اليانع أثمر لصاحبه غراما وولعا ملحا بالكتابة في الجرائد المحلية وغير المحلية ، فحرر في جريدة (الشام) لصاحبها «مصطفى واصف الشقلى» ، وكان مديرا للطبعة الولاية كما كان مديرا لادارة اطفاء حريق الولاية ، وكانت الجريدة أسبوعية ، وصاحبها ما كان يحسن العربية ، فاستعان بصهره الطناحي وبعديق له هو اسماعيل النابلسي ، وكلاهما يقضض عظام سيبويه في السطر الواحد مرات ومرات ، ولا هم لصاحبها الا التقرب للوالى ، جعل جريدته وسيلة للتقدم واحتجان المنافع ، عهد صاحبها بتحريرها الى الشاب الناشئ (محمد كرد علي) ، فشرع يترجم لها من التركية والفرنسية ، وكان أشد ما يؤذيه وينغص عليه عمله رقابة المدير ، يقول عن هذه الرقابة : «وأشد ما كان يوءلنى كابوس المراقبة ، وما ألقاه من الغيظ ، حتى يوءذن للجريدة بالصبغ ، وما كان مراقب

الجريدة غير صاحبها ، وهو من عمال الحكومة ومن أعرف الناس بما يرضيها وما يغيظها ، وغاية ما يتوخى أن يرضى الوالى عنه أبداً ، والصعوبة في المراقبة أنها لا قاعدة لها يرجع إليها ، وليس لها قانون ثابت معروف ، وربما كتبت القطعة تظن أنها لا تروق المراقب فيقرأها ويستحسنها ، وقد تكتب غيرها وأنت لا ترى فيها ما يقال ، فتحذف فلا قاعدة في المراقبة غير ذوق المراقب وهواه ، ولا قانون الا ما يستمده من روح الحكومة الاستبدادية» وأكثر ما يجب أن يتوقاه الكاتب ذكر السلطان من قريب أو بعيد ، اللهم الا تديح المدح والتسييح بانعامه وافضاله على الرعية ، وكذلك يجب أن يتوقى مس ولاته وقادة جيشه وعماله ، ولا يجوز له أن يذكرهم الا بالاطراء والمدح لمقدرتهم واخلاصهم ، ولو كانوا من أفسق خلق الله وأكثرهم دناءة ، لان مس عمال السلطان مس للسلطان نفسه • هذا هو منطق الاستبداد والمستبدين ، وربما وصل بالاستاذ كرد علي الضيق من مراقبة المدير أن يترك العمل في هذه الجريدة التي كان يضايقه مديرها ، فيحذف ما شاء ويبقى ما شاء ، وقد يحذف ما يكون منقولاً من صحف الاستانه ، فاذا سأله عن السبب قال : «ان هواء سورية غير هواء فروع عاصمة المملكة» • وكان يسمعه تمحكات وتعليقات ما أنزل الله بها من سلطان ، وكثيراً ما حدثته نفسه أن يستقيل من تحرير هذه الجريدة ، غير أن أستاذه المبارك كان يهدئه ، ويقول له :

« ان تحريرك لها بمثابة « المشق » يمشق عليه الاولاد لتحسين خطهم » •

وعلى هذا بقى ثلاث سنوات فى تحرير (الشام) اتصل فى أثنائها بمجلة المقتطف المصرية ، وكان صاحبها قد شكاً لشكيب أرسلان انفراداً بتحرير المجلة ، وكان حجمها لايزيد يومئذ على مئة صفحة ، واحتاج الى من يعاونه ، فدلّه على الاستاذ محمد كرد علي • وبكتابته فى المقتطف ، فاضت شهرته ، وامتدت الى آفاق واسعة والى أقطار بعيدة ، وكان اشتغاله بتحرير (الشام) أكسبه القدرة على عادة البداهة والارتجال ، وصارت له مرانة على الكتابة من غير روية أو ابطاء اكتسب هذه العادة بسبب الرقابة الشديدة التي كان يفرضها مدير الجريدة ، وما كان يشطب لابد ان يملأ فراغه على وجه السرعة ومن غير

إبطاء ، فأكسبه هذا الوضع القدرة الكافية على الاملاء بدهاء وارتجالا ، وأفاده هذا الصراع بين الحرية والتقييد بقدر ما كان يضايقه قدرة على ملاحظة ما يسوغ وما لا يسوغ لدى الحكام وما يروق ولا يروق للقراء وما يندسب الشهرة وما يزعزعها • تلك السنوات الثلاث كانت سني تمرين وتدريب ، تمرس فيها قلمه ، ولانت له التعابير ، فراح يتخير الكلمة الطيبة • فلما انضم الى تحرير المقتطف ، كان مجهزا بقدرات كافية أن تكسبه الفوز •

أول مقالة نشرها في مجلة المقتطف كان موضوعها (أصل الوهابية) ، فأتهمته السلطة بأنه وهابي ، وكان هذا النعت يلصق بصحاب الافكار النيرة ومن يقول بالسلفية الاسلامية ، وكانها جريمة منكرة يعاقب عليها من يدين بها أو يبشر بها وكان من يقول بالاصلاح والتجديد ينفي أو يسجن وينحى عن وظيفته ويحارب في رزقه وحرية •

ومحمد بن عبد الوهاب لم يتدع مذهباً ، وانما دعا الى التجديد والاخذ بما كان عليه سلف الامة الاسلامية ، ولذلك سمي أتباعه بالسلفيين ، وليس هناك مذهب وهابي ، وانما الوهابيون حنبليون ، يقلدون الامام المجاهد أحمد بن حنبل ، وكانت الحكومة العثمانية تصم من يكتب في الوهابية أو يقول بها ، تصمه بالضلال والمروق • ومنشأ هذه الدعايات الباطلة ، تخوف الدولة العثمانية من امتداد نفوذ سلطان نجد ، وهو أمير عربي له مطامع توسعية وخشيتها ان تجتمع العرب حوله ، وهي في رعب دائم من تنبه الامة العربية فكانت تتخذ كل الوسائل لمحاربة كل فكرة ترمى الى يقظة العرب وتجمعهم ، اصطنعت بعض شياخ الطرق وأشباه الفقهاء في سورية والحجاز والعراق واليمن لاثارة الشنوس ضد هذه الدعوة وضد كل من يدعو الى التجديد مدعين الغيرة على الدين الحنيف ، وانما هم يحاربون الدين القويم بجهلهم وجمودهم • والغريب أنه كتب مقالة في (أصل الزيدية) على غرار المقالة التي درس فيها الوهابية ، فلم يتهم بالزيدية ، وظل خصومه ينزونه بالوهابية ، ويحرضون السلطة عليه ، وما كان غرضه الاتجار بما يكتب ، ولا التقرب من (صاحب نجد) أو غيره ، وجاءته الدعوات غير مرة من (آل السعود) ، فلم يلب واحدة

منها ، وأستغفى من الرحلة ، قال : «خصوصا ونفسي زاهده في الضيافات
والخلع والعطايا» .

دخل مصر سنة ١٩٠١م قاصدا زيارتها ، وتعرف معالمها وآثارها ،
ومشاهدة رجالها وعمرانها ؛ وكان ينوى أن يقضى فيها أياما ، ثم يزمع
السفر الى (باريز) للدرس والاطلاع ، فعرض عليه صاحب جريدة الرائد
المصري بواسطة صديقه العلامة السيد محمد رشيد رضا العمل في جريدته ،
وهي تصدر مرتين في الاسبوع ، فأعذر ، لازمعه السفر الى باريز ، وعرضت
له أمور في دمشق اضطرته أن يفضل البقاء على مواصلة السفر الى فرنسة ،
وقبل رئاسة تحرير (الرائد المصري) لصاحبها نقولا شحاذه ، وهو لبناني من
زحلة اتخذ من جريدته أداة ووسيلة للنيل من أصحاب (المقطم) ، الذين
كانوا يسيرون في ركاب المعتمد البريطاني ، وكان يعرف دخائل السياسة
المصرية ، وبضاعته من العربية ضعيفة (كان كل ساعة يدق عنق سيويه) ،
فقضى عشرة أشهر في تحرير الرائد . فلما انتشر وباء (الكوليرا) في القطر
المصري سنة ١٩٠٢م ، رجع الى دمشق فرارا من الوباء ، وفي سنة ١٩٠٥م عاد
الى مصر ، وفي عزمه أن يصدر مجلة شهرية بأسم (المقتبس) ، غايتها نشر
العلوم والآداب ، وصدر العدد الاول منها ، فتلقاه القراء بشغف ، ورحبت
الصحافة بالمجلة ، واكتسب صاحبها شهرة على شهرته ، واتفق مع صاحب
جريدة (الظاهر) اليومية أن يحرق فيها قسم المترجمات ، فطفق يترجم لها
من الصحف الفرنسية والتركية ، وينقل البرقيات من مصادرها ، ويحرق
المقالات السياسية والاجتماعية والادبية ، ومضى شهران فأسندت اليه رئاسة
تحرير (الظاهر) ، وخرج العدد الثاني من المقتبس ، فأطرتة (الموئيد) وأنت
على صاحبه محمد كرد على ، فساعد هذا التقرير من المؤيد على انتشار
المقتبس ، لان الموئيد كان مقروءا «وكان صوته يومئذ أعلى الاصوات» كما
يقول الاستاذ في مذكراته ، وحاول الشيخ على يوسف أن يعهد اليه رئاسة
تحرير جريدته (الموئيد) فأعذر ، لارتباطه بجريدة الظاهر ، قال «وكان من
أهم العوامل التي دعيتي الى الالباء كون (مسعود) و(عوض) من أصدقائي ،

وأعرف أن علي يديهما قام المويد ، وأن لهما الفضل في انشائه ، وهما على غاية الكفاية علما وأخلاقا ، وكيف يجوز أن رأسهما وماضيهما في المويد ماضيهما ، وهما مصريان ، وأعرف مني بما ينفع جريدة مصرية ، وربما كان دخولي (المويد) على هذه الصورة مقدمة لاجراجهما منه على ما وقع في نفسي واستتجته من كلام صاحبها ، وأنا ما ضاق علي العيش في مصر حتى أكون علة لقطع رزق صاحبين عزيزين ما شهدت منهما الا اللطف ، وهما أولى مني بهذه الخدمة » ♦

وأغلقت (الظاهر) لافلاس صاحبها ، فأشتغل بالترجمة لصاحب (مسامرات الشعب) ، وترجم له روايتين كبيرتين في مدى ثلاثة أشهر ، وعلى أثرها تولى رئاسة تحرير (المويد) ، وفي جريدة المويد قال : «عرفت سربا من المصريين ، وكان تحريري فيه الدعامة الثانية في شهرتي بعد مجلة المقتطف ، وبه صار لي أصدقاء رأوا اخلاصي في خدمة مصر ، فصاروا يفتحون لي قلوبهم ، ويطلعوني على ما لا يطلع عليه الا خاصة الخاصة منهم ، وقد حاربت مع المحاربين : حاربت سياسة مستشار المعارف (دنلوب) ، وانتقدت ما كان يرمى اليه من تأخير المعارف ، ولاسيما اللغة العربية» ، وقال : «كان الشيخ علي يوسف في عهده من أعظم الكتاب الذين قلبوا المسألة المصرية على وجوهها كل مقلب ، وكان ذا بديهة مواتية وعارضة قوية ، شهدته يرد على (لورد كرومر) عميد انكلترا في وادي النيل رده المشهور الذي جعل منه كتابا بعد ، وقد نقلت له عن الفرنسية النصوص اللازمة» ، وأستمر يعمل في المويد الى سنة ١٩٠٨م حين أعلن الدستور ، فعاد الى دمشق ، وأنشأ مطبعة ، وأصدر (المقتبس اليومي) كما مر ذكره مع المقتبس الشهري الادبي والعلمي بالاشتراك مع شكري العسلي^(١) . ولما عطلت المقتبس عام ١٩١٣ اصدر بدلا منها جريدة القبس يقول : « وباستقلالتي بجريدة يومية ، وكنت اكتب في مثل هذه الصحف بأسم غيري ، عاضدني بعض العلماء النورين والشبان المثقفين ، وقاومني بعض المشايخ (١) شكري العسلي ، رحمه الله ، من الشهداء الذين أعدهم جمال السفاح سنة ١٩١٦ .

الجامدين وسراق العمال المستبدين ، وعادى (المقتبس) كل مضر مهما كان خاله
وشأنه ، غير خائف ولا مجمم ، وما كان الاهالى والحكام يهدون مثل هذا
النقد وهذه الحرية في الكتابة ، ولا أنكر أن التيار كان يأخذني أحيانا ويشط
بي القلم على غير ارادتي ، ولكني لم الجأ الى الطعن الشخصي بأحد ، بل كانت
حملة المطاعن موجهة للاعمال النابية عن حد القوانين والدساتير ، ولم ير
الحكام وجها لتقليم أظافرى واخفات صوتي أفضل من الالتجاء الى المحاكم
بقيمون عليّ القضايا ، فكنت أصبر عليهم ، وكانت نزاهة القضاء تشجعي على
المضى في طريقي ، وكان القضاة الاتراك والعرب على السواء ينصفونني كل
الانصاف» • وتتلخص خطته في (المقتبس) الشهرية بنشر البحوث العلمية
والادبية والتأريخية والاجتماعية والتراجم للاعلام ، من سلفنا الصالح ، وكان
ينقل من المجالات الغربية ولاسيما ما كان يخص الحضارة والاختراع ، ويعرب
بعض الروايات عن الفرنسية ، كما كان ينشر المخطوطات العربية القديمة
النادرة ، فجمع بذلك بين القديم والحديث ، وترجم خلاصات عن الصحف
والاراء الغربية ، وقد صدر من مجلة «المقتبس» ثمانية مجلدات ، وعددان من
المجلد التاسع ، وانقطع صدورها في الحرب العامة الاولى ، ولم تعد الى الصدور ،
صدر منها ثلاثة مجلدات في مصر ، وباقي اعدادها صدر في دمشق ، وتعد
من أنفس ما تحتفظ به المكتبة العربية • منها مجموعة كاملة في مكتبة المجمع
ودار الكتب في الجمهورية العربية المتحدة ، ونسخة في دار الامار ، ونسخ
متفرقة وكاملة لدى أصحاب المكتبات الخاصة ، وتعد من المجالات العربية التي
صبت عنايتها على علوم اللغة والادب والتأريخ والرحلات والمخطوطات النادرة •
أما (المقتبس) اليومي ، فأستمر صدوره الى أن وضعت الحرب العالمية الاولى
اوزارها ، وفي سبب اغلاقها قال الاستاذ محمد كرد علي (سلمت
تحرير الجريدة بعد وفاة أخي أحمد ، وأنا في الوزارة ، الى محرر أراد أن
يخدم بعض الاحزاب على حسابي وبلسان جريدتي ، وأطال لسانه في بعض
زملائي الوزراء ، فأمرت بأغلاقها) وكان ذلك ختام حياته الصحفية ، ولم
يكتب بعدها في غير المجالات العلمية واتسع وقته لينشر ما كان أعد من التأليف ،

فقام بطبعها في مصر والشام • والاستاذ محمد كرد علي ، كما قال عن الصحافة ، لقي شرا كثيرا وخيرا قليلا ، فقد أغضب بأرائه الإصلاحية ونقده الجريء للولاة والموظفين والقضاة وأرباب السلطان ، فجر عليه قلمه بلاء ما بعده بلاء ، وأثار عليه حسد الحاسدين ، ممن تزيوا بزي العلم ، وتظاهروا بالمعرفة ، فكان شرهم وأذاهم لا يقلان عن ملاحقة الموظفين المستبدين ، وأرثت مقالته في (الوهابية) غضب السلطة ، وحركت المشايخ والجامدين فراحوا يحرشون الوالى عليه ، حتى اضطروا أن يتخفى في قرى الغوطة ، يعيش في خوف وذعر ، يتنقل من قرية الى أخرى ، يكمن في النهار ويظهر في الليل ، ليواصل سفره ، متخفيا عن العيون ، ومتربحا عيون الوالى وعسسه • وقد وصف صديقه الامير شكيب أرسلان هذه الفترة من حياة التخفي والهزيمة الاولى بقصيدة طويلة ، مداعبا تارة ، وواصفا عهد الاستبداد تارة أخرى ، آثرت بعثها برمتها ، لانها لم تشر الا في الجزء السادس من كتابه (خطط الشام) ، وهذا نصها :

ألا قل لمن في الدجى لم ينم	طلاب المعالى سمير الالم
ومن أرقته دواعي الهوى	فدون الذى أرقته الحكم
فكم في الزوايا تخبا فتي	طريد الكتاب شريد القلم
يرى الارض ضيقا كشق اليراع	ويهوى على ذا الوجود العدم
وكم ذا (بجسرين) من ليلة	على مثل جمر الغضا في الضرم
تمنى الاديب بها ندحة	ولو بات يرعى هناك الغنم
وكم مروة تحت جناح الظلام	كسر بصدر الاريب انكتم
يخاف بها حركات الغصون	ويخشى النسيم اذا ما نسّم
وان تشد ورقاء في أيكة	توءرقه في صوتها والغمم
وكم بات للنجم يرعى اذا	اديم السما بالنجوم اسم
وطال به الليل حتى غدا	يظن عمود الصباح انحطم
ومن ذعره خال أن النجو	م تهدي الى مسكه عن أمم
اذا ما السماك بدا رامحاً	توهمه نحوه قد هجم

ولولا الدجى لم يتم النجنا
ولله در القرى اذ خفته
و «جسرين» «زبدین» و «الاشعري»
ونحو «المليحة» رام الخفا
ديار الى أهلها غدره
ولو شك رقوا لاحواله
ليالي كانون في الاربعين
بأرض تراها سماء وماء
يجول وقد صار مثل الخيال
وفوق الخدود كلون البهار
وفي كل يوم سؤال وبحث
وقد كان في كبسهم بيته
فكانت على كتبه غارة
وقالوا سينفى الى رودس ،
وقد قيل « فزان » من دونه
وبعض بسجن عليه قضى
و (كرد علي) غدا عبرة
فيا (كرد) ، لا تحزنك الخطوب
ومن رام ان يتعاطى البيان
فذي حرفة القول حريفة
وكم نكتة اعقت نكة
ومن بالكتابة أبدى هوى
فيا (كرد) صبرا على محنة
وصبرا على ورقات لها
وواها لباقات زهر غدوت
أزاهر تسهر في جمعها

وقد أمكن الظلم لولا الظلم
فما بالسهولة يخفى العلم
ديار بها قد أوى واعتصم
وكم بالمليحة من متهم
وأواه فيها الوفا والكرم
طريدا يعاني الجوى والسقم
وبرد المعشيات أغلى الفحم
ففوق السواقى وتحت الديم
ودق ، ولو لاح لم يقتحم
وتحت المآقي كلون القتم
وأنى تولى ؟ وأين انهزم ؟
يجلق قال وقيل عمم
كغارات عرب الصفا بالعمم
وقالوا سيجزي بما قد جرم
وتلك سموم وتلك الحمم
وبعض بضرب عليه حكم
ففات ، ومنه الرجاء انصرم
فان الهموم بقدر الهمم
توقع ان يتلى بالنقم
وكم ادركت من لبيب وكم
وكم من كلام لقلب كلم
فان الكآبة منها القسم
فكم محنة شيت من لم
عيون المعاني بكين بدم
لها جامعا ، يا أخي ، من قدم
فلا غرو ان فاح عرف فم

وما نم الا بنشر زكي وعرف يفوق عرار الاكم
فقولوا لواش بكرد علي نثرت الثنا حين حاولت ذم

لقد كانت الصحافة مدرسة كبرى للاستاذ محمد كرد علي ، فاءت
عليه بالمعرفة والدرس العملي ، وعادت عليه بالتعرف على كبار الادباء والكتاب
وأرباب الصحافة في مصر يومئذ ، وكثرتهم الكاثرة بن أبناء سورية ، وفي
زيارته الاولى لمصر ١٩٠١م طبع كتابا للاستاذ (عبدالحميد الزهراوي) ،
فعمل الجواسيس من هذه الرسالة موضوعا يتقربون به الي ولاية الامور في
الشام ، فكان طابع الرسالة كمؤلفها من المغضوب عليهم ، واتخذت السلطة
الاجراءات التعسفية ضده كشيرك للمؤلف ، فاضطر أن يبقى في القاهرة
ريثما تسكن العاصفة ، برغم أن الرسالة في الفقه والتصوف ، وعادت هذه
الاقامة الاجبارية عليه بالنفع ، وكانت فاتحة عمله الصحفي في مصر ، وفيها
تعرف على جهابذة العلماء والكتاب ، وعلى رأسهم الامام الشيخ (محمد عبده) *
قال في مذكراته « وكنت أحضر دروسه في التفسير مرتين في الاسبوع في
الرواق العباسي في (الأزهر) ، وأغشى مجلسه الخاص في داره بعين
شمس مرة في الاسبوع * كان واسطة التعريف السيد محمد رشيد رضا ،
ولقيت من الشيخ عبده أول تشرفي به اطراء وعطفا ، وقدمني الي جماعته »
وأثنى علي مقال كان كتبه عن مشروع السكة الحديد الحجازية ، فكان
تعريفه للمقال وثناؤه علي أفكاره خير تكريم في مثل هذا اللقاء في حفل
حاشد بالعلماء والكبراء ، فتعرف الي جماعة ما كان يتيسر له أن يعرفهم
وينال ثقتهم وصدقاتهم في أشهر طويلة ، وكانت ندوة الشيخ محمد عبده
أعظم واسطة لمعرفة طبقات القاهرة والبلاد العربية ، اذ كانت تضم العدد
الكبير من مختلف اعيان الامة وعلمائها وقضاتها وساستها ، وكان الفضل في
تقديمه الي رجالات مصر الي رجلين في رحلته الاولى ، هما : رفيق العظم ،
والسيد محمد رشيد رضا ، قال : « وكان من أعظم أمانتي النفس ان اتعرف
الي علماء القطر وأدبائه ، فقررت العين منهم بنفر لم أشهد مثلهم في أرض

الشم ، ولا سيما جماعة الشيخ محمد عبده وجماعة دار العلوم من أمثال :
محمد المهدي ، وأحمد الأسكندري ، ومحمد الخضري ، وعبدالعزیز
شاويش ، وحسن توفيق العدل ، وسلطان محمد ، وحفني ناصيف ، وأحمد
ابراهيم ، وحسن منصور ، ومحمد دياب ، ومحمد عبدالمطلب • ويختلف
اليهم شاعر النيل حافظ ابراهيم • وكان مجلسهم ينعقد في مقهى حديقة
الازبكية • قال : (ولا تسئل عن روعة ذلك المجلس • ومجلسهم في
الحقيقة مجمع علمي في مقهى نسمع فيه من كل فن خبرا » •

وقال : « هذا عدا من كان يختلف الى هذا المقهى من رجال العلم
والادب وكان مجيئهم على غير اطراد أمثال : علي بهجة ، واسماعيل رأفت ،
ومصطفى لطفي المنفلوطي ، ومحمد لطفي جمعة ، وأحمد فتاح ، وامام
العبد • ويجيء الى هذا المجلس من الصحفيين محمد مسعود ، وحافظ
عوض ، وداوود بركات ، ويوسف الخازن ، وأحمد الالفي ، وصادق
عبر ، ونجيب شاهين ، واسكندر شاهين ، ومحمد السباعي ، وولي الدين
يكن ، وابراهيم سليم النجار ، وسليم سر كيس ، وعلي يوسف ، والياس
فياض ، وطايتوس عبده ، ويوسف يكن ، ويوسف البستاني ، وسليمان
البستاني ، ورفيق العظم ، وشبلي شميل ، وعبدالرحمن الكواكبي ، ورشيد
رضا ، وخليل مطران ، وداوود عمون ، والشيخ طاهر الجزائري ، ومن
اجله كان يحضر العلمان المحققان المشهوران أحمد زكي وأحمد تيمور » •

أقول ان قطرا يضم هذه النخبة من العلماء والادباء وأمثالهم ممن لم
يذكرهم الاستاذ محمد كرد علي لجد متقدم ، وانه لمجتمع يسبق المجتمعات
العربية في العراق وسورية والمغرب بمراحل كبيرة ، وليس بمستغرب أن
تتقدم الصحافة والآداب فيه • ومجالس مثل هذه تضم هذا العدد الضخم من
الادباء لاشك أنها تصبح بمثابة مدرسة أو مجمع علمي كما قال الاستاذ
محمد كرد علي • ولا عجب ان يخلفهم أساتذة من أمثال طه حسين ،
والعقاد ، والزيات ، والمازني ، وحسين هيكل ، وأضرابهم من أصحاب
التخصص في العلم والادب والفن •

والاستاذ محمد كرد علي برغم اعجاب به برجال مصر واكباره لادبائها
وعلمائها فانه لم يمنعه هذا الاعجاب من توجيه النقد لرجال مصر ممن
كانوا يملكون القدرة على الاصلاح الاجتماعي وبمقدورهم أن يقوموا بأعباء
كثيرة من الواجبات الوطنية ولم يفعلوا ، لذلك نراه يقول :

« يحزنني ، والله ، أن أرى كل يوم في مصر من الافضل المهديين من
لم يوجد أمثالهم من قبل ، تراهم وبعضهم ممن تهيأت لهم أسباب النعمة
خاملين ، خائفين ، ضعافا في الارادة الى حد أنهم اذا قاموا ببعض الواجبات
يخشون أن تزول عنهم نعمتهم ، ويحل بهم الويل والنبور ! » *

ويتحدث الاستاذ عن أثر جريدته « المقتبس » وأقبال الناس على
قراءتها : « اصبح للمقتبس مكانة لم تحرزها جريدة من جرائد السلطنة
العثمانية التي تصدر باللغة العربية ، لانها كانت تكتب بحرية زائدة حتى
ليظنها العارفون جريدة من الجرائد الوطنية في مصر ، ولطالما هدد أصحاب
الظلمات صغار الموظفين اذا لم ينصفوهم بأن يرفعوا شكواهم الى المقتبس ،
أي أن المقتبس صار حكومة أو محكمة على الاقل . وهذا الفوز هو الذي
يتخوف منه الولاة ويكتبون به الى مرجعهم الاعلى في دار الملك ، وهو
يعظم وينمو كل يوم ، ويعذر الاتحاديون على تأففهم من نقد الجريدة ، لانها
كادت تكون رأيا عاما في ديارنا ، وهذا ما ولن يروق أحدا من الأتراك
منذ القديم » * أما الخدمات الاجتماعية التي حققها « المقتبس » لسورية ،
فقد سجلها صاحبه في مذكراته :

« نحت من الخدمة عشرات من الموظفين ، وفيهم الوالي ومتصرفان
وعدة قوام مقام ومدبرون وقضاة وغيرهم من صغار العمال وكبارهم » وكان
الاستاذ يحس بقوة تأثيره في مجتمعه بما كان ينشره في جريدته ومجلته
ومحاضراته وكتبه ، وكان يألم كل الألم أن يغفل رجال السياسة وأرباب
الثورات علمين أو متجاهلين أقدار رجال الفكر والبيان ، الذين أناروا دروب
الحرية ، ومهدوا الطريق للاستقلال ، وعانوا من الظلم والحرمان على يد

الحكام الغرباء والمستعمرين • والاستاذ يأتي على رأس العاملين لاناارة الازهان والغارسين للروح الوطنية ، والداعين الى العربية والعروبة ، بتلقينهم تاريخ أسلافهم والكشف عن فضائل حضارتهم وما حوته من مبادئ انسانية فيها مقومات المدنية وفيها النفع لهم وللشيرة • ولقب بصاحب المقتسين^(١) •

تعرض محمد كرد علي من جراء قلمه لمهالك ومخاطر ومحاکمات مرات عديدة ، وكان الولاة يلاحقونه باقامة الدعاوي في المحاكم ، ويضايقونه بالانذارات ، ولكن البراءة كانت في الاغلب نتيجة هذه المرافعات ، لان القضاء كان لا يرى في كتاباته وتقده الا النية الحسنة وطلب الاصلاح مع براءتها من الشتم والبذاء والنقد الشخصي ، وكم أغراه أصحاب السلطة بالمال ليعدل عن خطئه أو يعدل لهجته في نقد أعمالهم ، فلم يحد عن الصراط المستقيم ، وهددوه بالاغتيال والقتل ، وقتشت داره غير مرة ، وصودرت أوراقه ، وروع في الليل البهيم ، واختفى عن الانظار ، ولوحق وطورد ، وحرشوا عليه الحشوية والسفلة ، فلم ينش عن خطئه ، ولم يرجع عن نهجه الذي انتهجه في سبيل الدعوة الى الاصلاح • وفي الفصل الذي كتبه في مذكراته (في الهزيمة) تفصيل لما عانى من ارهاق ، وما تكبد من أتعاب ، وما أوجس من مخاوف فرارا من وجه من أراد به السوء من حكام الاستبداد • في الهزيمة الاولى تخفى في قرى سورية ولبنان حتى تيسر له بمعونة اخوانه وأصحابه من سوريين ولبنانيين أن يفر الى باريس على ظهر باخرة نمسوية ، وفي هذه الرحلة قضى في باريس أشهرها تعرف على كثير من معالم مدينتها ، وعاد عن طريق الاستانة بعد أن أصدرت المحكمة براءته من التهم التي ألصقها به الوالي • أما الهزيمة الثانية ، فكانت أكثر مشقة وأصعب مخاطر ، لشعبها وطول طريقها ، ولانه كان معرضا لخطر القبض عليه المتوقع في كل مخفر أو قرية تمر بها القافلة التي صحبها • رافق قافلة من الجمال سار

(١) كان يصدر مجلة المقتبس بجانب المقتبس اليومية ، ولما عطلت الحكومة العثمانية جريدته اليومية ، أصدر القبس التي آلت بعدها الى ولده عادل ونجيب الرئيس سنة ١٩٢٩ واستمرت الى سنة ١٩٥٨ •

بها صاحبها الى مصر ، سلك بها طريقا برياً • مرت بوادي موسى فالعقبة وسيناء ورفح فالاسماعيلية وطالت سفرته ، وهو على راحلته بلباس الاعراب ، يقطع المفاوز والبطاح ، وينام ملتحفا السماء مفترشا الرمال ، في طرق لا تعرف التعيد ، ولا المنازل والفنادق ، تعرف فيها على قرى وأعراب ، واطلع على عادات كان يعرفها عن طريق الكتب ، فلمس كرم الاعراب في خيامهم برغم شظف عيشهم يؤثرون تكريم الضيف ، ولو كان بهم خصاصة ، ودخل القاهرة ولسانه ينشد : أنت يا مصر ملجأ الاحرار •

وفي الحرب العالمية الاولى اشتد نكير الاتحاديين على العرب ، ولا سيما أرباب القلم والادب وأهل الوجاهة ، وكان الاتحاديون ينظرون الى الاستاذ محمد كرد علي نظرة الخصم المريب ويتهمونه بالميل الى فرنسة ، قال في مذكراته : « وتصرفت الاقدار تصرفها ونسبت الحرب العامة ، ووضعت الدولة يدها على الفضليات ، وفشت أوراقها ، وأهمها الاطلاع على أسماء من كان لهم صلة بها ، فخرج تقرير ذلك الرسول^(١) الذي كان قصديني قبل الحرب وفيه تفصيل لما وقع لنا من حديث ، فدهشت الحكومة العثمانية من تصريحتي » ثم خرجت تقارير في دور قناصل فرنسة في بيروت وحلب والشام ، ومنها منشور عام من سفير فرنسة في الاستانة الى قناصل دولته في الديار السورية ، يقول فيه : « ان كرد علي شخص لا يركن اليه ، وان الحكومة التركية استرضته وبرأته من دعوى كانت أقيمت عليه ، وحذرهم منه ، وقال انه لا يسير الا مع الاتراك لتعصبه ، وانه يرى الخروج على دولة الخلافة محرما » • ووقع الاتحاديون على كتب ضبطها من البريد تؤيد تعلقه بالعثمانيين ، فأدرك الاتحاديون أنهم قد ظلموه ، وأنهم قد ضلوا

(١) هو أحد موظفي خارجية فرنسا (ج ، ب) زاره سنة ١٩١٢ م ، وحاول اغراءه بالمال اذا خدمت المقتبس سياسة فرنسة ، وكانت الجريدة مثقلة بالديون ، ولكن كرد علي قطع على الوزير الفرنسي كل أمل ، وأفهمه بصريح العبارة ان الاتراك مثلنا من أهل الاسلام ، وعلاقتنا بهم وشيخة ، ولا يصح المعاونة عليهم ، ولا سيما فرنسة التي تحاول القضاء على لغتنا وقوميتنا في كل أرض حلتها •

ضلالا بعيدا باتهامه ، وقال « وجاءتني التبرئة تمشي على قدميها » • وكانوا قد أغلقوا المقتبس شهرا ، وقاوموا نشرها ، ووضعوه في القائمة السوداء ، حتى ان الوالي (خلوصي بك) أعلمه أنه يحمل من الاستانة اصابة تحوي اتهامات موجهة ضده ، وأن الحكومة تنسب اليه العمالة لفرنسة ، وأن فصلها يزوره في دمشق ، ويتبادل معه الزيارات • فجرت بين الاستاذ وبين الوالي مشادة فقد معها اتزانها ، وأجاب الوالي بصوت عال « اني أرى ، يا دولة الوالي ، أن وجودي أصبح عبئا ثقيلا على الحكومة العثمانية في هذه الارحاء ، وانا منذ مدة والجواسيس يتابعونني حيث سرت ، وتكتب كل يوم قائمة بأسماء من يدخل بيتي أو أدخل بيته ، ويراقب بريدي مراقبة مضحكة • فهلا أمرتم باخراجي من المملكة كلها ، أو بجسبي في احدي القلاع ، أو نفيي الى بلد بعيد انقطع فيه عن اتيان ما تعتقدونه ضارا • وأما آمالي مع فرنسة ، فان لم أكن أول من يعرف غوائل الاستعمار ، فأنا ولا شك أحد أفراد خمسة على الأكثر يعرفون ما هنالك ، وأما صداقتي لقنصلهم ، فسيبها انه رجل مستعرب يحسن العربية (المسيو أنافي) ، وهو يستعير مني كتبا ، وأنا أستعير منه الصحف ، ثم اني أجتمع مع معظم القناصل ، لاني أحب أن أتخبر لجريدتي ، وبعد أن ظهرت تقارير قناصل فرنسة ، تحسنت مكانة محمد كرد علي لدى الاتراك ، ورفعت عنه الرقابة ، واستحكمت أواصر الصداقة بينه وبين الوالي (خلوصي) ، وعقد صداقات مع العسكريين والنواب الاتحاديين ، ولكن الجريدة الى مجيء جمال باشا لم تغير نزعها العربية ودفاعها عن مطالب العرب • غير أن المجهود الحربي وانشغال الانبراطورية العثمانية بالاشتراك مع الالمان في شؤون الحرب العالمية الاولى وتبعاتها الثقيلة ، جعلته يخفف من لهجته ، وراح يؤيد وجهة الخلافة ويطلب بنصرتها •

عقد الاستاذ محمد كرد علي فصلا بعنوان « جمال باشا والمقتبس » ، رأيت من الانصاف أن أقتبسه بنصه ، دفعا للاتهامات التي ردها حساد

الاستاذ الرئيس حول علاقته « بالسفاح » ، قال في المذكرات (١) :

« بينما كانت المفاوضات جارية بشأن اصدار المقتبس (بعد تعطيلها) ، وأنا أقدم رجلا وأوخر أخرى ، وفنصل ألمانيا يلج على الاتحادين لاقناعي باصداره حالا ، نصب قائدا على الشام ناظر البحرية أحمد جمال باشا • ولما خلا بالوالي (خلوصي بك) ، ذكر هذا له ما يقترحه القنصل بشأن اعادة المقتبس ، فسأل جمال باشا عني ، وقال : أليس هذا هو الذي كان يكتب فينا تلك الكتابات المرة ؟ فقال : نعم هو بعينه ، فلما رأه قد استغرب هذا الاقتراح ، قال له : سأطلعك على ما ظهر له من أشياء ، تثبت شدة تعلقه بعثمانيته ، وجاءه بالاوراق التي ظهر فيها ذكري في القنصليات الفرنسية ، فدهش القائد لما رأى ، وقال : وعلى ذلك ، فالرجل قد ظلم ظلما فاحشا ، وعلى الدولة ، لا على ألمانيا ، أن تعوضه خسائره الناشئة من اغلاق جريدته مرتين ، وطلب الي الوالي مقابلة القائد ، فذهبت اليه ، وبحسنا في شؤون الجريدة ، ودفع الي كيسا فيه أربع مئة ليرة عثمانية ، وقال لي : بعد أيام سأتم لك المبلغ الى ألف ليرة ، واكراما لخاطري - وقبض على لحيته - أصدر الجريدة بأسرع ما يمكن • فقلت له : ان الجريدة تصدر بعد غد • فسر كل السرور ، وعادت الجريدة الى الظهور ، وبقيت مدة لا أكتب فيها مقالات افتتاحية ، فلفت القائد جمال باشا المرسيني نظر القائد العام أحمد جمال باشا الى ذلك ، فسألني عن سبب امتناعي عن الكتابة ، فقلت له : كتبت فحذف المراقب ما كتبت غير مرة • فقال : اكتب ، وأنا أراقب ما تكتب • فكتبت مقالة قرأها مع الامير شكيب أرسلان ، وأرسلها لتطبع ، وأمر الا يحذف شيء مما أكتب وأن يتخطى قلم المراقبة مقالاتي ، وقال : اني أعرف كيف أدير القلم في خدمة الحكومة ، وأقدر الحال الذي نحن فيه • وبقيت على ذلك حتى صدرت جريدة (الشرق) ، جريدة الدعاية التركية ، ووسدت الي رئاسة تحريرها ، وطلب مني القائد رفع اسمي عن جريدة المقتبس لتروج الجريدة الجديدة ، ففعلت ، وتركت الجريدة لآخي

أحمد يتولى تحريرها وحده ، وأخذ جمال باشا يحترمني كثيرا ، ويتناسب معي ، ولكن لا بالصورة التي كان يعاملني بها الوالي خلوصي بك • سألني مرة مازحا ، مالك لا تكتب مقالات في العرب ، ومجد العرب ، وفضل لغة العرب كما كنت تكتب قبل الحرب ؟ فقلت له : الآن نحن في شغل شاغل عن ذلك ، وبعد الحرب نعود بحول الله الى ما كنا عليه • فضحك ضحك استهزاء ، وسألني مرة : كم عمرك ؟ فقلت : ثمان وثلاثون سنة • قال : هذا كثير • فقلت : يعني أنني صرت كبشنا ثميننا ، وحن وقت ذبحي لتأكلوا لحمي • فضحك • وما زال جمال باشا يظهر لي كل عطف ، ويقول في كلام المعجب بصاحبه « ... »

« قال لي أحد ولائهم ، ونحن نتجاز الجسر في الاستانة أواخر الحرب العامة ، وكان جمال قد غادر الشام منذ مدة : قل لي ماذا كان منك لجمال باشا حتى وقعت من نفسه هذا الموقع ؟ فقلت له : اني لم آت شيئا • • • قال : كنا منذ أيام تتذاكر من يحسنون الادب العربي ، والمجلس غاص ، فذكروا رجلا يعرف هذا الادب معرفة عظيمة • فضحك جمال باشا ، وقال : ان فلانا لا يعرف واحدا من مئة مما يعرف كرد علي ، فقلت : هذا من حسن ظنه بي ، وقال في القدس ، وأنا أخطب أمامه على مائدة ضمت زمرة كبيرة من أعيان الديار الشامية ، قال : اني لا أفهم أحدا ممن يخطبون أمامي باللغة العربية في سورية وفلسطين ، الا كرد علي ، فاني أفهم ما يقول ، ويكهرب أعصابي » • وذكر له مواقف تدل على غيرته الدينية ، وأنه يحمل شعورا اسلاميا ، ولكنه كان في الشؤون الحربية والسياسية لا يغفر لاحد زلة اذا حامت حوله تهمة في وطنيته العثمانية ، وكرد علي برغم ثقته به كان لا يأمن جانبه ، ويصحبه على دخل ويخشى سطوته ، ومما عده من غيرة جمال باشا على الاسلام ما اقترحه يوما على الاستاذ أن يلبس عمامة ليوسد اليه افتاء الشام ، ليتمكن من ادخال الاصلاح على أهل المسلك العلمي ، وكان جادا في اقتراحه ، وكرر قوله : وأنه يتوقع من ذلك خيرا للمسلمين لاعتقاده أن من الصعب أن يقوم بهذا الاصلاح المنشود الا من

تتقف الثقافة العصرية بجانب الثقافة الاسلامية العميقة + فشكر له حسن ظنه ، واعتذر من عمل لا يجلب له الا الحسد والضرر + هذه العلاقة بين كرد علي وجمال باشا ، جعلت عددا من المشتغلين بالشؤون العربية القوميين يعجزون قناة الاستاذ الذي وقف نفسه وقلمه وعلمه وصحيفته في سبيل خدمة العرب ، وراحوا يلمزون سلوكه ، بل يتهمونه بأنه مالأ السفاح ، وصولي لا يهمه الا مصلحة ذاته ، ولم يعمل نفوذه للتخفيف من غلوائه ، وكان تأثيره عليه قويا ومكانته مكنية ، حكم بالشنق على عدد من أبناء العروبة من سوريين ولبنانيين ، وعلقهم على المشانق ، ونفى أسرا برمتها ، فسبب بعمله الوحشي غضب الامة العربية في كل مكان ، وانهم مقربوه ومنهم محمد كرد علي + رأوه يرأس تحرير جريدة (الشرق) ، وهي جريدة دعائية للترك والامان ، ورأوا مقالات محمد كرد علي لا تتعرض للفكرة القومية لا بقليل ولا بكثير ، ورأوه يسكت عن جرائم السفاح ، لم يستنكر ، ولم يبذل نفوذه في التخفيف عن أبناء وطنه ، فتسربت اليهم الشكوك ، وغالبتهم الريبة ، وحكموا عليه بأنه يطلع مع الاتحاديين ، والحسد عامل مهم في ترويح الاتهامات ، يروجها منافسون له ، لم تكن لهم خدمة سالفه كخدمته ، وليس لهم مكانة اجتماعية كمكانته ، وتناسوا فضله وجهاده ، وقد أسلف للعرب والاسلام خدمات ستبقى ناصعة في سيرته الوضاعة في محاضراته ومقالاته وكتبه + كان من الرواد القلائل في غرس بذور الوطنية والقومية ، علم أبناء العروبة المعرفة بعلوم أمتهم ، وكشف لهم عن حضارتهم الزاهرة ، وقاد شباب وطنه الى العلم ، وربى فيهم روح الحرية ، فليس من الانصاف أن ينسى فضله ، وهو لم يجترح ذنبا ، ولا أهمل واجبا في حق أمته ، وهو قبل هذا وذاك مسلم يؤمن بالاسلام ، وان من الحفاظ عليه أن تتصر الخلافة العثمانية على الحلفاء المستعمرين + كان يرى مصالح العرب والعثمانيين واحدة ، وهو وان طالب بحقوق العرب الا أنه لا يرى الانفصال عنهم + وهذا رأي الكثرة الكاثرة من العرب المسلمين على الأقل ، والخلافة يومئذ في حرب ضروس ، ومن واجب المسلم أن يناصرها بقدر استطاعته ،

لا أن يكون عليها البامع أعدائها ، فلا غبار على سلوكه ، وليس هو الوحيد الذي وقف يناصر الخلافة • وقضاة مصر وعلماءها يناصرونها ويدعون لنصرتها •

وفي مذكراته دفاع عن موقفه ونقد وتجريح لجمال باشا وفضائحه وبطشه بأحرار العرب ، كما أنه مدح بعض الشهداء العرب ، وأثنى على وطنيتهم ، وقد يقال ما نفع تجريحه أو اطرائه بعد فوات الاوان ، وهلا قال دفاعه عن الشهداء يوم ينفعهم الدفاع • وهذا قول فيه كثير من الحق ، ولكن ليس كل الحق ، وعقيدتي أن الاستاذ محمد كرد علي لو ملك مجال القول يوم ذاك لقال ، فلا تنس ظرفه ، وهو المتهم من جمال ومن حزب الاتحاد ، ولو فاه بكلمة تم على دفاعه أو تحزبه للحق بالشهداء ، وذلك غير مستبعد عن السفاح وبطشه بمن يشك به ولو كان من أقرب المقربين اليه •

وفي خطته : تتلخص دعوته التي دعا اليها في المطالبة بالاصلاح وطرد لصوص الموظفين من خدمة الدولة ، وحفز العرب الى العمل النافع ، واتذرع بالمشاريع المنتجة ، وبعث القرائح واستخدام الكفايات ، ونشر التعليم بين الطبقات الجاهلة • وقد وفق في خطته الى حد كبير (الى حد ما كنت أنطال الى مثله ، وكان المصفقون لي أكثر من المصفرين ، وتجلي الانتفاع بما ينشر من المقالات والافكار • وكان معظم القوم لم يعهد تلاوة الجرائد ، فجيببت (المقتبس) اليهم المطالعة ، وكلما رأيت فتوح الجريدة في ازدياد ، ازداد نشاطا ومفاداة • والعامل الأكبر في انتشار الجريدة وثقة الامة بها ثقة لا حد لها ، اقتصارها على مواردها الشرعية من الاشتراكات والمبيعات والاعلانات فقط ، وتنزهها عن كل عرض مادي مهما كان مصدره • « وحاول الاتحاديون القابضون على زمام الامر أن يرشوني ، فلما يسؤوا مني تحيلوا ان يغتالوني ، وخصوا الذي أعدوه للقتل بمبلغ من المال لا يستهان به ، فصحه صديق له على ما ينوي وبين له عاقبة ما ستجني يده ، فأعاد الدراهم الى أصحابها » • وتعرض للاخطار والمغامرات بسبب دعوته وسدته

في مقالاته على السلطة العاشمة التي ما كانت ترعى حق الشعب ولا هم لها الا امتصاص امواله وهضم حقوقه ، كما تعرض لخسائر كبيرة بسبب اغلاق جريدته مرات ، وارادت جهة أجنبية استغلاله حين علمت كثرة ديونه فعرضت عليه مبلغا كبيرا فرفض المال بآباء ، ولم يرض أن يدنس صحيفته بالعمالة لاجنبي ، وحاولت الحكومات المتعاقبة أن تشغله بنفسه فهددته وروعته وأقامت عليه الدعاوى وأغلقت الجريدة غير مرة لاسباب تافهة ، حتى أزمع أن يترك الصحافة ، لولا أن الحكومة الاتحادية اطلعت على تقارير قناصل فرنسة التي حذرت من معاملته لاخلاصه لعثمانية • ولولا أن الحرب يحتاج فيها الى صحيفة مقروءة لها سمعتها ، تروج دعايتها بمثل هذا الزمن العصيب ، فعوضت عليه خسائره أو بعض خسائره ، ومع ذلك فإنه يقول : « ولولا أن هددتني ضمنا بفتح الحسابات الماضية ، ما كنت أعود الى اصدار صحيفتي » • ولما وضعت الحرب أوزارها ، أخذت نفسه تكره الصحافة وتعاف الاشتغال بها ، وانصرف الى التأليف واحياء كتب التراث ، فكان نفعها للامة أعم ، وخيرها أشمل ، وعائدها المعنوية والمادية على الاستاذ رحمه الله أكثر .

تَحْلَاتُ

أدب الرحلات أدب حي وجذاب للقراء عني به القدماء كما عني به المحدثون وأفتن به المشاركة كما أفتن به المغاربة وألف في الرحلات أسلافنا لاسفار النافعة، والمكتبة العربية تزخر بالكتب القيمة في وصف البلدان والاقليم من امثال رحلة ابن فضلان الى روسيا ومن مثل المسعودي في كتابه مروج الذهب ورحلة ابن جبير وابن بطوطة والساق على الساق لاحمد فارس الشدياق والرحلة المكية والبلعبكية لعبدالله فكري ، والرئيس محمد كرد علي قام برحلات الى أوربا ومصر وتركيا والحجاز فخلد رحلاته في كتب أفردتها لمشاهداته وما لفت نظره من عمران وثقافة وصناعة واجتماع في اسلوب شيق جذاب فيها المعرفة وفيها النقد البناء وفيها الايقاظ من ذلك كتبه التالية :

١ - غرائب الغرب

وهو جزءان في (٦٤٠) صفحة ، تم طبعه سنة ١٩٢٣ في مصر ، جمع فيه ما كتبه عن رحلاته الثلاث الى أوربة والاسنانة ، ووصف فيه انطباعاته ، وصور ما رأى من مشاهدها وآثارها ومعالمها العمرانية والثقافية ، ولخص ما قرأ وسمع عن نهضتها الصناعية في أسلوب يتجلى فيه جمال التعبير ، في الادب والتاريخ والوصف والاجتماع وتقويم البلدان والثقافة ، وتحدث فيه عن عظمة العمران والرياضة في القصور والمتاحف والمجامع والمؤسسات العامة والنشاط العمالي ، وأبرز التقاليد والعادات والمجتمعات والمكتبات وحفلات الرقص والغناء والموسيقى ، ونشاط المرأة ومكاتها في

المجتمعات الاوربية ، وأجرى موازنات بين الغرب والشرق ، ووصف تقدم الغرب وتمنى أن يكون لموطنه وامته نصيب من هذا التقدم ولا سيما في مجالات الصناعة والثقافة • قال في مقدمته :

« هذه فصول ومقالات ، بل آهات وتآوهات في وصف معالم الغرب وما لقيته فيه وقد زرته ثلاث مرات ، وأنا على مثل اليقين بأنها لا تحمل في مطاويها من تلك المدينة الساحرة الا بقدر ما تصل اليه يد عابر سبيل ، ويتفطن له فكر النزيل والدخيل » •

رحل هذه الرحلات الى أوربة في فترات مختلفة ، الاولى في شتاء سنة ١٣٢٧ (وتوافق سنة ١٩٠٩م) ، والثانية في شتاء ١٩١٣ - ١٩١٤ ، والثالثة في سنة ١٣٤٠هـ (١٩٢١ - ١٩٢٢م) ، وقال في الغاية التي من أجلها أنشأ هذا الكتاب « كان من أعظم أمانبي النفس منذ بضع سنين أن أرحل الى أوربا رحلة علمية أفضي فيها ردحا من الدهر ، للتوفر على دراسة حضارة الغرب في منبعثها ، واستطلاع طلع المعاهد التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون والفلاسفة المنزهون والعلماء العاملون والسياسة والمكتشفون والقادة الغازون والتجار والصناع والزراع والماليون ، وهم على التحقيق مادة تلك المدينة وهيو لاها ، وكانت الاحوال تعوق هذا القصد عن اتمامه ، وتحول دون البغية المنشودة ، الى أن قدر الله فأقام والي سوريا السابق تلك القضية الملققة على (جريدة المقتبس) ، واحتال انتقاما لنفسه لاقتال المطبعة وتوقيف الجريدة والمجلة قبل صدور حكم المحكمة علي ، فقلت : الآن حان وقت الرحلة في طلب العلم ، والتفرغ لتحقيق ما في خاطر ، ريشما يتبين الحق من الباطل والحالي من العاطل ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم • » وفي صدر مقاله في الرحلة الثانية كتب^(١) :

« كل من طاف بلادنا وقابل بين حالها وحال الاقطار الراقية يدرك لأول وهلة أننا عيال على الغرب والغربيين في كل شيء ، وأنهم اذا قطعوا عنا أقل صادراتهم نعود أدراجنا على النحو الذي كنا عليه منذ بضعة قرون ،

وهذا مما يصدق علينا في عامة شؤوننا ، والعلم هو أول بضاعة علينا أن نستبضعها من الغرب ، وهو رأس الحاجيات وبدونه الممات ، وما كنا نظن بعد أن أحفينا مكاتب مصر والشام لدرس موضوع (خطط الشام) أننا كلما أوغلنا في تضاعيفه يتجلى كل التجلي جهلنا ببلادنا ، وأنا سنحتاج بعد بحث نحو خمس عشرة سنة الى أن نقصد مكاتب أوربا نأخذ منها ما فاتنا في أرضنا من المواد التي لم يحوها المطبوع ولا المخطوط مما كتب لنا الاطلاع عليه في مكاتبنا الخاصة والعامة ، أي غضاضة على الشرقي أن يرحل باحث في شؤونه حبا باتقان عمله الى غير أهله وبلده ، وأن يتسقط الفوائد من الغريب ، والغريب في معزل ؟ بيد أن يوما طويلا امتدت لياليه السود على هذا الشرق سلبت منا بحكم تنازع البقاء وبقاء الانسب تراث أجدادنا في هذا الوجود ، وجردتنا من منافعنا ومرافقتنا ، وكتب أسلافنا العرب كانت أول ما رحل عنا غير آسف ، اذ لم يعرف لها الخلف قيمتها الحقيقية ، والاسفار في كل الاعصار هي هي مفتاح فتح الامصار ، والعلة الاولى في سعادة البشر ، ونقل المدينيات من النظريات الى العمليات • هاجت الخواطر في النفس ، خصوصا عندما ذكرت أن أميرا واحدا من امراء ايطاليا ، وهو (البرنس ليوني كايثاني) مؤلف (تاريخ الاسلام الكبير) هو الذي جمع بسعيه وتنشيط حكومته مكتبة له منقطعة النظير في الغرب نفسه ، فيها كل ما يحتاجه باحث في تاريخ الاسلام والعرب وبلادهم ، فاستنسخ من المكاتب الخاصة والعامة في أوربا وأمريكا وآسيا وافريقية كل مخطوط عربي فيه شيء من هذا القبيل وما لم يقدر على نقله ، أخذ له بالتصوير الشمسي ، فمن زار هذه المكتبة فكأنه زار مكاتب العالم أجمع واطلع على ما فيها من المواد التاريخية والجغرافية في هذا الباب • شبهتني وأنا أشد الرحال قاصدا الى رومية للبحث في مكتبة الامير الايطالي بطلاب العلم في أوربا في القرون الوسطى ، يقصدون بلاد الاندلس ليقروا على علماء العرب علومهم ويرجعوا من كتب المسلمين ببله تروي غلة جهلهم ، فسجلت وحوقلت ، قائلا : ما أغرب تبدل الامم والبلاد ! وما أهنأ الغرب بما صار اليه من

دواعي المنعة وأسباب العلم ! وما أشقانا بما فعل السفهاء منا ! »
وكانت غايته من رحلاته الثلاث الدراسة والاطلاع على معالم الحضارة
الأوربية بالمشاهدة والدرس والمقارنة والموازنة ليتسنى له ما ندب نفسه له
من اصلاح مجتمعه وارشاد قومه ، فما كان يبصر معهدا علميا أو يشهد
محفلا ثقافيا أو يقرأ عن مطبعة وما تطبع من المطبوعات أو تصدر من الجرائد
الا نراه ، يوازن بينها وبين ما عليه الحال في الشام أو في الدولة العثمانية
أو في مصر التي هي أرقى البلاد العثمانية نسيا ، وما يمر بآثار أو يشهد
معامل أو يزور متاحف أو مكبات الا ونسمعه يتحدث عن صنع المدينة
الغربية ، ليخلص من حديثه الى التنبيه على ما عليه وطنه من التخلف
والنقص والبذخ غير المحمود ، من ذلك مثلا قوله :

« ان ما نخشاه على مصر هو الاسراف الزائد وتقليد الغربي على
العمياء ، ولو كان لأهل وادي النيل شيء من الامساك المحمود والاقتصاد
المعقول ، لكانت حالة مصر السعيدة أرقى مما هي عليه اليوم ، ومن حاز
الثروة وقانون الحكمة يدبرها ، والحكمة قائدها ورائدها ، وانتظر الفرص
التي لا يزال الدهر يخبأها للأفراد ، كما لا يبخل بها على الامم ، لا بد أن
يتمتع يوما بالسعادة السياسية والاجتماعية التي هي منتهى آمال كل أمة حية
في هذا الوجود » • انه حين يصف مشهدا ، أو يثير اعجابه أمر ، لا يكتفي
بتعميق خطوطه ، وانما يلون أعماقه ويرسم ظلاله الزاهية ويبرز معالمه ،
ليصل الى غرضه في ما ندب نفسه له من خطط الاصلاح ، ولا يترك الفرصة
تمر بقرائه دون أن يلقي في روعه فكرته الاصلاحية • زار ادارة جريدة
« البتي مارسييه » فأدهشه وأثار عجبه وفره ما كانت تصدر هذه الجريدة
يومية ، فسجل هذه الدهشة التي أثارتها الجريدة والآهة تتردد في صدره
والأسف يعاود لسانه لما عليه حال مواطنيه ، فقال : « ومن الاسف العظيم
أننا لو أحصينا عدد ما يصدر من جميع الجرائد والمجلات العربية والتركية
والفارسية في البلاد العثمانية والایرانية ، لا يبلغ بكمية قدر ما تطبع كل
يوم جريدة (البتي مارسييه) احدى جرائد فرنسا ، وعلى هذه النسبة

قس ولا تخف درجة ارتقائنا وارتقاء الفرنسيين ، وسجل علينا بالفقر المدقع في كل شيء ولاسيما في الامور العقلية » • دهش الاستاذ كرد علي في الرحلة الاولى من حضارة الغرب ، وأثارت استغرابه واعجابه أمور كثيرة عبر عن دهشته منها في مواضع كثيرة من كتابه ، وهو معذور على دهشته مما كانت عليه بلاده من التخلف والتأخر اجتماعيا وعمرانيا وصناعيا وثقافيا . قال : « ماذا يصف القلم من مدينة الفرنسيين ، وكل فرع من فروعها المدهشة لو تعاورته الاقلام الكثيرة وتوفرت على البحث فيه الفصول الكبيرة ، لما كانت الى جانب القصور • نعم ، لو جاء في عصرنا الرحالة ابن حوقل ، وشاهد مدينة فرنسا فقط ، لحوقل واسترجع وقال : هذه حضارة ليس لنا في وصفها مطمع ، ولو أن المسعودي بقلمه وعلمه لعجز عن الوصف والتسطير ، ولو جاء ابن بطوطة لآب من رحلته الطويلة لايحسن املاء ما رأى وسمع ، ولو قام ابن جبير لاعترف بقصور ذرعه وعدم نفاذ طبعه وقال : ان هذا الاحلم وخيال • ونحن لا نسجل في رحلتنا الا ما تقع عليه أبصارنا ويتراعى الى آذاننا وتمسه أيدينا » ولا غرابة اذا افتتن بحضارة الغرب وعمرانه بالقياس الى خراب البلاد العربية وفقرها واقفارها من كل معالم الحضارة • أفقرتها السياسة العنصرية وتركتها تشكو الجهل والفقر ، وخيراتها نهى بيد الولاة والضباط المتحكمين • من حقه أن يدهش فقد خرج من مواطن بدائية بالقياس الى باريس ورومة ولندن ، وكل عربي يشهد حضارة الغرب يوم ذاك لابد أن يعجب ، ولا سيما لأول زيارة تقع له ، وما زال أحدنا يدهش لحضارة الغرب مع تقدم الزمن والحضارة والفارق كبير بين سنة ١٩٠٩ سنة ١٩٦٥ م • نستمتع اليه وهو يجيى باريس ، وكأنه من المفتونين المغرمين : « سلام عليك مرضعة الحكمة ، وربية الرخاء والنعمة ، وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية ، ومحبة المدينة الاصيلة في الاقطار الغربية والشرقية ، ومعلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين ، وأنى يضرب على أيدي الرؤساء والنبلأ والمالكين • أنت هذبت طباع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف والذوق وفائدة العلم

والعمل • أنت كنت في مقدمة العواصم التي انبعث منها تمجيد العقل بل
تأليه ، فقضيت بالتقدم له على كل شيء في الوجود ، وبالغت في اكرام
رجال العقول من أبنائك » •

وقال في موضع آخر من هذه التحية التي هي نتيجة تشبع عقله
بالآداب الفرنسية وعلومها ولغتها وفلسفتها وتأريخها قبل رؤية باريس ،
فالتحية تحمل في ظاهرها وباطنها حبا وفتنة ليست هي وليدة الدهشة لساعة
الزيارة العجلى ، قال « سلام عليك يا واحة حقوق الانسان ، وملقحة
الاذهان بالتناغي بحب الاوطان ، والداعية الى ثل عروش الجبارين
والمخربين • أنت لم ترهبك تقاليد أبطال القرون الوسطى ولا بطش
الباطشين من المحافظين عليها ، ولم تعلقي مسائلك على القضاء والقدر ، بل
أخذت بالاسباب والمسببات ، فقتلت من أراد قتلك ، ووضعت من لم يهمه
رفعك ، وكنت للناهضين من الناس خير مثال « وحسبي هذان المقطعان ، فهما
يدلان على اعجاب سابق بباريس ، ورضى ببلاد فرنسة من قبل زيارتها ولو
زارها الاستاذ بعد تدمير جيوشها للشام ، أو لو كتب هذا الفصل بعد حكمها
القاسى لسورية ، أحسبه كان يغير حكمه بعد تنكرها لمفاهيم الحرية في كل
أرض استعمرتها وقسوة رجالانها التي بلغت حدا لم تعرفه محاكم التفتيش ،
ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي اذ يقول :

« رماك بطيشه ورمى فرنسا أخو طيش به صلف وحمق »

ولو كتب له أن يعيش الى ثورة الجزائر التي بدأت في ١ تشرين
الثاني ١٩٥٤ واستمرت سبع سنين دأباً ، لو رأى وسمع ما فعلته جيوش
فرنسا ومرزقتها ، لما قال : أنت معلمة العالم كيف يكون الخلاص من
الظالمين » • ولو عاش ورأى بربرية ساسة باريس ، لما أجاز لنفسه أن
يتغنى بحب باريس ، ولجلم قلمه أن يكتب في تحيتها قوله : « أنت هذبت
طباع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف والذوق وفائدة العلم والعمل »
ولكبح لسانه أن يقول في تحيتها « التي أحسنت الى الشرق فيما مضى فعلته
حتى استمد منها النور » •

ان الاستاذ معذور في كل ما كتب عن باريس وفرنسة • يوم كتب هذا الفصل سنة ١٩٠٩ - ١٩١٣ لم يكن الاستعمار الفرنسي قد امتد الى سورية ولبنان وربما لم تتسرب أخبار مظالمها في الجزائر وثورات الجزائريين الا النزر القليل من أبناء العروبة في الشرق العربي ولا أدري كيف غاب علم تلك المظالم عن الاستاذ الرئيس وهو المصلح الاسلامي المتبع لما يجري في الغرب والشرق ، وليس محمد كرد علي وحده المخدوع بفرنسة ومدنيتها ، ولكن كثير من أحرارنا ومفكرينا أيام كتب محمد كرد علي هذه التحية كانوا يحسنون الظن بفرنسة ، وكانوا يحسبونها الامة المتحررة والمنقذة للشعوب المظلومة والعاملة على انهض الامم المتخلفة والراغبة في تمدين المتخلفين ، فبانت نياتها وظهرت على حقيقتها وأنها من أشد الامم المستعمرة جسعا واستبدادا وطمعا ، وأن موظفيها في المستعمرات لا ضمائر لهم ، وسفلة سارقون ، وان كان الاستعمار كله شرا ، ولا خير للشعوب الضعيفة عند المستعمرين من أية أمة كانوا ، فشرهم أكثر من نفعهم ، واذا جاء منهم بعض الاعمار فلأنفسهم يمهدون • اليوم الذي أكتب فيه هذه السطور يصادف اليوم الاول من ثورة الجزائر^(١) •

في ثنايا رحلاته كثير من المواقف التي تفصح عن نزعه الاصلاحية ورغبته في أن يفيد قومه مما يتقل اليهم من معالم الحضارة وبواعثها والدعائم التي تتركز عليها مدنيتهم ، من ذلك قوله : « ان ما شاهدناه عندهم ليس الا ثمرة عمل عظيم وجهاد منظم وارادة قوية وأساس راسخ ، واذا أحببنا أن نبلغ بامتنا مبلغهم فما علينا الا أن نمد نحن يد مساعدتنا للدستور ، ونستخدم جميع القوى الحية في الامة ، وأن تعمل الحكومة عملا فعالا لما فيه انهاض الشعب ، كما على الشعب أن يعمل لمعاوضة الحكومة الصالحة •

(١) تشرين الثاني ١٩٦٥ فأحيي أرواح المليون شهيد الذين ضحوا بحياتهم من أجل استقلال الجزائر ، وضربوا أروع الامثلة للتضحية والبطولة ، حتى خرجت الجزائر ظافرة عزيزة منتصرة ، وأعطت من نفسها مثلا للشعوب المستضعفة أن تحذو حذوها ، وحقت قول الشاعر التونسي :

« اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر »

وبالجملة أن يعمل كلاهما ، بل يعمل الكل للواحد والواحد للكل ، ويعرف كل الواجب عليه ونكران النفس والمفاداة « لا يترك الفرصة تمر كلما رأى مشهدا من معالم الحضارة حتى يستخلص العظة والفائدة فيعلنها لقومه آملا أن ينتفعوا بها ، وهذا شأن المصلحين في كل زمان ومكان •

هذا عرض موجز للكتاب ، ومقالاته وموضوعاته ما زالت تحتفظ بطابع الجدة ، مثل : (باريز بعد الغروب) ، ووصف (ليون) ، و (درس من سلانيك) ، و (محاضراته في النهضة العربية) و (مكتاب باريز ومكتباتها) و (كنأس باريس) و (الطباعة في فرنسا) ، و (دور التمثيل) ، و (عاصمة السلطنة العثمانية) ، و (المتحف العثماني) ، و (مكتبة الاميركايتاني) ، و (صناعة الفنادق) ، و (ايطاليا والمشرقيات) ، و (القوميات واللغات) ، و (سويسرا كيف تجلب الغريب) ، و (تفننها في الاعلانات) ، و (حياتنا والحياة الاوربية) ، و (العاصمتين) ، و (هولنדה والاسلام) ، و (هولنדה والعرب) ، و (المتحف البريطاني) ، و (المجتمع الانكليزي) ، و (المنتديات في لندن) ، و (الاسكوريال) ، و (ذكرى مؤلمة) ، و (علم المشرقيات في اسبانيا) ، و (أخلاق الالمان) ، و (تاريخ الاستشراق في المانيا) ، و (آثار العرب في ايطاليا) و (الحضارة الغربية) • والموضوعات التي احتواها الكتاب ، كلها جديرة بالعناية ، فمينه بالمراجعة ، أكتفي بما ذكرته وأتقل بعض الفصول لتكون نموذجا لطريقة الاستاذ محمد كرد علي في تسجيل مشاهداته • قال يصف المتحف العثماني (١/١٤٨-١٥٣) :

« ليس بين معاهد الاستانة وقصورها معهد توفرت فيه شروط التجديد ودخلته الروح الغربية مثل المتحف العثماني ، فهو المعهد الوحيد الذي قلدنا فيه الاوربيين وأحسننا التقليد ، يستفيد به زائره تأريخ الصناعة ، ولا غرو فقد ضم عاديات الامم القديمة كالرومانيين واليونانيين والفينيقين والبابليين والآشوريين والمصريين والحشيين والبيزنطيين المتأخرين ، من نواويس وتمائل وأوان وآثار حجرية وخزفية وبلورية ، وكلها شهادة على الدهر بما كانت عليه حضارات الشعوب التي انقرضت ، فأصبحت

بلادها من جملة هذه السلطنة العثمانية * وأجمل ما يشاهد فيه مسلتان ،
عثروا على الاولى في (صامسون) ، والاخرى في (أزنيق) ، وأسد وجد في
هاليكارناس (قصبه بودروم) ويرد تاريخه الى أربعة قرون قبل الميلاد ،
وبجانبه ناووس روماني استخرج من دراج في ولاية أشقودرة * ومن أطف
عاديات هذه الدار ، النواويس التي عثر عليها في صيداء ، وهي عبارة عن
سته وعشرين ناووسا ، ادعى بعضهم أن أحدها هو ناووس الاسكندر
المقدوني ، لان الاسكندر توفي في العراق وجيء به الى سورية ، على أن
روايات المؤرخين مختلفة في مدفنه ، ومن النواويس ناووس دفن فيه
(تابيت بن أشمونازار) ملك صيداء ، وعليه كتابة بالخط الفينيقي ، وناووس
الاسكندر من أعرب ما نقش الناقشون ، تحسدنا عليه وعلى كثير من الآثار
الموضوعة في قاعات متحفنا أهل العاديات والآثار ، ويبدلون لنا لو أردنا في
الحصول عليه مئات الألوف من النصار ، وناوويس المتحف البريطاني
واللوفر ليست بأعظم منها ، ومن عاديات المتحف ناووس باسم (صدراب)
أحد ولاة فارس فيه رسوم الصيد والقنص والحرب واللعب والسباق
ووضعية جنازة ، ومنه يستدل على ما وصلت اليه هذه الصناعة من تلوين
الرخام في (ايوتيا) في الساحل الغربي من بلاد الانضول من الارتقاء في
القرن الخامس ق.م ، وهناك تمثال ثمان عشرة امرأة من أعجب ما نقش
الناقشون ، جعلن على أشكال منوعة ، بعضهن قائمات وبعضهن قاعدات
وهن يذرفن دموع الحزن واللهفة ، وبالغرب منهن ١٩ قطعة من ناوويس
رومانية عثر عليها في جبل لبنان وحمص وبيروت * ومن النواويس البديعة
ناووس اسمه ناووس ليكيا أي البلاد المعروفة اليوم بساحل (أضالية) من
أعمال «قونية» ، وهو رومي الصنعة محلي الاسلوب ، وعلى مقربة منه
تمثالان من الخزف المقوش لأبي الهول ، عثر عليهما في مدينة (أدرلة)
أو ميناء (فلازومن) من ازمير ، قلنا : ان الناووس المعروف بناووس الاسكندر
هو من أبداع ما صنعت الايدي ، ولذلك زاره ألوف من علماء أوربا وأمريكا
يعجبون بصنعه ، وفيه كثير من الرسوم والخطوط النفيسة ومن الصور

المزبورة عليها وقائع الاسكندر المشهورة ، ومن كتاباته بالخط الهيروغليفي المصري ومنها بالخط الفينيقي ، ومن الرسوم الموجودة في ناحية قريبة ما يرجح أنه رسم الحرب التي نشبت بين الاسكندر في (ايسوس) أو اربيل وبين دارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق.م ♦

ومما يقع نظرك عليه في القاعة الرابعة بعض عايدات حيثة ، مثل أسود وجدت في « زنجيرلي » وقصورها ، وتمثال يمثل أحد ملوك الحيثيين وقاعدة تمثالين لأبي الهول ، وتمثال من الحجر الاسود اسمه (أسد مرعش) كتبت عليه كتابات حيثة ، وهو أشهر أثر عثر عليه من آثار هذه الامة حتى الآن ♦ «

وقال في ١٥١/١ : « ومن العايدات المهمة في المتحف الأواني الزجاجية والخزفية ♦ وأحسن الزجاج ما جاء من سورية ، وقد كتب على كل قطعة منها اسم البلد الذي عثر فيه عليها ، وهناك قطع من الفسيفساء عثروا عليها في (استانكوى) أو جزيرة كوس من جزائر البحر الرومي ، ويرد تاريخها الى اليونان ، وآثار معبد (أشمرن) في صيداء من آثار الفينيقين الخزفية ♦ «

وقال في ١٥٢/١ : « وقد خصوا القاعة السابع عشرة بالآثار التدمرية والحميرية ، ومن الآثار التدمرية ما يستدل منه على أن صنعها من بدائع صناعاتهم وان كانت تشبه الصناعات اليونانية ، لأن مملكة تدمر لم يبق لها أثر ، لان الآشوريين قرضوا عمرانها ، ثم ارتقت على عهد أورليانوس أوائل ظهور النصرانية ، ودخلت في حوزة الملكة اليونانية على عهد الاسكندر ، واستعملت اللغة الرومية ولا سيما في الرسميات ، وبالجملة فان العايدات القديمة جعلت في البناء الجديد كلها حسنة ومفيدة ، لو لم يكن الكسر والتحطيم يغلب عليها ، لما قاسته من أهوايل الدهر ♦ أما العايدات التركية والعربية الاخيرة فتأهت على الأكثر ، وفي الاستانة محل قرب جامع السلطان أحمد عرضوا فيه صور الانكشارية مجسمة من الجبس

صنغ النمسا ، وهم يلبسون ألبستهم المعروفة ، وجالسون على مراتبهم
وعاداتهم » ♦

ووصف المتحف السلطاني فقال (١/١٤٤-١٤٨) :

« دخلنا هذه الدائرة الفخمة من بابها الغربي الكائن بجوار نظارة
العديلة ، وممرنا أمام دار الضرب العامرة ، وبعدها دخلنا من باب ينتهي الى
ساحة كبيرة بين أطرافها رواق ذو قباب أشبه ببنيان التكايا ، ثم دخلنا من
باب ثالث فاستقبلنا بهو يسمونه غرفة العرض ، كان يجلس فيه الوزراء
والامراء للمذاكرة والمشاورة ، وفي صدره مصطبة كبيرة يصعد اليها من
درجة واحدة كان يجلس فيها السلطان متواريا عن الاعين ، ثم خرجنا
من هذه الغرفة وصعدنا القصر الشامخ ، يصعد اليه بسلم من رخام ،
جدرانه مزينة بالقيشاني ، بناه السلطان مراد الرابع بعد رجوعه من بغداد
على طرز قصر هارون الرشيد وسماه (قصر بغداد) ، وهو قصر مبني على
الطرز الشرقي بشكل مثنى منتظم ، تحيط به من الخارج ردهة ضيقة
ذات منافذ تطل على الخمائل والبحيرات وتشرف على بحر « مرمرة » وقسم
من البسفور وأحياء القسطنطينية وضواحيها ، وبجانب هذا القصر دائرة
(الخرقه الشريفة) وفيها الرداء النبوي وبقية المخلفات والآثار النبوية ،
وخرجنا من هذا القصر ودخلنا قصرا آخر فيه غرفة كبيرة طولها نحو
عشرين ذراعا وعرضها ثلاثة عشر ذراعا ، يقال انها من بناء السلطان
مصطفى الرابع ، وفي الجهة القبليّة من هذا القصر قصر آخر بناه السلطان
عبدالمجيد ، مبني على الطرز الايطالي ، وهذا القصر أجمل قصر رأيناه
هناك ، ومما يجدر بالذكر في هذا القصر صفاء بلور النوافذ حتى انك تظن
النافذة مفتوحة لا بلور فيها لشدة صفائه ، وعلى جانب هذا القصر حجرة
صغيرة بناها السلطان عبدالمجيد لتبديل لباسه قبل دخوله دائرة الخرقه
الشريفة ، ثم انتهيّا الى دائرة المتحف السلطاني وهي بيت القصيد في هذه
الزيارة ، وهنا لا يتمالك الانسان من الدهشة عندما يشاهد تلك الآثار النفيسة
والمصنوعات الثمينة النادرة التي لا تقدر لها قيمة ، لقيمتها التاريخية ♦

دخلنا هذه الدائرة وهي مؤلفة من ثلاث غرف تحية وثلاث غرف فوقية ، وأول شيء وقع نظرنا عليه تحت كسرى الذي غنمه السلطان سليم الاول من الشاه عباس الصفوي في حرب (چالديران) الشهيرة ، وقد نصب في وسط المتحف يوحى الى الرائي بعظمة الدولة العثمانية ومجدها السالف ، ويصور للناظر السلطان سليم الاول ممتطيا جواده مستلا سيفه ، يقود جيشه الباسل الى بلاد الأكاسرة ، ويشتبك مع صاحب العجم في حرب عوان ، فيهزم جيشه ، ويستولي على عرشه وخزائنه • هذا المتحف على هيئة مستديرة قائم على أربعة أعمدة ، يصعد اليه بدرجة واحدة ، وكله مرصع بالياقوت والزمرد مما يبهر الناظر • شاهدنا في هذا المتحف سيف قسطنطين آخر قياصرة الروم ، وهو سيف مرصع بالماس ، أخذ من جملة الغنائم يوم فتح القسطنطينية ، وشاهدنا مهد السلطان محمود الثاني وهو على شكل السرر التي تصنع في دمشق من الخشب مرصعة بالصدف ، وهذا مرصع بالاحجار الكريمة • وفي المتحف ثلاث قطع من الزمرد : الاولى بقدر جوزة الهند وزنها ٨٠٠ درهم ، والثانية على شكل مستطيل وزنها ٦٠٠ درهم ، والثالثة بينهما في القطع والوزن • وهناك أوان من التحف بعضها مرصع وبدون ترصيع وساعات وأوان من العاج وبواطي من الصيني ودروع وطبرات ومغافر وبنادق قديمة مرصعة مما لا يكاد يحصى وخواتم من الماس بعضها فضة بقدر الجوزة ، والى جانبها دوي قديمة ذهبية وقماقم ومحاريب وسبجات قبضتها مرصعة بالماس والاخرى مرصعة بالياقوت والماس في وسطها ياقوتة بقدر الجوزة ، والثالثة مرصعة بالاحجار الكريمة وعليها رسم الكرة الارضية • ومما أمتعنا به النظر صورة شخص طوله عشرة سنتيمترات ، صدره وبطنه لؤلؤة واحدة ورجلاه فيروزتان ، وبالقرب منه صندوق وعليه فيل من الذهب مرصع بالاحجار الثمينة ، رأينا أعطية مناضد من الأطلس والديباج بعضها مرصع باللؤلؤ والبعض الآخر مرصع باللؤلؤ والزمرد والياقوت بنقش بديع يأخذ بالعقول وهنا قلب من الماس حجرته الوسطى بقدر البيضة ، ويقال ان هذه الحجره هي رابع حجره في الدنيا

من حيث الحجم والوزن ، وقد أمتعنا الطرف برسم السلطان عبدالعزيز مجسما معمولا من النحاس الاصفر ممتطيا جواده ، بقطعة كبيرة طبيعية وتمثالين صغيرين • ورأينا رسم اسكندر الثاني قيصر الروس (يريد تمثاله) ، ورسم غليوم الاول اهل الالمان • ومما رأينا ثلاث آلات للمنظومة الشمسية ، مصنوعة من النحاس الاصفر ، تدور فيها الارض والسيارات حول الشمس بحركة دولا ب يدار باليد ، كل ذلك بل أكثره موضوع في خزائن من البلور ، لا تمسه الايدي ، رأينا مسميات لا تعرف أسماءها مما يحار لها العقل ويدهش لها الفكر • وأنى لنا باین المعتز يصف هذه الخزينة وما فيها من الحلبي والحلل والجواهر الثمينة والمصنوعات الفاخرة النادرة ، بمنظومات تحكي ترصيع الجواهر المكنوزة في هذا الكنز الكبير ، ليس شيء أصعب على الكاتب أن يرى أشياء لم يألف مشاهدتها ولا يعرف لها اسما ، فهو اذا أراد وصفها عصته الالفاظ ، وضقت به التعابير • رأينا في هذا المتحف أشياء كثيرة ، كلها من النادر الغريب الذي لا يوجد الا في خزائن الملوك ، ولو أردنا أن نصف كل ما رأيناه لطلال بنا البحث ، واحتجنا الى سفر كبير ، ولكن نكتفي بذكر الآثار التاريخية الثمينة بالنظر لما لها من المكانة العلمية والقيمة الادبية ، فمن ذلك درع مرصع بالماس والياقوت مع سيف مرصع أيضا ، مكتوب عليها هذه العبارة : « هذه الدرع غنمها السلطان مراد لما فتح بغداد في اليوم الثامن عشر لسنة ألف وثمان وأربعين هجرية » ، وتخت معمول من (الباغ) مرصع بالفيروز والزمرد ، وهو تخت السلطان أحمد الثاني يجلس عليه يوم عرفة ، وفي وسطه فراش من الاطلس مرصع بالآلآء ، بنقوش لطيفة ، يصعد اليه بثلاث درجات صغيرة ، وخزانه من الكهرب الملون المعرّق أهدتها فكتوريا ملكة انكلترا للسلطان عبدالعزيز ، ومكتب (فصل) كبير مرصع بالماس والياقوت وسائر الاحجار الكريمة أهدتها كاترينا قيصرة الروس للوزير الاعظم محمد باشا البلطجي يوم وقعة بيروت الشهيرة ، وهذا المكتب من أئمن ما شاهدناه في هذه الخزينة لما فيه من الاحجار الكريمة وحلل الملوك من آل عثمان ، وعمائهم

موضوعة كلها على قوالب مخصوصة على شكل انسان بالهيئة التي كانت عليها ، ومكتوب على كل منها اسم صاحبها ، وسيف السلطان الغوري عزيز مصر ، وخاتم السلطان عبدالعزيز الذي نزع من اصبغه يوم استشهاده ، ووسامات مختلفة أهداها ملوك أوروبا للسلطين العثمانيين ، وغير ذلك من الآثار البديعة التاريخية » •

وعلى الامير كايثاني تكلم قائلاً (١) :

« كان الأغنياء والأمراء في الغرب قبل أن تنقرر قواعد المدنية الحديثة وترسخ أصولها ، يدلون على شعوبهم بحكم التغلب وقوة المال وأريحية القدم • أما الآن ، فان أمثال هذه الطبقة أدركت أن كل تلك الامتيازات والاعتبارات قد ألفتها القوانين الدستورية في الأمم الحرة النيابية ، فلم يبق من أسباب الفخر الا شخصية المرء وعمله وعلمه ، ولذلك لا تسمع بأمثال هؤلاء الناس الا اذا أتوا عملاً ينفع المجتمع ويخدم الحضارة أو يرقىها درجة أخرى •

وممن جمع بين فضيلتي المجد القديم والمجد الحديث فعد عصامياً عظامياً الأمير « ليوني كايثاني » من كبار الأسر القديمة في رومية التي يرد تأريخها الى زهاء ألف سنة ، ومنها خرج رجال خدموا أمتهم على اختلاف العصور ، فكان منها الباباوات ورؤساء الدين والقواد والحكام • ولقد سار سليل هذا البيت على سنة كثير من أمراء الغرب ، فلم تبطره الزخارف ، ولم يستهوه المال ، وتنبك عن الرفاهية منذ صغره فدرس في كلية رومية الآداب ، وأتقن من اللغات الايطالية والفرنسية والانكليزية والألمانية واللاتينية والفارسية والعربية • ولما أحرز حظاً من العلم والآداب ، سمت همته وهو قبيل الخامسة والعشرين أن يضع لأتمته كتاباً في التأريخ الاسلامي بلقنها يعنيها عن كثير الكتب ، ويرفع كثيراً من المشاكل في تأريخ العرب الذي أدھش العالم ، فجمع لذلك مكتبة ضخمة باللغة العربية وغيرها من المخطوطات ، وكان مبعشراً في مكاتب أوروبا وغيرها ، فجاءت مكتبة في الشرق والغرب في

(١) المذكرات ١٨٠ - ١٨٣ •

موضوع التاريخ الاسلامي خاصة ، ومن رآها فكأنما زار مكاتب الغرب للبحث عن آثار العرب ومدنيتهم • ولقد نشر حتى الآن من تاريخه ستة مجلدات ضخمة ، ولم ينجز بها أكثر من عشرين سنة من تاريخ الاسلام ، وهو يرجو أن يفسح الله في أجله عشرين سنة أخرى ليكمل القرن الأول للإسلام ، فيقع في خمسة وعشرين مجلداً ، ولا يطبع من تاريخه أكثر من مئتين وخمسين نسخة ، يوزعها على الجامعات العلمية في بلاده وفي الغرب ، وعلى بعض أصحابه من العلماء فقط ، وقد جعل شعاره قول الشاعر العربي :
كفاف عيش كفاني ذل مسألة وخدمة العلم حتى ينقضي عمري

يقول : كفاف عيش ، وثروته وثروة أبيه فيما بلغني تقدر بمئة ألف مليون فرنك ، دع ثروة حليلته الأميرة ، وهي غنية أيضاً ، ولهم المزارع الواسعة في ضواحي رومية » •

وقال : طاف الأمير كثيراً من بلاد الشرق ، ولا سيما الهند وفارس والشام ومصر ، ودرس أحوالها ، وطابق بين ماضيها وحاضرها ؛ فاذا تكلم في تاريخنا ، صدر عن علم نظري وعملي (هذا اذا تخلص من الترسبات التي تحدرت اليه من نظرة قومه للإسلام وما غرس في نفسه من اتهامات وشبهات وليدة التلقين الكنسي والمدرسي ، والتي لم يسلم منها الا القلائل ممن فتح العلم بصائرهم ونزع من نفوسهم تلك الشوائب العالقة ، وهؤلاء أقل من الكبريت الأحمر كما يقولون) •

وختم كلامه بالحديث عن مكتبة الأمير ، فقال :

« لئن امتازت الخزانة التيمورية في مصر بأنها تحوي أمهات كثيرة من مخطوطات علماء الاسلام في علوم مختلفة ، وامتازت الخزانة الزكية (لأحمد زكي باشا) بالقاهرة بجمعها أنفوس المطبوعات العربية في الغرب ، فان الخزانة الكايتانية في رومية تحوي على الغالب أهم كتب التاريخ الاسلامي أو ما له علاقة فيه ، وذلك باللغات المختلفة ، ولا سيما العربية ، مما هو جدير أن يرحل اليه من الصين لا من الشام » •

وكان الأستاذ محمد كرد علي قد رحل الى هذه المكتبة كما ذكرنا في
موضع آخر من الكتاب لينهل من كتبها لكتابه (خطط الشام) .
يقول في مذكراته (١٨٨/١) :

« اشتغلت في خزانة الأمير « ليوني كابتاني » في رومية شهراً كاملاً
(سنة ١٩١٣) ، ولما أنجزت عملي ، قدمت له بضع مجلدات من (مجلة
المقتبس) هدية ، واستأذنته بالسفر الى سويسرة ، وشكرت له فضله في
قبولي للبحث في خزانته العظيمة ، فقال لي وهو مرتبك : ولم هذه السرعة
في سفرك ؟ أرجيء هذا الأيام أخر ، فقلت له : قد ضاق صدري في رومية
من عدم فهم اللغة الايطالية ، وان كان الخاصة كلهم يكلمونني بالفرنسية ،
وكذلك في المنزل فان الكلام فيه بالفرنسية وعلى المائدة أيضاً لأن نزلاءه
من أجناس مختلفة من أهل الارض ، ومع هذا فأنا مستوحش وأريد أن
أسمع كلام الشعب ، ولا يتيسر لي ذلك الا في سويسرا الأفرنسية ، وفيها
أنوي أن أستريح شهراً وهذا غير ميسور لي هنا ، وأنا من الصعب علي أن
أتعلم لغة في برهة قصيرة مع سهولة تعلم الايطالية على من يحسن الفرنسية .
وربما كان سبب ارتباك الأمير لما استأذنته كونه ذكر حالاً أنه لم يدعني الى
داره ، ولا عرفني الى أهل بيته ولا الى أصحابه ، وقد قضيت معه ثلاثين
يوماً ، وأيقن أن هذا مناف للعرف ، وهو يعرف حفاوة الشرقيين بالغربيين
في بلادهم ، وقد كتب لي الى سويسرا يدعوني ثانية أن أعود لانجاز عملي
ويقول ان وجودي عنده يحدث له سروراً عظيماً . كان الأمير خلال مقامي
عنده مشغول الفكر أكثر الايام بانتخابات مجلس النواب : سألتني نائب
(رافنا) في جنوب ايطاليا وكان نازلاً معي في منزلي عم أعمل في رومية ؟
فقلت له : اني أبحث عن مواد تاريخية حفظت في خزانة الأمير كابتاني
صورها الشمسية ، فعجب لعرفتي به ولاحتواء خزانته على هذه المجموعة ،
وقال لي : أبلغه سلامي ، وذكر لي أن الأمير اليوم يحاول أن يعاد انتخابه
في هذه الدورة نائباً في مجلس النواب وما اخاله ينجح ، فهو منكم ويغار
عليكم ، أي أن عواطفه مع الشرق والعرب . وقال انه خطب في مجلس

النواب ، وذكر أن ما أقدمت عليه إيطاليا في الاستيلاء على طرابلس وبرقة لا يليق بأمة كانت مبعث النهضة في العالم ، وأن الاعتداء على شعب آمن مطمئن في أرضه بلا مسوغ شرعي أشبه بعمل قرصان البحر منه بعمل دولة شريفة ، قال : وما اكتفى بذلك ، بل كتب في الصحف الإيطالية والأجنبية يقبح عمل الحكومة ، فما أظنه يفلح في الانتخابات هذه المرة ، وكان الأمر كما قال • أخفق السيد كايثاني ، مع أنه أنفق عشرين ألف جنيه ذهباً ، وأنفق منافسه خمسة وثلاثين ألفاً من الجنيهات ، فأحرز الاكثرية وتغلب عليه » •

ولقد شهدت الأمير مدة الانتخابات يتغيب عن مكتبه في الصباح ساعة أو ساعتين ، وكان من قبل يواصل النهار وزلفاً من الليل في عمله ، فسألت أحد أمناء سره السنيور « جويدي » عما يشغل بال الأمير هذه الأيام ؟ فقال : مسألة تجديد انتخابه عضواً في مجلس النواب ، فقلت له : قل له أرجو ألا ينجح في الانتخابات ، فان عند إيطاليا مئات يصلحون للنيابة عن أمتهم ، وليس عندها غير واحد من عيار كايثاني في علم المشرقيات ، والنيابة لا تشرفه كما تشرفه تأليفه وأعماله العلمية ، والأجدر به أن ينصرف الى ما اشتهر به ، وقال لي جويدي بعد أيام : لقد استجيت دعوتك ، ان الأمير لم ينجح في الانتخابات • كان الأمير ينفق على العلم فقط عشرة آلاف جنيه ، وكان غنياً يقدرون ثروته يومئذ بخمسة ملايين جنيه ايطالي ذهباً عدا ثروة زوجته ، وهذه الثروة تبخرت كلها بعد الحرب الكبرى (الأولى) بفعل الأيام التي لا تبقي سعيداً في سعادته ، ولا شقيماً في شقائه ، تخفض العالي ، وتعلي من سفلى ! « صدق الأثر الشريف : « دوام الحال من المحال » •

وقال في (ص ١٩٠) : ان الامير كايثاني وهب خزانه كتبه لأحد مجامع ايطاليا العلمية ، وقد رأيت أحد علماء المشرقيات في اسبانيا الأستاذ (ريرا) قال ، عز عليه أن تفرق كتبه بعد وفاته ، فأوصى بها لتلميذه الأب (آسين بلاسيوس) على أن يشتغل بها طول حياته ويفتح بابها لطلاب الاستشراق ، ثم يتركها لمن يرى فيه الكفاية للاستعانة بها بعده فان لم يظفر

به يجعلها في أحد دور الكتب العامة في اسبانيا ، وفي هذه الخزانة جزازات السيد (ريبرا) في تراجم ثلاثين ألف عالم من علماء العرب وادبائهم في الأندلس ، وهي من الأعمال العظيمة في خدمة المدنية الاسلامية وتاريخ المسلمين في الأندلس خاصة •

وباهداء العلماء مجموعاتهم في الغرب الى دور الكتب العامة أغنت خزائهم فتجاوزت في الأمم الكبيرة أعداد الكتب في خزائن عواصمهم البضعة ملايين ، وللخزائن الكبرى والصغرى قوائم وسجلات تستطيع أن تجد فيها ما يمثل الكشف عنه في دقائق قليلة ، وأكثرها من حيث الانتفاع بالسرعة العجيبة خزائن ألمانيا فيما رأيت ، والألمان مشهورون بتدقيقهم ومعرفة استخراج الفوائد والانتفاع من كل مادة الانتفاع المطلوب ، وعلمائهم من أكثر الأمم اشتغالا ودؤوباً ، وكنت في أكسفورد في مؤتمر المستشرقين (سنة ١٩٢٨) أسمع المنادي في كل أمة لمقابلة نائب الملك • فلما نادى جرمانيا جاء نحو ثلاثين مستشرقاً ، وكنت أسامر صديقي العلامة (فران) الفرنسي ، فقال لي ، وقد هاله ما رأى من انحناء قاماتهم : أرأيت انحناء ظهورهم ؟ انه ليس من طول السنين ، بل هو من كثرة الاشتغال • «

وقال في مذكراته (ص ٣١٥) عن كتابه (غرائب الغرب) : « زادت هذه الغرائب ضعفين في الطبعة الثانية ، وهو في مجلدين فيهما ما كتبته في (المقتبس) من مقالات في وصف المدنية الأوروبية ، ومنها مقالات ايطاليا وسويسرا ، كتبها في لوزان في أيام قليلة ، وكنت أكتب ثلاثاً أو أربعاً في الجلسة الواحدة ، وتدخل كل مقالة في نحو خمسة أعمدة في الجريدة ، وكتبت بنشاط غريب ، وقلما كنت أعاود النظر فيها ثانية ، ووقع لي مثل هذه السرعة في الكتابة في مصر ، وقد قضيت فيها مرة سنة أشهر ، والحكومة تنظر في قضية سياسية على (المقتبس) بدمشق ، وصدرت الجريدة خلال تلك المدة ، وكان لزاماً علي أن أكتب على الأقل مقالاتها الافتتاحية ، فكنت أجمع في ذهني الموضوعات التي أريد معالجتها ، وأجلس يوم البريد صباحاً الى مكثبي حتى الظهر ، فأكتب ست مقالات افتتاحية دفعة واحدة ، وارسلها

لتشتر في جريدتي على أيام الأسبوع ، وكنت أقضي أشهراً لا تنشط نفسي
لكتابة شيء ، وقد أكتب في شهر واحد ما لا يخرج من قلمي في سنة ،
وقلما كتبت غير كتابة الهواة ، وما اضطرت الى الكتابة التجارية الا في
الصحف السياسية على الأعلب ، ولهذا النشاط والفنور عوامل نفسية كثيرة
يعرفها من كتب وألف ، وقد لاحظ بعض العارفين أن كتابي (غرائب الغرب
- الطبعة الاولى) كان في أوله رائعاً ، وفي نصفه الأخير جافاً ، والسبب في
ذلك أن الجزء الاول من هذا الكتاب كتب في باريس في غفلة الدهر ، والقسم
الثاني كتب في داري القديمة في دمشق ، وكنت اذا أحسيت أن اسرح نظري
لا أجد أممي غير جدار من الطين لا جمال فيه ولا شيء مما يعش الروح
والصدر . * * في هذا الكتاب غرائب وقوائد قمينة بالقراءة تستحق التسجيل ،
فانها تكسب المطالع معرفة وأدياً قلما يعتمد عليهما في مصدر آخر ، من ذلك
مثلاً ما كتبه عن المجتمع الانكليزي : السياحة ، توريث البكر ، الجمعيات
والمنتديات ، أشرفهم ونبلاؤهم ، قال :

« أكثر الأمم الغربية جرأة على الضرب في الأرض وغراماً بالارتحال ،
الأمّة الانكليزية كما هي أكثر الأمم اقداماً على العظام ، وحشماً انقلبت في
الغرب وفي الشرق في القطارات أو السفن في الفنادق والأماكن العامة لا تجد
الا انكليزياً ، رجالاً ونساء ، يسيحون على اختلاف طبقاتهم ، وسواء عندهم
الرحلة البعيدة والقريبة ، ينفقون النفقات الطائلة في هذا السبيل مما لا يستطيع
الأمم أن تجاريهم فيه ، اللهم الا سكان الولايات المتحدة وهم انكليز أيضاً
ان لم يكونوا بعصرهم فبتربيتهم . »

السياحة دليل النشاط ، وأنشط الأمم الانكلوسكسونية . ومن الغريب
أن الانكليزي اليوم يسيح في ألمانيا والنمسا ، بل في فرنسا وايطاليا ، ويكاد
لا ينفق جزءاً من عشرة مما ينفقه في بلاده ، وذلك لارتفاع ورقة النقدي
ونزول أسعار الورق في هذه الممالك ، ولا سيما ألمانيا والنمسا وبولونيا
والتشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوغوسلافيا . * ذكر « تين » ان كثيراً من نواب
انكلترا يغمون فرصة العطلة النيابية ليذهبوا الى فرنسا أو اسبانيا أو ايطاليا

أو ألمانيا ، يصححون معلوماتهم السابقة ، ويأخذون أفكاراً جديدة ، يذهبون
لا مرة واحدة ومرتين ، بل ستاً وثمانى وعشر مرات ، ليقفوا على أمور ،
ويتبعوا تموجات الرأي والعلم ، وعلى هذا فان أحكامهم محكمة تنهياً لها
أساليب الصحة والتحقيق ، اذا حدث خطب في الدانيمارك وبولونيا ورومية
والولايات المتحدة ، لا يعتم الانكليزي أن يهرع في الحال لأخذ ايضاحات
صريحة عما حدث ، ومتى وافى الانكليزي بلداً أجنبياً يتعرف الى العطاء
من أهله ، ويدعوهم اليه ، ويقبلهم وينفضهم - كما المرء يقبل كتابا وينفضه ،
وربما دون كل ما دار بينهما من الحديث ، ومتى انقلب الى أهله يبلغ أمته
ما وقع عليه من الحقائق ، ويحمل الى أهله وأبناء حرفته ومحيطه ما يزيدهم
معرفة فيما هم بسبيله ، وكم من الانكليز طاف المزارع والمعامل في غير بلاده ،
وكتب عنها تقارير ممتعة ، وألقى عنها محاضرات جيدة ، وكم من رجل زار
المعامل في أوربا وأمريكا فألف فيها وحاضر ، والفقيه منهم يقتصد جزءاً من
المال من عمله ليجري به سياحة خلال السنة ، ويعود وقد حفل وطابه بما طاب
له من الحقائق وما رأته عينه من النظريات ، وما من فتى نشأ من أسرة طيبة
لا يسبح العالم كله ، وكل تربية تامة تستلزم سياحات في الخارج ومقاماً فيه
طال أو قصر ، وترى خلال العطلة المحامين ورجال القضاء والأساتذة يأتون
زرافات الى ألمانيا ، وكثير منهم لا يتمكنون الا من رؤية ظواهر الأشياء ،
والاناء لا يستطيع أن يملأ بأكثر من حجمه ، بيد أنهم كلهم يعودون ببعض
الافكار ، أو بمبادئ يقل خطأها ، أو بأوهام غير فظيعة على الجملة • واذا
انتظمت جميع هذه المعلومات في سلك جاء منها رأي عام يقرب من الحقيقة
في المسائل الكبرى ، ولا شأن له في السياسة ، ويكون على جانب من الصحة
حاوياً نصحاً وموعظة • ثم ان رجل الدولة الذي يكشف بصيرته الطريق
السليم ، تعضده أمته وتأخذ بيده في مهمته ، البحارة يهللون لربانهم ، وكثيراً
ما يذهب الجمهور الى البحث عنه وسوقه الى سكان السفينة بيده يديرها •
وبمثل هذا النوع من التربية اذا انتشرت في الطبقة العالية من الأمة تتناول
بالطبيعة العقول الكبيرة والعقول الصغيرة ، من أهل تلك الطبقة • فاذا كان

الفرد فيهم على استعداد ، لا يسقط لقله تربيتهم الكافية الخاصة ، بل يتلقى ما يقويه ويزيد في مضائه ، وتصل قريحته وعبقريته الى الدرجة التي قدر لها الانبعاث ، ولا يعتمد أن يأتي بثمره طيبة ، لأن مركزه و ثروته وصلاته توفر عليه طول مدة التمرين والاهتمام بجمع المال والعيش . قالوا : ومن دواعي الأسف أن طبقة برمتها تنال بصورة ظالمة ثروة موروثه ومكانة قبل أوانها ، ثم يأتي بجملتها بعض أبنائها ، وكثير من البهائم وأناس وسط في مداركهم ، ولكن لا سبيل الى تأليف طبقة مختارة الابدان بمثل هذه الوسائط ، وهذا اشبه بزربية فيها مئة رأس من الخيل يسبق منها ستة وتجد فيها سابقاً دونه السوايق ، ولكنه واحد في كل ألف ، ولا تنجح الملكة اذا لم ترزق رؤساء أصحاب مكانة ، وكم من مملكة تداعت أركانها لخلوها من رجل عظيم يقودها .

وعلى قاعدة توريث البكر تكلم الاستاذ محمد كرد علي قائلاً :

هذه القاعدة من قواعد التوراة ، سار عليها الانكليز فاحتلقت بدمائهم وأصبحت لهم شريعة موافقة وعادة راسخة ، وهي توريثهم بكر الأولاد وحرمان سائر الأبناء والبنات من ارث والديهم ، قال أحمد فارس (الشدياق) : ومن عادة الكبراء والنبلاء أن لا يورثوا جلاءهم (لقبهم) وأملأهم الابن البكر ، فان شاء أعطى اخوته وان شاء حرهم ، ففي هذه الحالة يلتزم الاهثون أن يقوموا بكفائتهم ، واذا كان البكر مسرفاً فبذر أموال أبيه اشترى أصحابه أو أهل بيته أو أهل البلاد له ولأخوته وظائف من الدولة أو تبعثهم الى البلاد الخارجية ، والحكمة في توريث البكر دون غيره ، هو بقاء الجلاء في الصلة وصون ناموس البيت ، واذا تقدم الابن بنت بقي له حق اللقب والوراثة . هذا اذا كان التراث عقاراً . فاما اذا كان حصص مصاربة مثلاً أو أشياء متقلبة ، قسم بين الاخوة اهـ .

وبهذه القاعدة حفظت بعض البيوت في كثير من أصقاع انكلترا كما كانت منذ بضعة قرون ، لم تهدم ولم تقسم ، وظلت بحدائقها وأسوارها ومرافقها وفرشها ونظامها على نحو ما أسسها الجد الأقدم ، ومن دور الكبراء

ما هو متاحف مهمة بذاتها ، وكم من دار نبيل من نبلائهم حوت مجموعة من العاديات أو المجوهرات أو النقوش والصور ما لو كان في حكومة صغرى لعد من موجبات فخارها ، ولقد قال ناقدو قاعدة توريث البكر : كثيراً ما يكون أكبر الاولاد في الطبقات الشريفة منذ عهد المدرسة متهتكاً بعشقه ، مأخوذاً بالتمليق ، فلا يجيء منه إلا أحمق منافق متجن ، يسبح فلا يأتي من رحلته بفائدة ، بل يحمل العادات القبيحة من غير بلاده ويسترسل في شهوته ، وقد يمل من حياته ، ولو لم تكن طبقة النبلاء ، تتجدد بمن يدخل فيها من أهل الطبقة الثانية ذات العقول والقرائح لأصبحت أعضاؤها مؤوفة ، وضعفت عقولهم ، وكانت شراً على المجتمع كما هو الحال في ممالك أخرى • ثم ان عدم التساوي بين الأولاد يورث أموراً مرة ، فيضطر الولد الثاني ان لم يدفعه أخوه الى الجيش أو الكنيسة أو الادارة الى ان يبقى ، زمناً ، محروماً النعمة ، سلباً من الراحة ، فيهاجر ، ويتأخر في زواجه ، ويخدم غيره عشرأ أو عشرين سنة ، على حين نجد أخاه مستقلاً وغنياً من ولادته ، ليس له الا أن ينزل في بستان وقصر ، أخذ بأطراف اللذائذ » •

وقال : « الانكليز مكثرون من الاولاد ، معادون الرفاهة ، يربحون كثيراً وينفقون كثيراً ، فاذا نشأ الولد في محيط يرى فيه البذخ على أنه ثم تعلم منذ نعومة أظفاره بعد تهته عقله بالدرس والتربية أنه محروم مما يراه من الثروة ، الا أن يعمل بنفسه الا يكون له مما يراه مهماز يسوقه الى العمل ، ويستسهل السفر الى الصين والهند واستراليا ، يرتاد العالم ليغنى ، ويقتني ويشيء عيلة ويقيم مجدداً ، بهذه الطريقة يغنى الضعفاء ، ولكن بفكر الاقدام وحسب السبق وقوة النشاط ، وجميع قوى الفطرة البشرية تعمل عملها ، والمرء يقوى بالجهاد ، والأمة يتجدد شبابها ، والذهب يسيل كالسيل على البلاد ، لا تكمل المدنية اذا خلا المجتمع من طبقة الأشراف ، أو تنقصه الحياة العظمى المستقلة المنبئة الى أقصى أشواطها المجردة من هموم الشح ، قال أحدهم : ويل للقصور وسلام على الاكواخ ، والاولى أن يقال : سلام على الأكواخ وسلام على القصور • قال (تين) : تغدو انكلترا في الحقيقة

جمهورية ، تصوغ لها طبقة الأشراف ما تحتاج اليه من الوزراء والنواب والقواد والساسة كمدرسة هندسية تعد القدر اللازم من المهندسين ، كثير منهم ضعفاء عجزوا ، لا ينالون خدمة حقيرة الا أن ينفقوا دخلهم ، ولكنك تأخذ من هذا العدد من تحتاج اليهم من أركان الجيش ، ولا أمن من الحصول على مثل هذا الضرب من الرجال • بقدر ما ترى من عزوف الانكليز خارج انكلترا عن الناس ، واشمئزازهم تجدهم في بلادهم الى الالفة والتعاطف ، وكل شيء يتم عندهم في الأندية (الكلوبات) • ومن الغريب أنك لا تجد في انكلترا وزارة للمعارف ، كما تجد وزارة للامور الخارجية والمستعمرات مثلا ، والأمة تعلم ابناءها بالمعونات والعطايا والأوقاف وتكثر الجمعيات لانقاذ الفريقي وتنصير اليهود ، ونشر التوراة ، وترقية العلم ، وحماية الحيوانات ، وقمع الرذيلة ، والغاء عشور أرباب الدين ، وجعل العملة أرباب أملاك ، وبناء بيوت جميلة ، وتوفير دراهم لهم وللحجرة ، ونشر المعلومات الاقتصادية والاجتماعية ، وحسن استعمال يوم الاحد ومقاومة المسكرات ، وتأسيس مدرسة للمعلومات وهلم جرا •

هذا في جمعيات وهي تعد بالألوف أما منتدياتهم التي يعمرها في الغالب كل من عرف عندهم باسم (الجنتلمن) ، وهو من بلغ الكمال في التربية والتهديب ، فانها أكثر وأعظم • وكانت الأندية أماكن لتناول الطعام والشراب أولا ، ثم انقلبت مع الزمن قصوراً فخمة محترمة ، ولم يدخلها النساء لأول أمرها • وكان لأعضاء النادي فندق خاص بهم يحتوي غرفة مائة ومكتبة ومحل للتدخين وحجر للنوم ، بحيث يكون المرء في ناديه كأنه في بيته الذي يؤويه ؛ ثم استخدمت الأندية للأحزاب السياسية ، ثم انقسمت أقساماً بحسب مقاصدها • وانكلترا في مقدمة الأمم في التناعي بطبقاتها ، لا يستطيع فيها أهل طبقة معينة أن يختلطوا بغير طبقاتهم ، ومن الأندية السياسي والعلمي ، ومنها أندية الرياضات البدنية والحمامات واللعب والشراب وأندية العزاب ، وهناك أندية خاصة بأبناء حرفة معينة وفكر معين ، حتى صارت الاندية تعد بالآلاف في بريطانيا العظمى ،

ومن ثمرات الاندية عند البريطانيين أن أهل كل حرفة وطبقة يعرفون في
أنديتهم أقدر الرجال فيهم ، فإذا جاء وقت انتخاب المجلس النيابي ، يكون
لمبرزيهم منهم أعرف الدعاة لهم ، فيختارونهم للنيابة عن الامة ، أي أن أعضاء
نادي الاشراف وأعضاء نادي الحوذيين والسواقين والسكافيين والطبايعين
والوراقين والغزالين والفحامين ، بل وكل ما يخطر ببالك من أرباب الصناعات
المختلفة يستعينون بالاندية على اختيار مدارك اخوانهم ، فينبون عنهم أخطبهم
وأعقلهم وأفهم علما . ومن غرائب الاندية في (لندرا) اليوم نادي السكوت ،
وهو للصم البكم ، ليس فيه كلام يسمع ولا جرس يقرع ، ومن يدخل
النادي من المشتركين فيه ، يكبس زرا كهربائية ينير قطعة من المكان ، فيفتح
له ، وبنور الكهربائية أيضا اصطلحوا على اشارات للتفاهم بينهم ، ويدخله
الرجال والنساء ، يلعبون بالبيارد ، أو يتحدثون أحاديث صم ، ويفنون غناء
الصم . وفي (لندرا) ناد للمعتزلين عن الناس ، لا يدخله الا من ضاقت
صدورهم من الوحدة والعزلة ، ولا يقبل فيه النساء الا بعد سن الخامسة
والعشرين ، وقد جعل دوليا عاما ، ولا يؤدي المشترك فيه شيئا ، وهو غريب
في بابه لانه يضم أناسا من أهل الارض بأسرها ومن جميع الطبقات الراقية ،
وفيه طائفة كبيرة من أرباب المكانة والشهرة . وعندهم ناد اسمه نادي (العجل
الذهبي) ، ونادي (القط الاسود) ، ونادي الادياء وهو نادي اعظم الادياء ،
ونادي ١٠١ ، ونادي الست ساعات وهو ناد أعضاؤه يدخلون اليه كل يوم الساعة
السادسة ويخرجون الساعة الثانية عشرة ، ومع كل واحد منهم كتاب ، والنادي
الدائم وعدد أعضائه مئة يقسمون أن لا يبرحوا منازلهم مهما كلفهم الامر من
المخاطر ، حتى انه حدث يوما حريق قرب ناديهم فلم يخرجوا منه الا بقوة
الشرطة » .

وراح يعدد الاندية وأنواعها ومزايا كل ناد ، وغرائب عادات
أعضائها ، وشرع يتكلم على أصحاب المقامات في المجتمع البريطاني ، فقال :
(ص ٧٦ من الجزء الثاني) :

« طبقة اللوردات أو الاشراف في انكلترا ، غريبة في غناها وعاداتها

وشممها ، وهي تعد جزءاً مهماً من البلاد او ما زالت أراضيها تتنقل بحسب قانون الوراثة في البكر من يد الى يد على اختلاف القرون ، وكم من لورد نبيل يملك ألوفاً من الافدنة ، جعلها غابات ليصيد بها مرة أو مرتين في السنة ، وكم من لورد لا يعرف أملاكه حتى قيل ان أحدهم يملك مزرعة عظيمة وكل يوم يطبخ الطاهي الطعام لاثني عشر انسانا يحضرون لتناول الطعام على أمل حضور اللورد ، ويسرج له سائسه حصانه وينتظره في المكان الذي يرجى أن يصل منه ، وهو لا يجيء ، بل لم يحضر ولا مرة واحدة ، ولكن هؤلاء الملوك بغناهم يظهرون يوم الشدائد بخطر غريب من الحمية والوطنية والسخاء ، وقد رأينا منهم في الحرب العامة الاخيرة ما أدهش من بذلهم في نصره انكلترا وحلفائها • في انكلترا سبعة وعشرون دوقاً ما عدا الدوقات الذين هم من دم ملكي يملكون نحواً من ٢٥٠٠ مزرعة كبرى ، أي اراضي نصف المملكة على التقريب ، ويقدرن مساحة اراضي الدوق دي سوترلاند ١/٣٥٨/٥٤٥ فداناً ، بلغ دخلها منه عشرين سنة زهاء ١٤١ ألف جنيه ، ويجيء بعده لوردات منهم من يملك دخلاً سنوياً قدره مئتا ألف جنيه ، ومنهم أقل ، وأدنى ما يملك أحد الدوقات الصغار عشرة آلاف فدان ، ويتألف من هؤلاء الدوقات وألقابهم وغناهم أمتن أساس في بنیان المجتمع الانكليزي الحاضر ، وهم المحور الذي تدور عليه الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد ، ولطالما كان هؤلاء الاشراف منذ القديم موضع احترام انكلترا ، وقد تركت حقولهم وغاباتهم بدون أن تتعهدوا الايدي ، تركوها لتكون متنزهاً ومجالاً للارتياض والصيد على حين تنقطع ألوف من الايدي عن العمل لقلّة الاراضي التي تعمل فيها ، ويتحكم الاشراف في مزارعيهم ومزارعهم تحكما غريباً •

وبعد ، فان غنى انكلترا المشهور محصور في أيدي الاسرات المتنازعة المختارة من طبقة الاشراف وأغنياء الطبقة الوسطى ، والرفاهية وقف عليهم وحدهم لا يشاركون فيها غيرهم من أهل الطبقات الاخرى ، كما هو الحال في فرنسا ، وقد بلغ في هذه الحرب أو بعدها عدد المعوزين الذين تجري عليهم الحكومة الانكليزية الجرايات وتطعمهم الجمعيات الخيرية ، زهاء مليوني

انسان من خمسة وأربعين مليوناً ، ويقول بعض المفكرين ان السبب في هذا الشقاء أن أهل القرى يقصدون المدن ويتخلون عن الزراعة لقلّة مالهم من الأرض المملوكة ، فبعد أن كانت أراضي انكلترا تطعم البلاد أكثر من نصف السنة أصبحت لا تكفيها خمسة وثلاثين يوماً ، وكل يوم تقفر المزارع وتعمّر المدن ، هذا مع ما أصاب المعامل من الفتور لقلّة رواج المصنوعات بعد الحرب ، وأملاك الأشراف مهملة لا يستفاد منها ، وتلك الأيدي العاملة تنقطع اضطراراً عن عملها لأنها لا تجد ما تعمل في الصناعة أو التجارة ، وكانت تعمل في تلك الأراضي لو وزعت توزيعاً معقولاً ، فأشراف انكلترا هم العائق الكبير في كل إصلاح وارتقاء ، وأملاكهم هي الحاجز الاقتصادي الحائل دون نماء الراحة العامة ، فعليهم التبعة العظمى في غلاء المعيشة وقلّة الأعمال والشقاء الاجتماعي » .

هذه أفكار تقدمية تجديدية بالنسبة الى زمان صدورها قبل أكثر من خمسين سنة ، هي أقرب ما ينادي به اليوم في الامم المتأخرة بالاشتراكية أو العدالة الاجتماعية ، وكأنه يريد أن يقول بالغاء الاقطاع وبضرورة الاصلاح الزراعي في توزيع الأراضي الشاسعة التي يمتلكها اللوردات والنسلاء . و « التأميم » في انكلترا قد شمل اليوم كثيراً من المرافق ، والضرائب التصاعدية وصلت الى ٩٦٪ في بعض الحالات قد طبقت بعيد الحرب العالمية الثانية وبذلك حددت الدخل للقطاع الخاص وللأفراد ، والتعاونيات قد انتشرت في المدن والقرى والرعاية الاجتماعية عمت العجز والمرض والبطالة وكفلت لهم عيشاً كريماً ، وبذلك قل الشقاء بين الطبقة الفقيرة والعاملة ، وضعف ايراد الاغنياء تدريجياً ، والامم سائرة في تحديد الملكية وتطبيق العدالة الاجتماعية في مجتمعاتها رضي الاغنياء أو سخطوا ، فليس من المساواة أن يتمتع قدم ورت عن أبيه آلاف الافدنة ولا يقوى على استغلالها ، وجيرانه وابناء محيطه لا يملكون شبراً من أرض يزرعونها .

وكتب الاستاذ محمد كرد علي عن دير الاسكوريال لمكانة مكتبته الشهيرة وما تحتوي من المصادر العربية ، ولان اسم الاسكوريال يتردد في ثبث كثير من

المؤلفات فعقد له فصلا كتبه في أثناء زيارته الاندلس ليشاهد الآثار الباقية من
مدنيتها الزاهرة ، قال :

« أهم ما في ضاحية مجريط دير الاسكوريال على واحد وخمسين كيلو
مترا منها ، بناء فيليب الثاني ، ونجزت عمارته سنة ١٥٨٤م ، وعمر فيه
حفيدة فيليب الرابع البانشيون مدفن العظماء من آل الملوكي ، وقيل انه
أنفق على الدير خمسة عشر مليوناً ونصف المليون من البستاس ، أي الفرنك
الاسباني ، والاسكوريال كما قال واصفوه من الافرنج مثال مما تعمله الارادة
ومما لا تعمله ، فقد قيل ان الارادة قادرة في بعض الاحوال وعاجزة عن
ايجاد عمل واحد يدل على نبوغ وعبقرية ، وهذه الشعلة الآلهية قد نقصت
في عمل بانبي الدير : فمن انه نشأ في عهد لم يشتهر بقوة الابداع ولا بسلامة
الذوق ، فجاء بناؤه جافاً رغم ما تعاوره من أيدي المهندسين . لم ينم عن
لطف ، ولا حوى أسباب الجمال ، وغلب على البناء تصنع الملك فيليب في
مظاهر ابهته وعظمته ، ولطالما ضيق صدور أسرته وحاشيته فلم يكن لهم
هم الا أن يدهنوه ، وكان من طبعه أن يتدخل فيما لا يعلم حتى أفسد على
المهندسين عملهم أو كاد ، وجاء العمل الذي أبقاه للاعقاب حتى يفتخروا به
وليس فيه كبير أمر من جمال الهدام ، أشبه بسجن مظلم وديماس منحوت .
وأهم ما يلفت النظر في هذا الدير ، دار كتبه ، وفيها خمسة وأربعون ألفاً من
المجلدات ، حوت كثيراً من المخطوطات والنقوش والرسوم ، ومنها الكتاب
المقدس الذي كان يقرأ فيه بعض ملوك اسبانيا في القرون الوسطى ، وبعضها
كتب باللاتينية ، ومنها ما كتب بالاسبانية أو اليونانية ، ومنها المزين بأجمل
الرسوم ، ومنها المذهب المكتوب على رق ، وبهنا من هذه المكتبة مجموعة
الكتب العربية وهي ألفا مجلد ، كانت السفن الاسبانية غنمتها من مرآب
لاحد ملوك مراكش المتأخرين ، وكان في هذا الدير قبل القرن السابع عشر
نحو ثلاثة آلاف مخطوط عربي ، فالتهمتها النار في الحريق الذي نشب في
الدير مع ما التهمت من الكتب الأخرى . فليست الكتب العربية في خزانة
الاسكوريال اسبانية المصدر كلها كما أكد لنا أحد علماء الاسبان ، وصاحب

البيت أدري بالذي فيه ، أخبرني أن الاسبان غنموا هذه الكتب من سفينة كانت لاحد سلاطين المغرب الأقصى ، فوَقعت في أيدي الاسبان ، وقال آخر إن أصل هذه المجموعة كانت لاحد سفراء اسبانيا لدى الباب العالي ، ولما غادر الاستانة أهداها للملكه ، فوضعها في هذا الدير الذي كان ملكا له ولآله من بعده . والرواية الاولى أصح . وقد وصف هذه الكتب باللاتينية أحد رهبان الموارنة سنة ١٧٤٩ وفيها ١٩٥٥ مخطوطا ، رأيت نموذجان منها ، وقرأت وصفا آخر كتبه أحد علماء المشرقيات من الفرنسيين ، ولا سيما القسم الذي يهمني منها .

عراني في هذا الدير ما عرا كثيرين قبلي من السويداء ثم السكون والراحة والبرودة التي تدعو الى العزلة والتفكير والانكماش والدرس ، وانك لتشعر وأنت تسير تحت قباب الاسكوريال العازية من التفنن والزينة بهواء بارد من حياة الأديار ، ، كما تشعر في مدارس أكسفورد وبيعتها ، والنازل هنا يرى دافعاً من نفسه يدفعه الى أن يشغل نفسه بشيء ، وما من ملجأ أوفق لنسيان العالم يحمل ساكنه على البحث عن الحقائق وعلى الصبر في كشف المسائل المتعذرة المبهمة المجهولة مثل هذه المعاهد .

وبعنوان (ذكرى مؤلمة) كتب عن تطوافه بربوع الأندلس وما تثيره الذكرى من الألم وما تهيجه من الاكدار والأحزان ، ذكرى التطواف في الأندلس ترجع بالسائح العربي الى عزها الغابر ومجدها التالد ومدينتها الزاهرة ، فيتذكر معاهدها ومصانعها ومنتزهاتها وأرباضها ومواسم أنسها وأعيادها في الوادي الكبير في القوارب الحفيفة ونزهاتها المائية ، قال : « تذكرت ذلك اليوم المشؤوم وقد رفع الصليب الفضي على أبراج الحمراء ، اشارة الى ظفر الأسبان الأخير وخروج العرب من هذه الديار ، وقد أخذ أبو عبدالله ابن الاحمر يتحفز في حاشيته ليخرج من الحمراء قبل أن يبعثه العدو فيها ، ويتلفت وهو يجتاز جبل الثلج الى غرناطة البديعة ، فيتهد ويكي ، وأمه ترافقه وتقول له : ابك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال ، كل سنة يبالغ القوم هنا بعيد غرناطة السنوي وقد

احتفلوا به حتى اليوم ، أربع مئة وثلاثين سنة ، يتذكرون كل مرة نصرتهم على أعدائهم ويوماً تمت لهم فيه وحدتهم القومية والدينية ، وقد مثلوا أفضح مأساة ارتكبتها أنفُس متعصبة جاهلة ، وسلكوا للخلاص من مخالفهم طرقاً بشعة ، لم يسلكها هؤلاء معهم يوم استصفوا أرضهم وحلوا ديارهم ، وهم في رفعة ومنعة وغبطة وسيدة ، يحشدون يوم الحفل رجالهم ونساءهم وذراريهم ، يحضرون أرواحهم ليقظوها ، ويهيجون كواصم الصدور ليعتبروا بما وقع لهم في سالف العصور وليلعلموهم أن غلبة سنة ١٤٩٢م وان كانت من باب تسلط الجهل على العلم الا أنها دلت على أن التآر لا ينسى ولو بعد ثمانية قرون ، وما كان أجدر بالعرب أن يعدوا آخر يوم خرجوا فيه من الأندلس من أيام البؤس ، المتمثلة بالحزن ، المملوءة بالاستعبار يتناشدون فيه التعازي والمراثي ، ويتطرحون حديث محنة مضت وتذكراها المؤلم لم يبرح يتجدد وشررها لم يزل يتولد ويتوالد » ♦

وذكر أن عائلة من عرب الأندلس في الأصل ما برحوا الى اليوم وقد انسلخت أربع مئة سنة ونيف يخلف الوالد منها لبيه والكابر منها للصاغر في جملة ما يخلف مفاتيح قصر الحمراء ، فيحضر صباح كل جمعة يفتح القصر ويرش الطرقات وينظف الردهات والقاعات على أمل أن يعود اليها أهلها ويفتحوها وينزلوها من جديد » ♦

وختم الأستاذ محمد كرد علي موضوعه بما يحفز الأمة العربية للنهوض ، وجعل من هذه الذكرى موعظة للعرب أن يذكروا مجدهم ومدنيتهم وأشأوا لهم دولات كانت غرة في جبين الدهر العاير ومنازاً للناس ♦ حدوا ركب الانسانية الى المعرفة والحق والتوحيد ، قال :

« وحقيق بكل بلد للعرب فقد استقلاله أن يقيم كل سنة المآتم على ما حل به ، خصوصاً في البلاد التي يعث فيها المتغلبون بمشخصات المغلوبين » ، وقال : « ان العرب الذين أشأوا من العدم مدينة الأندلس ، وقاموا في عصور الظلمات بأعمال لا يكاد يصدق الناظر اليها أنها بنت قرائحهم وثمره عقولهم ، لو لم تتناصر على ذلك أصدق الروايات ،

لا يعجزهم اليوم والعصر عصر النور أن يقوموا بمثل ما عمله أجدادهم ، لو نفس خنائهم وملكوا قياد أنفسهم ، بعض أهل العرب حرب على الشرق ، وسوف تكون لهذه الغلبة للاحتفاظ بدياره وآثاره ، ولا بد ان تغلب أمم الشرق على الغرب المعتصب . أضعف أمة اليوم في الغرب لا يبلغ عدد أهلها عدد أهل اقليم واحد من أقاليم العرب أو قطر من أقطارهم ، تتناغى الليل والنهار بآثارها ، وتتحدث بمفاخر أجدادها ، وتقديس أعمال نوابغها ورجالها ، ولا تنسى يداً للمحسن إليها ولا اساءة مجرم جنى عليها .

العرب توغلوا يوم اشتد سلطانهم في جنوبي أوروبا ، ونشأت لهم حكومات في شبه جزيرة ايريا وجزيرة صقلية وسردانية ، فارتكبوا جنائية في عرف أهل تلك الديار ، أفليس من العدل أن تغتفر لهم هذه الهفوة أو الغزوة في جانب ما حملوه الى من غلبوهم من ضروب المعارف والصناعات ، ومستحسن الآداب والأخلاق ؟ العرب حملوا الى الأندلس حضارة رائقة ونظاماً محكماً ، أحلوا محل الفوضى والتوحش والسخافات والخرافات . تود كل أمة اليوم مهما بلغ من تراجع الحضارة بينها أن تحكم نفسها بنفسها ، وتمثل شخصياتها ومقدساتها ، فهل يتال العرب هذه الأمانة ، وهم ليسوا دون بعض الأمم الأوربية التي أخذت تتمتع بالوحدة تلو الأخرى باستقلالها منذ قرن من الزمن ؟ فليس كل أمم أوروبا بحضارة الانكليز والالمان والفرنسيس ، ولا كل الشعوب العربية على مستوى واحد في الحضارة والتطور . »

وما كتبه الأستاذ محمد كرد علي في هذا الفصل وفي فصول أخرى ومقالات عديدة من أفكار قومية يجعله في مقدمة زعماء العرب القوميين المفكرين أصحاب الفكرة والدعوة للابنعات العربي والحادين لركب العروبة والوحدة والداعين للتحرر من ربة الاستعمار، ولم يشعر يوماً بأنه غير عربي برغم تحدره من دم (آري) كما ذكر في ترجمة أسرته ، غير أن المربي والمواطنة والشعور بالمفاخر الاسلامية والعرس الاسلامي والتأدب بأداب الدين الخفيف وتفهمه للعربية وأسرارها ووجه لثرها وشعرها كل ذلك

جعله عربياً مخلصاً لدينه وقومه يفضل الألوف من مدعي القومية وهم لم يخدموها بعض خدماته الجليلة •

وبمناسبة ذكرى غرناطة ، أقول : ان الشاعر الأسباني « فرنسيسكو فيلا سباسا » ، ويقال انه من أصل عربي ، نظم قصيدة بعنوان (أواه غرناطة) يبكي بها مجدها الغابر ، ويتحدث عن صولتها ومدنيتها ومجدها الضائع ، ويبكي عزلتها ووحدتها ، وقد عربها المرحوم فوزي المعلوف ، أثبتنا نقلاً من ديوانه (١) :

غرناطة ، أواه غرناطة
هل نهرك الجاري سوى أدمع
والنسمة الغادية الرائحة
ما عدت في النهر كسلطانة
للقبة الحمراء في تاجها
آه على أمجادك الضائعة
مرت مرور النهر في جريه
غرناطة أواه غرناطة
لله حمراؤك تحسو الأنى
لم يبق لا زهوة ندمانها

لم يبق شيء لك من صولتك
تجري على ما دال من دولتك
هل هي الازفرة نائجه؟
جبهتها في مائه ساطعه
وهج ، وللمأذنة اللامعه
شيبتها بالنظرة الدامعه
وأورتك النوح في عزلتك
لم يبق شيء لك من صولتك
وحيدة في الروضة الخالية
ولا صدى أعيادها الماضية

ولم يعد للحب فيها أنين

ينقله العود عن العاشقين

بيننا يجيل البدر الحاظه

بين أريج الزهر المنتشي

وقصرها الخاوي بأرجائه

كم غمر الليل بأضوائه

(١) الطبعة الاولى ، دار الريحاني ، بيروت ١٩٥٧ •

اذ الجواري خاطرات علي سجاده ، جارية جاريه
أروع ما في الشرق من رقصة تنسجه أقدامها العارية
تحمل أسراب السنونو الى افريقيا أنباءك الفاجعة

هناك أنباؤك من بأسمهم

باكون لا باكون من بأسمهم

عروا من الأعماد بيض الطبا ووشحوا الخيل بيض السروج
ويمموا البحر فلما بدت منك على الافق جبال الثلوج

خروا على أوجههم راكعين

وزفروا من قهرهم صارخين

غرناطة أوام غرناطة ضعت ، فيا للعظم الضائعه
فيزفر الموج ويكي لهم حين يرى أعينهم دامعه

٢ - البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية

وهذا الكتاب، لم يكن من تأليف الاستاذ محمد كرد علي، وانما اشترك في تأليفه وكتابة فصوله أربعة كتاب ، هم : محمد كرد علي صاحب المقتبس ، ومحمد الباقر صاحب البلاغ ، وعبدالباسط الأنسي صاحب جريدة الاقبال ، وحسين الجبال صاحب جريدة أبابيل ، ولكن محمد كرد علي جبر أكثر فصوله ، وموضوع الكتاب وصف رحلة رحلها نخبة من رجال العلم والدين والادب والصحافة يرأسهم الشيخ أسعد الشقيري برغبة من أحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع وناظر البحرية العثمانية ، وقد طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر في بيروت سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٦م ، في ٢٩٦ صفحة من قطع الربع . وكانت الرحلة من الرحلات الدعائية السياسية ، غايتها : الدعاية ، وتأيد الدولة العثمانية وحلفائها ، وترويج سياستها ، وقد جاء في مقدمتها : « وبعد فلما قامت دول الاستعمار انكلترا وروسيا وفرنسا وايطاليا في سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م على دولة الخلافة ، تتربص بها الدوائر ، وترمي بما

فيها من قوة الى حل عراها وتمزيق جامعتها واستصفاء بقاعها ورباعها ،
 ليخلو لها الجو ، وتعبث بعد بمصالح ثلاث مئة مليون مسلم في الشرق
 والغرب ، بضربها على آخر سلطنة اسلامية مستقلة ، رأت الدولة العلية ،
 أعزها الله ، وانصارها ، وهي الحامية الوحيدة للمسلمين منذ ست مئة عام
 أمام دول الغرب الافرنجية ، أن تحالف ألمانيا والنمسا والمجر ، لتقوى على
 دفع تيار المعتدين من المستعمرين ، فكان من روسيا أن بدأت بالاعضاء يوم
 ١٦ تشرين الأول ١٣٣٠ و ٩ ذي الحجة سنة ١٣٣٢ على الأسطول العثماني ،
 بينما كان يقوم بتمرينات بحرية في شواطئ البحر الأسود ، فقابل أسطولنا
 أسطولها بالمثل ، فلم تلبث أن دخلت غمار الحرب حليفاتها الأخرى ،
 فأرسلت كل من انكلترا وفرنسا الى مضيق چناق قلعة (الدردنيل) بطائفة
 كبرى من جيشيهما وعشرات من دوارعهما وطراداتهما ورعاتاتهما
 وبوارجهما ، فاحتل الجند أماكن من شبه جزيرة (كيلولي) وهي سد
 البحر (واري بروني) ، وأخذ يحاول أن يتقدم في بر تلك العدو ليصل
 منها براً وبحراً الى دار الخلافة ، ومتى قبضت بزعمها على الرأس استكانت
 جميع الأعضاء • فوقفت الجيوش العثمانية موقف من عرف معنى الوطن
 والدفاع عن الذمار ، وزاحمت تلك الجموع التامة العدة والعديد بالمناكب
 والصدور ، وجندنا محتسب نفسه ، معتمد نصر الله وعونه ، واشتدت الملاحم
 بيننا وبين أعدائنا مرات ، وهم على ما جهدوا لم يستطيعوا أن يحتلوا أكثر
 من خمسة وعشرين كيلومتراً على طول هذه المواقع الثلاثة من الساحل تحت
 حماية الأساطيل ، وكلما أرادوا أن يخطوا شبراً يلقون ضراً وشراً ، وجند
 المسلمين يذيقهم ألوان العذاب ، وينزل بهم من الهزائم ما صغروا في عيون
 أنفسهم ، وعلمو أنهم غرتهم أساطيلهم وجيوشهم ، وأعجبتهم كترتهم ،
 وأسكرهم دهاؤهم وغلواؤهم ، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين •
 مضت تسعة شهور على هذه الحال ، والبحر من وراء العدو تحمل اليه
 أساطيله ما يحتاجه من الميرة والسلاح والكراع والمدافع والقنابل والطيارات
 والقذائف ، وجيشنا المرابط المجاهد يصابر ويطاول ويقاوم ويصاول ، حتى

استحكمت اليأس من قلوب الأعداء ، وأيقنوا أنهم يضرّبون في حديد بارد أو ينقشون على لجة البحر » •

هذه لغة الدعاية واضحة ، تظهر للناس ، ولا سيما البلاد العربية سورية وفلسطين والعراق وغيرها قوة الجيش العثماني ، وأنهم قادرون على صد الحلفاء برغم كثرتهم وأسلحتهم المتفوقة « وكان بعضهم حتى في الأراض العثمانية يشكون في سرهم بصحة ما كان يترامى الى سمعهم من الطرق الرسمية من المحادثات والمبشرات ، وذلك لما وقر في الأذهان من قوة العدو الموهومة وبطشه المستمر في البر والبحر وان ربك لبالمرصاد ، فرأى صاحب الدولة أحمد جمال باشا ناظر البحرية والقائد العام للجيش الرابع المخيم في ربوع سورية أن ينتدب أناساً مأمونين من أهل هذا القطر لزيارة الغزاة في حناق قلعة ، ليصروا بأعينهم مبلغ حوادث الانتصارات من الصدق ، حتى اذا رجعوا الى قومهم يصفون لهم ما شاهدوا ، وليس بعد العيان من شاهد ثم أن هذا الوفد يقيم مدة في عاصمة دار الملك ، يختلط بأهلها ، ويقف على مكنونها وأوضاعها ومعاهدها ، ويؤكد للترك عواطف العرب القديمة ، وهما الشعبان اللذان حيا بيضة الخلافة يداً واحدة منذ أوائل الدولة العباسية ، لم يتراجع لهما جيش ولا التوى علم ، وهكذا سار الوفد السوري الفلسطيني من طريق البر الى (فروق) عاصمة السلطنة العثمانية ، ومنها الى شبه جزيرة گليولي • ولما آب الموفدون بعد شهرين ، وسكنت نائرة النفوس من بديع ما شاهدته الأبصار واستمعت به الأفكار ، وجاءت البشائر بعد شهر بأن العدو ركن الى الفرار بجملته تحت جنح الظلام من الاماكن التي احتلها في فم المضيق من شبه جزيرة گليولي مولياً الأدبار بقايا أساطيله وجنده التي أبقى عليها أبطال العثمانيين ، وقع الاستحسان على تسجيل تلك الرحلة المباركة لتجعل في كتاب يتلوه الأعتاب على توالي الأحقاب ، ليكون خدمة للحق الصحيح والتاريخ الصريح » •

من هذه المقدمة ندرك أن الرحلة للدعاية ولاظهار شعور العرب

للدولة العثمانية وتقوية للحزب الحاكم الذي جر على البلاد تلك الحرب
الضروس *

غادر الوفد مساء ٢٠ ذي القعدة ١٣٣٣هـ مدينة حلب على قطار خاص
في عربات مكشوفة ، لأن خط الحديد في هذا الجزء من حلب الى الاصلاحية
لم يفتح رسمياً ، والاصلاحية اول مدينة من ولاية (أطنة) والأتراك
ينطقونها (أذنه) وهي تعد من أوائل بر الانضول ، ويوم زارها الوفد لم يكن
فيها شيء من آثار المدينة ، ليس فيها نزل ولا فندق ، تساوى في رداءة العيش
غنيهم وفقيرهم ، وهي بحالها كانت دليلاً ناطقاً على تأخر الولايات الانضولية ،
ومتخلفة عمرانياً عن ولايات الشام ، وقام الوفد من الاصلاحية ، يقلهم
القطار السريع * فلما انتهى الى جبل الساعات ذلك الجبل الشاهق والمعروف
بجبل كاور طاغ أو جبل اتيللي ، أخذت هذه العربات بالكلل والتباطؤ ،
وداخل الوفد رعب شديد من اضطراب سير القطار ، فوصف ذلك الشيخ
عبدالكريم عويضة فقال :

أيا جبل الساعات ، ليتك لم تكن
مشيتك في الرمضاء حتى تصاعدت
وشاهدت هول الحشر فيك ولم أكن
ولكنني اذ كنت أسعى لغاية
الاحبذا الموت الذي فيه أغتدي

وقال الشيخ علي الريماوي :

من متعب بك قد شكا أوجاعه
حتى لقينا منك هول الساعه

وقال الشيخ سليم يعقوبي :

جبل الساعات لا كان ولا
انه اودى بارباب النهى
حسبنا فيه عذاباً حره
كان نبت فيه من ذاك النبات
ورمى بالعقبات العربات
وكفانا منه تلك العقبات

وعاد الشيخ علي الريماوي فعلى المصاعب التي لقيها الوفد تعليلاً
جميلاً ، فقال :

لا أرى القول حميداً في الذي نظمته الشعرا في العقبات
اننا نقصد حرباً ، والذي يقصد الحرب حربي بالثبات

عجز القطار أن يجتاز عقبات جبل الساعات ، ولم يقو على التصعيد
محملاً ، فأفرغ من حمولته ، ونزل معظم رجال الوفد يرقون قليلاً قليلاً
تلاله ومنعطقاته ، حتى انتهوا الى قمته العالية ، فلقوا من سفرهم هذا نصبا ،
وبعد استراحة غيرت عربات القطار ، وراحت تهبط بهم حتى انتهوا الى
منبسط ممرع ، والناحية ذات بساتين وأشجار ومياه ، تشبه قرى لبنان ، وفي
طريقهم الى المعمورة أهاجت تلك المناظر الخلافة قريحة الشيخ عبدالكريم
عويضة فنظم هذه الأبيات :

تخيلت اذ مر القطار بنا ضحى على بلدة أضحت لعثمان تسب
وبانت بها الأشجار من كل جانب وقد وقفت تدعو الاله وتطلب
بنصر أمير المؤمنين محمد رشاد العلى وهو المليك المحب
وقد حقق المولى الكريم رجاءها ولبى دعاها بالذي فيه ترغب
فلا زال للاسلام سيفاً على العدى تذوق به كأس المنون وتشرب

تحرك القطار وخلف بعده العثمانية بعد استراحة نصف ساعة ، فمر
بقرى ومدن عامرة ، ومر بجيحان ، وهي قضاء عامر يجري فيه نهر جيحان
المشهور ، ووصل ظهراً مدينة (أطنه) وهي ذات أنهر وبساتين وعمران ،
وواصل سيره بعد ساعة متجهاً الى طرسوس فوصلها بعد ساعتين ، وفيها
(قبر المأمون الخليفة العباسي ، توفي فيها غازياً) • أمضى الوفد ليلته في
طرسوس ، وفي الصباح هيئت له العربات اللازمة لتقله الى محطة (بوزانتى)
مبدأ الخط الحديدي الذي ينتهي بالأستانة ، فتهيأت بمعاونة بلدية طرسوس
التي دعت الوفد الى تناول الغداء ، ووفرت له أسباب الراحة والطمأنينة •

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر من يوم الأحد ركب الوفد ست عشرة عربية من العربات الخاصة ، وسارت بهم تجتاز السهول بين الأشجار والبساتين مصعدة في مراقي جبال طوروس الشهيرة بعلوها ووفرة خصبها وكثرة مياهها العذبة ، فقال الريماوي هذين البيتين في هذه الجبال التي تناجي الأفلاك :

جبال طوريس هل مطار لمرتقى سواك لأعلى قمة ومقام
أطلت جبال القدس منك بعيدة فمن مبلغ عنى الحبيب سلامي ؟

وقد ظلت العربات تقطع بهم التلال والوهاد حتى انتهوا الى ناحية (جام الاكي) وباتوا ليلتهم فيها ، واستأنفوا سفرهم في أنجاد هذه الجبال وأوعارها بعد أن ودعوا المدير ومفتش المنطقة العسكرية ، وظلت العربات تسير بهم حتى باتوا في ناحية (بوزاتي) وقد نصبت لهم سرادقات خاصة لمبيتهم ، وكانت هذه المحطة آخر محطة قبل وصولهم الاستانة ، فكان الفرح مشتركاً بين المستقبلين وأعضاء الوفد ، وقد اغتمم الرئيس الشقيري فرصة اجتماعهم في الجامع فألقى عليهم محاضرة أخلاقية سياسية اجتماعية ، وبسط المقصد الحقيقي من ذهاب الوفد الى الاستانة وما سيلاقبه هناك وما يجب على أعضائه من الظهور بالمظهر اللائق والرزانة والوقار والنظام » .

وقررت الهيئة الادارية للوفد بعد هذه المحاضرة ترتيب أعضائه وتقسيمهم الى هيآت ، ولجان ، بحسب تقسيم الولايات ، فكان الترتيب كما يأتي :

- ١ - وفد ولاية دمشق - ٢- وفد ولاية بيروت - ٣- وفد ولاية حلب
- ٤- وفد متصرفتي القدس ولبنان .

واتفق أن يكون المفتون للولايات في مقدمة الوفد فلمدرسون والعلماء فالأكابر والأعيان ، وأن يكون أرباب الصحف في مؤخرة الوفد هيئة ناظمة جامعة تلاحظ من يتخلف أو يعرض له عارض .

ومر الوفد بين أسكي شهر واستانبول بالعديد من القرى الجميلة

والبلدان العامرة ، وقد احتفل بتحية الوفد في معظم النواحي التي مر بها
ولا سيما في آقحصار وصبانجة ، فان الأهلين وموظفي الحكومة والتلاميذ
كانوا يستقبلون الوفد بالترحاب ، ويحتفلون بهم بحفاوة بالغة ، ويقدمون
لأعضائه أنواع الفواكه • وقصارى ما يقال انهم كانوا يمرون بمناظر ومشاهد
قل أن يوجد لها نظير ، وقد وصفها شعراء الوفد فقال سليم يعقوبي :

صبانجة دار دونها مصر بهجة وهل شابهتها في محاسنها مصر ؟
يحيط بها روض به كل ثمير ويجري بها من كل ناحية نهر

وقال الشيخ عبدالكريم عويضة :

صبانجة فيها جنة الله قد جرى بروضتها الغناء نهر تفجرا
قلو لم تكن خلد الجنان حقيقة لما سال فيها ذلك النهر كوثرا

وقال حسين الجبال :

صبانجة روض دونه كل جنة حدائقها تحكي الزمرد منظرا
تحيط بها الأشجار من كل جانب وفي وسطها تجري الينابيع كوثرا
بحيرتها في جانب البحر بهجة وفي وصفها لب اللبب تحيرا
وفي الجانب الشرقي جبال توشحت بحلة ياقوت ترصع جوهرها
مدارسها أضحت سماء معارف وولدانها تحكي النجوم وازهرا

ووصل الوفد دار الخلافة مساء الخميس ٢٤ ايلول ١٣٣١ رومي ،
فكان في استقباله مندوبو الوزارات والحرس السلطاني وثلاث من البوليس
والجنדרمة والبلدية والموسيقى العسكرية وخلق كثير من طبقات مختلفة ،
وعزفت الموسيقى حين ترجلهم من القطار ، وحياهم الجند • وبعد أن
تعارفوا بالمندوبين والأدلاء ركبوا يختاً أقلهم الى جسر الأستانة ، ومنه أقلتهم
العربات المعدة لنقلهم الى (شاهين باشا) في محلة السرکه جي ، وهو نزل
كبير ذو خمسة طوابق وترتيب جميل وأثاث فخم وبعد العشاء ، وزع عليهم
منهج الوفد خلال اقامته بالاستانة قبل ذهابه الى الدردنيل ، وعين للوفد أدلاء

وموكلون ليصبحوا الوفد في تنفيذ منهجه الذي وضع له ، برئاسة قائد مركز العاصمة القائم مقام جواد بك ، وله معاونون عسكريون ومدنيون من الحرية والمشيخة والداخلية ومن مركز الحزب ومن أمانة العاصمة ، وزارهم موفدون باسم شيخ الاسلام وعن نظارة العدلية والداخلية وعن مجلس المبعوثان (النيابي) ، وزارهم الميرالاي (العميد) ابراهيم بك حاجب الذات السلطانية باسم جلالة السلطان محمد رشاد ، وعن مجلس الأعيان وعن ناظر الحرية وعن الصدر الاعظم (رئيس الوزراء) ، وزارهم جمع غفير من العلماء والمدرسين الدينيين والامراء والوجوه يهتئون بسلامة وصولهم ويرحبون بمقدمهم •

وتناول الوفد وجبة الغذاء قبل ذهابهم الى صلاة الجمعة ، ثم استقلوا العربات الى قصر يلدز لأداء صلاة الجمعة في جامع السلطان عبدالحميد بحضور الخليفة ، فاستقبلوا بالترحاب ، وكان الخليفة جالساً في المقصورة الخاصة ، واستأذن رئيس الوفد من الخليفة أن يتولى الخطبة أحد رجال الوفد ، فأذن للشيخ عبدالقادر الخطيب خطيب الجامع الاموي في دمشق ، فكان لخطبته وقع حسن في نفس الخليفة ونفس المصلين من رؤساء ووزراء وعسكريين • ولما انتهت صلاة الجمعة ، وخرج الوفد ، وقفوا تجاه المقصورة ينتظرون خروج الخليفة لحيوه ، ولكنه اكراماً للعلم وأهله أمر أن يحضروا الى قصر (جيت) أحد قصور (يلدز) ليرحب بالوفد ، وفي القصر قدمت لهم المرطبات ، وأكرم رجال المايين (رجال الحاشية) أعضاء الوفد ، وبعد هنية أذن لهم بدخول المقصورة ، فخرج اليهم السلطان ، فحيوه بالاجلال ، ورحب بهم ، ورد عليهم رداً جميلاً ؛ وألقى رئيس الوفد الشيخ أسعد الشقيري كلمة مناسبة « وعرض على الذات السلطانية الغاية من حضور الوفد » فقال :

« ان الوفد العلمي العربي زار عاصمة الخلافة العظمى والامامة الكبرى ليرفع لأعتاب الخليفة الأعظم اخلاص العلماء والأشراف وسائر الأهالي في سورية وبيروت وفلسطين وحلب ولبنان وملحقاتها ، ويشخص بعد ذلك

الى ساحة الحرب في الدردنيل ليشاهد بأمر العين الشجاعة والبسالة والاقدام التي يظهرها آساد العثمانيين وأبطال الموحدين في ميادين الوغى ، وليلغهم سلام الشعب العثماني في تلك الأصقاع ، ويظهر ما تكنه صدر الأمة الاسلامية من عظيم الشكر والامتنان لأولئك الابطال الذين أتوا من ضروب الشجاعة ما حير الألباب ، ومن الخوارق ما أدهش العقول ، دفاعاً عن حوزة الخلافة العظمى وبيضة الدين الاسلامي المبين ، وذكر ما أجراه الجيش الرابع من الاصلاحات الحقيقية في سورية وفلسطين ، وما قام به قائده العظيم أحمد جمال باشا من الأعمال التي سيزين بها التاريخ الاسلامي » •

فكرم حضرة الخليفة ، وأجاب بقوله :

« لقد سررت بمرآكم جميعاً يا علماء الدين ، ولا سيما لمصادفة قدومكم لدار الخلافة قرب ختم قراءة البخاري الشريف الذي أقرؤه منذ بداية الجهاد حتى اليوم الى ليف من العلماء الصلحاء في حجرة المخلفات النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة واشرف التحية ؛ ولا يخفى أن قراءة البخاري الشريف بحجرة المخلفات النبوية تكون روضة من رياض الجنة ، واني أصدر ارادتي أن تزوروا تلك الدائرة ، وتشاركوا في الدعوات المستجابة عند ختم التلاوة للبخاري الشريف ، فاني علقت ختم البخاري على قدومكم » • ثم قال : « انه كان مبتهجاً جداً من البرقيات التي كانت ترد اليه من بلاد العرب تستفسر عن صحته ، وانه رأى آثار تجليات باهرة من ختم البخاري » • ثم أوصى رجال الوفد بتدقيق النظر في المعامل والحصون المنشأة في چناق قلعة ومواقع الحرب ، والجيوش وشجاعتها ، وأمن معيشتها ودرجة انتظامها ، وقيد ذلك كله لأجل الايضاح والبيان للمسلمين ، وعلى الخصوص السوريين والفلسطينيين ، كما أوصاهم بالوعظ والارشاد للجنود ، وبيان ما وعدهم الله عليه من الأجر والثواب ، وفضل المجاهد على القاعد ونيله سعادة الدارين والفوز باحدى الحسينين » • وقرأ بعد ذلك مفتي دمشق الدعاء ، وتكرم جلالة الخليفة وأخذ يحيي كلاً بمفرده ، وأظهر

انشراح صدره من خطبة الجمعة على الأسلوب الجاري في مساجد سورية
وفلسطين » •

نقد الوفد مفردات المنهج الحافل بالزيارات والخطب والحفلات
والآلات ، فزار ولي العهد يوسف عز الدين ، والصدر الأعظم ، وشيخ
الاسلام ، وطلعت باشا وزير الداخلية ، وأنور باشا وزير الحرب ؛ وزاروا
نصب الحرية ، والحديقة العامة ، والأسطول العثماني ، والمتحف الهمايوني ،
والمتحف السلطاني ، والمتحف العسكري ، والخرقة الشريفة ؛ ولبوا دعوة
السلطان فبهرتهم الضيافة الكريمة ، كما لبوا ضيافة دعوة ولي العهد ،
وتبسطوا معه ، ووعد بزيارة بلادهم ؛ وزاروا شيخ الاسلام • وفي وزارة
الداخلية وبحضور وزيرها طلعت ألقى الأستاذ محمد كرد علي الكلمة
الآتية :

« يا صاحب الدولة والفضل ، ان الانقلابات التي وقعت منذ تشرتم
واخوانكم أحرار العثمانيين القانون الأساسي في السلطنة قد علمت الناس
وولاية أمورها تعاليم كثيرة ورقت المدارك وهذبت الطباع ، فتعلمنا بالحرب
البلقانية والحرب الطرابلسية كيف نجتمع شملنا وسير في داخلينا
وخارجيتنا ، حتى اذا نشبت هذه الحرب العامة أثبتنا أننا أمة لا تزال حية
تعمل عمل الأحياء من الأمم والشعوب ، وكانت الفلاكات الاولى جلاء
للنفوس وصقلا للعقول • كان أناس قليلون في ديار الشام يهمسون في سرهم
أوائل النفي العام بقولهم : ما لنا وللحرب ؟ ان الحياض أبقى علينا وأسلم
لكياننا ، ولم تكن الامدة قليلة حتى عرف الخاص والعام بأن الحرب مع دول
الاستعمار كانت مقررة لحياتنا السياسية والمالية ، وأن من ذهبوا اليها من
رجال الأمر والنهي كانوا على سداد في آرائهم ، وأن الحاضر يرى ما لا يراه
الغائب ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ •••••

ولما مثلت الهيئة الصحافية أمام سمو ولي العهد ، ارتجل الاستاذ محمد

كرد علي هذه الكلمة :

« يا صاحب السمو الملكي وقرّة عين السلطنة : ان مكارم أخلاقك ،

والعطف على كل من تشرف بحماك من أفراد العثمانيين وغيرهم في كل وقت
ومكان ، قد دل بأجلى بيان على أنك ابن عثمان حقاً ، ورثت صفات أبيك
الطاهرة ، وتفردت بمحامد يحسدك عليها أولياء اليهود في الامم القديمة
والحديثة • نحن على يقين بأنك العضو العامل في السلطنة منذ نعومة
أظفارك • وهكذا عرفتك الامة العثمانية طفلاً وياقفا وشاباً وكهلاً ، وكتبت في
كل أدوارك تفكر في مستقبل هذه الامة ، لولا سيف جدك عثمان ما استقام
أمرها ، ولولا عقل محمد الفاتح لما اتسعت ونمت ، كنا منذ وعينا على أنفسنا
نتحدث ونحنا أطفال على مقاعد الدراسة بمناقبك الغر • فلما قرت عيوننا
بمرأى وجهك الباهر ، وسمعنا حكمك الفطرية والكسبية ، حقق الخبر
الخبر ، وأيقنا أن من ألقى علينا درس فضائلك قال بلسان المؤرخ المنصف
لا بلسان المدلس المتعصف •••

ان سورية خصوصاً من بين البلاد العثمانية لها صلة ود قديم بشخصك
الكريم ، لانها طالما سمعت بعطفك على أهلها ، وتفكرت في سعادتها ، فهي
تطالبك بأن تزور ربوعها برا بوعدك ، ووعد الحر دين ، لترى بعينك
الشريقتين ما تكنه الصدور لك ولاسرتك السلطانية من الاحترام الذي
يقرب من حد التقديس •

بيت عثمان ، ياذا الايادي البيضاء على هذه الامة ، انك جمعت شمل
المسلمين تحت لواء الهلال المنصور قرونا ، وستكون كذلك أبد الدهر ،
فكيف لا تتأصل محبة أركانك في قلب كل وليد ، ولا تغني الوالدات أبناءها
بمحامدكم وافضالكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم وغيرها ، ربط
الاسلام برابطته المحكمة العرى بين الاتراك والعرب منذ القرن الاول للاسلام ،
ثم زادت هذه الرابطة احكاماً على عهد العباسيين فالسلجوقيين ، واستحكمت
على عهد الدولتين النورية التركية والصلاحية الكردية ، فردوا كنفنا الى
كف عادية الصليبيين عن الارض المقدسة • ولما قام جدك عثمان ، ضم
أشتات هذين العنصرين وغيرهما ، فكنا أمام العادين من دول الغرب في كل
وقت نحارب معاً ، ونعود ظافرين ببركة هذه الاخوة • ونحن اليوم كذلك

في هذه الحرب الحاضرة • وسنكون غدا وبعد غد والتوفيق حليف علمنا
الواحد الذي يظلمنا بفضلكم ، يا بني عثمان وحفظة بيضة الدين والايمان ،
فالله يبقي مجدكم على وجه الايام ممدود الرواق ، فأتم وريثة الامجد
الحقيقية ، وكل ثناء يقل في جانب افضالكم » •

ثم زار الوفد البحرية والاسطول والمعامل على اختلافها ومصانع
الاسطول ، فكتب الاستاذ محمد كرد علي ما يأتي :
« أجمل ما وقعت عليه العين في دار الخلافة هذه الآونة ، معامل
الاسلحة والذخائر ومصانع الاسطول • زرنا الطوبخانه (المدفعية) وزيتون
بروني ومعامل البحرية ، فتمثلت لنا عظمة الدولة الحقيقية ، وإطمأنت
نفوسنا على مستقبلها • ابتهجنا ابتهاجا يتعاصى على الورق تسطيره ، لاننا
رأينا فوق ما أملنا • رأينا دولتنا دخلت في طور الجد حقيقة ، ومعامل
أسلحتها ومدافعها وبارودها وسفنها وقذائفها وقابلهما وكل ما وصل اليه
العلم الحربي والبحري قد أصبح على أتمه كما هو عند أرقى الدول الا
قليلا • ألوف من العملة تعمل النهار كله ومنها ما يعمل في الليل أيضا ،
تخرج لنا بأحدث الآلات كل ما نحتاجه للدفاع عن أرضنا وديارنا ، كل
ذلك كان طي الكتمان بحيث تورط العدو فأقدم على ضرب چناق قلعة ،
وهو يظن أن ذخائرنا وأسلحتنا ومدافعنا تنضب في أيام قليلة ، فخاب ظنه
وقد رأى أن معين قوتنا لم ينضب ، ولن ينضب ولو دامت الحرب سنين •
ألوف من العملة في معامل الطوبخانه والبارودخانه وزيتون بروني وقرمه رسل
وجبوقلي ، وفي معامل أحواض البحرية ومعامل الترميمات ودار النجارة
والحدادة ومعامل الكهرباء ومعامل صب القذائف والمدمرات وغيرها ، تأتي
كل يوم بما لم نكن نحلم بأن العثماني يعمل مثله ، وقد اعتاد من قبل
الاتكال على غيره حتى في طعامه وشرابه • ولو كان انتبه الى ضم أطرافه ،
والانتفاع بقواه منذ ثلاثين سنة على هذا النحو ، لكننا اليوم في كل شؤوننا
الحيوية نمائل الاملان حلفاءنا • ولكننا مع هذا ، فأنتنا في هذه المدة القصيرة

أتينا بما لم يأت به غيرنا الا في عشرات من السنين « واسترسل في وصف المشاهد الكثيرة التي شاهدها الوفد في دار الخلافة وما تحويه من بدائع تأخذ بمجاميع القلوب ، فوصف القصور الشاهقة والرياش الفاخرة والمتاحف النفيسة والاعلاق الثمينة ، وخلص الى القول :

« ان العيب الذي نتبني معالجته لازالته ، هو أن نرفع من الأذهان قول (لا تقدر) و (مستحيل) ، فان هذا العيب ، بل هذا المرض أخرنا كثيرا حتى كدنا نعد والسائمة سواء • كانوا يقولون بالامس لا نستطيع أن نصنع (المتراليوز) ، وها قد أخذنا نصنعه كما يصنع في معامل أوروبا ، وكانوا يقولون ان معادنا قليلة ، ولكن تبين بالبحث أن في سواحل (مرمرة) معادن النحاس والحديد والرصاص والصفائح والكروم والاتييمون ، وهذا جماع ما يلزمنا لمعاملنا ومصانعنا • ان المسار الذي نصنعه نحن أحلى على قلبنا من كل المصنوعات الغربية مهما كان مصدرها وبلغ من أقدارها » •

هذا حال الاستاذ محمد كرد علي لا يترك فرصة تسنح الا ويهتبلها للاصلاح والتوجيه ، وتبنيه قومه الى ما يصلح دينهم وديانهم سياسياً واجتماعياً : « اننا نرتاح لان يعمل أبناءنا وحكوماتنا لا ان نتظر من يعمل لنا ، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وعلمنا بأنه ما حك جسمك مثل ظفرك » • زار الوفد مدرسة القضاء (المتخصصين) ومجلس الأمة ودار الايتام ونظارة البحرية ، ولقي في البحرية كل تكريم ، واحتفى بهم ضابطها ورؤساؤها احتفاء منقطع النظير ، لان ناظرها أحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع هو الموفد لهذا الوفد ، فزار الوفد جميع متفرعات الوزارة ومعاملها ومستودعاتها ومدارسها ومستشفياتها وقطعاتها ، وعند الظهر تناول طعام الغداء على مائدة وزارة البحرية قصر (خاص بغجة) ، فخطب في هذا الحفل أبو الخير عابدين ، وعطاء العجلاني ، وعبدالمحسن الاسطواني ، ومحمد مراد ، وعبدالرحمن عزيز ، وظاهر أبو السعود ، ومحمد الحلبي ، وحسين الجبال ، والشيخ سليم اليعقوبي ، وتوفيق

الاتاسي ، وحيب العبيدي الموصلبي ، والشيخ عبدالقادر الخطيب ، وتاج الدين الشيخ بدرالدين ، والشيخ عبدالكريم عويضة ، والشيخ بدرالدين النعساني ، ومحمد كرد علي • واكثر ما قالوه يدور على الاعمال والاصلاحات التي قام بها أحمد جمال باشا ، ويجمل بما يلي : امتلاك القلوب ، الاعمال العمرانية ، الادارة العسكرية ، انشاء المدارس وتشجيع العلم • ولا ينتظر من الوفد الا تمجيد الرجل الذي قربهم واختارهم ، وقد يما قالوا : « اللهم تفتح اللهم » •

ثم القى رئيس الوفد الشيخ أسعد الشقيري كلمته • • وكانت تمثل بقية الخطباء ، وربما كانت أكثرها اعتدالا ، وأقلها اسرافا في مدح صاحبهم جمال باشا ، قال :

« ربما ظن بعض الحاضرين ممن لا علم له بأخلاق أعضاء الوفد ، ولا وقوف عنده على حقائق أحوالهم ، أنهم من المدهنين الذين يجازفون في مديح الامراء واطراء العظمة ، تزلقا لهم وطلبا للخطوة عندهم ، وذلك لكثرة ما سمع منهم من الثناء على القائد العظيم أحمد جمال باشا واطرائه • والحقيقة على خلاف ذلك ، فان أعضاء الوفد الذين ترونيهم أمامكم أبعد الناس عن مخالطة الحكام والاختلاف اليهم ، واقربهم الى الاعتدال والصدق ، وأكثرهم اخلاصا ، وأصفاهم سريرة • نعم ، انه تولى القطر السوري العظيم من لا يقل عن أحمد جمال باشا اقتدارا وسياسة ودهاء وتجربة ، كمدحة باشا وأضرابه ، ولم يسمع من أحد من السوريين من الثناء عليه عشر معشار ما سمع منه من الثناء على دولة القائد الكبير أحمد جمال ، والسر في ذلك ، وهو الحقيقة التي خفيت على أنظار أكثر الذين دققوا أخلاق السوريين وكتبوا عن أحوالهم في الجرائد الرسمية أو الى الدوائر العمومية ، أن الولاة ومن يداينهم في نفوذ الكلمة ، وسعة الارادة ، وقوة التصرف ، كانوا يحضرون الى الولايات السورية محاطين بضئوف من

الخدم والحشم والاتباع والموالي والكتاب والمعاونين ، وكان الوصول الى الوالي أو من هو في مرتبه قبل قطع تلك المراحل واجتياز تلك الصفوف بضروب من التضرع والاسترحام واحتمال ما ليس يحتمل من ضروب المحال التي لا تخطر على بال ، وربما قضى الوالي مدته المحتومة وقد تبلغ السنين ، وخرج من دائرة ولايته وهو لا يعرف من أهالي الولاية غير أعضاء الادارة الذين تجمعه وايهم الضرورة القانونية ، ولولاها ما رأى لهم وجها ولا سمع لهم صوتا ، كما أنه لا يعرف من الرقعة التي قضى فيها تلك السنوات غير الطريق الذي يصل بيته بدائرة الحكومة ، كثيرا ما طلبوا الى ولايتهم اصلاح المدارس الدينية وانشاء كلية تغني أهالي الولايات السورية عن تجشم السفر الى مصر في طلب العلم واحتمال ألم الغربة في تحصيله ، وتعلمهم من أمور دينهم ومما لا بد لهم منه في المحافظة على دنياهم ، حتى لا ترتفع بشاشة الايمان من القلوب ، فتتحل الرابطة الاسلامية ، وينقلب الوئام بين المسلمين الى انشقاق ، والاتفاق الى اختلاف ، فكان أحسنهم من يسمعهم وعدا لا ينطوي القلب على الوفاء به • واذا سألوهم اشاء طرق بين الولايات وبين كل ولاية ومركز قضاء فيها لتسهيل المواصلات وتأمين الحركة التجارية حتى لا تبقى حاصلات كل جهة محصورة فيها معرضة للتلف ، يحرم أهلوها من الانتفاع بأمانها ، وأقرب الناس اليهم من الانتفاع بأعيانها مع شدة الحاجة اليها ، كان عمل العامل من اولئك الولاة تحويل طلبهم الى نظارة النافعة (المواصلات) ، وربما مرت السنون والنظارة تشتغل بدرس تلك المسألة والتعمق في التدقيق فيها ، ثم لا يكون من ذلك المشروع من أثر في الوجود غير رسمه على صفحات الاوراق وتسويد الصحائف البيض به • وحالة الولايات السورية اليوم على كثرة ما مر على تأسيس (النافعة) من السنين شاهد عدل على ذلك ، وكل ما جمع من جيوب الفقراء لفتح المعابر وتعميد الطرق تسرب بفضل اهمال اولئك الولاة الى جيوب بعض مأموري النافعة ولم تستفد منه التجارة ولا الزراعة شيئا • والحاصل ان الولاة في ذلك الحين كانوا يفتشون الاوامر

ويلتحفون بالقرارات ، ويتوسدون الارادات ، وينامون نوما هادئاً ، لا يزعجهم فيه حلم ، ولا تقلقهم فيه رؤيا • فاذا أزعجهم مزعج ، قاموا يتخبطون بين تلك الأوراق الكثيرة ، لا يدرون ماذا يفعلون ، ولا الى أي شيء يتقدمون ، وكانت كل صلة بينهم وبين الرعية مقطوعة ، فلما حضر أحمد جمال باشا الى سورية قائدا لجيشها ، ومنتظما لاحوالها ، فتح من الطرق ، وذلك من السبل في وقت قصير ما لا يقدر عليه غيره في الدهر الطويل والزمن الكثير ، حتى سهلت المراحل عن الراحل ، وتيسرت المواصلات بين الولايات ، وانتظمت حركة التجارات في كل الجهات ، ولم يعتمد ، أمد الله في حياته ، في أعماله العظيمة على قرارات النافعة ، ولا على آراء مهندسيها ، وانما فعل كل ما فعل بواسطة بعض صغار الضباط الذين نفت فيهم من نشاطه ما حجب اليهم العمل والاخلاص في الخدمة وكره اليهم الكسل والتواني عن القيام بالواجب • هذا غير ما مده من مئات الاميال من الخطوط الحديدية فوق ذروات الجبال الشامخة وفي بطون الاودية المنخفضة وعلى وجوه الرمال المنهارة ، وذلك آخر ما ينتهي اليه جهد المجتهدين العاملين ، ولم تنسه كل هذه الاعمال مع ما ينضم اليها : من النظر في مخابرات الحكومة المركزية ، والجواب عنها ، وقراءة كتب عمال الجهات من ملكيين وعسكريين ، واصدار الاوامر بما يناسب المصلحة فيها ، ومقابلة امراء العسكرية ورؤساء الملكية وقناصل الدول ووفود الجهات ، والنظر في كل ما يرفع اليه من جليل وحقير حتى شكاوى صغار الفلاحين وضعفاء المحترفين ، والنظر الى الحالة العلمية والدينية وما آلت اليه من الاضمحلال ، واعمال الفكر في احيائها واعادة ما فقدته من عزها وشرفها اليها • وكان يتحين الفرص ويرتقب المكنة للقيام بمشروع ديني جليل يكون عوناً على بث العلوم الاسلامية ، ونشر محاسن الديانة المحمدية بين من يدين بها ومن لا يدين • فلما وصل الى القدس ورأى المدرسة الصلاحية ، وهي المدرسة التي أسسها السلطان العادل صلاح الدين يوسف ابن أيوب على أذرع من المسجد الاقصى لتعليم العلوم الدينية الاسلامية ،

ووهبتها حكومة الدور البائد الى الفرنسيين فجعلوها كنيسة ومدرسة لتعليم الديانة المسيحية وافساد عقائد المسلمين بمن يشأ منها ، رأى ان الفرصة قد حانت لابراز ما عزم عليه الى حيز الوجود فنزعها من يد الفرنسيين ، وأعادها الى أحسن مما كانت عليه في زمن مؤسسها ، وأقام في افتتاحها حفلة جمعت من علماء القطر السوري وأدبائه ووجهائه عددا جما ، وكان يوما مشهودا ، وها هي اليوم وهي في السنة الثانية من سني حياتها تجمع ثلاث مئة طالب من طلبة العلوم الدينية يلبسون الملابس المخصوصة برجال الدين ، ويذكرون الناس بسالف عز الاسلام ومجده ، فيحيون فيهم ميت الآمال • وقد رأى حفظه الله أن تقرب العلماء وادناء مجالسهم مما يزيد في شرف الدين في العامة ويرفع مكانته في قلوبهم ، فكان مجلسه في أغلب الاحيان لا يخلو من رجل منهم تركز اليه النفوس ، وتطمئن اليه القلوب ، حتى أحيأ سنة صالحى أمراء بني عثمان ، فأصبح الناس في سورية بمساعيه الجليلة يرون أنفسهم على باب عصر جديد يبصرون منه في وقت واحد سعادتى الدنيا والآخرة •

فاذا رأيتم رجال الوفد السوري يمدحون أحمد جمال باشا ويطرون أعماله ويشنون على أخلاقه وعاداته ويقدمون مبادئه ، فليس ذلك لانه الرئيس المطلق عليهم والحاكم المفوض في ادارة شؤونهم ، ولا لأنه ينتمى الى حزب هم اليه متمون ، وبأهدابه متعلقون • كلا ، فهم في نفوسهم أبعدهم عن التملق والمداهنة ، وفي أميالهم أبعدهم عن الفرق السياسية ومنازعتها ، وليس ذلك الا لانهم وجدوا فيه الرجل الفعال الذي يطلبونه منذ الزمن الاطول ، فلا يجدون اليه سبيلا ، حتى صاروا يعدونه من الاشخاص الخيالية التي يصورها الوهم وينفيها الحس والعقل لذلك هم يقدسونه من أعماق قلوبهم ، ويقدمون كل من كان على شاكلته من رجال العمل المخلصين » •

رأى رئيس الوفد أن الخطباء قد اسرفوا في اطراء قائد قطرهم ، وأضفوا عليه من البطولات والاعمال الجبارة ما لا يحققها واقع ، فأخذ

يدافع عنهم ، وبرر أقوالهم بما يمكنه السوريون من احترام ورضى لاعماله واصلاحاته التي لم يروا مثلها • هذا كله قبل أن يعدم أحرار سورية في ساحة المرجة في دمشق والبرج في بيروت ، وقبل ان يتنكر الاتراك للعرب بقيام الشريف حسين أمير مكة • كان من أشد الخطباء مدحا وأكثرهم اطراء حبيب العيادي الموصلية ، وخطبته شغلت من الكتاب تسع صفحات ، فتأمل •

زار الوفد الاسطول التركي ، وأخذت لهم ولقادة الاسطول صورة تذكارية فريدة ، لان أصحابها أصبحوا في كنف الملك الغفار ، بينهم وكيل ناظر البحرية (شوشون باشا) واركان البحرية •

وفي ٦ - ٧ ذي الحجة ١٣٣٢ زار الوفد ساحة الحرب في (چناق قلعة) عن طريق البر ، والمسافة تزيد على خمسة أيام ، احتراسا من مخاطر الغواصات ، فأصر رجال الوفد الا السفر على ظهر بارجة بحرا ، لثلا يتهموا بالخوف ، وهم الذين جاؤوا ليشجعوا الجنود على الصمود • وصل الوفد الى مقر الجيش الخامس وأنزلوا على الرحب والسعة في خيمة كبرى وفي المصلى قابلهم ليمان باشا قائد الجيش العرمرم ، ورحب بهم ، وأمر أن تهيأ لاعضاء الوفد الراحة ، وخطب الرئيس أمام ليمان باشا والضباط الذين حضروا الاستقبال • ومما جاء في كلمته : أن أعضاء الوفد كل واحد منهم يحسب نفسه جنديا في معية هذا الجيش ، لانه يعتبر نفسه مجاهدا ، وما على المجاهد أن ينظر الى رفاهية أو راحة • وصادف يوم الثلاثاء العيد الكبير (الاضحى) ، فأطلقت المدافع ، وأعد للصلاة مصلى في سهل رحب ، وتولى خطبة العيد الشيخ عبدالكريم عويضة ، وخطب الرئيس بالتركية ، ثم جرت المعايدة ، وأنشد الشيخ عويضة أبياتا يخاضب بها الجيش ، قال :

أيها الجيش المظفر ضح بالاعداء وأتحر
ان هذا اليوم عيد وهو في الاعياد أكبر
فاحضروا هام الاعادي واهتفوا : الله أكبر

ولكم فتح قريب ولكم نصر مؤزر
ولكم ذكر جميل في الملا يتلى ويشكر
دام للملك رشاد وهو منصور مظفر
وليعش جيش صبور وجهه بالنصر أنور

وتبادل الوفد برقيات التهاني مع السلطان ، وأنور باشا ، وشيخ

الاسلام ، واحمد جمال باشا •

وهذا نص برقية جمال باشا : « معسكر الجيش الخامس الشيخ
أسعد الشقيري رئيس هيئة سورية وفلسطين ، أنا ممتن لأدائكم صلاة عيد
الاضحى في معسكر الجيش الخامس ، فأرجو منكم أن تبلغوا تهنئتي بالعيد
لجميع اعضاء الهيئة ، وأرجو ابلاغ سلامي بواسطة الباشا قائد الجيش الى
أمرء الجيش الخامس وضباطه وأفراده » •

وفي (أنافورطه) أولم للوفد قائد الجيش مصطفى كمال (اتاتورك
من بعد) • وعلى المائدة ، وامام ساحات القتال ، خطب جماعة من أعضاء
الوفد مشجعين وواعظين ، وان الجنة تحت ظلال السيوف وان العز تحت
راية الجهاد ، وان مع الصبر النصر •••

واستمرت زيارة الوفد لسوح القتال تسعة أيام ، فكان لتجوالهم
بين الخنادق وفي صفوف الجند وقع عظيم وقوة لجأش الجنود الذين زادوا
امتسبالا وشجاعة بخطب رجال الدين • وقبل عودتهم ، وزع قائد الجيش
الخامس على أعضاء الوفد (نوط) الحرب ، وودعهم وداعاً حاراً •

وقد صرف الوفد من يوم مبارحتهم حلب في ١٨ ذي القعدة
١٣٣٣هـ ، وعودتهم في ١٨ المحرم ١٣٣٤هـ شهرين تقريباً قضى منها
تسعة عشر يوماً في الذهاب والاياب ، وتسعة ايام قضاها متجولاً في سوح
الحرب ، والايام الباقية أمضاها اعضاء الوفد في الاطلاع على الجهاز الحربي
وعلى معالم النهضة في الاستانة ، ولقي الوفد من ضروب الاكرام والاحترام
ما لايلقاه غير الملوك والزعماء اذا وفدوا الى دار الخلافة ، بذلت الحكومة

جهدتها في توفير الراحة والرفاهية للوفد في حله وترحاله ، وشملتهم برعايتها من السلطان وولي عهده الى أصغر موظف ومن سائر أفراد الشعب رجالا ونساء ، وسرى اجلال الجماعة الى طبقات الشعب خاصته وعامته ، وبالغوا في الاكرام سواء في الولائم المضيافة أو تبادل الخطب والعواطف والقلوب التي تناجت والايدي التي تصافحت والأرواح التي تعاطفت ، والشعب التركي متدين ، ويحترم علماء الدين باخلاص ، فحياهم أعضاء الوفد نثراً وشعراً ، واعربوا عن امتنانهم وشكرهم ، من ذلك أبيات عبدالرحمن عزيز :

سلام على دار الخلافة والملك	سلام على سكان (يلدز) والألى
يقودون جيشاهام بالفتك والسفك	سلام اخاء الاتحاد ووفده
سلام بعيد الطيب نافجة المسك	سنشكركم سكان فاروق ^(١) كلما
دخلنا بيوتاً للتهجد والنسك	وندعو بطول العمر للهيئة التي
بتدبيرها فزنا على ملة الشرك	

ومن قصيدة للشيخ علي الريماوي :

وأعظم في الايام آياتها الكبرى !	سلام عليكم ما أجل فعالكم ،
وان كان بعض الناس قد ذاقه مرًا	سلام على الدستور حلوا مذاقه
وقد كان لا يرجو له زمن نشراً	سلام على محييه بعد مماته
وعزما تمكم كانت هي البيض والسمرا	أما أنكم محيوه بالسيف والقنا
وقلتم : هم الاخوان في الضرب والسر	سعيتم فقربتم بني العرب منكم ،
عدو ، وما كانوا وحقكم وزرا	فكانوا لكم أزرًا على كل خارج
ولا ينقمون الترك سراً ولا جهرا	يعدون هذا الملك فيهم ومنهم
شريكون في السراء منكم وفي الضرا	يموتون ان تم ويحيون معكم
ولا عرفوا والدين يجمعكم تكرا	وما خلقوا منكم بعيدين نسبة
وكنتم يمين الملك والعرب اليسرى	فكنتم نجاد العرب والعرب سيفه ،

(١) يريد (فروق) فزاد الالف للوزن ، ولا يجوز اللجوء الى مثل هذا .

وكان على بعد البلادين بينكم
كلا العنصرين اليوم غاز مجاهد
سعيتم فأحكمتم عرى الود والوفاء
فكان لكم منا ذمام ، ومثله
وكان بنا الاخلاص أوضح آية
ولم أر كالاخلاص في حب دولة
ولم أر كالانصاف في جمع أمة
في هذه الرحلة القى الاستاذ محمد كرد علي أكثر من عشر خطب ،
كان في جميعها الموجه والمؤرخ والمذكر ، ونشر مقالات ضافية في وصف
مشاهد الاستانة ، وفي الترك والعرب والسلم والحرب ، وحاضر في سينما
چناق قلعة بدمشق محاضرة بعنوان (العمران الحقيقي) وصف الحياة
المادية والمعنوية التي لمسها الوفد في رحلته ، واطلع عليها اعضاؤه ، ومما
جاء فيها قوله :

« كنا نعتقد ان عمران دار الخلافة عبارة عن جوامع بناها السلاطين
منذ عهد الفاتح ، وقصور شيدتها العظماء وأرباب الدولة • فلما فتحت لنا
الحكومة دورها ومصانعها ومتاحفها وقصورها ، أصبحنا على مثل اليقين بأن
صورة الأستانة الحقيقية غير صورتها الظاهرة من أعالي هضابها ومآذنها
والمائلة في الرسوم والمناظر • عرفنا ان عمران دار الملك مستوفى من أكثر
وجوهه ، وان فيها ما في أعظم عواصم الدول الكبرى من المرافق وأسباب
العظمة وتزيد الاستانة غيرها من عواصم العالم بأن موقعها الطبيعي ليس له
نظير في القارات الخمس من هذه الياسة ، وأنها نقطة اتصال آسيا بأوروبا .
جمعت في حبرها أجمل مناظر الغرب ، وألطف مشاهد الشرق ، فكانت
شرقية غربية في آن واحد ، تشبه الضيفساء بتلون مشاهدها وأجناس
النازلين فيها المتفيئين ظلالتها » •

وراح يعدد ما ضمته العاصمة من المفاخر ، ويصف ما فيها من
المشاهد ، والمتاحف ، والمعامل ، والمدارس ، والجوامع ، ودور الكتب

والتحف ، والآثار ، والقصور ، والمحال العامة ، والحدائق ، والمتنزهات ،
ووسائل النقل ، برها وبحرها ، جسورها وسفنها وزوارقها .

وقال : « في عاصمتنا نواقص يعرفها أهلها ، وهم متوفرون على
أصلاحها شأن كل كائن في الوجود يحتاج الحين بعد الآخر الى التجدد ،
والذي بهرنا منها ، وأيم الحق ، ما شاهدناه من مضاء الغزائم في جميع
مصانعها ومحالها وأعمالها مضاء لم نشهد له مثيلا في أمتنا ، فكأن هذه
الحرب عرفتنا أقدارنا ، وأوقفتنا على حراجة الموقف ، فاضطرتنا الى أن
نأخذ بأهداب الحزم في عامة شؤوننا ، وما كنا نظن أن نرى الأستانة في
مثل هذه الراحة والطمأنينة بعد مرور حول كامل وزيادة عليها ، وهي في
حرب دائمة مع أعداء ثلاثة ضخام العدة والعديد : الروس من البحر
الاسود ، والانكليز والفرنسيين من البحر الابيض الخ . . . »

ومن محاضرة للاستاذ محمد كرد علي رحمه الله القاها في نادي
الاتحاد والترقي بدمشق بعد عودة الوفد ، وصف بها بلاد الأنضول ، أو
آسيا الصغرى كما كانت تسمى ، والتي تزيد مساحتها السطحية على خمس
مئة ألف وثلاثة آلاف كيلومتر مربع ، أو نحو مساحة فرنسا . قال :

« كل ولاية من ولايات السلطنة العثمانية تبلغ بمساحتها السطحية
مساحة مملكتين صغيرتين من ممالك أوروبا ، فمساحة ولاية « اطنه » قبل
أن يفصل عنها لواء ايج ايل (سلفه) ٣٩٩٠٠٠ كيلو متر مربع ،
وسكانها أقل من أربع مئة ألف في حين تجد مساحة الدانيمرك ٣٨٨٠٢
كيلومترا ، وسكانها زهاء سبعة ملايين . وبينما تجد مساحة ولاية قونية
مربع ، وسكانها نحو خمسة ملايين ونصف ، ومساحة بلجيكا ٢٩٤٥٦
كيلومترا ، وسكانها زهاء سبعة ملايين . وبسما تجد مساحة ولاية قونية
١٠٢١٠٠ كيلومتر مربع ، وسكانها مليون ومئة الف ، تجد مساحة
البرتغال ٩٢٣٤٦ كيلومترا ، وسكانها خمسة ملايين ونصف . فالمملكة
العثمانية ينقصها ، والحالة هذه ، السكان العاملون ، والخطوط الحديدية
والطرق السالكة » . . .

وقال واصفا جبال طوروس :

« وهنا مضيق يسمونه اليوم (كوكك بوغازي) ، ومعناه مضيق كيلة الجبوب ، وكانت العرب تسميه (الدرب أو الدروبي) ذكره امرؤ القيس ملك الشعر في الجاهلية في شعره ، ومعه صاحبه عمرو بن قميئة • فلما رأى الدرب ، وهو الحاجز بين بلاد العرب وبلاد العجم ، قال :

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصر
فقلت له : لا تبك عينك ، إنما نحاول ملكاً ، أو نموت فنعذرا

أما نحن ، فابتهجت أنفسنا ، وأيم الله واطمأنت لما اجتزنا الدرب ، وعلمنا أننا نركب بعده القطار ، ولم يبق لنا الا ساعات معدودة لنبليغ دار الخلافة بهجة الدنيا وعاصمة الاسلام •• ان الدرب أو مضيق (كوكك بوغازي) هو كما قلنا واد تتخلله الانهار والجداول ، ويكسو شجر الارز نجاده ووهاده على صورة تظنها من هندسة أعظم مهندسي الزراعة لعهدنا ، وما هو في الحقيقة الا مما نبت واستطال بنفسه • أنت لاتنك منذ تطأ عتبة جبال طوروس تشم أريج شجرها ورندها وعرارها ، ولا تسام من مناظرها ، لانها منوعة في تقاطيعها وجمال هندستها بحيث لاتمل العين النظر ، ولا الانف الشم ، ولا الأذن السماع لحفيف أشجاره وسمايل أعصانه وثناء حملانه وخرير مياهه وأصوات عندليه وعصفوره •

ان من يسمع من بعد وصف (كوكك بوغازي) يقول في نفسه : ماذا عسى يكون في هذا المضيق ، وجبال الدنيا كثيرة متشابهة ، صخور وقلعات وأكمام ومنفرجات وبطون ، وشيخ وقيصوم وسنديان وزان • ولكن جبلنا هذا لايشبه الجبال بحال ، لأن مدبر الاكوان خلقه على غير مثال من الجبال • لئون صخوره ، وأحسن قطعها ، فمنها الكبير الهائل ومنها الصغير الحقير ، وتربته حمراء وسوداء وبيضاء • ترى تارة في الهضاب طريقا معبدة من الصم الصلاب ، أو مرصوفة بالتربة الزكية ، غرست فيها يد القدرة أشجار الارز غرسا يتخلل الهواء ، ولا تنبو العين عنها ، لعدم نظامها

واختلال هندستها وترامي أبعادها ، وهناك الأشكال الهندسية برمتها ، فمن قلعة مستطيلة الى أخرى هرمية ، وبجانبيها ذروة ذات شكل بيضوي ، وآخر محدودب أو مربع أو قائم الزوايا أو منفرجها ، جعل بعضها الى جانب بعض ، ومساحتها السطحية متقاربة وكلها مزينة بالأشجار • أنت هنا تجتاز واديا ولا كاللاودية ، بحيث تعطي الحق لمن قال في القديم : « ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان ، وفتى ولا كمالك » • ولو رأى القائل الدرب ، لقال : « مضيق ولا كهذا ، وجبال ولا كطوروس » الخ • • في ولاية أطنه صنائع لطيفة من الأقمشة والبسط وغيرها ، ولاسيما في مدينة أطنه نفسها التي فيها معمل للخام أنشأه رجل مصري أسمه محمد راسم بك فيه ١٢٠٠ عامل ، كما أن في قونيه يصنع مثل هذا الصنائع ، وفيها يعمل السجاد • وهاتان الولايتان تخرجان أنواع الحبوب ، فان سهولها واسعة ، والثمار الطيبة ولاسيما الزيتون • ومن ولاية قونية يصدر الأفيون أيضا والقنب • ولكن معظم حاصلاتها من الحبوب • وسهولها تشبه سهول بلاد العرب ، والجبال بعيدة عنها ، وحاضرتها قونية عاصمة ابن (قرمان) والسلاجقة ثم عاصمة ابن عثمان الاولى ، هي سرّة الانضول وعش التركية • قال القرمانى : أنها مدينة ذات خيرات كثيرة وبساتين وافرة ، ولها جبل ينزل منه نهر ويدخل البلد من غربها ، وبها قبر جلال الدين الرومي الشهير بمناخنكار ، وقبر صدرالدين القونوي أحد المشايخ الصوفية اه •

وبينما تجد الأبنية في صميم الانضول من الطين واللبن ، تجدها في ولاية بروصة وما والاها من سواحل البحرين الاسود والابيض القرية من الاستانة معمولة من الخشب شأن أكثر بيوت دار الخلافة القديمة ، ولذلك ترى الحريق يسرع اليها ، ورفضها لا يوازي سرعة عطبها ، ولكن القوم اتبها في العهد الاخير ، فأصبحت الدور التي تجدد وتعمر بالحجر والقرميد والطابوق وغيره من المواد المتينة الجميلة على أحدث طرز • يكثر العمران في الانضول ، وتزيد مدينة السكان على نسبة قرب البلاد من البحر

وقربها من دار الملك ، فكلما سهل الطريق الى الاستانة ، تزيد السعة
ويتوفر التعليم ♦♦♦

تحس النفس بانبساط عندما تنتهي من ولاية قونية وتدخل في ولاية
خداوندكار ولوائي اسكيشهر وازمير ، فان العمران هنا يبدو في السهل
والجبل ، وتكثر الانهار والبحيرات والغابات ، ولا تقل فيما أحسب جبار،
بروضة وازمير في عمرانها عن ارقى جبال الارض عمراننا ، والصنائع
على هذه النسبة حتى ان مصنوعات بروصة الحريرية من أجمل ما حاكه
نول نساج ، وألطف ما طرزته يد صناع ، يجمع الى الرخص مائة وجمالا .
فحبذا اليوم الذى تعلم فيه دروسا في الوطنية ، وتقتصر على مصنوعاتنا
الخاصة ، ونزهد كل الزهد بأقمشة اوربا ، ولا نلبس منها ولو اعطيناها
مجانا ، بلادنا تخرج الصوف والقطن والحرير والقنب والكتان وغيرها
من لوازم الاقمشة للدفاء والزينة ، ومع هذا لانزال متعلقين بما تصنعه لنا
المعامل الغربية ونزهد فيما تخرجه مصانع دمشق وحلب وحمص وحماء
وطرابلس الخ ♦ ان الثوب من الاقمشة الوطنية يكتسب به أحدنا يكون عوننا
لاسرة صانعه الذى تعيش بربحه ، فمن لي بأن أرى كبراءنا وخاصتنا
يبدأون اولا ليكونوا قدوة فيلبسون وعمالهم من أقمشتنا » ♦

واقم احتفال عظيم بمقدم الوفد في مدينة دمشق ، وحضر الاحتفال
قائد الجيش الرابع أحمد جمال باشا القائد العام وناظر البحرية ، والامير
فيصل بن الحسين أمير مكة ، وعلي منيف متصرف لبنان ، وعزمي بك والي
سورية ، وعزمي بك والي بيروت ، ومصطفى عبدخالق والي حلب ،
ومدحت بك متصرف القدس ، وجمع غفير من العلماء والاعيان والموظفين ،
وخطب في هذه الحفلة الشيخ أسعد الشقيري رئيس الوفد خطبة طويلة
وصف فيها ما لقي الوفد من التكريم وما شاهد من المتاحف والمعامل والمعدات التي
تنجزها تلك المعامل ، وتحدث عن زيارتهم لسوح القتال والمعنويات القوية
التي يتمتع بها الجيش المحارب وصموده وتكبيده للعدو الخسائر الفادحة ،
وتكلم على مشرعية الجهاد ♦

وحيا الشيخ علي الريماوي المقدسي بقصيدة عامرة احمد جمال
باشا ، قال :

سرى وفدك الغازي ومثلك يوفد
وعاد بملء البشر والعود احمد
سرى منك مضمون النجاح مسيره
وطالعه يا كوكب السعد (أسعد)
وجاء الى دار الخلافة والتي لها العلم العالي هلال وفرقد
فقامت له صفوا وقد قعدت وما
الى غيره كانت تقوم وتتعهد

ومنها :

رأيت بأن تختار منا عصابة
لها من جمال الفضل نور مشعشع
إذا نثرت قلت الربيع وزهره
تترجم من معنك طلقا بيانها
فجئنا الى دار السعادة والمنى
نعم، يا جمال الملك، لم نس اننا
ذهبنا وصفحات السيوف بوارق
شهرنا رحاها والقلوب ثوابت
أبيننا لقوات القذائف نسجد

والقصيدة تقع في أكثر من خمسين بيتا •

٣ - الرحلة الى المدينة المنورة والى البلقاء

هي رحلة قام بها الاستاذ محمد كرد علي في وفد الى المدينة وطبعت
سنة ١٩١٦ باسم (الرحلة الانورية) نسبة الى وزير الحربية انور باشا •
وقد مر الوفد بالبلقاء وهي اقليم حده القدماء انه يقع بين الشام
ووادي القرى وان فيه مدنا عظمى كثيرة وان قاعدته عمان وقيل السلط

وربما اشتق اسمها الحاضر الصلت من لفظة لاتينية (سالتوس)^(١) وهي اشبه بمدينة زحلة في لبنان تقع بين جبلين متناوحين توفرت همة اهلهما على استثمار الاشجار والبقول فجاد اكثرها بما عندهم من العيون التي تروي زروع الوادي ، يكثر فيها الكروم الخالي من البذر ، ويصدر الزبيب الى الشام والقدس وغيرها ، قال محمد كرد علي في هذه الرحلة :

(سكان مدينة الصلت يوم زرتها نحو ١٦ ألف نسمة ويبلغ المسيحيون منهم على اختلاف الطوائف نحو أربعة آلاف ومعظمهم الى اليوم يلبسون زيا كزي اهل حوران (الكوفية والعقال والعباءة والجزمة الحمراء) وعادات القوم هنا اشبه بعادات البادية مع أنهم حضر ، وفي الصلت قليل من الصناعة وتجاريتها واسعة مع القبائل النازلة في البلقاء والرحالة في تلك الارحاء وبين عمان على الخط الحجازي والصلت نحو خمسة وعشرين كيلومترا جعل بعضه من جهة الصلت طريقا معبدا ومتى اكمل تسافر العربات والسيارات بين الصلت والخط الحديدي • واذا تم اتصال الصلت بالقدس بطريق معبدة تسير عليها العربات فستعمر الصلت عمرا مهما^(٢) .
وقال :

« كانت عمان قسبة البلقاء فاتحطت في أواخر القرن الماضي بما تواتر عليها من الزلازل وغارات البادية حتى جلا عنها بقية سكانها الاصليين ، فانزلت فيها الحكومة ٦٠٠ اسرة من الجركس من عشائر مختلفة هاجروا من ولاية كوبان الروسية واخذوا يردون غارات البادية واعتمدوا في عمرانها على مضائهم وشجاعتهم وبنوا على انقاض مدينة ضخمة قرية لهم وساعدتهم مياه نهر الزرقاء فغرسوا الاشجار وانشأوا الحدائق وأنسوا بطريقتهم المألوفة لهم في الزراعة ••• ولا تلبث ان يزيد عمران واتساع تجارتها على أيدي الشيطيين من النابلسيين والدمشقيين ومعظم تجارة البلقاء في ايديهم اليوم » (واعظم عشائر هذا القضاء بنو صخر وهم يتنقلون بين

(١) المذكرات ص ٧٧٠

(٢) المذكرات ص ٧٧١

الغور في الشتاء وارضى البلقاء العالية في الربيع وفي الصيف يتوفرون على
حصاد الارضين) •

ثم وصف الاراضي الزراعية والمعدنية ومشروع الفوسفات الذي اراد
استغلاله السيد نظيف الخالدي المقدسي وذكر أسباب فشل مشروعه ،
ونقل أقوال القدماء عن هذا الاقليم من أمثال ابن خردادبه وياقوت الحموي
وما ورد عن قصورها وعماراتها من الوصف شعرا ونثرا وذكر مواقعها
التأريخية مثل قرية جادية التي ينسب اليها الجادي اي الزعفران ، وقرية
مونة والمشارف التي كانت تطبع السيوف المشرفية والموقر الذي كان ينزله
يزيد بن عبد الملك قال كثير :

سقى الله حيا بالموقر دارهم الى قسطل البلقاء ذات المحارب

والقسطل نزله الوليد بن يزيد وفي البلقاء قصر الازرق والفتدين
وذكر السكة الحجازية وعدها من اعظم حسنات السلطان عبد الحميد
وكان قد انتهى منها القسم الاعظم من دمشق الى المدينة المنورة وطول الخط
١٣٠٣ كيلومترات انفق عليها زهاء ثلاثة ملايين ليرة ذهبية ، صرف منها
نصف مليون في مدينة دمشق انتفع منه العمال الماهرون وغير الماهرين
وارباب المزارع والتجار وانفق القسم الاعظم في ثمن ادوات وقاطرات
ومركبات وحديد من معامل اوربا ، ووصف بطريقه اعمال الكرك ، وكانت
من معاول الاسلام الحصينة وبها قلعة ليس لها نظير تسمى حصن الغراب ،
فتحها السلطان صلاح الدين حين عاث البرنس ارنلط احد أمراء الصليبيين
فسادا وقطع طريق الحجاج • والشوبك من مدن الكرك ، واذرح
خربة لا ساكن فيها يوم زارها محمد كرد علي وكانت من المدن العامرة
وارض الشراة من الشوبك ويقول ان النفس تتقبض من الكرك على جمال
طبيعتها ، وقد مر الوفد بوادي موسى ومعان وعلى مقربة من وادي موسى
مدينة بترا او العربية الصخرية كما يسميها الافرنج وسمها العرب
« سلعا » وكان لتبرا عز امتد حكمها قديما الى دمشق وبيدها زمام التجارة
مدة قرون في الشرق الادنى •

بين الطريقين من دمشق والبقاء ومنها الى تبوك والمدينة مناظر مبهجة
ومحزنة • واكثر ما اهاج اشجان صاحب الرحلة وصحبه الصحارى
الجرداء برغم المياه ومناظر البؤس التي يرى فيها ابناء المنطقة وهم عراة
حفاة يستجدون المسافرين يلتقطون ما توجد به أكف الراكبين من الخبز
القفار واهاب بالمسؤولين ان يهتئوا لهؤلاء المجاوبع عيشا كريما بانشاء
اسباب المعاش من صناعة وزراعة وعمل ، وفي المدينة المنورة ذكر ان الكثرة
الكاثرة من سكان المدينة ومكة يعيشون من الصدقات والاقواف
ورواتب الحكومة وتجارتهم لا تروج الا ايام الحج وزراعتهم تنحصر في
بعض البساتين واشاد باثر السكة الحديد التي افادت البلد وانعشت أهله
لان الزوار يترددون بسببها طوال ايام السنة وقال عن سكانها :

« السكان الاصليون وعددهم لا يكاد يبلغ ثمن السكان والباقيون
شاميون ومصريون ونجديون وعراقيون وتركويون وجاويون ويمانيون
وزنجباريون وسودانيون وجزائريون وتونسيون ومراكشيون وسنغاليون
وصينيون وهنديون ، وقفقاسيون وطاغستانيون وجراكسة واكراد وايرانيون
وافغانيون ونجاريون وغيرهم من شعوب الاسلام يأتون هذه البلدة الطيبة
ينقطعون فيها للعبادة في مسجد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله وسلم •
للمسلمين معرضان دينيان مهمان احدهما وهو الاكبر في جبل عرفات
كل سنة مرة والآخر في مسجدي مكة والمدينة طول السنة ولذلك تسمع
فيهما معظم اللغات في آسيا وافريقية وترى فيهما كل السحنات من ايض
واحمر واصفر واسود ممن تفرع من الجنسين الاربي والسامي ولذلك نجد
المدينة المنورة اقرب الى ان تكون برج بابل لاختلاط اللغات والعادات منها
الى ان تكون عربية وهي بلد النبي العربي وفي صميم ديار العرب والمدينة
بطبيعتها تشبه احدى مدن الارياف في مصر لان نحو ربع سكانها مصريون
صعيدة ونصف الربع مغاربة والباقيون مجسسون •

وقال : « تأملت كثيرا في مسجد الرسول اثناء الصلوات وغيرها فما
رأيت الا خشوعا من جميع من يختلفون الى الحضرة النبوية الشريفة ولا

سيما من غير الناطقين بالعربية فقلت في نفسي - وقد سمعت خطبة الجمعة وهي لا تخرج عن حد التزهيد في العمل والاعراض عن الدنيا كسائر خطب الجوامع في بلاد الاسلام خلافا لما كانت عليه سنة السلف الصالح ولكن « ليس الاسلام لبس الفرو مقلوبا » كما قال علي كرم الله وجهه فوارحمته لغربة الاسلام ♦

لو ادار هذه القوة المعنوية رجال دين سليم وعقل راجح لكانت فوائد هذا الاجتماع من حيث الدين والمدنية اضعاف اضعاف فوائده اليوم فكما ارسل عليه الصلاة والسلام شعاعا من نور حكمته قلب به العالم وغير بشريته الطاهرة الارحاء هكذا يحمل دعاة دينه والمؤتمنون على ترائه وسياسة المهتدين بهديه ما تستتير به العقول في هذا المجتمع وبعم ضياء سكان الخافقين وهذا من القوى المهمة التي اضعناها وكم اضعنا مواهب وقوى ♦

واهم خزائن الكتب في المدينة خزانة خزانة السلطان محمود العثماني ومخطوطاتها ومطبوعاتها تافهة لا شأن لها واكثرها من المشهور ونظامها وسط ، واحسنها وربما كانت خير خزانة في البلاد العثمانية كلها بنظامها وانتقاء امهاتها هي مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمة ففيها نحو عشرة آلاف مجلد كتبت بخطوط المشهورين من الخطاطين كأن نجد الكتاب ذا العشرين مجلدا كتبت بخط مشرق بديع في مجلد او مجلدين وفي هذه الخزانة من التسهيل للمطالعين والعناية براحتهم ما لا تكاد تجد مثله في دار الكتب بمصر وما ذلك الا لكثرة ريعها وانفاقه في سبله واختيار القيمين عليها وادرار المشاهرات الكافية عليهم الخ ♦♦♦

فِي الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ

حين انسلخت الشام من الدولة العثمانية ، ودخلت الجيوش العربية سوريا في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، قامت في سورية حكومة عربية برئاسة الملك فيصل ، وحين بدأت في تكوين اداراتها المدنية رأت أن من وسائل رقيها وانهاضها الثقافي ان ينشأ فيها ديوان للترجمة والتأليف وادارة شؤون المعارف ، يوظف بوضع المصطلحات اللغوية ، وابدال المفردات التركية بالالفاظ العربية ، وتعريب لغة الدواوين ، وتقرير الكتب اللازمة للمدارس . فعهد برئاسة هذا الديوان الى الاستاذ محمد كرد علي ، وكان أعضاؤه في أول أمره الاساتذة « أمين سويد » و « أنيس سلوم » و « سعيد الكرمي » و « عيسى اسكندر المعلوف » و « عز الدين علم الدين التنوخي » وأذنت الحكومة الوطنية أن تضم اليه دار الكتب العربية « المكتبة الظاهرية » التي أسست سنة ١٢٩٥هـ بأمر من الوالي حمدي باشا احياء لذكرى الملك الظاهر بيبرس البندقداري الذي ابتنى مدرسة الحديث عام ٦٧٦ هـ ودفن فيها كما دفن فيها الملك السعيد ، وقبراهما تحت القبة التي فيها المخطوطات العربية ، فوسعها ونظم شؤونها وعرضها للناس لتعم فائدتها ، ويكثر المطالعون لكتبها النفيسة ، كما وافقت الحكومة أن يقوم هذا الديوان بانشاء المتحف العربي في الشام ، فنشط أعضاؤه الى جمع ما تفرق في أطراف البلاد السورية من الآثار القديمة والمتحف التاريخية والزخارف البنائية المثلثة للفن العربي ، وخصصت الحكومة بهذا المجلس ميزانية خاصة تساعد على النهوض بمشاريحه ، وكان قد تحول الى مجلس المعارف ،

وكان يعقد جلساته في غرفة من دار الحكومة ، ولكنه عندما كثرت أعماله ، وتشعبت واجباته اتخذ « المدرسة العادلية » التي تنسب الى الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي ، وهي مواجهة للمدرسة الظاهرية ، وكتلتهما من البنايات التاريخية التي تجب صيانتها ، فقام الرئيس محمد كرد علي بتجديدها وترميمها وفق ريازتها وفيها من الغرف ما يكفي للديوان ولدائرة الآثار .

وعقد أول جلساته فيها في ٣٠ تموز سنة ١٩١٩ ، وأخذ من ذلك الحين يوالي اجتماعاته واعماله ، واجتلب كتباً في اللغات الفرنسية والانكليزية والالمانية ، واصبح ما جمعه يزيد على (٣٠٠٠) مجلد بقدر ما كان في المكتبة من المخطوطات التي تبلغ زهاء هذا العدد (٣٠٠٠) ، واعتنى بجمع الآثار للمتحف ، فجمع منها كمية كبيرة وثمانية بين تماثيل حجرية وأوان معدنية وزجاجية وخزفية ومجاميع لنقود ذهبية وفضية ونحاسية وأسلحة وصفائح حجرية مكتوبة وأدوات أخرى مختلفة ، وان بين هذه الآثار ماهو ذو شأن عظيم ، ونادر قد لا يوجد له نظير في كثير من المتاحف ، من ذلك سيف الصحابي الجليل أبي عبيدة عامر بن الجراح فاتح دمشق رضي الله عنه ، ودينار ذهب ضرب في عهد المهدي ثالث خلفاء بني العباس في سنة ١٦٧هـ ، ولوحة معدنية عليها رسوم حبشية ومصرية توضح الحدود بين المملكتين ، يضاف الى ذلك المتحف أحد عشر دينارا ذهبيا من العملة التي ضربت في عهد الملك فيصل .

وفي ٨ حزيران سنة ١٩١٩م أصدر علي رضا باشا الركابي الحاكم العسكري العام أمراً يقضي بتسمية ديوان المعارف « المجمع العلمي العربي » بعد أن عين الاستاذ ساطع الحصري لادارة المعارف العامة ، وكان من أماني محمد كرد علي قيام المجمع العلمي الذي ثبتت فكرته في نفسه سنة ١٩٠٩م يوم زار فرنسة ورأى ما يقوم به مجمعها من الخدمات للعلم والثقافة ، فكان أعضائه :

- | | |
|-------|-------------------------|
| رئيسا | ١ - محمد كرد علي |
| عضوا | ٢ - أنيس سلوم |
| عضوا | ٣ - عبدالقادر المغربي |
| عضوا | ٤ - عيسى اسكندر المعلوف |
| عضوا | ٥ - سعيد الكرمي |
| عضوا | ٦ - متری قندلفت |
| عضوا | ٧ - عز الدين علم الدين |

وانضم اليهم الشيخ طاهر الجزائري بعد ايايه من مصر الى الشام في تشرين الاول سنة ١٩١٩ ، ونشر المجمع منشورا بالعربية والفرنسية ضمنه ملخصا من أخباره وأعماله ، وأرسل منه نسخا الى المجمع العلمية ودور الكتب وأمهات المجلات في أوربة وأمريكا ، ليكون له بذلك صلة تعريف وتعارف وارتباط ، فتهدى اليه من مطبوعاتها ونشراتها وكتبها بالتبادل .

* * *

واختار المجمع بدلالة رئيسه أعضاء شرف من سورية وخارجها ، من عرب ومستشرقين ، ليمدوه بأرائهم ونفقات أقلامهم ، وكان من بين أولئك العلماء الأعلام الذين اختارهم :

- ١ - (العراق) السيد محمود شكري الألوسي ، وأستاس الكرمللي .
- ٢ - (لبنان) عيسى اسكندر المعلوف ، ولويس شيخو ، وجبر ضومط ، وبولس الخولي ، وفيليب طرازي .
- ٣ - (حلب) بدرالدين النعساني .
- ٤ - (مصر) أحمد تيمور باشا ، وأحمد زكي باشا ، ويعقوب صروف .
- ٥ - (القدس) نخلة زريق .
- ٦ - (تونس) حسن حسني عبدالوهاب .
- ٧ - (الجزائر) محمد بن شنب .

- ٨ - (جبل عامل) أحمد رضا ♦
- ٩ - (الاستانة) زكي مغامر ♦
- ١٠- من (فرنسة) دوسو وگى ، وماسنيون ♦
- ١١- من (ايطالية) جويدى ، ونليو ، وكايتاني ♦
- ١٢- من (ألمانية) هارتمن ، وبروكلمن ♦
- ١٣- من (بريطانية) مارغليوث ، وبراون ♦
- ١٤- من (هولندية) هوتسما ♦
- ١٥- من (سويسرة) مونته ♦
- ١٦- من (اسبانية) مايكل آسن ♦

وكانت أجوبتهم على نداء المجمع مشجعة ومنشطة ، وناطقة برغبتهم في المساهمة في اعمال المجمع ، واستعدادهم للمشاركة في احياء العلوم العربية وبعث التراث الاسلامي ، وأبانوا المزيد من استعدادهم لتعصيد المجمع ، ومعاونته بمقالاتهم ، ومؤازرته ببحوثهم وكتبهم ، وبمبادلتهم مجلاتهم بمجلته ونشراته ♦

ولقد بذل الاستاذ محمد كرد علي في تكوين هذا المجمع وحيائه وادامته وابعاده عن التيارات السياسية والحزبية ، وأعطاه من وقته وجهده وماله الشيء الكثير ، وقام باعبائه ليحمله ذا مكانة بين مجامع العالم ، ولتخذ منه مثابة للاشعاع الفكري ، ومنبعا لنشر الثقافة العربية والحضارة الاسلامية، وليكون منه أداة فعالة لتطعيم هذه المعارف بالمعرفة الغربية بما يترجم من علومها وروائع آدابها ، وليحقق الرسالة التي طالما تنادى لها أساتذته الجزائري والبخاري والمبارك لحياء التراث العربي ونشر المؤلفات العلمية والادبية محققة خالية من الاخطاء المطبعية واللغوية ، كما تفعل مجامع أوربة وكما كانت تقوم به مطبعة بولاق ، وعلى نسق ما شاهد من أعمال المستشرقين في مطبوعاتهم التي كانوا يقومون بتحقيقها وعمل الفهارس لها خدمة للقارىء ، وتيسيرا لمهمة اخراج النص أو العلم الذي يراد الوقوف على قوله أو ترجمته ، فنشط المجمع بفضل توجيه رئيسه وجهود أعضائه

ومؤازريه لنشر كتب العلماء واحياء آثارهم وبعثها للناس ، وسعى في ذلك سعيًا متواصلًا بجد دائم ونشاط متزايد لا يعتريه فتور أو خمول مدة خمسة وأربعين عاما ، ما فتر ولا تراخى ، يخرج للمكتبة العربية النفائس من الكتب في مختلف صنوف الثقافة « ومرت بالبلاد ثورات ، وسفطت وزارات ، وقامت حكومات مختلفة ، والمجمع لا يتأثر الا باللغة ، ولا يعمل الا للثقافة ، يحاضر ويحقق وينشر ، ولسانه مجلة راقية تحمل الخير والنور منذ أكثر من أربعين عاما ، وقد ماتت صحف عربية ، وقضت منتديات أدبية خطابية ، وخلت جمعيات ثقافية ، والمجمع ما زال يبعث الايمان بالماضي القديم ، ويرسل الاشعاع للمستقبل القريب » •

وجهود الاستاذ محمد كرد علي تتجسد في المجمع العلمي ، فقد كرس وقته ونشاطه وعلمه لادارته والنهوض به ، فكان الباعث لنشاطه وحركته ، بل كان القوة الدافعة لحياته وبقائه ، يرسل الاعضاء العاملين والمؤازرين ، ويواكب التيارات الادبية والعلمية ، ويواصل سعيه في بعث التراث الاسلامي والعربي ، ويراسل المستشرقين ، ويرد على أسئلة السائلين منهم ، ويكتب العلماء في أقطار نائية من أجل المجمع ومن أجل تقدمه • كان يتفقدده صباح مساء ، ويحضر جلساته وندواته ، ويوجه محاضراته ، وينجز أعماله واصلاحاته بأمانة وحرص ودقة ، وكأنه لا هم له ولا شاغل له عن المجمع من أهل واصحاب وزراعة ، ولقي في سبيله خصومات السلطات الغاضبة ، ونقادات الخصوم والحساد ، وهجمات الطامعين في العضوية وهم ليسوا لها بأهل ، وسبب له سلاطة السنة وأقلام من الانداد ، ومن الاصحاب أحيانا ، قال :

لقيت الألاقي من الحكومات السورية في هذا المجمع كأنه كان بعض ملكي • خاصته وزارة الكتلة وعطلته عن العمل زمنا ، ورشحت لرئاسة المجمع صديقه شكيب أرسلان ولكنه عاد أدراجه وهو في طريقه لسفوط الوزارة •

بدأ المجمع بشمانية أعضاء ، وهم اليوم يبلغون عشرة أضعاف هذا

العدد ، وما زال مصدرا للاشعاع الادبي والفكري ، ومجلته تصدر طافحة بالبحوث العلمية والادبية والاجتماعية ، وللاستاذ محمد كرد علي القدح المعلى في اعدادها وامدادها بالكلمة الطيبة والفكرة الناضجة والمقالة الهادفة ، الى أن التحق بالرفيق الاعلى ، أعطاها - كما قلت - من نفسه ووقته وعلمه ما لم يعطه سواء وتفرغ للنهوض باعباء المجمع تفرغا يعز على عضو من اعضائه ♦

صدرت المجلة الناطقة باسم المجمع في كانون الثاني ١٩٢١م الموافق ٢١ ربيع الآخر ١٣٣٩هـ ، وكان الجزء الاول في ثلاث وثلاثين صفحة من القطع الكبير ، تصدرها بيان خطة المجلة في مقدمتها التالية :

« جرت عادة المجامع العلمية في البلاد المتمدنة أن يكون لها مجالات خاصة بها ، تصدر في أوقات معينة ، ينشر فيها ما يكتبه أعضاؤها ومراسلوها في مواضيع العلوم والفنون المختلفة ، وما يلقي في المجمع من المحاضرات على الجمهور من وقت الى آخر ، وما يتجدد في عالم العلم من الآراء والافكار وضروب الاكتشاف والاختراع وخلاصة الاعمال التي قام بها المجمع أو هو في صدد القيام بها وغير ذلك من الاخبار والشؤون التي تلتحم بخطته ولا تخرج من حدود وظيفته ، وقد رأينا أن مجتمعنا العلمي العربي بحاجة الى مثل هذه المجلة ، فأصدرناها بهذا الشكل ، وعلى هذا النمط الذي له طبيعة الوقت ، وفقد العدد والوسائل شفيح في تقصيره وعذر في الاكتفاء بقليله عن كثيره ، وان لنا من مؤازرة الفضلاء والعلماء ما يذلل الصعاب أمام هذه المجلة ، ويرقى بها الى ذروة كمالها واستتمام هلالها ان شاء الله تعالى ♦ أما الابواب أو الاقسام التي يتركب منها كيان هذه المجلة ، فهي أربعة :

الاول : في المقالات والمحاضرات ذات الموضوعات العلمية والفنية ♦

الثاني : في المراسلات التي ترد الى ادارة المجلة من المراسلين والعلماء

وأهل الفضل ، ولا تقبل ما لم تكن من موضوعات المجلة ♦

الثالث : في الاخبار والشؤون العلمية عامة ♦

الرابع : في أعمال المجمع ومساغله الءاءللة الءاصة به •

وكان تأخر صدور المءلة الى التاريخ الءل ذكرته أنفا (كانون الثاني ١٩٢١) بسبب توقف الاصلءاء الضرورية في « المءسة العاءلية » ، فلم يتم ءرميمها الءل كان مقررًا ، ومن ءهة أخرى يعوء التأخر الى قرار الءكومة العربية الءل ينص على لزوم ايقاف أعمال المءمع ءوقيفا موقءًا ، لاسباب سياسية واقتصادية ، وأمرء بابقاء عءوئين من أعضاءه ، ليشرفا على أعماله ، وليصونا محتوياته ويءفظاها من الضياع والسرقه ، فءعطل المءمع بعء أن عءقء - ٧٥ - ءلسه ، أولها كان في ٣٠ ءموز ١٩١٩ ، وآورها ٢٩ ءشرين الثاني ١٩١٩ • ءطورت فءره المءمع العلمي العربي من مءلس المعارف الءل كان يرأسه الاسءاذ محمد كرد علي الى قيام المءمع ، وءلك ءين قدم المرابي الكبير ساطع الءصري أسنءء الى اءارة المعارف فلزم الاسءاذ محمد كرد علي ءاره واعرء عمله قء انءهى ، ولكن أعضاء المءلس ءوسءطهم والءاءهم وهم زملاؤه والءاء الركابلي ءعهءه بالمعاونة ، ءعله ىءقبل العوءه ، واشءرء قلب المءلس الى المءمع العلمي العربي •

قال : « فأكون السبب في قءع أرءاقهم وهم أرباب عيال يءب علي أن أراءعهم وأرءمهم » • قبلء الءكومة بقلب مءلس المعارف برئاسءه وبأعضائه الى المءمع العلمي ، على أن يربءب بالءاكم العام مباشره ، وصدء المرسوم بءلك بءاريخ ٨-٦-١٩١٩ وبعءء ٤٢٣٤٧/٥٦٩٨ ، وظل المءمع يءعثر في سيره ءءى عاءء الءكومة فشءبء ميزانيءه واكنءى باءنين من أعضاءه من منسوبي الركابلي ومريديه •

يقول الاسءاذ محمد كرد علي فيهما : « أءءهما صاحب نواءر يسليه في ءاره ، والثاني ينظم له قصائء يمدءه بها » أما مؤسس المءمع الءل نشر ءعوءه بين العلماء من مءارقه ومءاربه وأولوه ءءتهم وصفقوا له وهو طفء ، فقء باء بالءءبل ، وقال ءصوم العرب : انا قوم لا ءبء عندنا ،

والدليل انا أفسدنا بأيدينا ما أسسنا قبل أن تظهر ثمراته « المذكرات ٢٧٨ ويقول : « ان المجمع في الواقع لم يلق تشييطا يذكر من السلطات المحلية منذ نشأته ، وأصابه من مقاومات أرباب اصحاب المقامات ما لا يشرف الاسم العربي • نعم ، لم يلق المجمع العلمي من السلطات الوطنية تشييطا ، بل لقي تشييطا ، فالامير الذي له الحق ان يفاخر بأن المجمع انشئ في أيامه خذله ، والركابي ضربه ضربة تكاد تقضي عليه وضرب رئيسه « عاد المجمع الى مزاوله نشاطه وعاد محمد كرد علي الى رئاسته مع تبديل في أعضائه ، وروعي فيهم الاختصاص ، وزيد على عددهم ، وكان أعضاء الشرف يعملون باخلاص ونشاط خدمة للعلم وتلبية لدعوة رئيسه •

ونحي محمد كرد علي عن رئاسة المجمع أيام حكم الكتلة برئاسة جميل مردم ، وظل بعيدا عنه طوال وزارة الكتلة من سنة ١٩٣٧ الى سنة ١٩٤١، فعاد الى الرئاسة وعاد للمجمع نشاطه المألوف في أيامه السابقة • يقول في مذكراته عن هذا الحادث ص ١٠١٥ « نعم كان السيد جميل مردم يريدني أن لا أشارك بوزارة السيد تاج الدين ، أما هو ، فجوز لنفسه وجوز له حزبه الاشتراك في وزارة حقي العظم ، وهذا مثل الحسيني (الشيخ تاج الدين الحسيني) ومن صميم الانتدابين أي ان هذا السياسي المحنك أجاز لنفسه وهو غارق في حزبيته ما حرمه على غيره وهو حيادي مستقل لا حزب له ، وما بالوا بتعطيل أعمال معهد يخدم العلم والادب ويدعو للعربية والعرب •

وقال : « لقيت الألاتي من الحكومة السورية في سبيل المجمع العلمي كأنه كان بعض ملكي ، وكان الادباء الحسدة يعرفون حرصي عليه فيضربونه ليضربوني ، ويعبثون بمصلحته ليؤذوني « ذلك لانه قام قبل أوانه على ما قال أحد رصفائي ، وكان لا يصدق أن في دمشق مجمعا علميا ، يعمل ويفيد ، بالنظر لما يصرف من قلة الاستعداد له في هذه البيأة الضيقة ، على أن من قصدنا فائدتهم كانوا راضين كل الرضى ، ولا سيما طلاب المدارس والطبقة المستتيرة من أبناء الامة ، وكان لمحاضراته

أحسن وقع في النفوس ، نبه الافكار الى مجد الامة ، وعلمها تأريخها وأدبها ، وعرف الناشئة الى آداب ما كانوا يعرفونها من قبل ، وأسّمعهم نعمات فعلت في افئدتهم وهياتهم للنهوض ، وكانت مجلته على ما أجمع على ذلك علماء الشرق والغرب من أرقى المجلات النافعة ، قل ان صدر مثلها ، وناهيك بمجلة يؤازرها نحو ثلاثين عالما وأديبا من العرب والمستشرقين من علماء المشرقيات • وقد عني المجمع بوضع ألفاظ لكثير من الكلمات الفرنسية في شؤون الحياة ، ومصطلحات الدواوين وغيرها ، ودل الكتاب على مغالطهم والمؤلفين على تقصيراتهم » • وقال : « وشهد الله اني كتبت أفكر في أنجع الطرق لانجاحه ليل نهار - مدة توليتي رئاسته ، وما رأيت بابا يوصلني الى النهوض به الا طريقته ، ولطالما بذلت ماء وجهي لانا من كنت أتنازل للسلام عليهم من قبل ، حتى استهديت له المخطوطات والعاديات ، وكنت أقتصد من ميزانيته القليلة مالا أدخره لامور تنفعه في المستقبل ، وأحاول اعلاء مكانته بين علماء الشرق وعلماء المشرقيات ، وكان من أثر حرصي عليه الابتعاد به عن السياسة ، فأصبح المعهد الوحيد في جميع أرض الانتداب حرا لا رقيب ولا مستشار له يملي على من فيه ارادته ، وكان الفرنسي في الشام سيدا في كل مكان الا في » المجمع العلمي العربي « فانه كان يزوره خاشعا متواضعا ، حتى لقد قال المفوض السامي المسيو بونسو وهو يزور المجمع مع المفوض السامي في فلسطين كلاما في هذا المعنى • قال :

« ان الفرنسيين في سورية يعلمون ، وفي المجمع العلمي يتعلمون » •

وقال : « وبعد فقد صبرت الصبر الجميل في هذا السبيل ومن علائم الصبر صبري على أخلاق بعض من عاشرتهم في دار المجمع حتى أمهد كل عقبة تحول دون انبعائه » •

وفي يوم ١٦ مارت ١٩٤١ أعيد انتخاب الاستاذ محمد كرد علي رئيسا للمجمع ، وتسلم مقاليد ادارته ، فحقق مجلس المديرين في وزارة السيد خالد العظم ما لم يتمكن من تحقيقه الوزراء الحزبيون •

وحرص الاستاذ محمد كرد علي على سمعة المجمع ، فلم تؤثر فيه الصداقات ، ولا أجدت نفعا الوساطات في ترشيح أحد من الناس مهما كانت ثروته أو جاهه أو وساطته لعضوية المجمع حبا لرفع مستواه وتجنبه الشبهات والتقولات • فما كان يرضى أن يضم الى المجمع الا من تتوافر فيه الشروط التي اشترط نظامه أي يكون العضو من أهل الخبرة والعلم والشهرة الادبية وقد ظهرت له مؤلفات موضوعية وكتابات تدل على جودة البحث والاصالة • اصطدم مرة مع وزير المعارف السيد محسن البرازي لترشيحه صاحباً له غير أهل للعضوية ، ولم ير أمام اصرار الوزير الا ان يرفع استقالته ، وقبل ان يترك المجمع على أن يقبل عضواً غير جدير بالترشيح • ولكن رئيس الوزراء تدخل في الامر ووافق على مرشح رئيس المجلس ، وكان قد سمي الاستاذ الشاعر خليل مردم ففاز بالعضوية فخرج منتصراً ، وضم الى الاعضاء الخالدين عضواً نافعاً •

وفي بعض دورات المجلس النيابي تقدم جوزيف ليان نائب حلب ، وطعن بالمجمع وندد بأعضائه وعدم جدواه ، فرد عليه نائب دمشق رداً بليغاً مفجعاً ، ثم ناصر المجمع رئيس الحكومة سعدالله الجابري ، وقال : « ان المجمع يمثلنا في العلم ، ودمشق هي الدعامة الاولى في نهضتنا » ورد رئيس المجلس السيد فارس الخوري ، وهو أحد اعضاء المجمع ، وأبان للمجمع الاثر الحميد في تحسين سمعة البلاد ، وما له من المكانة في ميداني العلم والادب وما له من المنزلة بين المستعربين من علماء المشرقيات أما مطبوعاته ، فقد تصدرت واجهات المكتبات العربية في دنيا العروبة ، وأصبحت بحوثه ورسائله ومجلته مصدراً لطلاب المعرفة ومثابة للباحثين من عرب ومستعربين كما اخرجت مطبعته عشرات الكتب المحققة مفهومة مزودة بالتحقيق العلمي الدقيق ، فكان المجمع العلمي العربي أعظم حسنة من حسنات الاستاذ محمد كرد علي •

وفي ص ٥١٨-٥١٩ من المذكرات عقد الاستاذ محمد كرد علي فصلاً بعنوان (كفاءة عمل) قال : « أسس المجمع العلمي العربي في دمشق

سنة ١٩٢١م ، وعلى ما صادف من مشطبات أنتج ما ساعدت بثأته على انتاجه :
 أثار الافكار ، وخدم اللغة العربية بما وصل الى علمه وعلم مؤازريه ،
 وأرادت بعض الحواضر العربية أن تحذو حذو دمشق في تأسيس المجامع
 العلمية ، فجاءت مصر بعد اعوام فأشأت مجمعها^(١) اللغوي ، فوضع ألوفاً
 من المصطلحات العلمية الجديدة وبسط قواعد اللغة العربية ، وكانت
 بغداد وعمان وبيروت تذرعت بمثل هذا الغرض الشريف ، فاجتمع مجمع^(٢)
 بغداد جلسات قليلة ثم انفض عن لاشيء ، واتفق ان كان مجمع عمان ناقص
 التركيب لقلّة الرجال فأخفق . اما مجمع بيروت فمع وجود أكفيا من
 العلماء والادباء في لبنان حالت الطائفية على ما يظهر دون مضيه في طريقه ،
 اذ كانت كل طائفة من طوائفه تحاول أن يكون لها التفوق على الطوائف
 الاخرى من حيث العدد والتفرد بالرئاسة ، ومن الغريب أن يتصدى
 للرئاسة من ليس عنده شيء من الادوات اللازمة لها » . وقال :

« قالوا : ان مائدة العلم لا يجلس اليها طفيلي . لقد كذبوا ، فانا
 ما زلنا نشهد في زماننا سلطة الطفيلين قائمة ، وعهدنا دعي العلم أقرب
 الناس الى الافتضاح ان لم يحقق الواقع دعواه . دعي العلم لا يستحي
 وهو لا ينافس العلماء فحسب ، وانما يتناول عليهم ، ويحاول أن يتعالى
 عليهم بسلطة لسانه ، وينال من غيره ، ويخلق لهم المثل ، ويتطال الى
 مقام الخالدين ، وهو من الجاهلين لم تعرف له كفاءته ، ولا أخرج للناس
 بحثاً ذا قيمة أو نفع ، وانما عرف بالتفاهة والضحالة ، وانما كل علمه أن
 يملك وريقة أثبتت الايام أنه غير جدير بلقبها ، والحكمة الخالدة تقول :
 رحم الله امرءاً عرف قدره ، لقد بليت العراق بعدد من هذا النوع الذين
 سماهم الاستاذ محمد كرد علي (الطفيلين) لا هم لهم الا الاعلان عن
 أنفسهم ، ولو لم يقوموا بأي عمل من أعمال الفكر - ليت أولئك الذين

(١) في جمادى الآخرة من سنة ١٣٥٧ المصادف ٧ آب ١٩٣٢ باسم
 مجمع فؤاد الاول للغة العربية .
 (٢) عنى لجنة التآليف والنشر سنة ١٩٤٥-١٩٤٧ . أما المجمع
 العلمي فانشئ في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ .

نالوا ألقاب العلم اعتبارا يقبلون على أنفسهم فيحاسبونها ويتعرفون على نواقصها فيزيلونها بالاقبال على العلم والقراءة للامهات كي يكونوا أهلا للالقب التي حصلوا عليها • حبذا لو عرفوا ما يحسنون ويتزودوا بما لا يحسنون ، فالعلم بحر لا ساحل له •

وفي مذكراته ص ٥٢٩-٥٣٠ وتحت عنوان : (المجمعان العربيان) ذكر أسباب نجاح مجمع دمشق فقال : « قال لي جلالة ملك مصر : ان المجمع العلمي العربي أهدها مطبوعاته ، فقرأها ورأى طبعها المشرق والتعليقات المفيدة على الكتب القديمة ، فمجمعكم يعمل خلافا لمجمعنا ، فأجبتة : ان المجمع المصري (اللغوي) يعمل أيضا ، ولكنه قصر في نشر أعماله في مجلته وتفضل كما جرى وارسل الي أحد خاصته لتفاوض فيما يحفز مجمع فؤاد الاول الى العمل •

نجح مجمع دمشق لان أعضائه أخلصوا في خدمته منذ وضع أساسه ، وكثيرا ما كان بعضهم يقرضني ويجهز بعلمي فيه ، فأقول لهم مخلصا : ان المجمع مدين لأعضائه مثل أخي فارس الخوري ، أنشأه معي ، وحماه من تمحكات السياسيين الأغبياء ، والسيد فارس لا يحتاج الى تعريف بعد أن ثبت في مؤتمرات الدول العالمية أنه رجل الدول العربية في السياسة ، وأنه عارف بقضية مصر معرفة لا يدانيه فيها سياسي ، ولجميع الاعضاء الذين عملوا معي في دمشق منذ انشائه : كطاهر الجزائري ومسعود الكواكبي وسليم البخاري وعبدالله رعد وسليم عنجوري وعبدالقادر المبارك من الاموات ، وأسعد الحكيم وسليم الجندي ومرشد خاطر وجعفر الحسيني و خليل مردم وجميل صليبا ، وحسني سبيح وشفيق جبري وعارف النكدي ومصطفى الشهابي وعبدالقادر المغربي ومحسن الامين وبهجة البيطار ، وهم في الغاية علما وغيره على خدمته • أما في الاصقاع القرية ، فكان من عاونوه شكيب أرسلان ، وأنتاس الكرملي ، ومحمود شكري الآلوسي ، وراغب الطباخ ، وفؤاد الخطيب ، وأحمد رضا ، وسليمان ظاهر ،

وأدوارد مرقص ، وعيسى اسكندر المعلوف ، ومحمد اسعاف الشنايبي ،
وعبدالله مخلص ، ورضا الشيبسي، ومحمد بهجة الاثري، وداوود الجلبلي،
وجرجيس مشني ، وطه الراوي ، وأحمد الاسكندري ، وأحمد تيمور ،
ورفيق العظم ، وأمين معلوف ، وعبدالعزیز البشري ، وأحمد عيسى ،
وابو عبدالله الزنجاني الى عشرات غيرهم من المستعربين من علماء
المشريات ، ومنهم : مارغليوث ، وماسنيون ، وكريكو ، وجويدي ،
ونلينو ، وبراون الخ

أما أعضاؤه في مصر ، فقل منهم من عاون هذا المجمع معاونة فعلية ،

* * *

أقام المجمع عددا من حفلات التأيين لأعضائه أو للعلماء والادباء من غير
أعضائه ، كما أقام مهرجانيين كبيرين للمتبي والابي العلاء المعري ، اشتركت
فيهما وفود من البلاد العربية .

فقد أقام حفلة تأيین للمرحوم الشيخ طاهر الجزائري في الخامس
من شهر كانون الاول سنة ١٩٢٠م . وحضر الحفل زهاء ستة آلاف
محتفل ومشاهد ، والقيت في تأيينه الخطب والقصائد ، وشارك فيه رجال
الحكم والعلم والادباء والشعراء والتجار .

واقام مثلها للمرحوم أحمد كمال باشا العالم الاثري ،
في التاسع من تشرين الاول سنة ١٩٢٣م ، وهو من أعضاء المجمع المراسلين ،
وألقى رئيس المجمع الاستاذ محمد كرد علي كلمة وافية في نبوغ الراحل
وأثره ، على الاثار المصرية واللغات القديمة ، وألقى الاستاذ عيسى اسكندر
المعلوف محاضرة في مكانة الفقيه العلمية وأعماله الأثرية .

ومن ابرز حفلاته تلك التي أقامها لتأيين علامة العراق السيد
محمود شكري الالوسي والاديب الكاتب السيد مصطفى لطفى المنفلوطي ،
وذلك عصر يوم الخميس ٢١ آب ١٩٢٤م ، وألقى في افتتاح الحفل الاستاذ
محمد كرد علي رئيس المجمع كلمة وافية وقى فيها حق الفقيدين

العظيمين اللذين (كان المجمع يعترز بهما ، لانهما ليسا مفخرا للعراق ومصر ، بل مفخرا للعرب) ، وألقى بعده الاستاذ محمد بهجة البيطار تأيينا ارسله من العراق الاب أنستاس وقد عدد فيه مناقب أستاذه وصديقه الالوسي ، وتأيينا آخر مؤثرا ارسله من العراق تلميذه البار السيد محمد بهجة الانري الذي لم يألُ جهدا في احياء مؤلفات أستاذه والكتابة فيه في مناسبات مختلفة ، وآخر ما كتبه في أستاذه محاضراته القيمة (في معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة) ، وألقى كذلك كل من الاساتذة عز الدين التتوخي ، والكرمي ، وشفيق جبري ، وبدوي الجبل ، قصائد وخطبا في تأيبن الراجلين •

وأقام المجمع في داره عصر يوم السبت ١٠ آب ١٩٢٥م حفلة تكريم فخمة لامير الشعراء أحمد شوقي ، اشترك فيها عدد كبير ، وحضرها جم غفير من الفضلاء والعلماء والتجار والاساتذة والوجهاء وطلاب المدارس العالية ، وافتتح الحفلة الاستاذ محمد كرد علي بخطاب بليغ أشار فيه الى تكريم مصر في شخص شوقي وتكريم الشعر في شعره ، وتبارى بعده الشعراء والخطباء في تكريم ضيف دمشق الكبير الذي خلد دمشق وثوراتها بشعره الوطني ، وكان منهم فارس الخوري و خليل مردم وشفيق جبري • وختم الاحتفال بانشاد رائعة أمير الشعراء شوقي ، أشدها بالنيابة عنه نجيب الرئيس الذي يحفظ شعر شوقي أجمعه وهي قصيدته الخالدة :

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان
وكان لها دوي هادر ووقع كبير في أقطار العروبة كلها ، وهي بحق من غرر الشعر القومي •

وأقام المجمع كذلك حفلة تكريم كبرى للشاعر الكبير حافظ ابراهيم عصر يوم ١٧ حزيران ١٩٢٩ ، حضرها جمهور غفير من مختلف طبقات الشعب والوزراء والعلماء والاساتذة وطلاب الجامعة ومئات من أهل الفضل والادب • قدم المحتفى به شاعر القطرين صديقه خليل مطران ، وعلق رئيس الوزراء الشيخ تاج الدين على صدر الشعارين وسام الاستحقاق السوري تقديرا وتكريما ، وافتتح الحفلة الاستاذ محمد كرد علي ، وكان يومئذ وزيرا

للمعارف فخطب خطبة نوه فيها بشعر حافظ وتمجيده للشام والشاميين ، ثم تلاه الاستاذ فارس الخوري فأنشد قصيدة غراء وكذلك أشد شفيق جبري قصيدة عصماء من شعره ، وأنشد خليل مطران أبياتا شكر فيها المحتفلين ، ثم نهض المحتفل به حافظ ابراهيم فأنشد هذين البيتين :

شكرت جميل صنعكم بدمعي ودمح العين مقياس الشعور
لاول مرة قد ذاق جفني على ما ذاقه دمع السرور^(١)

وأقام المجمع يوم ٥ تشرين الاول ١٩٣٢ حفلة لتأبين حافظ ابراهيم حضرها العلماء والادباء وأعضاء المجمع العربي ، وتكلم فيها حتى العظم رئيس الوزراء والاستاذ فارس الخوري «حافظ ابراهيم واللغة العربية» ، ثم ارتقى المنبر الاستاذ محمد كرد علي فذكر حياة حافظ وأثر شعره في اذكاء الروح الوطنية في البلاد العربية .

كما أقام حفلة لتأبين امير الشعراء أحمد شوقي برعاية رئيس الجمهورية محمد علي العابد عصر يوم ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٣٢ وهو يوافق يوم اربعين الشاعر الفقيه وشهدها علماء سورية وأدباؤها ووزراؤها ونوابها وجمع من عقائل دمشق وأوانسها المتعلمات، وافتتحها الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع بخطاب موضوعه (حياة أحمد شوقي) ، ثم تلاه فارس الخوري (فجيعة العرب بشوقي) ، ثم خليل مردم بقصيدة : خلود شوقي ، وتبارى بعده الشعراء والخطباء ، ثم ختمت بكلمة رئيس الجمهورية .

اما حفلة تكريم محمد الهراوي فلم يلق فيها الاستاذ محمد كرد علي كلمة ، وانما افتتحها الشيخ عبدالقادر المغربي ، وحضرها رئيس الجمهورية وجمع كبير من أعيان دمشق وقد أقيمت عصر يوم ٢٨ آب ١٩٣٣ .

وفي ٣١ تشرين الاول ١٩٣٥ أقام المجمع حفلة لتأبين العلامة السيد محمد رشيد رضا .

وبمناسبة مرور ألف عام هجري على وفاة شاعر العرب الاكبر أبي

(١) وله قصيدة نونية طويلة غير هذين البيتين .

الطيب المتنبى ، أقام المجمع العلمي مهرجانا عظيما ، استمر أسبوعا كاملا ،
واشترك في الاحتفال نفر من علماء الأقطار العربية وادبائها وشعرائها وجماعة
من أفاضل المستشرقين ، واشترك فيها من العراق شاعر العراق الكبير معروف
الرصافي والشاعر الشيخ رضا الشيبسي والشيخ باقر الشيبسي والشيخ علي
الشرقي والاستاذ العلامة السيد طه الراوي •

وكان هذا المهرجان من أيام العروبة الخالدة قيل فيه أروع الشعر
وأبلغ النثر ، وتعطرت أيامه السبعة بذكرى بطولات أيام سيف بني حمدان
وشاعره المتنبى الذي خلد بطولات أميره في قصائده الروميات •

وفي شهر ربيع الاول سنة ١٣٦٣هـ مر على مولد شيخ المعرة أبي العلاء
ألف سنة ، فاهتبل المجمع مرور هذه الذكرى ، وأقام هذا الاحتفال الألفي
ليكون وسيلة للاستقصاء في دراسة أبي العلاء ، وذلك في اليوم الثاني من
شوال ١٣٦٣ ، وحضره مندوبون من الأقطار العربية ودام المهرجان أسبوعا
كاملا ، حفلت بأحيائها دمشق وحمص وحماة ومعرة النعمان وحلب
واللاذقية ، والتقى في هذا الحفل الكبير جماعة من أدباء الامة العربية وعلمائها
وكتابها وشعرائها من الخليج الى المحيط ، وحضره وزراء معارفها ورؤساء
جامعاتها ، وكان وفد العراق مؤلفا من الاستاذ الكبير طه الراوي والشاعر
مهدي الجواهري والدكتور مهدي البصير • وكانت حفلة الافتتاح برعاية
السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية • وألقى رئيس المجمع العلمي
كلمة المجمع ، وكان من آثار هذا المهرجان احياء ديوان أبي العلاء ، وتعريف
القدماء بأبي العلاء ورسائله وكتبه وكتب فيه بحوث قيمة أفاضت على المكتبة
العربية ثروة من المعرفة في هذا الباب •



اضطلع المجمع العلمي العربي باشاعة المعرفة منذ بدأ اعماله بالتأليف
والنشر والمصطلحات اللغوية ، فقد عني بأمور اللغة عناية فائقة في المدارس
على اختلاف أقسامها من الابتدائية الى الجامعة ، واستعان بالاساتذة المختصين ،

وبذلك جمع بين قدرة أعضائه اللغوية وبين الاختصاصيين بمفاهيم الالفاظ الفنية ، وفي ذلك نجد رسالة وجهها المجمع الى مديرية المعارف بشأن مصطلحات الفنون الحديثة وما تستعمله مدرستا الطب والحقوق ، يقول فيها : « يرى المجمع أن انفراده بهذا العمل لا يأتي بالفائدة المطلوبة لما يقتضيه من الاحاطة بالعلوم والفنون العصرية المختلفة ومعرفة اللغات الاجنبية ، فضلا عن كثرة البحث والتنقيب والتدقيق والتحقيق في الكتب العربية » •

وكتب يطلب معونة الاساتذة الذين يعهد فيهم الخبرة والاختصاص من أمثال : فارس الخوري ، ومرشد خاطر ، ودرويش أبو العافية ، وعارف النكدي ، وعزالدين التوخي ، والامير مصطفى الشهابي ، وقد نشطوا في أعمال الوضع والتعريب « • ومن يستعرض الكتب والرسائل والمصطلحات التي ألفت من سنة ١٩٢١ حين قام المجمع يلمس الجهود الجبارة التي بذلها أعضاء هذا المجمع وضع آلاف الالفاظ والتعابير ، أعادها الى أسمائها العربية القديمة في الطب والفلسفة ومختلف العلوم ، وقد عاشت هذه المصطلحات العربية الاصلية أو المعربة الى يومنا •

وتقرر أن تفتح محاضرات المجمع في قاعة المحاضرات من ١٧ نيسان ١٩٢١م ، وكانت أول محاضرة ألقاها الاستاذ عبدالقادر المغربي ، وموضوعها (معلقة طرفة بن العبد) ، واستمر القاء المحاضرات مرة كل اسبوعين • فلما زاد اقبال الناس عليها ، أخذ المجمع يلقيها مرة في الاسبوع • يقول الاستاذ محمد كرد علي : ان المستمعين بلغ عددهم أكثر من أربع مئة ، حتى وقفوا على الابواب والنوافذ « ولم يقصروا على الرجال ، وانما أكمل رسالته الثقافية فراح يلقي المحاضرات على السيدات في مواضع علمية وأخلاقية وتربوية ، وكانت المعلمات يتولين هذه المحاضرات وتنظيمها والدعوة لها ، وكانت اللجنة المشرفة على اعداد المحاضرات والمراقبة للموضوعات تتألف من فارس الخوري ، ومسعود الكواكبي ، ومصطفى الشهابي ، وعارف النكدي • وتقوم لجنة ثانية تنظر في لغة المحاضرات وتصحيح أخطائها ، وكانت تتألف من عبدالقادر المبارك ، وسليم الجندي ،

وخليل مردم • وقد اختير يوم الجمعة لالقاء المحاضرات ، وتختتم المحاضرة عادة بالقاء قصيدة حماسية أو وطنية ، الغاية منها انماء الوعي الوطني واذكاء الروح القومية •

وقد بلغت المحاضرات من سنة ١٩٢١ - ١٩٤٦ زهاء أربع مئة محاضرة في أنواع مختلفة من الثقافة على صعيد العلم والتاريخ والادب والاجتماع ، واني أقتصر على ذكر الموضوعات التي حاضر بها الاستاذ محمد كرد علي طوال هذه المدة ، لما لها من لصوق بتاريخ صاحب هذه السيرة :

تأريخ القائنها	عنوان المحاضرة
١٧ نيسان ١٩٢١	١ - الحسبة في الاسلام
٣١ تموز ١٩٢١	٢ - الجباية في الاسلام
٧ كانون الاول ١٩٢٢	٣ - خلاصة أعمال المجمع
٢٩ كانون الاول ١٩٢١	٤ - مصانع الشام وهندستها
٩ شباط ١٩٢٣	٥ - تاريخ العلم في الشام
١٦ آذار ١٩٢٣	٦ - تاريخ العلم في الشام وسورية
٣ أيار ١٩٢٣	٧ - سكان الشام ولغاتهم
٢ حزيران ١٩٢٣	٨ - بين العرب والروم في الشام
٣ آب ١٩٢٣	٩ - آخر عهد الحكم العربي في الشام
١٠ آب ١٩٢٣	١٠ - آخر عهد الحكم العربي في الشام
٢٢ حزيران ١٩٢٣	١١ - صفحة من تاريخ بني أمية
٢٤ كانون الثاني ١٩٢٤	١٢ - عهد بني أيوب
١٥ شباط ١٩٢٤	١٣ - المماليك البحرية في الشام
٧ آذار ١٩٢٤	١٤ - عهد الشراكسة ووقائع التاتار
١٤ آذار ١٩٢٤	١٥ - عهد تيمورلنك
٤ نيسان ١٩٢٤	١٦ - عهد الشراكسة الى ظهور العثمانيين
٢٤ نيسان ١٩٢٤	١٧ - عهد الدولة العثمانية في الشام من

٩٢٢هـ الى ١٠٠٠هـ

- ١٨ - تاريخ بلاد الشام في القرن الحادي عشر
٢٣ ايار ١٩٢٤
- ١٩ - الشام في القرن الثاني عشر
٣ تشرين الاول ١٩٢٤
- ٢٠ - خطاب حفلة المجمع السنوية
٢٦ كانون اول ١٩٢٤
- ٢١ - ظاهر العمر وأحمد الجزائر
١٦ كانون الثاني ١٩٢٥
- ٢٢ - وقائع الجزائر
٣٠ كانون الثاني ١٩٢٥
- ٢٣ - عهد ابراهيم باشا المصري
٩ شباط ١٩٢٥
- ٢٤ - الحالة الاجتماعية في الشام
١٣ شباط ١٩٢٥
- ٢٥ - الفنون الجميلة
٣ نيسان ١٩٢٥
- ٢٦ - الجيوش البرية والبحرية
٢٣ ايار ١٩٢٥
- ٢٧ - سهل بن هارون
٣ كانون الاول ١٩٢٥
- ٢٨ - أبو حيان التوحيدي
١٨ شباط ١٩٢٦
- ٢٩ - بحث في أسفار التوحيدي (تمة)
١١ آذار ١٩٢٦
- ٣٠ - البلاغة سبيل الوزارة
١١ آذار ١٩٢٦
- ٣١ - الكتب والمكاتب في الشام
١٨ آذار ١٩٢٦
- ٣٢ - فضل علماء المشرقيات
٢٥ آذار ١٩٢٦
- ٣٣ - تركة السلف وتفريط الخلف
٨ نيسان ١٩٢٦
- ٣٤ - الاوقاف ماضيها ومستقبلها
٢٨ تشرين الاول ١٩٢٦
- ٣٥ - أديرة الشام وكنائسها
٢٦ تشرين الثاني ١٩٢٦
- ٣٦ - كيف يستفاد من التاريخ
٩ كانون الاول ١٩٢٦
- ٣٧ - تقرير بأعمال المجمع
١٣ كانون الثاني ١٩٢٨
- ٣٨ - تعاليم العلامة طاهر الجزائري
٢٠ كانون الثاني ١٩٢٨
- ٣٩ - حياة الشيخ طاهر الجزائري
٢٦ كانون الثاني ١٩٢٨
- ٤٠ - شاعر النيل حافظ ابراهيم
١٠ شباط ١٩٢٨
- ٤١ - بين الشرق والغرب
٢٦ تشرين الاول ١٩٢٨

تاريخ القائها	عنوان المحاضرة
٢ تشرين الثاني ١٩٢٨	٤٢ - الفرق بين التريتين
٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٨	٤٣ - جوامعنا ومساجدنا
٧ كانون الاول ١٩٢٨	٤٤ - مدارسنا القديمة والحديثة
١٤ كانون الاول ١٩٢٨	٤٥ - عبد الحميد الكاتب
٢١ كانون الاول ١٩٢٨	٤٦ - تحليل حياة عبد الحميد الكاتب
٢٥ كانون الثاني ١٩٢٩	٤٧ - عادات البدو والحضر
٥ ايار ١٩٣١	٤٨ - حياة العلامة أحمد تيمور باشا
٧ ايار ١٩٣١	٤٩ - مجالس أتتول فرانس
١٤ ايار ١٩٣١	٥٠ - مجالس انتول (تممة)
١٤ كانون الاول ١٩٣٩	٥١ - مميزات بني أمية
١ ايار ١٩٤١	٥٢ - غوطة دمشق
٩ ايار ١٩٤١	٥٣ - غوطة دمشق (تممة)
٧ تشرين الثاني ١٩٤١	٥٤ - ارشاد العامة
٦ تشرين الثاني ١٩٤٢	٥٥ - الآفة العظمى
٧ ايار ١٩٤٣	٥٦ - أسباب انحطاطنا
٤ حزيران ١٩٤٣	٥٧ - قوميتنا وقوميات الغرب
٢٦ تشرين الثاني ١٩٤٣	٥٨ - تبدل طباعنا بتبدل أوضاعنا الاجتماعية
٢٤ كانون الاول ١٩٤٣	٥٩ - تاريخنا والتهجم عليه في التأليف
٨ كانون الاول ١٩٤٤	٦٠ - من ماضينا القريب
٢٢ حزيران ١٩٤٤	٦١ - القول في حقوق المرأة
٧ كانون الاول ١٩٤٤	٦٢ - العلامة المراغي شيخ الازهر

هذه المحاضرات وحدها تكفي أن تخلد ذكر صاحبنا ، ناهيك بما ترك من مقالات وبحوث كتبها في (المقتبس) ، وهي تكون ثروة طائلة في مجالات العقل والثقافة . وفي ثنايا الكتب ذكر لمحاضراته التي حاضر بها

في القاهرة والشام خارج نطاق المجمع والمحاضرات المتسلسلة التي ألقاها في الجامعة الأمريكية في القاهرة وفي الاستانة والقدس والمدينة المنورة ، هذه المحاضرات لو جمعت لكونت عشرات المجلدات ، فالرجل لم يضع وقتا من أوقات عمره الطويل باللهو أو العبث أو الشرثرة ، ولكنه شغل ساعات يقظته كلها بالبحث والكتابة فيما ينفع بني قومه ويرفع ذكركم ويحيي تراثهم الثقافي والعلمي ، جزاه الله عن الاسلام والعروبة خير الجزاء .

* * *

أنشئت مجلة المجمع في كانون الثاني ١٩٢١-٢١ ربيع الثاني ١٣٣٩ وكانت أبوابها تتكون من أربعة :

- الاول : في المقالات والمحاضرات ذات الموضوعات العلمية والفنية .
 - الثاني - في المراسلات التي ترد الى ادارة المجلة من المراسلين والعلماء وأهل الفضل .
 - الثالث : في الاخبار والشؤون العلمية عامة .
 - الرابع : في أعمال المجمع ومساغيه الداخلية الخاصة به .
- وفي الجزء الاول كتب الرئيس محمد كرد علي ترجمة وافية للشيخ طاهر الجزائري وكان ما يطبع منها ٥٠٠ نسخة ، ترسل منها ٢٠٠ الى الاعضاء والمؤازرين والمعاهد العلمية والمجامع ، وعدد صفحاتها بادىء الامر ٣٢ صفحة كل شهر ، وأخذت تزداد تدريجيا حتى بلغت عام ١٩٢٧ ، ٦٤ صفحة وعينت باب خاص بالمطبوعات الحديثة يتناول وصفها ونقدها خدمة للقراء .

وكان المجلد الواحد يتكون من ١٢ عددا ، وفي عام ١٩٣١ صار المجلد يحوى ستة أعداد لكل شهرين جزء ، وفي عام ١٩٤٩ أصبحت المجلة تظهر بأربعة أجزاء في السنة لكل ثلاثة أشهر جزء .

وتوقفت هذه المجلة لاسباب ادارية ومالية من أول ايار ١٩٣٣ الى آخر نيسان سنة ١٩٣٥ ، ثم عادت الى الصدور ، ثم احتجبت مرة أخرى منذ عام

١٩٣٨ حتى بداية سنة ١٩٤١ أي خلال المدة التي تغيب عنها الرئيس محمد كرد علي .

ظهر من المجلة حتى وفاة رئيس المجمع محمد كرد علي ٣٠ مجلدا ، احتوت على دراسات لغوية وأدبية وتاريخية وآثارية ، كتبها أعضاء المجمع والمؤازرون من عرب وغيرهم ، ونشر فيها أهم المحاضرات التي أقيمت في بهو المجمع ، واني أقتصر على ايراد عناوين ما كتبه محمد كرد علي تكملة للموضوع ، ومن أراد الاستزادة فليرجع الى مجلدات المجمع العلمي نفسها ، والى كتاب تأريخ « المجمع العلمي العربي » تأليف أحمد الفتيح .

المجلد والسنة	عنوان المقال
المجلد الاول عام ١٩٢١	١ - الشيخ طاهر الجزائري وترجمته .
المجلد الاول عام ١٩٢١	٢ - الحسبة في الاسلام
المجلد الاول عام ١٩٢١	٣ - جباية الشام
المجلد الثاني عام ١٩٢٢	٤ - غابر الاندلس وحاضرها
المجلد الثاني عام ١٩٢٢	٥ - بحث انتقادي لتاريخ سورية
المجلد الثاني عام ١٩٢٢	٦ - الانتقاد والدروس التاريخية في سورية
المجلد الثالث عام ١٩٢٣	٧ - تراجم الاعيان للبوريني
المجلد الثالث عام ١٩٢٣	٨ - التيسير والاعتبار للاسدي
المجلد الرابع عام ١٩٢٤	٩ - رسالتان لصفى الدين الحلبي
المجلد الرابع عام ١٩٢٤	١٠ - كتاب خطط الشام ومصادره
المجلد الخامس عام ١٩٢٥	١١ - الانشاء والمنشؤون
المجلد الخامس عام ١٩٢٥	١٢ - ضرب الحوطة على جميع الغوطة
المجلد الخامس عام ١٩٢٥	١٣ - تاريخ الجزائر
المجلد الخامس عام ١٩٢٥	١٤ - تحفة ذوي الالباب للصفدي
المجلد الخامس عام ١٩٢٥	١٥ - فصيح وشوارد
المجلد السادس عام ١٩٢٦	١٦ - آثار الشهباء والفيحاء

المجلد والسنة	عنوان المقال
المجلد السادس عام ١٩٢٦	١٧ - كتاب الحمقى والمغفلين لابن الجوزي
المجلد السادس عام ١٩٢٦	١٨ - كتاب الاوراق للمصولي
المجلد السابع عام ١٩٢٧	١٩ - سهل بن هارون
المجلد السابع عام ١٩٢٧	٢٠ - البلاغة سبيل الوزارة
المجلد السابع عام ١٩٢٧	٢١ - أثر المستعربين من علماء المشرقيات
المجلد الثامن عام ١٩٢٨	٢٢ - أبو حيان التوحيدي
المجلد التاسع عام ١٩٢٩	٢٣ - عبدالحميد الكاتب
المجلد العاشر عام ١٩٣٠	٢٤ - التدوين في الاسلام
المجلد الحادي عشر عام ١٩٣١	٢٥ - مجالس أتول فرانس
	١٢٥ - لم ينشر للاستاذ محمد كرد علي
	أي بحث في المجلدات الثاني عشر
	والثالث عشر والرابع عشر والخامس
	عشر - لاختلافه مع الكتلة •
المجلد السادس عشر عام ١٩٤١	٢٦ - خزائن الكتب العربية في الخافقين
المجلد السادس عشر عام ١٩٤١	٢٧ - ابن عنين
المجلد السادس عشر عام ١٩٤١	٢٨ - العناصر الاجنبية في الاسلام
المجلد السابع عشر عام ١٩٤٢	٢٩ - الشاميون والتاريخ
المجلد السابع عشر عام ١٩٤٢	٣٠ - عظيم بني أمية
المجلد الثامن عشر عام ١٩٤٣	٣١ - شعر صبري
المجلد الثامن عشر عام ١٩٤٣	٣٢ - الفصيح والمولد في كلام أهل الغوطة
المجلد التاسع عشر عام ١٩٤٤	٣٣ - التصحيف والتحريف
المجلد العشرون عام ١٩٤٥	٣٤ - القول في حقوق المرأة
المجلد الحادي والعشرون عام ٤٦	٣٥ - أغلاط الافرنج
المجلد الحادي والعشرون عام ٤٦	٣٦ - من عمل المجمعين
المجلد الحادي والعشرون عام ٤٦	٣٧ - المؤلفون في مصر

المجلد الحادي والعشرون عام ٤٦	٣٨ - المؤلفون في الشام
المجلد الثاني والعشرون عام ٤٧	٣٩ - كنوز الاجداد
المجلد السادس والعشرون عام ٥١	٤٠ - الايجاز
المجلد السابع والعشرون عام ٥٢	٤١ - الاب لويس شيخو

ولقد نشر في مجلدات المقتطف عدداً من المقالات والبحوث قبل اصداره لمجلة (المقتبس) كما نشر أيضاً عدداً من المقالات في مجلة (الرسالة) وانقطع عن الكتابة فيها بعد ان حصلت الجفوة بينه وبين صاحبها الأستاذ أحمد حسن الزيات •• وكان سبب القطيعة يعود الى أن الزيات كتب قصة (وضاح اليمن) التي بنى فكرتها على أقصوصة هي من نسج خيال الشعوبيين ودسهم ، فرد عليه الأستاذ محمد بهجة الاثري بأسلوب لا يختلف عن أسلوب الزيات روعة ان لم يكن أبلغ منه ، أورد فيه من الأدلة والحجج التاريخية والاجتماعية ما يهدم فكرة الاقصوصة من أساسها وحين اطلع الاستاذ محمد كرد علي على الاصل والرد أشأ كلمة طريفة في تقريره الرد والثناء عليه ، وبعث به الى الاستاذ الزيات بالقاهرة لينشره في مجلته (الرسالة) ، فأغفله وأهمله ، فكبر ذلك على الاستاذ محمد كرد علي ووجد في صنعه هذا مجافاة لروح العلم والبحث ، فكان ذلك بداية التجافي بينهما • رواه لي الأستاذ الفاضل محمد بهجة الاثري •

نظراً الى ضالة ميزانية المجمع عند قيامه وفي سنيه الاولى لم يتمكن يومئذ من طبع الكتب واحياء المخطوطات ، واستعاض عن ذلك بنشر الكتب الكبيرة بفصول متسلسلة في المجلة ، وأخرجها على شكل رسائل ، وعمد الى طبع قسم من محاضراته • ولكنه من عام ١٩٤٤ زاد نشاطه فأخذ يطبع الكتب المحققة ، والمخطوطات النادرة فنشرها ، ثلاثين كتاباً في الأدب والتاريخ واللغة ، ووجد بعضها في المكتبة الظاهرية ، وقارنه بالنسخ الموجودة

في المكتبات الكبرى في الشرق والغرب ، والمجمع ما يزال دائماً على خطته
يحقق ويفهرس ويقارن ويستنسخ المصورات لنوادير المخطوطات ويخرجها
للناس ومن مطبوعاته وليس كلها ♦

١ - كتاب جامع التواريخ

المسمى بكتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة تأليف القاضي أبي علي
المحسن بن علي بن محمد بن ابي الفهم التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤هـ ♦
والكتاب يقع في أحد عشر جزءاً لم يعثر منها الا على ثلاثة أجزاء هي
الاول والثاني والثامن ♦ حقق الجزء الاول المستشرق مارغليوث سنة
١٩٢١ ، وكذلك عثر على الجزء الثامن وارسله الى المجمع فطبعه في عام
١٩٣٠ ، نشر المجمع كذلك الجزء الثاني في عام ١٩٣٢ وكان قد أرسله
اليه المستشرق مارغليوث أيضاً لينشر في مجلة المجمع تباعاً ثم يفرد
بكتاب ♦

٢ - بحر انعوام فيما أصاب فيه العوام

لمؤلفه الشيخ الامام محمد بن ابراهيم المعروف بابن الحنبلي الحلبي ،
عني بنشره وتحقيقه الاستاذ عز الدين التنوخي ، عام ١٩٣٧ في مطبعة ابن
زيدون بدمشق ♦

٣ - ديوان الوليد بن يزيد

جمعه ورتبه المستشرق الايطالي ف ♦ غبريالي ، وصدر بمقدمة
للاستاذ خليل مردم بك ، وطبع في مطبعة ابن زيدون بدمشق ♦

٤ - رسالة الملائكة

املاء الشيخ أبي العلاء المعري ، طبع بمناسبة المهرجان الألفي الذي
أقامه المجمع ♦ عني بتحقيقه وضبطه المرحوم الاستاذ محمد سليم الجندي ،
وطبع سنة ١٩٤٤ في مطبعة الترقى بدمشق ♦

٥ - كتاب المهرجان لأبي العلاء

يشتمل على وصف المهرجان وما قيل فيه من البحوث والقصائد والخطب ، قدم له المرحوم الأستاذ خليل مردم بك طبع الكتاب عام ١٩٤٥ في مطبعة الترقى بدمشق •

٦ - تاريخ حكماء الاسلام

تأليف ظهير الدين ابي الحسين علي بن زيد اليهقي ، وقد توسع في ترجمة ابن سينا خاصة ، وأوجز في الترجمة للفارابي والبيروني والرازي وابن الهيثم وابن سهلان والراغب ومسكويه والبتاني وأبي زيد البلخي ، طبع سنة ١٩٤٦ في مطبعة الترقى بدمشق •

٧ - ديوان ابن عنين

عني بشره وتحقيقه الأستاذ خليل مردم بك ، وقدم له بدراسة تحليلية لحياة الشاعر وشعره ومختلف مخطوطات ديوانه والكتب التي روجعت عند تحقيق الديوان • طبع الديوان عام ١٩٤٦ في مطبعة دمشق بدمشق •

٨ - المستجاد من فعلات الأجواد

لأبي علي المحسن بن علي التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤هـ ، عني بشره وتحقيقه الأستاذ محمد كرد علي ، وقدم له بمقدمة في التعريف بالكتاب وطريقة احيائه ، وهو يحمل أدبا وأخلاقا وتاريخا واجتماعا (والمقصد الأول عرض صور الكرماء كما عرض الجاحظ صور البخلاء) المقدمة : طبع الكتاب سنة ١٩٤٦ في مطبعة الترقى بدمشق •

٩ - كتاب الأشربة

تأليف ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ عني بشره وتحقيقه الأستاذ محمد كرد علي ، وكتب له مقدمة في التعريف بابن قتيبة ، وكتابه هذا ، وذكر فيها قيمة تأليف ابن قتيبة • طبع الكتاب عام ١٩٤٧ في مطبعة الترقى بدمشق •

١٠ - فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية

سجل المخطوطات التي احتوتها دار الكتب الظاهرية التي تبحث في التاريخ وتوابعه ، وعرف بها • طبع في عام ١٩٤٧ في مطبعة دمشق •

١١ - المدارس في تاريخ المدارس

تأليف عبدالقادر بن محمد النعيمي الدمشقي (٨٤٥ - ٩٢٧ هـ)
تحقيق الأمير جعفر الحسيني • ويعد أجل كتاب في تأريخ دمشق بعد تأريخ الحافظ ابن عساكر • جمع فيه المؤلف دور القرآن والحديث والمدارس والخوانق والتكايا والربط والترب والجوامع • طبع الجزء الاول ١٩٤٨ ، وطبع الجزء الثاني ١٩٥١ •

١٢ - ديوان علي بن الجهم

شرحه وحققه وجمع ما نقص منه الاستاذ الشاعر خليل مردم بك ،
وقدم له مقدمة مفصلة تحليلية في الشاعر والمخطوطة ونسخها • طبع عام ١٩٤٩ •

١٣ - الرسالة الجامعة

وهي تاج رسائل اخوان الصفا المنسوبة الى مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبدالله المجريطي القرطبي ، وهي جزءان عني بتحقيقها جميل صليبا ،
وطبعا عام ١٩٤٩ في مطبعة الترقى بدمشق •

١٤ - طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب

تأليف السلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول ثالث ملوك آل رسول باليمن المتوفى سنة ٦٩٦ هـ • حققه المستشرق (ك.و.و. سترستين) عضو المجمع العلمي العربي ، وأشرف على طبعه صلاح المنجد
طبع عام ١٩٤٩ •

١٥ - غوطة دمشق

تأليف الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع ، بحث فيه حدود الغوطة وبساتينها وقراها وسكانها • وقد فصلنا مباحث الكتاب في اثناء كلامنا على مؤلفات الاستاذ الرئيس • طبع الكتاب عام ١٩٤٩ في مطبعة الترقى •

١٦ - تاريخ داريا

للقاضي عبدالجبار الخولاني من رجال القرن الرابع الهجري ، نشر بعناية الاستاذ سعيد الافغاني • وداريا من قرى الغوطة • طبع الكتاب عام ١٩٥٠ في مطبعة الترقى •

١٧ - كنوز الاجداد

تأليف الاستاذ رئيس المجمع العلمي • وقد فصلت خبره في كلامي على مؤلفاته طبع عام ١٩٥٠ في مطبعة الترقى بدمشق •

١٨ - ديوان الوأواء الدمشقي

عني بنشره وتحقيق مخطوطته ووضع فهارسه الاستاذ سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي ، وقدم له بمقدمة في حياة الشاعر وعصره وشعره ومخطوطات الديوان • طبع سنة ١٩٥٠ في المطبعة الهاشمية بدمشق •

١٩ - الموفي في النحو الكوفي

للسيد صدرالدين الكنغراوي الاستانبولي المتوفى سنة ١٣٤٩ هـ ، شرحه وعلق عليه الاستاذ محمد بهجة البيطار • طبع في عام ١٩٥٠ في مطبعة الترقى •

٢٠ - ديوان ابن حيثوس

حققه الاستاذ خليل مردم بك ، وقدم له دراسة تحليلية في حياة الشاعر والديوان ونسخه الخطية ، طبع جزء الكتاب عام ١٩٥١ (المطبعة الهاشمية) •

٢١ - تاريخ مدينة دمشق

للمحافظ ابن عساكر • المجلدة الاولى بتحقيق صلاح الدين المنجد
وقدم له الاستاذ محمد كرد علي بكلمة في الدواعي لنشر تاريخ دمشق
وقيمة الكتاب والتعريف بالمؤلف • طبعت هذه المجلدة عام ١٩٥١ في مطبعة
الترقي •

٢٢ - المجلدة الثانية من تاريخ دمشق

القسم الاول خطط دمشق بتحقيق صلاح الدين المنجد طبع هذا القسم
عام ١٩٥٤ •

٢٣- كتاب البيزرة (احوال جوارح الصيد)

علق عليه ومهد له الاستاذ محمد كرد علي ، وعرف بالكتاب والمؤلف
ومخطوطة الكتاب • طبع عام ١٩٥٢ في مطبعة الترقي بدمشق •

٢٤ - أمراء دمشق في الاسلام

تأليف الصلاح الصفدي (٦٩٧ - ٧٦٤ هـ) • وهو معجم صغير
بأسماء امراء دمشق ، ثم نظم اسماء ولاتها في أرجوزة سماها (تحفة ذوي
الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب) نشر المعجم
والأرجوزة في كتاب واحد الدكتور صلاح الدين المنجد ، طبع الكتاب عام
١٩٥٥ في مطبعة الترقي •

٢٥ - خريدة القصر وجريدة العصر

للعقاد القرشي الأصفهاني (٥١٩ - ٥٩٧) في شعراء المئة السادسة
في الاقطار الاسلامية •

الاول قسم العراق : حقق الاول والثاني الاديب الشاعر الاستاذ
محمد بهجة الاثري ، ويعنى الان بتحقيق الجزء الثالث •
والثاني العجم وفارس وخراسان • والثالث الشام والجزيرة العربية •
والرابع مصر وصقلية والمغرب وبلاد الاندلس •

وقام بتحقيق الجزء الاول والثاني والثالث من قسم الشام والجزيرة
الدكتور شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية - دمشق ١٩٥٥-١٩٦٤ •

٢٦ - فهرس مجلة المجمع العلمي العربي

وضعه الاستاذ عمر رضا كحالة في مجلدين (مطبعة الترقى - دمشق
١٩٦٣) •

٢٧ - ديوان ابن أبي حصينة

حققه أسعد طلس • وعرف بالشاعر ونقد شعره وذيله بما وقع عليه
من شعر الشاعر ، طبع ١٩٥٦ في المطبعة الهاشمية بدمشق •

٢٨- تفسير ارجوزة ابي نواس في الفضل بن الربيع

للإمام ابن جنبي • تحقيق وشرح الاستاذ محمد بهجة الانري (المطبعة
الهاشمية - دمشق ١٩٦٦)

٢٩- ديوان ابن النقيب

تحقيق الاستاذ عبدالله الجبوري • (المطبعة الهاشمية ١٩٦٥) •

٣٠- رسائل ومقالات ، منها :

- ١ - المسكرات ومضارها النفسية للدكتور أسعد الحكيم •
- ٢- كتاب التبصرة بالتجارة للجاحظ • حققه حسن حسني
عبدالوهاب التونسي •
- ٣ - الرسالة النباتية للامير مصطفى الشهابي •
- ٤ - صدرالدين الشيرازي ، لابي عبدالله الزنجاني •
- ٥ - المتقى من اخبار الاصمعي ، تحقيق عزالدين علم الدين
التوخي •

مؤلفاته و ما حققه من كتب التراث

مؤلفاته

الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ، من العلماء الكاتين والأدباء المؤلفين ، كتب منذ نعومة أظفاره ، ومارس تدييح الكلمة في الصحف والمجلات والمحاضرات ، وكتب عشرات المقالات في التاريخ والأدب والاجتماع والدين والإصلاح والسياسة والدفاع عن الإسلام والعروبة والعربية والرد على الشعوية والعنصرية ، ولازمه القلم حياته الطويلة التي نيفت على السبع والسبعين سنة ، ولم يفارقه المداد والقرطاس ، حتى أيام مرضه الأخير ، وصاحبه في فراش المرض مع الدواء ، لأنه لا يجد عنه غنية أو بديلا ♦

وهو من أصحاب الأساليب السهلة ، يتخذ الكتابة للفهم والتعليم وبت المعرفة ، لذلك قلما نراه يتألق في كتاباته التي « تعلم العقل أولا والأدب ثانيا » كما قال ابن العميد في وصف كتب الجاحظ ♦ عقد في (المذكرات) فصلا عنوانه (كيف وضعت تأليني)^(١) ، قال فيه :

« كان صديقي الأستاذ رفيق بك العظم كثيرا ما يحثني على وضع التآليف الممتعة ، وقد كتب الي مرة من القاهرة يقول : « وبودي ألا توزع قواك التي وهبت لك في أجزاء منشورة وفصول مبتورة ، وأن توجه نفسك الى تأليف كبير يكون لك ذخراً وللامة نافعاً ، وأفضل ما يحتاجه قومك

(١) المذكرات : ٣٠٧

الآن التاريخ • أقترح عليك هذا حرصاً مني على ملكتك العلمية أن تعفو في مستقبل الأيام آثارها بين متفرقي الجرائد وفي ثنايا المجلات ، والله موفقك وهاديك » •

كان أول ما نشره ترجمة رواية (قبعة اليهودي) ، سماها (يتيمة الزمان في قبعة ليفمان) ، وذلك سنة ١٣١٢ هـ • عرضها على أستاذه المبارك فلم يرض له الأسلوب السهل المرسل ، وفضل أن تكون مسجوعة على طريقة عصره ، فشر بعضها ، ونشر استاذه أكثرها ، فجاءت منسوجة كلها بالسجع المتكلف • والسجع كان مستحكماً يوم ذاك في الفقهاء والمتعلمين المسجدين ، وقليل منهم من قدر أن يتخلص من هذه الطريقة • والأستاذ محمد كرد علي من أوائل الكتاب الذين حرروا أقلامهم من قيود السجع • وفي العراق سبق هذه الطبقة المفسر الكبير السيد محمود شهاب الدين الألوسي وحفيده العلامة محمود شكري •

وكتب بعد ذلك كتباً كانت له بمثابة التمرين على التأليف ، ولم يطبعها • منها : (ترجمة الاسماء التركية) لرضا باشا ، نقلها الى العربية والفرنسية ١٨٩٣م • ومنها تعريب بعض فصول من ثلاثة كتب في الحرية ، وهي حرية الوجدان ، والحرية المدنية ، والحرية السياسية لـ (ج. سيمون) • ولما رجع الى ما نقل ، لم يرقه ، وقال : ان القراء من باب اولى لا يستسيغونه ، ونشر بعض فصول في جريدة المؤيد من كتاب (الحرية السياسية) •

وكان قد بدأ يضع كتاباً في (حرية العرب) ، فكتب كرايس ، عاد فأهملها ولم يستحسنها ولم يحكم موضوعها ، لأن معلوماته التاريخية كانت ضئيلة ، وألقاها في سلة المهملات ، وكان يتمنى لو أهمل رواية « يتيمة الزمان » • واستغرق المقتبس والجرائد والمجلات كل وقته وجهده ، ولم يستطع ان يتفرغ للتأليف ، وصرف في ذلك ثمان سنين ، منها في مصر ومنها في الشام ، أخرج فيها ثلاثة مجلدات من (المقتبس) في مصر ، وخمسة مجلدات وعددين من السنة التاسعة • والحقيقة ان كل مجلد من

المجلدات الثمانية تعدل أكثر من كتاب ، والتفرغ لكتابة كتاب أسهل بكثير من تحرير مجلد من مجلة كالمقتبس ووفق خلال هذه المدة أن يطبع جزءاً من ترجمة (تـأريخ الحضارة) لشارل سنيوبوس ، كما نشر (رسائل البلغاء) وطبعها تبعاً في أجزاء المجلة ، وجعلها بعد ذلك كتاباً ، طبع ثلاث طبعات ، وقد تقحه وزاده زيادات مهمة في الطبقات المتتابعة ، وضمت الطبعة الأخيرة رسائل نادرة أصبحت مرجعاً للمتأديين والباحثين ، لما حوت من نصوص لا أثر لها في الكتب المطبوعة . وطبع له صاحب (مجلة مسامرات الشعب) روايتين ، عربهما من الفرنسية ، وهما : (الفضيلة والرذيلة) ، و (المجرم البريء) .

قال : « نقلتهما بسرعة ، وطبعتهما بسرعة ، ولم أنظر في المسودات ولا في التجارب نظرة ثانية ، فتسللت اليهما هفوات مطبعية وغيرهما ، مضافة الى رداءة الترجمة » .

واستخرج سنة ١٣٤٣هـ بعض ما نشر من المقالات في مجلة المقتبس والمقتطف والمؤيد والظاهر ، وسماه (القديم والحديث) . وطبعه في مصر . وقد حملت طبعته اغلاطاً فاحشة اغضبته ، وهذه المقالات ، كان لها أثرها في عهدها يوم نشرت ، ولم يعد لها ذلك اللمعان بمضي الوقت وتطور الثقافة والاساليب ، وكان يتبرم من ضياع وقته ، ولم يوفق لكتاب يرضيه ويشبع نهمه الى التأليف ، فكان يعزبه أستاذه الشيخ طاهر الجزائري بقوله : (ان المجلة تأليف وزيادة) ، وكان يوصيه أن يوجد المقالات ، ويؤثر أن تكون الكتابة مختصرة ، وعنده أن يضع ورقات جيدة التأليف أفضل من مئة صفحة مملوءة حشواً .

وكان يفكر منذ زمن بعيد في موضوع مشتت المادة متنوع الابحاث ، وهو وضع كتاب مطول يشتمل على تأريخ سياسي ومدني ووصفي وجغرافي للديار الشامية ، وأخذ يحضر مادته في المراجع العربية والتركية والفرنسية ، ولا سيما الكتب التي أحياها علماء المشرقيات . وكان يطالع هذه الكتب مطالعة تدبر . والتقط جواهرها . ولما استوفى البحث في خزائن مصر

والشام وبعض خزائن الاستانة ، حفزته همته أن يرحل لهذه الغاية الى أوربة ليتسع له مجال البحث في خزانات كتبها العربية والفرنجية ، فعرض فكرته على المستشرق (مارتن هارتمن) الالمانى ، وكان قد جاء دمشق ، وأطلعته على فكرته وأنه يزعم الرحيل الى باريز ولندن واكسفورد وكمبرج وليدن وبرلين ولييسك وغوتا وفينا ورومية والاسكوريال ومجريط ، للبحث في خزاناتها عن مخطوطات العرب في التاريخ ، فقال ان الفكرة حسنة ، ولكنها غير عملية ، وتنفيذها يستغرق عامين على أقل تقدير ، وتحتاج الى نفقات باهظة ، واقترح عليه أن يذهب الى روما ، وفي خزانه الأمير (كايثاني) صاحب كتاب (تاريخ الاسلام) صور شمسية من خزائن العالم فيها ما خلفه الثقات من مؤرخي العرب في تاريخ الاسلام مما لم يطبع حتى الآن • فاذا زرت خزائنه في التاريخ فكأنك رأيت جميع تواريخ العرب المحفوظة الى اليوم في خزائن الغرب •

فزار لهذا الغرض مصر ، وزوده أحمد زكي باشا كتابا الى الأمير الايطالي (كايثاني) ، يوصيه بمساعدته ، فقدم عليه ، فرحب به وسهل مهمته وفتح له مكتبته ، فكان يقضي فيها ثلاث ساعات يوميا ينهل من مصادرها مدة شهر كامل ، وكانت فصول الكتاب قد نسجت ونسقت في اثناء الحرب العالمية الاولى ، ورتبه على حسب الاقاليم ، يبحث في كل اقليم عن جغرافيته وتاريخه السياسي والمدني وطوبوغرافيته ، وسمى كتابه هذا (خطط الشام) •

ووصف كتابه ومنهجه بقوله : « ان المتأخرين زهدوا في التاريخ ، حتى كادوا لا يفرقون بينه وبين أفايصص العجائز وموضوعات المخرفين والمخرفين من القصصين والوضاعين ، مما دعا الى العناية بتجريد هذا الكتاب ما أمكن من المبالغات والخرافات ، ونخل لباب الوقائع المهمة الثابتة ، وحذف ما فيه شية شبهة أو شائبة غلو ، وان كان منها ما يروق بعضهم ويتفكهون بسماعه ويطلبون لترداده ، فخاطبت ما استطعت العقل أكثر من العاطفة ، وعנית في قسم التاريخ السياسي أبين علل الحوادث وتسلسل

الكوائن واستنباط القواعد ، والتأريخ ريب الحرية ، لا يتصرف على هوى من يكتبه ويقرؤه ، ولا أذواق المعاصرين وميولهم ، وما دام موضوعه الاعتبار بالخالي لمعرفة الحالي والآتي ، فهو جدير بان يتحرى فيه الحق ، ولا يدون سواء ، ولا يتناغى بغير الواقع » • ولما وضعت الحرب الاولى أوزارها ، أخذ رفاقه يلحون عليه ويحثونه على طبع الكتاب ، ويخشون ضياع المواد التي جمعها بطول السهر والدؤوب ، وكانوا متفقين بأن نعبا يطالب باستقلاله حري أن يكون له « تأريخ يرجع اليه ، ويقول للامم هذا ما كنت عليه ، وهذا ما صرت اليه » ، وتألقت لذلك لجنة من أصدقائه ، وهم : خليل مردم ، وبدر الداغستاني ، وفوزي الغزي ، وفخري البارودي ، ولطفي الحفار ، وسامي العظم ، جمعت نفقات الطبع بالاشتراك ، وفتحوا باب الاشتراك في الشام ومصر والعراق ولبنان وغيرها ، فجاءت المبالغ تباعاً حتى بلغت زهاء ألف ليرة عثمانية ذهبية ، وبالتساند بين أبناء الوطن طبع الكتاب ، وكان من النادر أن يطبع كتاب بهذه الطريقة ، طبع من الكتاب بأجزائه الستة ثلاثة آلاف : ألفان منها سددت تكاليف الكتاب ، والالف الثالثة أهدي منها للمجامع العلمية والخزانات العامة والمجلات والاصحاب المعوزين ، ولم يرد من ريع الكتاب على المؤلف سوى مبلغ ضئيل لا يسدد الا جزءاً يسيراً من نفقاته الكثيرة في جمع مواد البحث ، منها رحلتان الى أوروبا ، ومنها شراء كتب المستشرقين الباهظة الثمن واقتناء الكتب النادرة ، ناهيك عن اشتغال خمس وعشرين سنة ، وقدرت مصاريفه بما يزيد على خمس مئة الف ليرة عثمانية ، ومع كل هذه النفقات والانتعاب فقد كان مغتبطاً فرحاً لانجاز طبعه ، لأنه سيخدم أبناء الضاد ، ويعرفهم ماضي أمتهم وبلادهم ، وقد أصبح مرجعاً للباحثين من عرب وغير عرب •

ونقده الأستاذ عارف النكدي عند صدور كل جزء ، وانتفع المؤلف بنقده • وقد نشر هذا النقد المتسلسل في آخر الكتاب ليتنفع به القارئ ، كما نشر ما جاء من نقد الباحثين ، ولم ينشر التقاريط لانها تقتصر على المدح والتناء على جهد المؤلف • يقول في المذكرات (ص ٣١٤) : « ومن

طبعي أن يتدرب الناس على حب النقد للفائدة المتوقعة منه للمؤلف وللناس
والعلم ولذلك لم أنشر في كتبي قط ولا في المجلات والجرائد التي كتبها
تقريظاً او شيئاً يشبه المدح في عملي ، بل كنت أنشر النقد فقط » •

قرأ خلال خمس وعشرين سنة أكثر من ألف ومئتي مجلد باللغات
العربية والفرنسية والتركية ، وقرأ مصورات كتب لا عد لها تفوق الحصر ،
وراجع مخطوطات في خطوط مختلفة لا يصبر على فك رموزها الا من
أوتي صبراً خارقاً • بلغت صفحات كتابه بأجزائه الستة ١٩٤٠ صفحة •
وقد كلف زملاء له الكتابة في خطط مدنهم ، فسجل لهم فضلهم ،
وأشركهم في مجهوده الكبير • وصفه الاستاذ شفيق جبري في محاضراته
في (معهد الدراسات العربية العالية) ، يقول :

« ان الانسان اذا ضرب بعينه في هذا التاريخ فان أول ما يغلب عليه
دهشة يدهشها ، وحيرة يحارها • يدهش من هذه الامم التي تعاقبت على
ديار الشام من أول العصور ، ويحار من هذه اللغات التي تزاومت فيها ،
ثم يخرج من دهشته وحيرته بهذه النتيجة العجيبة ، كيف استطاعت
القومية العربية ان تعفي على آثار كل القوميات التي تعاقبت على الشام ،
كيف استطاعت لغة العرب أن تطمس آثار كل اللغات التي تنازعت في
هذا الوطن الكبير ؟ فاذا خرج من قراءة خطط الشام بهذه النتيجة ، علم
حينئذ مقدار فضل صاحبه في جمع ما بعثر من آثار العرب والاسلام في
السياسة والحضارة ، حتى ينظمها في سلك واحد يملأ الانسان منه قلبه
وعقله ، فيشدد تغنيه بقومه ، وتشدد مباهاته بلغته » ، وقال : (واذا كنا
نجد في خطط الشام ما يرضينا احيانا ، ويسخطنا أحيانا ، فانا نجد فيه
ما يرضي الناس كلهم ونعني بذلك مجهود صاحبه في اتمام هذا العمل) •
في سنة ١٩٤٤ اختصر الاستاذ محمد كرد علي جزء من كتابه ، وجعله
ملائماً لسلسلة (اقرأ) ، وسماه (دمشق مدينة السحر والشعر) صدر
في نيسان ١٩٤٤م • وذكر الامير مصطفى الشهابي في كلمة القاها في حفل
استقباله بمجمع اللغة العربية في مصر ، يقول فيها عن الأستاذ الرئيس

كرد علي : (ذكر لي مرة أنه لم يبق له في الحياة الا أمنية واحدة ، وهي أن يتاح له طبع كتاب خطط الشام طبعة ثانية منقحة) ، وذلك في ضوء ما جد من بحوث وما توافر من مصادر ما كانت مسيرة يوم ذاك •

ذكر الأستاذ كرد علي أن عزمي بك والي بيروت خلال الحرب الاولى طلب أن أوّلف له كتابا عن سورية الداخلية ، كما أّلف له عن سوريا الساحلية ، فطلب للقيام بهذا التّأليف الف ليرة عثمانية ذهبية ، فأستعظم ما طلب الاستاذ قياسا على ما صرف على المؤلف الخاص ببيروت واللاذقية وطرابلس ونابلس وعكا • واجتمع بعزمي بك في الاستانسة فأبدى اسفه لانه لم يجب طلب الاستاذ ، لستم تأليف كتاب عن سورية يسد الفراغ الذي يشعر به الغريب قبل البعيد •

يقول : وقلت له ، وهو من أذكياء الاتحاديين : « ان من طبعي ألا أهين العلم ، وما سبق لي أن أسقطت قيمته ، بل رفعت من شأنه ما استطعت • ولقد انفتحت في سبيل التعلم أولا ، ثم التعليم ثانيا ، ثم نشر ما علمت ثالثا ، نفقات لم ينفقها فيما أحسب انسان ممن عرفت من أبناء وطني ، وأرجو الا تعد ذلك تبجحا ، وأن توقن أن هذا هو الحق ، وبذلك لا أوأخذ على رفض طلبك ، وطلبك ما كنت أعده تفضلا علي بل سخرة من سخرات الحرب الممقوتة ، حمدت الله على أن نجوت منها » •

* * *

نشر كتابه (خطط الشام) في دمشق ، وكان يفضل طبعه في مصر ، لان الكتاب الذي يصدر عن القطر المصري يلقي قبولا ورواجا في العالم العربي ، لا يقع مثله لكتاب يطبع في الاقطار العربية الاخرى ، وما عاق عن طبعه في مصر الا مسألة التصحيح وصعوبة الانتظار في مصر من أجله ، والاعتماد على مصححين لكتاب كبير يتسع الى ١٩٠٠ صفحة أمر لا يجيزه مثل الاستاذ محمد كرد علي الذي يباشر هذه الامور بنفسه على حد القول « ما حك جلدك مثل ظفرك ، فتول أنت جميع أمرك » •

وبعنوان : (استدراقات وتصويبات) الحق بالكتاب استدراقات عنت له

أو تصويبات وجهها اليه جماعة من الفضلاء : قال « فاتنا في الاجزاء الستة من خطط الشام تدوين بعض حوادث ووثائق كانت مدونة في مفكراتنا ، أو عثرنا عليها في كتب ومدونات أخرى بعد انجاز الطبع ، ووقعت لنا أغلاط ، منها ما اتبهننا اليه بعد النشر ، ومنها ما تفضل بعض العلماء والادباء فأرشدونا اليه ، فضممنا تلك المستدركات وهذه التصويبات في الصفحات التالية ، ارادة التحقيق » •

من الناقدین مَنْ نظروا في الخطط وبعثوا اليه مباشرة بنقدمهم ، ومنهم من كتبوا في المجلات العلمية ومنم نقده من الاعلام المرحوم الشيخ سليم البخاري ، وهو من أساتذته وأحد الثلاثة الموجهين له ، وأحمد تيمور باشا ، والامير شكيب أرسلان في لوزان ، والسيد عبدالله مخلص في حيفا ، والسيد عمر صالح البرغوثي في القدس ، والسيد عيسى اسكندر المعلوف في زحلة ، والاب مرمجي في القدس ، والسيد جميل البحري في حيفا ، ونقد الخطط أيضا الدكتور يعقوب صروف في مجلة المقتطف ، والأب أنستاس ماري الكرمللي في مجلة لغة العرب في بغداد ، والسيد عارف النكدي في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق ، والاب لويس شيخو ، والاب هنري لامانس في مجلة المشرق في بيروت ، والسيد أسد رستم ، والسيد أنيس الخوري المقدسي في مجلة الكلية في بيروت ، والدكتور فيليب حتى في مجلة الجمعية الاسيوية الانكليزية •

وتستغرق الاستدركات ستين صفحة من آخر الجزء السادس من

الكتاب ، من ص ٣٤٢ الى ص ٤٠٢ •

اما كتابه (دمشق مدينة السحر والشعر) فهو من سلسلة (اقرأ) عدده - ١٦ لشهرمارت ١٩٤٤م ، وموضوعاته مقبسة أو ملخصة من الجزء الاول من الخطط ، ولذلك تجدني أضعه بعد (خطط الشام) ، لانه جزء منه ، ومحتوياته مأخوذة باختصار من الام • فاذا اقتبسنا بعضها ، فكأنما سجلنا بها بعض محتويات الخطط • يقع الكتاب في ١٢٥ صفحة من القطع الربع كبقية

كتب هذه السلسلة • بدأه بالكلام على طبيعة دمشق وما جاء في أصلها واستقاق كلمتها ، ثم تكلم على تأريخ دمشق السياسي ، من ص ١١ - ٤٩ لخص في هذا الفصل تأريخها السياسي ومن تداولوها من الحكام قبل الاسلام وبعده الى عهدها الاخير في الحكم الجمهوري • وكتب في الفصل الثالث عن (عمران دمشق) من ص ٥٠ - ٨٣ ذكر عمرانها أيام الاراميين والرومان ، وآثار عمرانهم المجسدة في الحصون المقامة بين دمشق وتدمر ، وبين بصرى ودمشق ، ومن آثارهم قلعة دمشق المعروفة بـ (الاسد الرابض) ، وكانت على عهد ملوك الطوائف دار امانة ، والآثار الباقية من بناء المسلمين ، وأولها الجامع الاموي من زمن الوليد بن عبد الملك • وفصل القول في عمرانها أيام الامويين ، فقد عمرت عمراناً ما عهدت مثله لا في ماضيها ولا حاضرها ، وأجمل القول في عمرانها أيام الحكم العباسي وملوك الطوائف والايوبي والمماليك والعثمانيين الى عصرها الحاضر •

وكتب في الفصل الرابع نقولاً عن وصف القدماء والمحدثين لها ، ص (٨٤ - ٩٤) فذكر وصف المقدسي لدمشق ، ووصف ياقوت الحموي ، ووصف شيخ الربوة الدمشقي ، ووصف ابن بطوطة والقلقشندي والظاهري في القرن العاشر ، وأخيراً اقتبس بعض ما قيل في وصفها من الشعر ثم نقل وصف الرحالين الافرنج •

والفصل الخامس اشتمل على سكان دمشق وخصائصهم من ٩٥-١٠٤ والفصل السادس تكلم فيه على الحياة الأدبية والفنية والصناعية من ص ١٠٥-١٣٨ بدأها بتأريخها قبل الاسلام ، فتكلم على نبغائها وعلمائها وفنانيها ومهندسيها ، وعلى الوافدين عليها من أمثال النابغة الذبياني وحسان بن ثابت وامريء القيس والمتلمس ، وتكلم على المحدثين والعلماء المسلمين من أيام معاوية وعبد الملك (سنان قريش وسيفها رايًا وحزماً) وعلى شعرائها والوافدين عليها كالأخطل ونابغة بني شيان ونصيب ، ومن العلماء كآبي الدرداء وأبي ادريس الخولاني وبشر بن الوليد الأموي الخ ••• ووصف الفنون الجميلة التي اشتهرت بها دمشق ، كالموسيقى واهلها برعاء بالعود والطلبة ، وكان

غناؤهم في القديم الانشاد والترنيم والحداء ، وكانت لهم أصوات في الغناء
نسبت الى «فنائها» ، وعدوا الرقص من الفنون الجميلة ، واشتهرت في التاريخ
مغنيات وراقصات ، وما زالت دمشق تعشق الغناء والرقص •

والصناعات عريقة في دمشق ، والى كل صنعة يتسلسل العمل بها في
بيوت مخصوصة تنسج فيها بزها وديباجها واطلسها واعتبتها واغظيتها ونحاسها
وآلاتها ومقاعدھا المرصفة بالصدف والفسيفساء • والفصل السابع في غوطها
استغرق ١٣ صفحة من الكتاب •
دمشق وطبيعتها :

دمشق ، بكسر الدال وفتح الميم واسكان الشين : اسم هذه المدينة
الجميلة ، مدينة السحر والشعر ، قالوا : ان اصلها لفظة آرامية مماتة (مشق)
تقدمها دال النسبة ، وقد وردت في اللغة الهيروغليفية على هذا النحو تقريباً ،
ومعناها الأرض المزهرة أو الحديقة الغناء ، وأطلق الآرايسون عليها اسم
(درمسق) والسريان (درمسوق) ، وأهل لغة التلمود (درمسقين) ، وقالوا :
ان ارم ذات العماد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي دمشق بعينها ،
وبعض المفسرين يذهبون الى ذلك ، والآية الكريمة : (ألم تر كيف فعل
ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) •

واياها عنى البحري بقوله :

اليك رحلنا العيس من أرض بابل يجوز بها سمت الدبو - ويهتدي
فكم جزعت من وهدة بعد وهدة بنا وقصور الشام منك بمرصد
الى ارم ذات العماد وانها لموضع قصدي موجفا وتعمدي

ومعنى آرام العالية أو سهل مرتفع نحو الفي قدم عن مساواة البحر ،
وقد وردت في التوزاة عدة أسماء مضافة الى آرام ، وأطلقوا اسم (جلق)
بكسر أوله وثانيه وتشديده على مدينة دمشق ، وقد ورد هذا الاسم في
الشعر القديم ، ومنه شعر حسان :

لله در عصابة نادتهم يوما بجلق في الزمان الأول

وقيل : جلق اسم لكورة دمشق كلها ، وقيل غير ذلك ، ويكاد يكون
الاجماع على أن جلق هي دمشق ، وسموا دمشق جلق الخضراء
والغوطة وذات العماد ، ولقبت بالفيحاء ، والفيحاء الواسعة من الدور
والرياض ، وسماء بعضهم جيرون ، وسماء آخرون بالعذراء • تعلقو
دمشق ٢٢٠٠ قدم ، أو نحو ٦٩١ مترا عن سطح البحر المتوسط وتبعد
عنه نحو ٦٠ ميلا ، قامت في نجد من الأرض • ومعدل ما توجد به
سماؤها من المطر كل سنة نحو ٣٥٠ مليمترا • وهي تقع في عرض
٣٩/١٨ درجة من الطول ٤٣/٢٠ من العرض • يطل عليها من الشمال
جبل قاسيون ، وهو فرع من فروع جبل سنير الذي يطلق على بعضه
اسم جبل قلمون ، ويشرف عليها من الجنوب الجبل الأسود وجبل
المانع ، ومن الغرب جبل الشيخ المعروف بحرمون في التوراة وبجبل الثلج
عند قدماء الغرب ، وغربها مفتوح وكذلك شرقها ، فهي سهلية جبلية ،
ومعتدلة الهواء • تأخذ الفصول الأربعة فيها حكمها ، وقد تنزل درجة
الحرارة في الشتاء الى اثنتي عشرة درجة تحت الصفر ، وتصعد فيها
أيام الصيف الى نحو ٣٧ درجة ، وهي هبة (بردي) الذي سماه اليونان
نهر الذهب ، كما أن مصر هبة النيل • وبردي يسقي المدينة بعد تقسيمه
سته أنهار ، منها ما يدخل البلد ، وهي : بردي (النهر الأصلي) ،
وقنات ، وبانياس ، ويزيد ، وتورا ، واللذان يسقيان الضاحية فقط :
الداراني ، وقناة المزة •

وكانت دمشق لقربها من جزيرة العرب والعراق والجزيرة ومصر
مدينة تجارية تصل بين الشرق والغرب وظلت عامرة على اختلاف العصور
نحو أربعة آلاف سنة ، فهي أقدم مدينة في العالم باقية على عمرانها ،
ومما تفخر به أن لها الوادين : وادي بردي ، ووادي العجم • يشق الاول نهر
بردي مضافة اليه مياه عين الفيحة ، ويشق الثاني نهر الأعوج المعروف
عند القدماء باسم فرفر ، ومخرجه من سفوح جبل الثلج ، ولا يدخل
المدينة ، بل يسقي بعض قرأها القريبة • ومن خصائص دمشق أنها وسط

غوطتها الغناء تخرج لها بقولها وفاكحتها وأخشابها وأحطابها • وهي على مقربة من اقليم حوران • تجلب منه حبوبها الجيدة ، وعلى أميال يسيرة من اقليم الجولان ، ترعى فيه ماشيتها ، وعلى فراسخ قليلة من مصايفها ومشايتها ، ترى في بعضها الهواء العليل البليل طوال السنة ، وفي الوقت عينه تشهد حكم الصيف ، فغورها على مقربة من نجدها ، وجبالها كسهولها ، تتعاون على جلب الخيرات إليها ، والثلج لا تخلو منه أعالي جبالها صيفا وشتاء ، وماء الشفة يجلب إليها في أنابيب تسقي دورها ومصانعها ، وندر في المدن الكبرى مدينة كهذه تسقى ماء طاهرا لذيذا كماء عين الفيحة ، وبهذا قلت الأمراض الوافدة على ما كانت في الاعصار الخالية •

ومن فصول الكتاب وصف القدماء والمحدثين لدمشق :

قيل لاسحاق بن يحيى الختلي من ولاة دمشق ٢٣٥هـ : لِمَ سكنت دمشق ، وفلحت أرضها ، وأكثرت فيها الغروس من أصناف الفاكهة ، وأجريت المياه الى الضياع وغيرها ؟ فقال : لا يطيق نزولها الا الملوك ، وقيل له : كيف ذلك ؟ قال : ماظنكم ببلدة يأكل فيها الاطفال ما يأكله في غيرها الكبار ؟ وحق لهذا الوالي أن يقول ذلك ، فان دمشق معروفة منذ القديم بأنها بلدة رفاهية ، يكاد الفقير يعيش فيها عيش الغني الا قليلا ، ويتفنن أهلها في مآكلهم ومشاربهم وقصفهم ولهوهم •

وصف المقدسي في القرن الرابع مدينة دمشق بأنها « مصر الشام ودار الملك أيام بني أمية ، وثم قصورهم وآثارهم وبنائهم خشب وطين • أكثر أسواقها مغطاة • ولههم سوق على طول ابلد مكشوف حسن • لا ترى أحسن من حماماتها ، ولا أعجب من فواراتها ، ولا أحزم من أهلها ، ومنازلها ضيقة ، وأزقتها غامة ، تكون نحو نصف فرسخ في مثله في مستوى ، والجامع أحسن شيء للمسلمين اليوم ، ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه » • ووصف ابن جبير في القرن السادس هذه المدينة فقال : « انها بلد ليس بمفرط الكبر ، وهو مائل للطول ، وسككه ضيقة مظلمة ، وبنائوه طين وقصب ، طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك كثيراً ما يسرع الحريق اليه ،

وهو كله ثلاث طبقات فيه من الخلق بما تجمعه ثلاث مدن ، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقا » • ووصفها ياقوت في القرن السادس أيضا فقال : « ومن خصائص دمشق التي لم أرَ في بلد آخر مثلها كثرة الأنهار بها وجريان الماء في قنواتها ، فقلَّ أن تمر بحائط الا والماء يخرج منه في أبواب ، الى حوض يشرب منه ويستقي الوارد والصادر ، وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاه الا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان ، والمساكن بها عزيزة لكثرة أهلها والساكنين بها وضيق بقعتها ، ولها رُبَّ ض دون السور محيط بأكثر البلد يكون في مقدار البلد نفسه » •

ووصفها شيخ الربوة وهو ابن دمشق أوائل القرن الثامن ، فقال : « انها مقسومة ثلاث طبقات : قسم مبوَّث العمارة في غوتتها ، لو جمع لكان مدينة عظيمة ما بين جواسق وقصور وقاعات واصطبلات وطواحن وحمامات وأسواق ومدارس وتُرَبَّ وجوامع ومساجد ومشاهد غير القرى والضياع الامهات ، وهذا الذي ذكرناه لا يوجد بغيرها أصلاً » • والقسم الثاني تحت الأرض منها مدينة أخرى من متصرفات المياه والقنني والجداول ومسارب ومخازن وقنوات تحت الأرض كلها حتى لو حفر الانسان أينما حفر من أرضها وجد مجاري المياه تحتها مشبَّكة طبقات يمتد ويسرَّة شيئاً فوق شيء ، والقسم الثالث سورها وما فيه وحوله من المعمور ، وكأنما هي في وصفها طائر أبيض في برج أخضر ، يترشف ما يصل اليه من الماء أولاً فأولاً » • وهذا أصدق وصف ينطبق عليها الى اليوم •

ووصفها ابن فضل الله العمري الدمشقي في القرن الثامن ، فقال : « ان أغلب بنائها بالحجر ، ودورها أصغر مقادير من دور مصر ، لكنها أكثر زخرفة منها ، وان كان الرخام بها أقل دائماً ، فهو أحسن أنواعا ، وان عناية أهل دمشق بالمباني كثيرة ، ولهم في بساطينهم منها ما تفوق به وتحسن بأوضاعه ، وأجلُّ حاضرتها ما هو بجانبها » • وقال ابن بطوطة في هذا القرن أيضا : « ان أهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد » • ووصفها القلقشندي أوائل القرن التاسع ، فقال :

« انها مدينة حسنة الترتيب ، جليلة الأبنية ، ذات الحواجز • بنيت من جهاتها الأربع • وبها الجوامع والمدارس والخوانق والربط والزوايا والأسواق المرتبة والديار الجليلة المذهبة السقف المفروشة بالرخام المنوع ذات البرك والماء الجاري ، وربما جرى الماء في الدار الواحدة في أماكن منها ، والماء محكم عليها من جميع جهاتها باتقان محكم » • وعرض لوصفها الظاهري في القرن العاشر بقوله : « انها مدينة حسنة الى الغاية ، تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة ، وبها طارمة مشرفة على المدينة ، فيها تخت المملكة مغطى لا يكشف الا اذا جلس السلطان عليه • وبها جوامع حسنة ومدارس وأماكن مباركة وشوارع وأسواق وحمامات وبساتين وأنهر وعمائر تحير الواصف ، وبها مارستان لم يُرَ في الدنيا مثله قط • وأما جامع بني أمية ، فهو أحد العجائب الثلاث • ولقد رأيت في بعض التواريخ أن عجائب الدنيا الثلاث ، هي : منارة الاسكندرية ، وجامع بني أمية ، وحمام طبرية • وأما مقترجات دمشق ، فيعجز الواصف عن حصرها » •

وقد بالغ الشعراء وأكثروا في وصف طبيعتها ، وربما بلغ ما مدحت به مجلداً برأسه ، فمنهم من قال مخاطباً لها :

ولكم أحدث عنك من لا قيته وجميع من سمع الحديث يصدق
والأرض في عرض وطولٍ دائماً لم يحو مثلك غربها والمشرق
ومنهم من وصفها بقوله :

يفذي بها القلب أنفاساً بلا كدر فلن يحل الوبا أطراف ثاويها
ان الهواء اذا رقت مناسمه في بلدة لطفت أخلاط أهلها
فكل صورة أسٍ في منازلها وكل نزهة نفسٍ في روايبها
لولا أمور وأرزاق مقدرة لم يرتحل عن دمشق حاضر فيها
وفيها يقول البحري :

العيش في ليل (دارياً) اذا بردا والراح نمزجها بالراح من (بردى)

الى أن قال :

وقد وفي لك مطريها بما وعدا
مستحسنٍ وزمان يُشبهه البلدا
ويصبح النبت في صحرائها بددا
أو يانعا خَضِرًا أو طائرًا غردا
أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

ومن اجمل ما قيل فيها قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي :

مشت على الرسم أحداثٌ وأزمان
رثُ الصحائف باقٍ منه عنوان
منه ، وسائره دنيا وبهتان
الاقرائح من (رادٍ) وأذهان
وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
في كل ناحية ملك وسلطان
سرى به الهمُّ أو عادته أشجان
واليوم دمعي على (الفيحاء) هتان
ونِيَّراتٌ وأنواءٌ وعقبان
لو هان في تربه الابريز ما هانوا
ولا زهت بنبي العباس (بغداد)
هل في المصلى أو المحراب مروان ؟
على المنابر أحرار وعبدان
إذا تعالى ولا الأذان آذان
دمشقُ روحٌ وجنات وريحان
الارض دارٌ لها الفيحاء بستان
كما تلقاك دون الخلد رضوان

أما دمشق فقد أبدت محاسنها
إذا أردتَ ملأت العين من بلدٍ
يمسي السحاب على اجبالها فرقاً
فلست تبصر إلاّ واكفاً خَضِلاً
كأنما القيظ ولّى بعد جيّته

قم ناجِ جِلِّقٍ وانشدُ رسم من بانوا
هذا الأديم كتاب لا كيفاء له
الدين والوحي والأخلاق طائفة
ما فيه ان قلبت يوماً جواهره
بنو أمية للأنباء ما فتحوا
كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهمُ
عالين كالشمس في اطراف دولتها
يا ويح قلبي مهما اتاب أرسمهم
بالامس قمتُ على الزهراء أندبهم
في الأرض منهم سماوات وألوية
معادن العزِّ قد مال الرغام بهم
لولا دمشق لما كانت (طَلِيْطَلَة)
مررت بالمسجد المحزون أسأله
تغير المسجد المحزون واختلفت
فلا الأذان أذان في منارته
آمنت بالله ، واستثنت جنته
قال الرفاق وقد هبت خمائلها
جرى وصفق يلقانا بها (برَدَى)

دخلتها وحواشيها زُمرُدةٌ والشمس فوق لجين الماء عقيان
والحورُ في (دُمري) أو حولَ (هامتها)

حُورٌ كواشفُ عن ساق وولدان

(وربوة) الواد في جلاب راقصة
والطير تصدح من خلف العيون بها
وأقبلت بالنبات الأرض مختلفاً
وقد صفى بردى للريح فابتردت
خلفت لبنان جنات النعيم وما
حتى انحدرت الى فيحاء وارفة
نزلت فيها بفتيان ججاجحة
بيض الأسرة باقى فيهم صيد
يا فتية الشام شكراً لا انقضاء له
ما فوق راحتكم يوم السماح يد
خميعة الله وشتها يدها لكم
شيدوا لها الملك وابنوا ركن دولتها
الملك أن تعملوا ما اسطعتم عملاً
الملك أن تخرج الأموال ناشطة
الملك تحت لسان حوله أدب
الملك أن تتلاقوا في هوى وطن
نصيحة ملؤها الاخلاص صادقة
والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة
ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم

ومن مؤلفاته كتاب (الاسلام والحضارة العربية) ٥٥ وكان لهذا الاثر دافع

كبير ، فعندما أقيم مؤتمر المستشرقين في أكسفورد سنة ١٩٢٨م ، دعي الأستاذ
محمد كرد علي ليمثل المجمع العلمي العربي بدمشق ، فشهد المؤتمر واستمع
الى محاضرات المحاضرين ومناقشاتهم ، وعاد منه بأراء وأفكار دمجها بمقالات

عن علماء الاستشراق ونظرتهم الى الدين الاسلامي والى العرب ومدنيتهم ،
وعجب لهذه النظرة وللأفكار الخاطئة التي توصلوا اليها بسبب النشأة
والترسبات التي وصلتهم عن طريق الكنيسة واليهودية .

ودعي لمؤتمر المشرقيات الذي عقد في مدينة (ليدن) من بلاد القاع
في هولندا صيف ١٩٣١م ، فرغب أعضاء المجمع العلمي أن يلقي فيه الرئيس
بحثاً يتصدى فيه للرد على ما لا يزال يسري على أقلام بعض هؤلاء العلماء
المستشرقين من أمور نابية عن حد التحقيق والنسفة كلما ذكروا الاسلام
وأهله ، والعرب ومدنيتهم ، بسوء نية في الغالب ، وبنتيجة الجهل أحيانا
قليلة . قال رحمه الله « وفي الحق ان المعارف استفاضت في هذا العصر حتى
لم يبق مجهول الا علم ، ولا بعيد الا اقرب ، ولا صعب الا سهل ، ولا نقل
الى لغات الغرب من طرق مأمونة منوعة ، لعشرات الأسفار في مدينة العرب
والاسلام بحسناتها وانبعاتها الا تجلى بها ما كان غامضا على أهل المدينة الحديثة،
فليس من الانصاف أن يظل بعض من تأثروا بالمؤثرات القديمة على الاستمداد
من عصور الظلمات من مصلحة غير تصوير الاسلام في صور باهتة ، وانكار
فضل العرب في انشاء مدينة كانت على الجملة من أعظم ما قام في الارض منذ
عرف تأريخها ، وان فئة تمثلت أساليب هذا العصر في البحث والحل ولم
تتحرر الى اليوم من سلطان العوامل الجنسية والدينية والسياسية ، لمؤاخذة
كل المؤاخذة بأحكامها الجائرة على الاسلام والمسلمين » .

وهدف الكتاب وما قصد اليه أجمله المؤلف بالعارة التالية ، قال :
« وسبيل هذا الموجز الآن تصحيح هفوات من أسأؤوا وما برحوا يسيئون
للعرب ودينهم ورسولهم ومدنيتهم ، وذكر ما أثرتة الحضارة العربية في
أمم الغرب والشرق وما مني به الاسلام لما غير أهله ما بأنفسهم من خصماء
رحماء نالوا من روحه وجسمه ، فالتأتأت أحواله ، وتكرت معاملة ، والاماع
الى ما قام به المسلمون بعد طول الهجعة » .

شرح الاستاذ محمد كرد علي يعد دراسته ويهيء رده ، وحالت
عوارض دون سفره الى المؤتمر ، ولكنه استمر دأباً يحضر ويبحث ويراجع

ويقرأ أمهات المصادر لموضوعه الذي كان يعمل في نفسه منذ زمن بعيد كلما اطلع على أخطاء أولئك الباحثين ، أو وقف على مفتريات الأعداء التقليديين ، يعمل كل يوم سحابة نهاره ، يسجل هذه الاتهامات والشبه التي يحكيونها ضد الاسلام ، ويدون صور الحضارة الاسلامية وفضل المدينة العربية على الغرب وعلى العالم ، دام هذا البحث المتواصل ثلاث سنين دأباً متواصلاً ، لم يترك مقالة او بحثاً أو مصدرأً مخطوطاً أو مطبوعاً عربياً أو تركيا أو فرنسيا الا وقرأه قراءة تفهم وتدبر ، تناول المدينة الاسلامية فسجل نصوصا اقتبسها ، وأفكاراً حرة لعلماء عرفوا بالانصاف فدونها ، فجاء كتابه موسوعة للحضارة الاسلامية ، أبرز معالمها وجلى ما خفي من رسومها بما لا يترك انبها ما أو غموضا على جاهل بها أو معاند او حاقد ، وأصبح في ردوده محاميا ، بيده الحججة والبرهان والشاهد لكل ذي عينين ولمن كان له قلب يخضع للحق والمنطق • أما الذين في قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضا ، تحدث في مذكراته عن تصنيف كتابه هذا فقال^(١) :

« وشاهدت تيسيراً في التقاط مادته لي في تأليف كتاب غيره ، فكنت اذكر ما تلوته من ثلاثين سنة أو أربعين سنة في هذا البحث ، فأسقط في الحال على ما أنوخى ، وقرأت ورجعت الى اكثر من خمس مئة مصنف باللغات الثلاث ، وقال بعض العارفين انه أجود كتبي تأليفاً ، وذلك لأن موضوعه عام جذاب ، يحتاج الى الرجوع اليه الموافق والمخالف والكبير والصغير والعربي والفرنجي • » ومما كتبه اليه الامير شكيب أرسلان مقرظاً الكتاب ، قال : « أنا معتقد أنك وفقت فيه توفيقاً كبيراً وانه خير ما كتبت بل من خير ما أخرج من الكتب في هذا العصر ، ولعمري ان هذا الموضوع كان يعوزه كتاب جامع محيط بأطرافه كهذا الكتاب ، سد هذا العوز ، وكفى الناس مؤونة نشدان الادلة من هنا وهناك ••• ولذلك مست الحاجة الى وضع كتاب يضيق معه مجال المغالطة في فضل العرب الذي أرجو أن ينقل الى لغة مشهورة من اللغات الأوروبية ، فاننا نحن في حاجة الى أن

يعلموا هم عنا أكثر مما نحن في حاجة الى أن نعلم نحن عن أنفسنا » ♦
 وبعد ، فكتاب الاسلام والحضارة العربية فيه دفاع عن حقائق الاسلام ،
 وتوضيح لأثر المدنية العربية وتأثير الافكار الاسلامية في الاقطار الغربية
 والشرقية ، وفيه مناقشات تعنف أحياناً حتى بلغ حد الجدل ، وتهدأ أحيانا
 فتكون كالنسيم العليل رقة ، امسك علماء الاستشراق الذين جانبوا الحق
 وجاروا عن الصراط السوي وكتبوا كما سولت لهم أهواؤهم يحدوهم
 الحقد أمسكهم من مخانقهم ودفع اباطيلهم بالحق وبالذليل والحجة ،
 ونقض أقوالهم ومزاعمهم بلغة العلماء المالكين لاعصابهم البعيدين عن الهوى
 والتعصب ، ورد الشبهات التي هي من خلق اعداء العروبة والاسلام ،
 وما زالوا يتخذون منها ذريعة لاطهار معايب ومطاعن لا أصل لها ، راحوا
 ينفخون بتردادها ، عرض لتأثير الاسلام في أوربة عن طريق الاندلس
 وصقلية ، وما قام فيهما من حضارة ازدهرت قرونا ، كما عرض لما كان من
 تخریب التاتار والبربر والصليبيين ، وما كان من غارات المستعمرين على
 ديار الاسلام والشرق عامة وما أخذه الاوربيون من علوم العرب ، وذكر
 ما ابتكر المسلمون من علوم خاصة بهم ، وفصل القول في سياسة الامة
 العربية والامم التي خلفتها كالترك والبربر والشراكسة والفرس والهنود ،
 وتوسع في ادارة الحكومات التي توالى على أرض المسلمين من عهد الرسول
 صاحب الشريعة الى عهد المؤلف ، وقد اوجز في هذين الفصلين تاريخ
 العرب والمسلمين ♦

وحاضر بعض فصول الكتاب في موضوع الادارة الاسلامية ، في دار
 الجمعية الجغرافية الملكية بمصر ، فقامت السيدة المحسنة (قوت القلوب
 الدمرداشية) فطبعتها باسم (الادارة الاسلامية في عز العرب) ♦ جاء في
 مقدمته لكتابه ما يدل على تحمسه لسلفه الصالح وتراثهم النافع ، وجهه
 للاسلام والمسلمين ، وتحسسه بما للعرب من ماض مجيد وفكر أصيل
 وحضارة مبدعة ، قال :

« والرجاء في هذه الصفحات أن تنفع في باب الاعتبار الاحفاد بذكرى

صنيع الاجداد ، وأن تنتصف بها حضارتنا مما ثلموها وما رجموها ، والعمدة في وضعها على ما أطال الحكماء العلماء من الفرنج في بسطه ، وفي ماضي الأمة العربية على مقتضيات من أمهات أسفارها المحررة ، والمنهاج فيها اطلاق حرية التفكير والتقرير ، والتقية ليست مذهباً مجدداً في زمن لم يعرف البشر حرية كحريته ، ولا علماً أعظم من علم أهله ، ولا عقولاً صفت كعقولهم ، ولا طبقات رشيدة تعلمت حسن الاستماع على غرار طبقاتهم » •

عرض الاستاذ محمد كرد علي آراء غوستاف لوبون العالم الفرنسي ورده على من نالوا العرب والاسلام ، وطعنوا مدينة المسلمين ، وبخسوا حقهم ، وأنكروا تأثيرهم على أوربة ، فقال : « اذا كان للأديان تأثير عظيم في الاخلاق كما ينسب اليها في العادة ونحن ممن لا يقولون بهذا التأسير على ما يزعم الزاعمون ، فانا نجد المقابلة مدهشة بين الاسلام وسائر المعتقدات التي تزعم مع هذا أنها أسمى منه •

ولقد قال (بارتملي سان هيلير) ، وهو من العلماء المتدينين ، في كتابه عن القرآن : تدمت نفوس قساة القلوب والطباع من سادة القرون الوسطى بملاستهم العرب وتمازجهم بهم ، وعرف الفرسان بدون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم شعوراً أرق وأشرف واعرق في الانسانية من شعورهم ، ومن المشكوك فيه أن تكون النصرانية وحدها على ما حملت من المنافع هي التي ألفت في روعهم ما ألفت ، وبعد هذا النظر ربما تساءل القارئ : ولماذا غمط اليوم حق العرب وتأثيرهم ، وأنكر حسناتهم علماء عرفوا باستقلال أفكارهم وكانوا بحسب الظاهر بمعزل عن الأوهام الدينية ؟ وهذا السؤال سألته نفسي ، وأرى ألا جواب عليه غير ما أنا كاتب : ذلك أن استقلال آرائنا هو في الواقع صوري أكثر مما هي حقيقي ، ونحن لسنا احراراً على ما نريد في خوض بعض الموضوعات ، وهذا لان فينا أحد رجلين : الرجل الحديث الذي صاغته دروس التهذيب وعمل المحيط الادبي والمعنوي في تنشئته ، والرجل القديم المجبول على الزمن بخميرة الاجداد وبروح لا يعرف قراره ، يتألف من ماض طويل ، وهذا الروح اللاسعوري هو وحده الذي ينطق

في معظم الرجال ، ويبدو في أنفسهم بمظاهر مختلفة يؤيد فيهم المعتقدات التي اعتقدوها ، ويملى عليهم آراءهم ، وتظهر هذه الآراء بالغة حدا عظيما من الحرية في الظاهر فتحترم ، • لا جرم أن أشياح محمد كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الاعداء الذين عرفتهم أوربة ، فكانوا بتهديدهم الغرب بسلاحهم في عهد شارل مارتل ، وفي الحروب الصليبية وبعد استيلائهم على الأستانة ، بذلوننا بمدنيتهم السامية الساحقة ، والى الامس الدابر لم ننج من تأثيراتهم • ولقد تراكمت الاوهام الموروثة المتسلطة علينا ، والنقمة على الاسلام واشياعه في عدة قسرون ، حتى أصبحت جزءاً من نظامنا ، وكانت الاوهام طبيعية متأصلة فينا كالبغض الدوي المستتر في أعماق قلوب النصارى لليهود • واذا أضفنا الى أوهاننا الموروثة في انكار فضل العرب هذا الوهم الموروث ايضا النامي في كل جيل بفعل تربيتنا المدرسية الممقوتة ، ودعوانا أن جميع العلوم والآداب الماضية أتتنا من اليونان واللاتين فقط ، ندرك على أيسر سبيل ان تأثير العرب البليغ في تأريخ مدينة أوربة قد عم تجاهله ، ويرى بعض المفكرين أن من المذل على الدوام أن يذهبوا الى أن أوربة النصرانية مدينة لاعداء دينها بخروجها من ظلمة التوحش ، وهناك أمر يحمل في مطاويه ذلا كثيراً في الظاهر ، لا يقبل تحمله الا بشيء من العنت ، وذلك ان كان للمدينة الاسلامية تأثير عظيم في العالم ، وتم لها هذا التأثير بفضل العرب ، بل ب صنع العناصر المختلفة التي دانت بالاسلام ، وبنفوذهم الادبي هذبوا الشعوب البربرية التي قضت على الامبراطورية الرومانية ، وبتأثيرهم العقلي فتحوا لأوربة عالم المعارف العلمية والادبية والفلسفية ، وهذا ما كانت تجهله ، وعلى ذلك كان العرب ممدينا وأساتذتنا مدة ستمئة سنة » •

وقال في حاشية هذا الفصل :

« اذا استحكمت الأوهام الموروثة وأوهام الثقافة في رجل ، يعنى مع اتساع معارفه عن تفهم أسرار المسائل ، وما هو الا أن ينطوي على بغضين : بغض الرجل القديم الذي انشأه الماضي ، وبغض الرجل الحديث

الذي هو ابن الملاحظة الشخصية ، ولا يلبث ان يأتي بصورة من التعبير عن الافكار الغربية في تناقضها ، ويجد القارىء مثالا من المتناقضات في محاضرة في الاسلام التي القاها في جامعة السوربون كاتب مبدع عالم ، عنت (السيد رنان) ، حاول أن يثبت عجز العرب ففقد بيده كل مزاعمه ، فقد ذكر مثلا ان ارتقاء العلم كان بفضل العرب خلال ست مئة سنة ، وأبان أن التعصب في الاسلام لم يظهر الا لما خلفت العرب عناصر منحطة ، كالبربر والترك ، ثم جاء يؤكد أن الاسلام طالما اضطهد العلم والفلسفة ، مدعيا أنه قضى على العقل في البلاد التي افتتحها ، ولكن باحثا ذكيا كالسيد (رنان) لا ينم على رأي ، فخالف أصول التاريخ الظاهرة فما ان تزول الاوهام فيه حينما حتى يتجلى فيه العالم ، فيضطر الى الاعتراف بتأثير العرب في القرون الوسطى ، وبما بلغت العلوم من الرقي في اسبانيا مدة استغلالها بظل سلطانهم ، ومن المؤسف أن الاوهام اللاشعورية تتقلب عليه حالا فيدعي على وجه أكيد أن علماء العرب ليسوا عربا بأصولهم ، بل هم أخلاط من أهل سمرقند وقرطبة واشبيلية الخ ♦♦♦ وبديهي أنه لا يتيسر النزاع في أصل الاعمال التي خرجت بفضل طرائق العرب ، ولعمري هل من الميسور انكار أعمال علماء الفرنسيين بحجة أن من تمت على أيديهم كانوا من عناصر مختلفة كالنورمانيين والسليبيين والأتكيين وغيرهم ممن كونوا فرنسا بتمازجهم ؟ وقد يكتب هذا المؤلف العالم أحيانا من الأسلوب الذي جرى عليه في اساءته للعرب ، وينتهي الصراع بين الاسان القديم والانسان الحديث الى هذه النتيجة التي لم تكن متوقعة منه ، فيأسف لكونه لم يخلق مسلما قائلا : « وما دخلت مسجدا قط الا وعراني خشموع يمازجه أسنف على أنني لم أكن مسلما »

هذا وعقد (غوستاف لوبون) فصلا في نقد التاريخ ، قال فيه :

« رأينا في الفصول السابقة مدى الشكوك التي تعرض للوقائع التاريخية حتى لما كان مصروفاً ، فاقضى للحكم عليها أن يتجرد فيها عن التأثيرات القومية والدينية والسياسية التي هي مرجع البت في معظم الاحكام ، ولذلك

جاءت التأليف التي كتبت في مختلف البلدان حاملة تقديرات متباينة في الحوادث الواحدة ، وللأوهام الدينية ، خاصة سلطان على المؤلفين على حين يعتقدون أنهم نجوا من تأثيراتها ، لاجرم أن كثيرا من المؤرخين قد اندفعوا بسائق هذه الأوهام ، فأثروا بآراء بعيدة جداً عن محجة الصواب في بيان فضل الحضارة الاسلامية ، ولا يزال التحامل على العالم الاسلامي من القديم بحالة من الشدة ، ولذلك وجب أن يعاد النظر في تأريخ القرون الوسطى بجميع أجزائه التي لها مساس بانتقال المدينة القديمة الى العصور الحديثة » • وعقد فصلا لعلماء من الفرنسيين والايطاليين والبرتغاليين والروس ، تناولوا في بحوثهم العرب والاسلام ومدنيته •

يقول : « قد يكون من الاوربيين مستعمرون ماهرون ، ولكن منذ عهد رومية كان المسلمون من الشعوب الوحيدة التي كانت حاملة علم التمدن حقيقة ، وهم الذين فازوا وحدهم بنشر المواد الجوهريّة من المدينة ، وأعني بها الدين والمصانع والصنائع بين ظهرائي عناصر جديدة من غير عنصرهم » • وتساءل لوبون قائلاً : « هل من الواجب أن نذكر أن العرب والعرب وحدهم هم الذين هدونا الى العلم اليوناني واللاتيني ، وأن الجامعات الاوربية ، ومنها جامعة باريز عاشت مدة ست مئة سنة من مترجمات كتبهم وجزت على أساليبهم في البحث ، وكانت المدينة العربية من أدهش ما عرف التاريخ » ، وقال لوبون أيضا : « كلما تعمق المرء في دراسة المدينة العربية ، تجلت له أمور جديدة ، واتسعت الآفاق أمامه ، وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الامم القديمة الا بواسطة العرب ، وأن جامعات الغرب عاشت ست مئة سنة يكتب العرب خاصة ، وان العرب هم الذين مدنوا أوربة في مادة العقل والخلق ، ومتى درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه في العلم ، يثبت له أنه ما من أمة أنتجت مثل ما أنتجوا في هذه المدة القصيرة التي كتب للملكهم قضاؤها • واذا نظر المرء في صنائعهم وفنونهم ، لا يسعه الا الاعتراف بأنه كانت لهم ميزة خاصة لم تبلغها أمة ، ولئن كان تأثير العرب في الغرب عظيما ، فان تأثيرهم في الشرق أعظم ، وما من عنصر أثر مثل تأثيرهم قط ،

فان الشعوب التي دانت الارض لسلطانهم كالأشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومانيين ، قد عشت القرون آثارهم ولم يخلفوا سوى آثار ضئيلة ، بحيث لم يبق منها سوى ذكريات أديانهم وألستهم وفنونهم ، وقد اضمحل سلطان العرب أيضا ، ولكن أهم عناصر مدنيتهم ، وهي الدين واللسان والصنائع لا تزال حية » • وقال أيضا : « ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » •

وقال كارلايل : (ان العرب قوم يضربون في الصحراء ، كانوا نكرة عدة قرون ، فلما جاء النبي العربي ، أصبحوا قبلة الانظار في العلوم والمعارف ، وكثروا به وعزوا ، ولم يأت عليهم قرن حتى استضاءت أطراف الارض بعقولهم وعلومهم) ، وقال كلود فارير من مؤرخي فرنسة وأدبائها :

« ان هزيمة العرب في بواتيه قد أخرجت المدينة الغربية ثمانية قرون الى الورا ، فلو ظفر العرب يوم « بواتيه » ، لحملوا مدنيتهم الى الغرب ، ولما طالت أيامه في الجهل المطبق » وقال سمنوف الروسي : « كان من الميسور تجنب الحروب الصليبية ، ولكن الجهل والاوهام الدينية والسياسية ومصالحة « البابا » قد ساعدت على ظهورها » • وقال : « ألا نقدر أن نقول : كم من الأحزان والآلام والجنايات الجديدة كان يمكن انقاذ الانسانية منها لو لم يوقف - شارل مارتل - العرب عن سير فتوحهم سنة ١١٠هـ فان الثقافة العالية التي امتاز بها من كان يدعوهم الصليبيون في حالة الغضب بالحشاشين والكفار والوثنيين احتقارا لهم ، كانت أثرت قبل الوقت في أوربة الغربية وفي المدينة الفرنجية والرومانية » •

وقال (لويجي رينالدي) من علماء ايطاليا ، بعد أن أفاض بما أقام المسلمون في ايطاليا واسبانيا من عمران ومدنية وما نشروا من حضارة في هذين القطرين :

« فامة هذه مدينتها وتلك آثارها ومفاخرها ، جدير بنا ، بل واجب علينا أن نحفظ لها تلك اليد التي قدمتها لنا وأسلفتها لنا ، ولست أدري لماذا لا نسمع كلمة اعجاب بالشعب العربي العظيم الذي ترك في طريق

المدنية آثاراً عديدة ، والذي حمل معه أعظم المعاونات وأجل الخدمات للنوع الانساني ، ولا يبخل على العرب باعطائهم المقام اللائق بهم ، وبانزالهم المنزلة التي استحقوها بجدارة ، وقد خطت أيديهم صحائف بيضاً فاخرة ، يجب على كل انسان أن يعجب بهم من أجلها ، ويحزنني - لعمر الحق - كما يحزن غيري ممن ينصفون أن يكون بيننا - نفر يقودهم سوء الظن والجهل الى احتقار العرب وحسانهم من أمة ادنى من أمتهم ، وأن نرى كلمة « عربي » عندنا تدل على معنى غير معنى التمدن ، وهذا بلا شك افتراء ونكران للجميل ، فان هذا الشعب ، وان سقط من شاهق مجده ونزل عن المنزلة التي كان فيها ، لا يزال يحفظ صفاته العجيبة ، وذكاؤه النادر ، مما يتحلى به كل متعلم راق ، وانا لا نزال نذكر للعرب حسن فراستهم وقوة ملاحظتهم للطبيعة وسرعة خاطرهم • وها نحن أولاً ، لم نصل الى ما وصلنا اليه من المعرفة الا بفضلهم ، فلذلك نشعر بعطف عظيم على أبناء الصحراء ، ولا نزال نذكر لهم بالشكر والامتنان أياديهم البيض علينا في الماضي ، ولا يسعنا في الحاضر الا ان نمد ايديهم أيدينا كي ينهضوا ويتبؤوا المكان اللائق بهم تحت الشمس ، حتى يشتركوا معنا في استثمار تلك المدينة التي كانوا لها يوماً موجدين ، وعلى علاء شأنها عاملين » •

وقال لوبون : « ان العرب كانوا أكثر حكمة من كثير من رجال السياسة الحديثة عرفوا حق المعرفة أن أوضاع شعب لا تتناسب مع أوضاع شعب آخر ، فكان من قوادهم أن يطلقوا للامم المغلوبة حريتها ، ويتركوا لها الاحتفاظ بقوانينها وعاداتها ومعتقداتها » •

وقال لوثر ب ستوارد العالم الاميريكي في كتابه (حاضر العالم الاسلامي) : « ما كان العرب قط أمة تحب اراقة الدماء ، وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة ، جليلة الأخلاق والسجايا ، توافقة الى ارتشاف العلوم ، محسنة في اعتبار نعم التهذيب ، تلك النعم التي قد انتهت اليها من الحضارات السالفة ، واذ شاع بين الغالين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد كان الاختلاط بعضهم ببعض سريعاً ، وعن

الاختلاط نشأت حضارة جديدة هي الحضارة العربية ، وهي جماع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي وذلك المجموع هو الذي نفخ فيه العرب رديحاً جديداً فنصر وأزهر ، والفوا بين عناصره وموارده بالبعقرية العربية والروح الاسلامي ، فاتحد وتماسك بعضه بعض ، فأشرق وعلا علواً كبيراً • وقد سارت الممالك الاسلامية في القرون الثلاثة من تاريخها (٦٥٠ - ١٠٠٠م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورفياً وتقدماً وعمراناً ، مرصعة الاقطار بجواهر المدن الزاهرة والحواضر العامرة والمساجد الفخمة والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ومخترن علوم يشعان اشعاعاً باهراً ، وما انفك الشرق الاسلامي خلال هذه القرون الثلاثة يرسل على الغرب النصراني نورا ، ثم غابت كواكبه ، وأفلت أنجمه ، حتى أدركته ليلاليه السود وأجياله المظلمة •

وعلق الاستاذ محمد كرد علي على أقوال المنصفين من العلماء والرد على الحاقدين ، فقال (١) :

« وبعد فان كان ما صارت اليه بعض الشعوب الاسلامية من الانحطاط في القرون الاخيرة مما دعا بعض علماء الاجتماع من الغربيين الى أن يسيئوا ظنهم بدين القوم ومدنيتهم وتأريخهم ، فان للاحطاط أسبابا وعوامل معروفة سنعرض لها في الفصول المقبلة ، ومسائل الدين والمدنية محررة مدونة يمكن الناظر المنصف أن يضعها كل ساعة تحت منظار النقد وفي بوتقة الحل ، وانما الذي يؤلم أن بعض اولئك الباحثين قد يحترمون مدينة وثنية وبيالغون في عظمتها ، لانها قامت بأرضهم وعلى يد بعض أجدادهم بزعمهم ، ثم بارت واضمحلت بعوامل كثيرة ، وظل المتشبعون بحب أجدادهم يتناغون بها ، كأن الوثنية أنفع من التوحيد ، وكأن عبادة الاصنام تبعث على الارتقاء أكثر من عبادة آله واحد ، وكأن من أهانوا الانسان أحسن ممن كرموه ، وكأن من حسنوا الاخلاق أوقع أثراً ممن عبثوا بها بما لا يقبل به عقل سليم ، شق على بعض الشعوية أن تسب مزية للعرب ، فسلبوهم كل فضائلهم

(١) الاسلام والحضارة العربية : ٥٨-٥٩ •

المحسوسة الثابتة في الاسلام والجاهلية ، وشق على آخرين ، وهم معترفون ضمنا بفضل العرب ، أن يقوم العرب بقسطهم من خدمة الحضارة ، ومنهم (شارل ريشه) ، وهو من العلماء ، لكنه لم يمتحض لدراسة تأريخ العرب ، فقال : « ثم ما لبثت ليالي القرون الوسطى الداجية أن غطت كل شيء بظلامها المشؤوم ، فأضطر العلم المسكين ان يلجأ الى العرب ! » • واضطرار العلم الى الالتجاء الى العرب قد يفهم من الاستخفاف بهم ، ولكن لا يفيد في معرض تقرير الحقائق ما دام ما عمله العرب لم يبرح الدهر ماثلا للعيان كالشمس في رائعة النهار ، وبعد أن درست مؤلفات ابن سينا والرازي في مدارس أوروبا قرونا ، ولم يبطل تدريس قانون ابن سينا من جامعات الغرب الا في القرن الثامن عشر • فأى غضاضة على العلم اذا لجأ الى حمى العرب ، فأووه ، وأكرموا وفادته ، وانتفعوا بفوائده ، ونفعوا به غيرهم ؟ ثم كيف يلام العرب في نقل هذه الحضارة ، وأوروبا قد قضت قرونا حتى بلغت الغاية التي وصل اليها مسلمو أسبانيا في أقل من قرن ؟ وان اسبانيا نفسها ما لبثت أن أدركت ان هؤلاء البرابرة (على زعمهم) كانوا أرقى في العلم من كثير من شعوب أوروبا النصرانية ، وقد تمتعت اسبانيا على عهد المسلمين بنجاح لم تصل اليه بعد ذلك ، واقتضى طوعا أو كرها أن يعترف الغربيون أن العرب يعرفون صناعات السلم كما يعرفون صناعة الحرب •

وقال الامتاز محمد كرد علي رحمه الله : « هذا ، وان دعوى من يدعي من الشعوبيين من الغربيين الحاقدين أن الاسلام مانع من الترقى ، ما دانت به أمة الا انحطت ، مردود بشواهد التاريخ الصادق ، وها هي أوروبا بقيت ملفوفة في حنادس الهمجية من بعد ما تنصرت بالف سنة ، وبلغ من جهلها وانحطاطها أن مئة عربي أفتتحوها قسما من ايطاليا وقسما من سويسرا في أوائل القرن العاشر ، واستولوا على أكثر الجبال والمضايق ، وبنوا القلاع والابراج ، وجاذبوا الجبل جميع ملوك تلك الاطراف ، ولبشوا مالكين هاتيك الحصون والقلاع ، ضارين على اهالي تلك البلاد الذلة والمسكنة نحو قرن تام ، ولم يكن عددهم أنمى ما نموا وأكثر ما كثروا ليزيد

على الف رجل ... فكما أن هجمية أوربة لذلك العهد لم يكن السبب فيها الدين المسيحي ، كذلك فانحطاط المسلمين اليوم ليس السبب فيه الاسلام •

ومن فصول الكتاب فصل عقده بما امتاز العرب المسلمون وما اتصفوا به من أخلاق سمحة وسجايا كريمة، وتقديرهم لأقدارهم، وانصافهم لخصومهم واعترافهم بفضائلهم ، وعدم استهانتهم بأعدائهم ، والتزامهم تعاليم دينهم والعدالة مع أنفسهم ومع غيرهم • قال في ص ١٣٧ من كتابه (الاسلام والحضارة العربية) : « حملت العرب الى ما وراء جزيرتهم كتابا مختصرا ، فيه ما يصلحهم ويصلح غيرهم ، وأهم سر في غناء قانونهم المبتكر أنهم كانوا يعملون بأحكامه لا يخرمون منه حرفا ، ويحفظون معه أمورا تنفعهم في مثل الحياة الفاضلة الساذجة ، ومنها قواعد القتال ، ومعرفة طبائع من يحتلون أرضهم ، ومن أهم ما عرفوا به اعتصامهم بالصبر ، وتحليلهم بالشجاعة والكرم والنجدة والوفاء ، ونفوس شفافه سليمة من مثل هذه ، لا يستكثر منها سرعة انطباعها بطابع محدث من الحضارة ، وهي بفضرتها مستعدة لقبول الخيرات ، بعيدة في كل أحوالها عن اللغو والعبث ، ما عاقتها حرارة أرضها عن بلوغ أقصى مدى العمل المعجب ، وأكذبت بما فعلته دعوى من قالوا ان الحضارة وليدة البلاد الباردة ، كان من الغارات التي تغيرها العرب على الاقطار المجاورة في القرون السالفة سواء احتلوا زمتا أو أشأوا فيها دولة ، ومن غارات الغريب الذي حاول استعبادهم يوما ، فردوه على أعقابهم ، ومن تمرن فريق منهم كالغسانيين والتنوخيين والتغليين والدمخمين والاياديين عند الرومان والفرس على معاناة الادارة العسكرية ، كان ذلك ما أورثهم علما عمليا ، أصابوا به حظا من ادارة الممالك والحاجة تفتح باب المعرفة على ما جاء في أمثالهم ، ومما ساعدهم على توسعهم أنهم كانوا يعرفون عدوهم أكثر مما يعرفهم ، وهو يحتقرهم في الجملة • أما هم فيعتدون به ، يحتقرهم لانهم كانوا ينتجعون بلاده ، ولا سيما اذا أقحطوا وضنت عليهم سماؤهم ، نعم كانوا لا يستهينون بخصومهم ، بل ينصفونهم ويعترفون لهم بفضلهم • عن المستورد القرشي قال : سمعت رسول الله يقول : « تقوم الساعة والروم

أكثر الناس « - يعنون بالروم من نعني اليوم بهم أهل الغرب - فقال عمرو بن العاص : أبصر ما تقول قال : سمعت من رسول الله قال : « ان قلت ذلك فان فيهم خصالا أربعة ، انهم لأحلم الناس عند فتنه ، وأسرعهم افاقة عند مصيبة ، وأوشكهم كرة بعد فرة ، وأجبرهم لمسكين ویتيم وضعيف ، وخامسة حسنة جميلة هي أمنعهم من ظلم الملوك » • أليس هذا القول المتناهي في انصاف العدو هو كلام من يعرف خصمه وما انطوى عليه من مزاياء ؟ » •

وقال في (ص ١٣٩) :

(وان خليفة يوصي قائده ، وهو يوجهه لقتال الروم في الشام ، بقوله : « انك ستجد قوما حبسوا أنفسهم لله ، فذرهم وما حبسوا أنفسهم له - يريد الرهبان - ، ويقول له : لا تغدر ، ولا تمثل ، ولا تقتل هرما ولا امرأة ولا وليدا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا الا ما أكلتم ، ولا تحرقن نخلا ، ولا تخربن عامرا ، ولا تفل » ان خليفة يقول لقائده هذا ، مضمون له التوفيق ، لانه يملئ عليه اجمل عظة في العدل والاحسان ، يقول (روبنسون) « ان شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين محاسنة الأجانب ومحبة انتشار دينهم ، هذه العاطفة هي التي دفعتهم في سبيل الفتح ، وهو سبب لا حرج فيه ، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه الطافرة اذ أغاروا على الشام وانقضوا انتقضا الصواعق على افريقية الشمالية من البحر الاحمر الى المحيط الاطلانطي ، ولم يتركوا أثرا للتعسف في طريقهم الا ما كان لا بد منه في كل حرب ، فلم يبيدوا قط أمة أبت الاسلام » هذه سياسة العرب في فتحها لم يحدوا عنها قيد أنملة ، أما الرومان الذين بهت أنصارهم بعظمتهم ، ولم ينظروا الى الصورة التي دوخوا بها الارض واستبغوا الشعوب ، فكانوا يبيدون كل عامر ، ويقتلون الاولاد والنساء والشيوخ ، ثم يسرقون بقايا السيوف استرقاقا ممقوتا مجردا من كل عاطفة ومروءة •

كان الرومان اذا اطاعهم بلد قبلوا ما سقطوا فيه من معبودات وأرباب يضيفونها الى ما عندهم منها ، كأن المعبودات بعض الاعلاق والطرائف ،

كلما كثرت مجموعتها كان لعنوانها ما يفخرون به ويباهون • أما العرب فكانوا ينادون علنا بدينهم ، موحدين الله مصلين على رسوله ، يفيضون العدل بين الرعية ، ولا كبير أمام شريعتهم ، لانها ساوت بين العظيم والصعلوك ، لا يكرهون أحدا على دينهم مهما عظم سلطانهم ، يكتفون بخراج أو جزية لا يعد مقدارها شيئا بالقياس الى ما كان على الناس أن يؤدوه من قبل ، فلا عجب اذا دخل المغلوبون في دين الغالين أفواجا ، ولا بدع اذا تشبه المغلوب بغالبه ، فتلقف لسانه ، وهان عليه قبول أوضاع جديدة ما كان له بها عهد ، وعد نعمة وأي نعمة لانطوائه فيهم • وقال : بيد أن العرب كانوا يحاربون وهم يعرفون السبب الذي من أجله يحاربون ، فاذا سمعتهم كبروا التكبرتين والثلاث ، وهم زاحفون على أعدائهم ، أيقنت أنهم لا يرجعون ، أو ينصرون ، ولا يبقون ولا يذرون • وكانوا مع هذا كما قال فيهم أعداؤهم « فرسانا في النهار ، رهبانا في الليل بدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دوي النحل ، وهم آساد الناس ، لا يشبههم الاسود » قوم كانوا بالامس لافراطهم في الحرية ، لا يخضعون لنظام ، فلما دخلوا الاسلام رأيتهم لا يخالفون امرا لكبيرهم ، يباعونه على الطاعة والموت في سبيل الجماعة ، وان خليفة كابن الخطاب يقول : « اني حريص على أن لا أدع حاجة الا سدتها ، ما اتسع بعضنا لبعض ، فاذا عجز ذلك عنا تأسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف ، ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم ، ولست معلمكم الا بالعمل ، اني والله ما أنا بملك فأستعبدكم ، وانما أنا عبدالله ، عرضت علي الامانة فان أبيتها عليكم واتبعتم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا ، سعدت ، وان انا حملتها واستبعتكم الى بيتي ، شقيت ، ففرت قليلا وحرزت طويلا ، وبقيت لا أقال ولا أرد فأستعقب » ان خليفة كهذا يقول عام الرمادة ، وهو عام مجاعة وجدب وقحط ، كيف يعنيني شأن الرعية اذا لم يصبني ما أصابهم ، ويقسم أن لا يدوق سمننا ولا لبنا ولا لحما حتى يحيا الناس » الخ •••

وقد اقتبس المؤلف من هذا الكتاب ست محاضرات في أثر الثقافة العربية في الغرب وألقاها في الجامعة الامريكية بالقاهرة ، وطبعها الاستاذ (وندل

كبلاند) في كتاب اشتمل على محاضرات الموسم في الجامعة • وقد استغل خصوم الاستاذ محمد كرد علي جملة وردت فيها حرفوها عن موضوعها ، وراحوا يشيعون بين الناس أن محمد كرد علي يقول بزواج المسلمة بالكتابي وهو لم يقلها ، واني أنقل الجملة كما وردت في نص المحاضرة ، وهي قوله :

« انقاد جمهور القبط الى الاسلام ، واختلطت أنسابهم بأنساب المسلمين ، لتزويجهم — لما أسلموا — من المسلمات ، وبالمجاورة فقط يتعلم المغلوب لسان الغالب ، فكيف اذا اختلط دمه بدمه وتألفت مصلحته بمصلحته » •

كان الاستاذ محمد كرد علي يكتب في مجلة (المقتبس) فصولا يترجم لاعلام الادب العربي بعنوان (صدور المشاركة والمغاربة) ، وبعد مرانه على كتابة هذه الفصول وولعه بدراسة أمراء البيان العربي ، توسع بدراسة عشرة من أساطين البلاغة ، فكان من مجموع هذه الدراسة الموضوعية (كتاب أمراء البيان) الذي طبعه بمصر سنة ١٩٣٧م في (٥٧٨ صفحة) وجعل اسمه في خطط الشام (أمراء الأنشاء) ، وهم : (١) عبد الحميد الكاتب (٢) عبدالله بن المقفع (٣) سهيل بن هارون (٤) عمرو بن مسعدة (٥) ابراهيم الصولي (٦) أحمد بن يوسف الكاتب (٧) محمد بن عبد الملك الزيات (٨) الجاحظ (٩) التوحيدي (١٠) ابن العميد •

وقد تأثر بأسلوبهم ، فجاءت فصوله هذه مشرقة الديباجة ناصعة العبارة ، في أسلوب بليغ وتعبير نصيح ونهج واضح ، واستقصاء لا يبغي لمستزيد من مزيد ، حتى عدت فصوله وتراجمه أوسع ما كتب في تراجمهم في اللغة العربية ، وما زال مرجعا مهما ينهل منه الباحثون والدارسون ، ومرجعا يعتمده ذوو الاختصاص • وشرح الغرض من كتابته هذه التراجم ، فقال : « قصدنا بتسويد هذه الاوراق تصوير عشر صور حية في الجملة لعشرة من أمراء البيان ، تصدينا لوصف عصورهم في السياسة والمدنية ، حاولنا الالمام الى العوامل المهمة في تشيئهم وحياتهم ، وتوخينا تحليل أديهم وعلمهم ،

وعرضنا لمواضع الاجادة فيما خلفوه من كلامهم » لا ريب أن الاعلام الذين فصل ترجماتهم ، وأورد الكثير من أخبارهم ، وسجل خواطرهم ، وكشف للقارئ عن قرائحهم ، هم من أصحاب الاساليب البليغة العالية التي تحتذى ولا تقنى محاسنها على مر العصور ، فأحيواؤها وتيسير قراءتها لابناء عصره ومن سيخلفهم ، خدمة جلى ، لاتعدلها خدمة ، ولا سيما وقد أولع رواد الادب الغربي بأساليب المترسلين من الكتاب الفرنسيين والسكسونيين والروسين • فأحياء آثار (أمراء البيان) ونشر طرائق كتاباتهم ، خير وسيلة لحمل اولئك العازفين عن الادب العربي ليأخذوا بأساليب اساطين البيان ويتذوقوا الاساليب العربية الأخاذة في أزهى عصور الادب ، وقد دلت منتخبات الاستاذ الرئيس محمد كرد علي على ذوق رفيع وتحسس بجلال الكلمة وتفهم لفن القول ، تأثر بأسلوبهم حتى وجدناه في كتابه (أمراء البيان) يختلف اختلافا واضحا سواء في أسلوبه او تخيره للكلمة الرشيقة ، ووجدنا فيه خصائص تمتاز عما الفناه في سائر كتبه الاخرى ، في هذا الكتاب تظهر براعته في التعبير وعنايته في التنسيق وعرض الافكار ، وقد قرر تدريس هذا الكتاب في المدارس المصرية العالية ، فكان أول كتاب لمؤلف غير مصري يدرس في وادي النيل ، يقول المؤلف : انه قضى عاما وبعض العام في وضعه ، غير أن مادته قد جمعها في مدى عشرين سنة ، وكان غرضه من تأليفه كما قال : « بيان فضل المنشئين على البلاغة وعلى الافكار ، وذلك على الطريقة الغربية الحديثة في التحليل والنقد » •

قال واصفا أدب الجاحظ :

« يطالعك الجاحظ من بارع أدبه بالابداع دون كل ابداع ، ويعلمك في سهولة ويسر لا يشق عليك ، يدخل من نفسك مدخل صدق ويستهوئك وأنت لا تدري كيف أخذت ، قد تقرأ لغيره كلاما وتعجب بما فيه من دياجة حسنة او معنى دقيق أو تحقيق واحاطة أو فكر طريف أو رأي نادر ، أما أن يضم شتيت هذا الميزات ويحمل ما يعن للخاطر من الصفات مما لا يقع الاعلى الندره في كلام البلغاء ، وهو من الامور المعتادة في كلام أبي

عثمان الجاحظ « . وفي ص ٣٤٨ قال : « اسمع الان هذه الجملة يسجع فيها الجاحظ سجع الحمام ، قال في كتابه (ذم العلوم ومدحها) في وصف القرآن : « حجة على الملمد وتبيان للموحد ، قائم بالحلال المنزل ، والحرام المفضل ، وفاصل بين الحق والباطل ، وحاكم يرجع اليه العالم والجاهل ، وامام تقام به الفروض والنوافل ، وسراج لا يخبو ضياؤه ، ومصباح لا يخزن ذكاؤه ، وشهاب لا يطفأ نوره ، وبحر لا يدرك غوره ، ومعدن لا تنقطع كنوزه ، ومقل يمنع من الهلكة والبوار ومرشد يدل على طريقة الجنة والنار ، وزاجر يصد عن المحارم ، ويجير يوم التحاكم » .

وكما يرى الجاحظ أن الواجب تخير اللفظ الكريم للمعنى الكريم ، لم ير طرح الألفاظ السخيفة كان يرى نقل عبارات العوام ونكات الأعراب بألفاظها ، وقد حشا كتاب البخلاء والحيوان بطائفة من ألفاظ عامة الطبقات في عصره فعد ذلك في أفضاله على اللغة ، قال : « ومتى سمعت حفظك الله - بنادرة من كلام الأعراب ، فايك أن تحكيها الا مع اعرابها ومخارج ألفاظها ، فانك ان غيرتها بأن تلحن في اعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير ، وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطعام ، فايك أن تستعمل فيها الاعراب ، وأن تتخير لها لفظا حسنا ، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فان ذلك يفسد الامتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له ، ويذهب استطابتهم اياها واستملاحهم لها » . وهو يرى « أن النبل لا يتنبل ، كما أن الفصيح لا يتفصح ؛ لأن النبل يكفيه نبله من التنبل ، والفصيح تغنيه فصاحته عن التفصح ، ولم يتزيد أحد قط الا لنقص يجده في نفسه » . ووضع القاعدة الكلية لطالب البلاغة فقال : « وقد علمنا أن من يقرض الشعر ، ويتكلف الأسجاع ، ويؤلف المزدوج ، ويتقدم في تحبير المثور ، وقد تعمل في المعاني ، وتكلف اقامة الوزن ، والذي تجود به الطبيعة ، وتعطيه النفس سهوا رهوا ، مع قلة لفظه وعدد هجائه - أحمد أمرا ، وأحسن موقعا من القلوب ، وأنفع للمستمعين ،

من كثير خرج بالكد والعلاج ، ولأن التقدم فيه ، وجمع النفس له ، وحصر الفكر عليه ، لا يكون الا ممن يحب السمعة ويهوى الغلج (أي الظفر) والاستطالة » .

وضرب المثل بأدب الجاحظ وبيانه وسعة عبارته ، فقال : « حتى كان يقال من دليل اعجاز القرآن ايمان الجاحظ به » . ومن الخير لطلاب البلاغة اذن أن يمعنوا النظر بكلام الجاحظ ليتسببوا بأنفسهم طريقته ، ويتواصفوا في الجملة طراز املائه دروس البلاغة ، ويتعرفوا ميزانه الدقيق في فقه اللغة : « أي النظر في مواقع الالفاظ وأين استعملتها العرب » و « تحرير الالفاظ البعيدة من طرفي الغرابة والابتدال ، واجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى ، أو تشوش عليه » قالوا : ان « مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة » ، وحظ الجاحظ من هذا كان جزيلاً . حسنت بلاغته في كل عين ، لتجميلها ببراعته في تخير جيد الالفاظ ، وتجافيه عن استخدام التقليل في ميزاته ، وقد ينبذ اللفظ الواحد ، ويستعمل معناه ، ويؤدي المعنى بعدة ألفاظ ، واللفظة الواحدة تجزئة . وفي ألفاظ الأعيان يضع الشيء موضعه ، ويطبق كل اسم على مسماه ، قال مرة : « ليس للعرب اسم لما لا يبصر بالليل ، وهو الذي يقال له سَبْكَور أكثر من أن يقولوا هُدْ بَد » . وقال في وصف كتاب بالقدم : « كتاب متقدم الميلاد دهري الصنعة » . وكان يضع بعض الالفاظ ، أو يستعمل ما لا عهد له باستعماله قبله ، مثل قوله « القرويون والبلديون واللغويون والمعنويون » أطلق هذا على من يشتغلون بالالفاظ ويشغلون بالمعاني فمعرفة أبي عثمان بوقع الكلمة في نفس القارئ ، وتمييزه الدقيق بين حي الالفاظ وميتها وسهولها وصعبها ، سبب أول في تفوقه في بلاغته ، « وملاك الأمر عنده أبدا أن يكون اللفظ سمحا لا كزاً ، والابتعاد عن المعاني التافهة والقوالب المستكرهة » ولطالما أوصى طلاب البلاغة أن لا يكون اللفظ عاميا ساقطا سوقيا ، ولا وحشيا غريبا ، وقال : « الاستعانة بالغريب عجز ، الا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ، فان الوحشي من الكلام يفهمه

الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي » • والممول عليه في هذا الباب « ألا يكلم العامة بكلام الخاصة ، ولا الخاصة بكلام العامة » فهو اذن ممن سعوا في تدميث اللغة على نحو ما تدمث طبائع الامة الغريبة بالحضارة ، وقد أبان عن طريقته الواضحة فقال : « قد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالا ، وتدع ما هو أظهر وأكثر ، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ، ولم يسر ما هو أجود منه ، وكذلك المثل السائر » ، و « سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني ، وقد يحتاج الى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل الفخم ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعاني » ، ويقول : « ان لكل قوم ألفاظا حظيت عندهم ، وكذلك كل بلنغ في الارض وصاحب كلام مثور ، وكل شاعر وصاحب كلام موزون ، فلا بد أن يكون قد لهج وألف ألفاظا بأعيانها ليديرها في كلامه وان كان واسع العلم غزير المعاني كثير اللفظ » • الى آخر ما اختار له من آراء في البلاغة ، قال الاستاذ شفيق جبيري معلقا على رأي الاستاذ محمد كرد علي في بيان الجاحظ : « لا ريب في أن كرد علي أحس بعبقرية الجاحظ ، وذاق محاسن هذه العبقرية ، وانتفع بها كثيرا في الأغلب من كتاباته ، ولكن وصف هذه المحاسن يحتاج في عصرنا الى أسلوب آخر غير هذا الأسلوب الذي لجأ اليه ، انا نحتاج الى من يدلنا على هذه المحاسن بأعيانها ، حتى نرى مخاطبة الجاحظ للناس على مقادير عقولهم ، وحتى نرى تصويره وما يستعمله فيه من ألفاظ على حقائقها ومن الترديد وما شابه ذلك » ، وقال : « لقد أتى في ترجمة الجاحظ على أشياء كثيرة تصل بأم الكتاب ، ولكنه لم ينسقها تنسيقا بحيث ضاعت خصائصها في تضاعيف هذه الأشياء » • والاستاذ جبيري لم يكن مجاوزا الحق ، والواقع أن الاستاذ محمد كرد علي حشر في الترجمة أشياء كثيرة ، ومعلومات واسعة ، تحتاج الى تنسيق وتبويب ، ولكن من الانصاف أن نقول ان تلك

الدراسة كانت باكورة الدراسات الواسعة في أبي عثمان الجاحظ ، وكانت الممهدة للدراسات المستكملة المنسقة التي ظهرت مؤخرا لأمثال (شارل بلا) و (طه الحاجري) و (فلوتن) و (عبدالسلام هارون) . ونعد كتابات محمد كرد علي اللبنة الاولى للدراسات الأدبية في فن التراجم في وقت مبكر ، لم يعرف القارئ العربي فيه الا اليسير يوم ذاك من البحوث الغربية الموضوعية ، أما بعد أن طبعت كتب الجاحظ ونشرت أكثر رسائله نشرنا حسنا مشروحا محققا ، وبعد أن ألف المختصون الدراسات المفصلة في الجاحظ ، ويسرنا للباحث منهج البحث ، بعد هذا نجد هذه الترجمة يعوزها التعمق والتنسيق ، غير أن هذا النقص اليسير لا يحط من قدر الآراء التي جمعها الاستاذ الرئيس ، وقد ختم دراسته للجاحظ بقوله : « خاض الجاحظ عباب أبحاثه بقلبه ونفسه ، لا بعينه وأذنيه فقط ، فاستفاض صيته ، ووصل صوته الى أبعد مدى ، لأنه قام أحسن قيام بما يجب عليه لأتمه ووجب عليه معاناته في دهره ، وتداول قومه مصنفاته وهو في الكهولة ، وعرفت القاضية والدانية تفوقه على غيره من المؤلفين ، وأدرك ذوو البصائر أن كتبه تحمل علما كثيرا ، ذلك لانه أرضى نفسه بما كتب ، فأرضى أمته ، وأخذ بمجاميع قلبها ، والسلطان يومئذ سلطان العلم والادب ، لا سلطان الثرثرة والدعوى »

* * *

وهذا نموذج مما وصف به الاستاذ محمد كرد علي عصر « أبي حيان التوحيدي » ، قال : القرن الذي أولد التوحيدي ، وشب واكتهل وشاب ، هو العصر العباسي الثالث ، فسدت فيه عصبية بني العباس ، فلم تبق لهم كلمة مسموعة ولا رأي جميع ولا قوة نافذة ولا كيان يرتجى معه البقاء ، تغلغلت الأعاجم في جسم الدولة وتسلمت على الامور ، وما دخل القرن الرابع حتى رأيت الامور تلتوي ، ودولة الخلافة تصول وتترجع ، وقد شمل الضعف معظم أوضاعها ، وعاث سوس الفساد في ذلك الجسم العظيم وتناثر عقد البلاد

الاسلامية وانتقضت من أطرافها ، والأهواء مشتتة والنفوس شعاع ، لم يكده ينسلخ الربع الاول من هذا القرن حتى استولى ابن رائق على البصرة وواسط ، واستأثر البريدي بالاهواز وأعمالها ، وذهب أبناء بويه الديلم بفارس والري وأصفهان وطبرستان وجرجان وكرمان والجبل ، وغدت خراسان وما وراء النهر بيد السامانيين ، والموصل وديار بكر ومصر وربيعة في أيدي بني حمدان ، وانتقلت مصر والشام الى الاخشيديية ، والبحرين واليمامة الى القرمطي والمغرب وأفريقية الى القائم العلوي ، والاندلس للناصر عبدالرحمن الاموي ، ولم يبق للخليفة العباسي غير بغداد وأعمالها ، والحكم فيها لابن رائق ، وليس للخليفة وزير ، وانما له كاتب يدير اقطاعه واخراجاته القليلة ، وكلما امتدت كلمة ملك أو أمير ، سطا على من يجاوره واستصفى مملكة صاحبه ، فابن رائق بعد البصرة استولى على دمشق ، والبريدي بعد خوزستان استولى على بغداد ، وبنو بويه بعد بلاد الشرق استولوا على بغداد ٣٦٧هـ ، وخطب لهم فيها بعد الخليفة ، وهكذا كانت مملكة بني العباس نهب أيدي الاتراك والديلم والاتراك جيل من التتر معروف ، والديلم سكان الجبال في فارس ، وكلهم كانوا شاركوا العرب في سلطانهم ، بل حاولوا نزع تراث العباسيين من أيديهم ، وكثر قتل الخلفاء وخلعهم ، فقتل المقدر ، وبويح للقاهر ثم خلع ، وخلفه الراضي ، واستخلف المتقي ، ثم بويح للمستكفي وهو كأكثر من سلفه مغلوب على أمره ، وهناك دول تقوم في الشام ، كدولة بني حمدان بعد الاخشيديين ، ودولة الفاطميين ويخطب لهم في مكة والمدينة بدل الخليفة العباسي ، وتقطع من تلك الدولة العظمى دول وممالك النخ^(١)

وقال يصف المجتمع الثقافي والفكري الذي نشأ فيه أبو حنيفة التوحيدي : « وتوعدت المذاهب التي غلبت على البلاد ، فكان أهل البصرة قدريية وشيعة وحنابلة ، وبغداد تؤوي جميع النحل ، وفيها غالبية يخبون

معاوية ، ومشبهة وهم أصناف كثيرة ، ويهود اقليم الجبال أكثر من نصاراها ، ومجوسها كثير ، والمجوس أصحاب زرادشت المعظمون للنار وسائر الأنوار بقيت منهم بقية مهمة الى هذا القرن في العراق والاهواز وفارس وأصبهان وخراسان وغيرها من مملكة الفرس قبل الاسلام ، ولكل بلد من بلاد العجم وخراسان وغيرها من مملكة الفرس طرز يخالف الطرز الآخر ، فمنها ما تجد في الغلبة للحنفيين ، ومنها ما كانت حنابلة كثيرة ، ومنها ما كانت شيعة غالية ، ومنها ما تغلبت فيه جماعة أصحاب الحديث ، وأكثر اقليم خوزستان معتزلة ، وفي الاقليم الاخرى شيعة وحنابلة وشوافع والفتن كثيرا ما تقع بين الحنابلة والشافعية في بغداد ، أو بين السنة والشيعة في دار السلام ، وبعض أصقاع فارس والجبال وما اليها فيفني بعضهم بعضا ولهذا اعتصم بعض العلماء والحكماء بأهداب التقية خشية العامة وجهلة السلاطين ، فكان ما كان من تأليف المجالس السرية من الفلاسفة وأرباب العقول الكبيرة ، وكانت التوحيدي أحد أساطين تلك الحلبة حقة من الزمن والحركة الدائمة في الافادة والاستفادة والعقل الكبير والعامل الجبار ، ملئت أيام حياته بغرائب ، فكان عجبا في نفسه ودرسه ♦

وبعد أن تكلم على نشأته ومحتده ونسبته ، رجح أن التوحيدي نسب الى المعتزلة لأنهم يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، وضعف نسبه الى التوحيد ، وهو نوع من التمر كان يبيعه أبوه ، وذكر نخرجه على أساتذة عصره من أمثال أبي سعيد السيرافي ، وعلي بن عيسى الرمائي والمروزي وأبي بكر الشافعي ويحيى بن عدى التكريتي المنطقي وابي الحسن العامري وأبي النيس الرياضي الفيلسوف ، وقال : « انه تكلم في الفقه بألفاظ الفلاسفة ، وكان مفنأ في العلوم من النحو واللغة والشعر والادب والفقه والكلام على رأي المعتزلة ، وبأخذه الفلسفة عن ورثة علوم الأقدمين في عصره ، وقد عد حكيما عظيما ، وصفا ذهنه ، وزاد تسامحه ، وأصبح يحكم عقله فيما يرى ويسمع ، ولا يأخذ الاشيء على

ظواهرها ، بل يواصل الدرس والنظر ، غير متحيز لفتته ، ولا متعصب لرأي جماعة ، وصفه ياقوت بأنه « كان جاحظيا ، يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ ، ويشتهي أن ينتظم في سلكه ، فهو شيخ في الصوفية ، وفيلسوف الادباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق أهل الكلام ، ومتكلم المحققين ، وامام البلغاء ، فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم من كل فن ، حُفظة واسع الرواية والدراية » ، قال : « ولم أر واحدا من أهل العلم ذكره في كتاب ، ولا أدمجه في ضمن خطاب • وهذا من العجب العجاب » ، وقال فيه : انه صوفي السميت والهيئة ، وأنه كان فقيرا صابرا » ، وعده السبكي في فقهاء الشافعية ، وقال : « انه من المؤرخين » وقال : « لابي حيان تصانيف كثيرة ، منها : كتاب الصديق والصداقة وكتاب المقاسبات ، وكتاب الاشارات الالهية ، والرد على ابن جنبي في شعر المتسبي ، وكتاب الامتاع والمؤانسة ، وكتاب الزلفة ، وكتاب رياض العارفين ، وكتاب تقرير الجاحظ ، وكتاب مثالب الوزيرين ، وكتاب الحج العقلي اذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي ، ورسالة في صلوات الفقهاء في المناظرة ، والرسالة البغدادية ، والرسالة الصوفية ، والرسالة في الحنين الى الأوطان ، وكتاب المحاضرات والمناظرات ، وكتاب البصائر والذخائر في عشرة مجلدات ، كل مجلد له فاتحة وخاتمة • وقد ساق الصفدي في (الوافي بالوفيات) ثبنا طويلا في مصنفاته ، ومنها كثير من كتب فتوح البلدان ، يستدل بها على تضلعه من التاريخ أيضا ، وأثبت في أكثر من أربع صفحات كلها بأسماء كتبه ، وكتب أبي حيان أسئلة وأجوبة ، وروايات ، ومساجلات ، ومحاضرات ، ومحاضر جلسات ، وتقريع ، وتقرير ، ونقد ولمز ، ووعظ وارشاد » (١) • وقال : « ولقد أحرق أبو حيان كتبه في آخر عمره ، لقله جدواها ، وضناً بها بزعمه على من لا يعرف قدرها بعد موته ، وكتب اليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يعذله على صنيعه ، فكتب اليه أبو حيان يعتذر من ذلك ،

(١) امراء البيان ٤٩٤ •

قال : « ان كان ، أيدك الله ، قد أنقب خفك ما سمعت فقد آدمى أظلمي (١) ما فعلت ، فليهن عليك ذلك ، فما انبريت له ، ولا اجترأت عليه حتى استخرت الله عز وجل فيه أياما وليالي ، وحتى أوحى الي في المنام بما بعث راقد العزم وأجد فاطر النية ، وأحيا ميت الرأي ، وحث على تنفيذ ما وقع في الروع وتربع في الخاطر ، وأنا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك ان طالبت ، أو العذر ان استوضحت ، لتثق بي فيما كان مني ، وتعرف صنع الله في تشيه لي ، ان العلم - حاطك الله - يراد للعمل ، كما ان العمل يراد للنجاة ، فاذا كان العمل قاصرا على العلم ، كان العلم كلاً على العالم ، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذلاً ، وصار في رقبة صاحبه غلاً ، ثم اعلم - علمك الله الخير - أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلايته ، فأما ما كان سرا ، فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغباً ، وأما ما كان علانية ، فلم أصب من يحرص عليه طالباً ، على أنني جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة (٢) منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، وللد الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله ، ولا شك في حسن ما اختاره الله لي وناطه بناصيتي وربطه بأمرى ، وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجة علي لا لي ، ومما شجذ العزم على ذلك ، ورفع الحجاب عنه ، أنني فقدت ولداً نجيباً ، وصديقاً حيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أدبياً ، ورئيساً مثيباً ، فشق علي أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضي اذا نظروا فيها ، ويشمتون بسهوي وغلطي اذا تصفحوها ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها ، فان قلت : ولم تسمهم بسوء الظن ، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟ فجوابي لك أن عياني معهم في الحياة هو الذي حقق بهم بعد الممات ، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة ، فما صح لي من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من انسان منهم حفاظ ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة الى أكل الخضر في

(١) الاظلم ما تحت منسب البعير والخف .

(٢) المثالة : الفضل .

الصحراء ، والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، والى بيع الدين
 والمروءة ، والى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، والى ما لا يحسن
 بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم ،
 وأحوال الزمان بادية لعينيك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس
 ما قلته بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك وشدة تتبعك وتفرغتك ، وما كان
 أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتته بما قدمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه
 وطويته اما هربا من التطويل ، واما خوفا من القال والقليل ، وبعد فقد
 أصبحت هامة اليوم أو غد ، فاني في عشر التسعين ، وهل لي بعد الكبرية
 والعجز أمل في حياة لذيدة ، أو رجاء لجال جديدة ؟ ألسنت من زمرة
 من قال القائل فيهم :

نروح ونغدو كل يوم و ليلة وعما قليل لا نروح ولا نغدو

وكما قال الآخر :

تفوقت درات الصبا في ظلاله الى أن أتاني بالعظام مشيب

« والله ، يا سيدي ، لو لم أتعظ الا بمن فقدته من الاخوان والاختان
 في هذا الصقع من الغرباء ، والادباء ، والاحباء ، لكفى • فكيف بمن
 كانت العين تقر بهم ، والنفس تستنير بقربهم ؟ فقدتهم بالعراق والحجاز
 والجليل والري وما والى هذه المواضع ، وتواتر الي بغيهم ، واشتدت
 الواعية بهم فهل أنا الا من عنصرهم ؟ وهل لي محييد عن مصيرهم ؟
 أسأل الله رب العالمين أن يجعل اعترافي بما أعرف موصولا بنزوعي عما
 اقترفه ، انه قريب مجيب • وبعد ، فلي في اجراق هذه الكتب أسوة
 بأئمة يقتدى بهم ، ويؤخذ بهديهم ويعشى الى نارهم ، منهم أبو عمرو بن
 العلاء ، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف ، دفن كتبه
 في بطن الأرض ، فلم يوجد لها أثر ، وهذا داوود الطائي وكان من خيار
 عباد الله زهدا وفقها وعبادة ، ويقال له تاج الأمة وطرح كتبه في البحر ،
 وقال يناجها : نعم الدليل كنت ، والوقوف مع الدليل بعد الوصول ، عناء

وذهول وبلاء وخمول ، وهذا يوسف بن أسباط حمل كتبه الى غار في جبل ، وطرحها فيه ، وسد بابه ، فلما عوتب على ذلك ، قال : دلنا العلم في الاول ، ثم كاد يضلنا في الثاني ، فهجرناه لوجه من وصلناه ، وكرهناه من أجل من أردناه ، وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تور وسجرها^(١) بالنار ، ثم قال : والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك • وهذا سفيان الثوري مزق ألف جزء وطرحها في الرياح ، وقال : ليت يدي قطعت من هاهنا ، بل من هاهنا ، ولم أكتب حرفا • وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي سيد العلماء قال لولده محمد : تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الآجل ، فاذا رأيتها تخونك ، فاجعلها طعمة للنار •

وماذا أقول وسامعي يصدق أن زمانا أحوج مثلي الى ما بلغك ، زمان تدمع له العين حزنا وأسى ، ويتقطع عليه القلب غيظا وجوى وضى وشجى ، وما يصنع بما كان ، وحدث وبان ، ان احتجت الى العلم في خاصة نفسي فقليل والله شاف كاف ، وان أصحيت اليه للناس ، ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس ، الى أن تفتى الأنفاس بعد الأنفاس ، وذلك من فضل الله علينا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فلماذا تعني عيني - أيدك الله - بعد هذا بالجبر والورق والجلد والقراءة والمقابلة والتصحيح وبالسواد والبياض ؟ وهل أدرك السلف في الدين الدرجات العلى الا بالعمل الصالح ، واخلاص المعتقد والزهد الغالب في كل ما راق من الدنيا وخذع بالزبرج^(٢) وهو بصاحبه الى الهبوط ؟ وهل وصل الحكماء والقدماء الى السعادة العظمى الا بالاقتصاد في السعي ، والا الرضى بالميسور ، والا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم ، فأين يذهب بنا ؟ وعلى أي باب تحط رحالنا ؟ وهل جامع الكتب الا كجامع الفضة والذهب ؟ وهل المنهوم بها الا كالحريرص الجشع عليها ؟ وهل المغرم بجها الا كمكائرها ؟ هيهات والرحيل ، والله ، قريب ، والثواء قليل ،

(١) سجر التنور ملأه •

(٢) الزبرج بالكسر : الزينة والوشي والجوهر •

والمضجع مقض ، والمقام ممض ، والطريق مخوف ، والمعين ضعيف ،
والاعتزاز غالب ، والله من وراء هذا كله طالب ، نسأل الله تعالى رحمة
يظلنا جناحها ، ويسهل علينا في هذه العاجلة غدوها ورواحها ، فالويل
كل الويل لمن بعد عن رحمته بعد أن حصل تحت قدرته * « وختم
رسالته بقوله : « على أنني لو علمت في أي حال غلب علي ما فعلته وعندي
أي مرض ، وعلي أية عسرة وفاقة ، لعرفت من عذري أضعاف ما أبديته ،
واحتججت لي بأكثر ما نشرته وطويته ، وإذا أنعمت النظر تيقنت أن الله
جل وعز في خلقه أحكاما لا يغار عليها ولا يغالب فيها ، لانه لا يبلغ كنهها
ولا ينال غيبها ولا يعرف قلبها^(١) ولا يقرع بابها ، وهو تعالى أملك لنواصينا
وأطلع على أدياننا وأقاصينا ، له الخلق والأمر ، وبيده الكسر والجبر ،
وعلينا الصمت والصبر ، الى أن يوارينا اللحد والقبر ، والسلام * »

وعلق الاستاذ محمد كرد علي على هذا الكتاب الذي تفيض سطورة
باللوعة والحزن والحسرة على ما فرط بحق العلم لحرقة كتبه ، بعد أن
أحوجه ابناء عصره الى أن يقتات بالخضر والحشائش ، ويتكفف الناس
لسد جوعه ، قال رحمه الله « كتب هذا الكتاب في شهر رمضان سنة
أربع مئة ، وكشف به الغطاء عن محيا حقائق عصره ، وألم فيه الماما حداة
على تعفية أثره لما لقي من الانكار ونال من أهل جيله ، فهجن بما هجن ،
وازعج بما أزعج * ولولا أن السويداء غلبت عليه باقراره واليأس من
الحياة وبنيتها سد عليه مسالكه ، وزين له اتيان ما أتى ، وبنات الافكار
أغلى من كل عقار ونضار ، لما اقيمت له معذرة ولا أسبل على ذنبه ستر
المغفرة ، وبالسويداء قد يهلك المرء أعز حبيب على قلبه ، حتى اذا تاب
اليه عقله ، ندم على فعلته ، وبالمرّة الصفراء قد يقتل نفسه ، والنفس أعز
الاعلاق على الاطلاق ، والتوحيد مع هذا لم يأت بدعا فريا ، ولعمله
أشباه ونظائر ، بيد أن الزمن الذي قلبه كل مقلب وغيره في أعطاف النعيم
يتقلب ، وأخرجه من جلده ، ونبا به بما رآه من خبث وخبث وعت

(١) الخطاب الى متى بن عدي *

وعبث ، لم يرض أن يستلب جميع جواهره وعقوده ، ليستمتع بذرو من درره أهل الأجيال المقبلة على نحو ما استمتع بها أبناء الأعصر الغابرة ، ففضي له من قبل المأتم الذي عقده لاحراق كتبه أن يتناقل الوراقون والطالبون أسفاره ، ويتنافسوا في نسخها واقتنائها ، فبقيت بصنيعهم هذه البقية الصالحة من أفكاره التي حفظت ذكراه على كرور الأعصار ، وطارت كل مطار في الأقطار والأمصار ونقل قوله في المناظرة في اللغات والترجمة ، فقال :

« ان لغة من اللغات ، لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها في أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقتها وتشيدها وتخفيفها وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها ، وسجعها ووزنها ، وميلها وغير ذلك ، فمن أين يجب أن تثق بشيء ترجم لك على هذا الوصف ؟ بل أنت الى أن تعرف اللغة العربية أحوج منك أن تعرف المعاني اليونانية ، على أن المعاني لا تكون يونانية ولا هندية ، كما أن اللغات لا تكون فارسية ولا عربية ولا تركية ومن فقرها قال أبو سعيد : فأنت ^(١) اذن لست تدعونا الى علم المنطق ، بل الى تعلم اللغة اليونانية ، وأنت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعونا الى لغة لا تعني بها ، وقد عفت منذ زمن طويل ، وباد أهلها ، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ، ويتفاهمون أغراضهم بتصرفها ؟ على أنك تنقل من السريانية ، فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان الى لغة أخرى سريانية ، نم من هذه الى لغة أخرى عربية ، قال متى : يونان وان بادت مع لغتها ، فان الترجمة قد حفظت الأغراض ، وأدت المعاني ، وأخلصت الحقائق ، قال أبو سعيد : اذا سلمنا لك أن الترجمة صدقت وما كذبت ، وقومت وما حرفت ، ووزنت وما جزفت ، وأنها ما التانت ولا حافت ولا نقصت ولا زادت ولا قدمت ولا أخرت ولا أخلت بمعنى الخاص والعام ولا بأخص الخاص ولا بأعم العام ، وان كان هذا لا يكون وليس في طبائع اللغات ولا في مقادير المعاني ، فكأنك تقول بعد هذا : لا حجة الا عقول

يونان ، ولا برهان الا ما وصفوه ، ولا حقيقة الا ما أبرزوه • قال متى : لا ، ولكنهم من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه ، وعن كل ما يتصل به ويفصل عنه ويفضل عنايتهم ، ظهر ما ظهر ، وانتشر ما انتشر ، ونشأ ما نشأ من أنواع العلم وأصناف الصناعة ، ولم نجد هذا لغيرهم ، قال أبو سعيد : أخطأت ، وتعصبت ، وملت مع الهوى ، فان العلم مبثوث في العالم ، ولهذا قال القائل :

العلم في العالم مبثوث ونحوه العاقل محثوث

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع من على جديد الأرض ، ولهذا غلب علم في مكان دون مكان ، وكثرت صناعة في بقعة دون صناعة ، وهذا واضح ، والزيادة عليه مشغلة • ومع هذا فانما كان يصح قولك ، وتسلم دعواك ، لو كانت يونان معروفة بين جميع الامم بالعصية الغالية والفترة الظاهرة والبنية المخالفة ، وأنهم لو أرادوا أن يخطئوا ما قدروا ، ولو قصدوا أن يكذبوا ما استطاعوا ، وان السكينة نزلت عليهم ، والحق تكفل بهم ، والخطأ تبرأ منهم ، والفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم ، والرذائل بعدت عن جواهرهم وعروقهم ، وهذا جهل ممن يظنه بهم ، وعناء ممن يدعيه عليهم ، بل كانوا كغيرهم من الامم ، يصيبون في أشياء ، ويخطئون في أشياء ، ويصدقون في أمور ، ويكذبون في أمور ، ويحسنون في أحوال ويسئون في أحوال •••

قال علي بن عيسى : « وتقوض المجلس ، وأهله يتعجبون من جأش أبي سعيد ، ولسانه المتصرف ، ووجهه المتهلل ، وفوائده المتابعة ، وقال الوزير ابن الفرات : عين الله عليك ، أيها الشيخ ، فقد نديت أكبادا ، وأقررت عيوننا ، وبيضت وجوها • ونقل كلام القفطي عن كتاب أبي حيان « الامتاع والمؤانسة » ، قال : « وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الامتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية » ، قال : « ابتداء أبو حيان كتابه صوفيا ، وتوسطه محدثا ، وختمه سائلا ملحفيا » •

قال الاستاذ محمد كرد علي معقبا : « وفي الكلام الاخير صورة صغيرة مما كان يعاب على أخلاق أبي حيان التوحيدي ، وقد لا يجد المدافع معذرة يعتذر بها عنه ، ومنزع التوحيدي واحد ، وهو ما قاله في آخر (كتاب أخلاق الوزيرين) ، ولكن النقص ممن يدعي التمام اشنع ، والجرمان من السعيد المأمول فاقرة^(١) والجهل من العالم منكر ، والكبيرة ممن يدعي العصمة جائحة^(٢) ، والبخل ممن يتبرأ بدعواه عجيب » وقال : « ومن الانصاف أن نقول ان التوحيدي أجاد كل الاجادة في التعريف بالرجال ، وأوقفنا على نفسياتهم ونزعاتهم ، وليس هذا بالامر السهل » ، وتقل رأيه في اخوان الصفا •

قال : « سأل الوزير صمصام الدولة أبا حيان في حدود سنة ٣٧٢هـ قائلا : اني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولاً يربيني ، ومذهبا لا عهد لي به ، وكناية عما لا أحققه ، وإشارة الى ما لا يتوضح شيء منه ، يذكر الحروف ويذكر النقط ، ويزعم أن الباء لم تنقط من تحت واحدة الا لسبب ، والتاء لم تنقط من فوق اثنتين الا لعلة ، والألف لم تعجم الا لغرض ، وأشباه هذا ، وأشهد منه في عرض ذلك دعوى يتعاضم بها ، ويتفتخ بذكرها ، فما حديثه ؟ وما شأنه ؟ وما دخلته^(٣) ؟ وما طويته وخافي مذهبه ؟ فقلت : « أيها الوزير ، أنت تعرفه قبلي قديما وحديثا بالاختبار والاستخدام ، وله منك الامرة القديمة والنسبة المعروفة ، فقال : دع هذا ، وصفه لي ، فقلت : هناك ذكاء غالب وذهن وقاد ومتسع في قول النظم والنثر ، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة وحفظ أيام الناس وسماع المقالات وتبصر في الآراء والديانات وتصرف في كل فن ، اما بالشدو^(٤) الموهوم ، واما بالتوسط المفهم ، واما بالتناهي المفحم • قال : فعلى هذا ما مذهبه ؟ قلت : لا ينسب الى شيء ، ولا يعرف برهط لجيشانه بكل شيء ،

(١) فاقرة قاصمة للظهر •

(٢) جائحة : نازلة كاسحة •

(٣) دخلته : طويته •

(٤) الشدو القليل من كلام كثير •

وغليانه بكل باب ، ولاختلاف ما يبدو من بسطته بيانه ، وسطوته بلسانه ، وقد أقام بالبصرة زمنا طويلا ، وصادف بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة ، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستي ، ويعرف بالمقدسي ، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، وأبو أحمد المهرجاني ، والصوفي ، وغيرهم ، فصحبهم وخدمهم ، وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتضافت بالصدقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله ، وذلك أنهم قالوا : ان الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، لأنها حادية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرسا ، وسموها « رسائل اخوان الصفا » وكتبوا فيها أسماءهم وبثوها في الوراقين ، ووهبوا للناس ، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة والطرق المموهة .

قال الوزير : فهل رأيت هذه الرسائل ؟ قلت : قد رأيت جملة منها ، وهي مبثوثة من كل فن بلا اشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكتابات وتلفيقات وتلزيقات ، وحملت عدة منها الى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام ، وعرضتها عليه ، فنظر فيها أياما ، وتبحرها طويلا ، ثم ردها علي ، وقال : تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا ، وغنوا وما أطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ، ومشطوا فغلغلوا ، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ، ظنوا أنه يمكنهم أن يدسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والافلاك والمقادير والمجسطي وآثار الطبيعة ، والموسيقى التي هي معرفة النغم والايقاعات والنقرات والأوزان ، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالاضافات والكميات والكيفيات في الشريعة ، وأن يربطوا الشريعة في الفلسفة ، وهذا مرام دونه حدد ،

وقد تورد على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحد أنيابا وأحضر أسبابا ،
وأعظم أقدارا ، وأرفع أخطارا ، وأوسع قوى ، وأوثق عرا ، فلم يتم
لهم ما أرادوه ، ولا بلغوا منه ما أملوه ، وحصلوا على لوثات قبيحة ،
ولطخات واضحة موحشة ، وعواقب مخزية ، فقال له البخاري ابن العباس ،
ولم ذلك ، أيها الشيخ ؟ فقال : ان الشريعة مأخوذة من الله عز وجل
بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي وباب المناجاة وشهادة
الآيات وظهور المعجزات ، وفي أثنائها ما لا سبيل الى البحث عنه والغوص
فيه ، ولا بد من التسليم المدعو اليه والمنبه عليه ، وهناك ينسقط « لم »
ويبطل « كيف » ، ويؤول « هلا » ، ويذهب « لو ولت » في الريح •

هذه حقيقة جمعية اخوان الصفا ، وصفها التوحيدي أجمل وصف ،
ومنه نستدل أن التوحيدي لم يكن من أفراد هذه الجماعة كما ظن الذين
كتبوا عنه مؤخرا ، واختار له من كتابه (الصداقة والصديق) ما كتبه في
المقدمة : « اللهم ، خذ بأيدينا ، فقد عثرنا ، واستر علينا ، فقد أعورنا ،
وارزقنا الألفة التي تصلح القلوب ، وتنقي الجيوب ، حتى نعيش في هذه
الدار مصطلحين على خير ، مؤثرين للتقوى ، عاملين بشرائط الدين ،
آخذين بأطراف المروءة ، آنفين من ملابسمة ما يقدر في ذات البين ،
متزودين للعافية التي لا بد من الشخصوس اليها ، ولا مخيد عن الاطلاع
عليها ، انك تؤتي من تشاء ما تشاء » ، وقال : « سمع مني في وقت بمدينة
السلام كلام في الصداقة والعشرة والمؤاخاة والألفة ، وما يلحق بها من
الرعاية والحفاظ والوفاء والمساعدة والتضحية والبذل والمؤاساة والوجود
والكرم ، مما قد ارتفع رسمه بين الناس ، وعفي أثره عند العام والخاص ،
وسئلت اثباته ، ففعلت ، ووصلت ذلك بجملته مما قال أهل الفضل والحكمة
وأصحاب الديانة والمروءة ، ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يستفاد
منها ويستفح بها في المعاش والمعاد ، وسمعت الخوارزمي أبا بكر محمد بن
العباس الشاعر البليغ يقول : اللهم ، نفق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح
قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمتني حتى يبور الجهل كما بار العقل ،

ويموت النقص كما مات الفهم ، وأقول : اللهم ، اسمع واستجب ، فقد
برح الخفاء ، وغلب الجفاء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ، ومرض
الأمل ، وأشفى الرجاء ، والفرج معدوم وأظن أن الداء في هذا الباب
قديم ، والبلوى فيه مشهورة ، والعجيج منه معتاد » •

كان الأستاذ حسن السندوبي من أوائل الكتاب الذين عرفوا بأبي
حيان التوحيدي ، فقد طبع (المقاسبات) في مصر سنة ١٩٢٩ طبعة جيدة
أحسن من طبعة شيراز ، وترجم لأبي حيان ، ثم جاء الدكتور زكي مبارك
فكتب في أبي حيان في كتابه (الشر الفني) ، فقد أشاد بنثر أبي حيان ،
وقدم نماذج من نثره ، وأشار إليه اشارات بارعة عرفت المتأدبين بأديب
الفلاسفة الذي عده أبناء عصره جاحظ زمانه ، أو الجاحظ الثاني ، فنبه
الناس الى أكتب كتاب القرن الرابع الذي ظل ذكره مغمورا زمنا طويلا ،
ولكن الأستاذ محمد كرد علي حين نشر كتابه (أمراء البيان) سنة ١٩٣٧م ،
وفيه ذلك البحث المفصل الذي زادت صفحاته على خمسين صفحة ،
وتناول فيه ترجمة أبي حيان ترجمة واسعة حافلة تناولت منهجه في
الكتابة ، ومؤلفاته ، وترسله ، وأسلوبه ، فجاءت الترجمة جامعة ، فحنت
للباحثين أبوابا كثيرة من حياة الكاتب المبدع ، واقبست نماذج رائعة من
نثره وحكم بعد عرضها بأنه من أعظم المنشئين وأكابر المؤلفين ، وعد
كتابته ومقدرته على الأداء الفني دليلا على اتساع اللغة العربية ومطاوعتها
للتعبير عن المعاني المختلفة ووفرة مفرداتها وقابليتها لتمثل جميع الأغراض
الأدبية والعلمية ، وهذا الفصل الذي كتبه الأستاذ محمد كرد علي على
اختصاره بالنسبة الى المؤلفات الموضوعية التي ظهرت خلال خمسة عشر
عاما ، الا انه اشتمل على حقائق دقيقة في ترجمة أبي حيان ، وقد أبرز
خطوط حياته ، وعمق ملامحها ، ولون ارتساماتها ، فأظهر نضاعة بيانه
من نثره ، فكان له أحسن الأثر في لفت الأنظار الى أديب ظل عصورا
يتحاشى أصحاب السير أن يتعرضوا للكتابة في سيرته ، وأرى لزاما علي
أن انوه بفضل المستشرق المؤرخ (آدم منز) الذي كتب كتابه الجامع في

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ، فقد أشاد هذا العالم بمواهب التوحيدي وتبته لفنه وقدرته في التعبير ولقلمه البليغ قبل غيره من أبناء العروبة ، مما حدا بالدكتور عبدالرزاق محيي الدين أن يعجب أشد العجب « أن يلتفت الى دقائق الأسلوب العربي رجل ليس من أهله ، فينتهي الى حكم غفل الباحثون من قبله عن الاهتداء له » • وفي الحقبة الاخيرة من سنة ١٩٤٩م الى سنة ١٩٦٤م ظهرت خمسة كتب في أبي حيان التوحيدي أحد عظماء كتاب القرن الرابع الهجري ، أول هذه الكتب كتاب الدكتور عبدالرزاق محيي الدين الذي نال به درجة الماجستير وبعد بحثه أوسع البحوث التي جاءت بعده وأدقها وأصدقها وأكثرها ابتكارا ، وظهر بعده كتاب الدكتور احسان عباس ثم كتاب الدكتور ابراهيم الكيلاني ، ثم كتاب الدكتور أحمد محمد الحوفي ، وأخيرا ظهر كتاب الدكتور زكريا ابراهيم وهذه الكتب على تقارب مادتها ما زال الفصل الذي كتبه الاستاذ محمد كرد علي يعد الرائد الاول في رسم الخطوط العريضة لترجمة أبي حيان ، وان الاساتذة الذين كتبوا من بعده انما عرضوا تلك الخطوط ، وفصلوا السيرة في ضوء ما طبع من كتب أبي حيان ، والانصاف يقتضيني أن اقرر أن كتاب الدكتور عبدالرزاق محيي الدين أصلحها وأصدقها وأسبقها لأكثر الحقائق التي كانت غير معروفة ، أو كان يكتنفها الغموض ، والمؤلفات التي ظهرت بعده ومنها كتاب الأعلام لم تحد عن نهجه ، ولم تأت بجديد لم يذكره الدكتور محيي الدين • لقد حظيت المكتبة العربية بهذه الدراسات ، وما زال مجال القول فيه متسعا لمن يريد البحث في الكاتب صاحب القلم الرفيع بعد نشر الكثير من كتبه •

كان من أوائل ما نشر من كتبه كتاب (الصديق والصدقة) نشر في الاستانة ، وكتاب (المقاسبات) وكتاب (الامتاع والمؤانسة) ١٩٣٩ بتحقيق الاستاذين أحمد أمين وأحمد الزين ورحمهما الله وقد كتبا لأبي حيان ترجمة وافية في مقدمة الكتاب ، وأخرج الدكتور عبدالرحمن بدوي (الاشارات الالهية) سنة ١٩٥٠م ، وحقق الاستاذان أحمد أمين

والسيد صقر كتاب (الهوامل والشوامل) ، ونشرا كذلك جزءا من (البصائر والذخائر) كما نشر الدكتور عبدالرزاق محيي الدين من بعد جزءا من (البصائر والذخائر) ، والكتاب بعشرة أجزاء ، وأخرج ابراهيم الكيلاني (مثالب الوزيرين)^(١) سنة ١٩٦١ ، وحقق كتاب (الصادق والصدّاق) ، ونشر مجلدا ضخما من (البصائر والذخائر) ، وما زال الدكتور ابراهيم دابّا على تحقيق كتب أبي حيان ونشرها ولقد تنبه لأبي حيان الحظ بعد ذلك الخمول ، وناله من الذكر والتعريف ما عوض ذلك الحيف والظلم الذي لاحقته مدة ألف عام أو تزيد ، وصححت البحوث القيمة التي كتبت فيه كثيرا من الاحكام الخاطئة اذا تسامحنا ولم نقل ظالمة .

* * *

أما كتابه (كنوز الاجداد) فقد طبع في مصر سنة ١٩٥٠ في ٤٣٦ صفحة ، وهو كتاب في الأعلام والتراجم ، على نسق كتابه (أمراء البيان) ، الا أنه لم يقتصر فيه على المنشئين والمرسلين ، وانما ترجم لكثيرين من الأعلام الذين خدموا الحضارة العربية ، أو اشتهروا بالثقافة الاسلامية ، من طريق التأليف والتدريس ، ففصل فيهم القول ، وعمق ملامح سيرتهم ، وأبرز صفاتهم التي عرفوا فيها ، وتحدث عن ثقافتهم وكتبهم ، وجلى معالم حياتهم ، فكتب في الشيخ طاهر الجزائري الأب الروحي له والموجه الاول لثقافته ، وفي ابن المقفع والقاسم بن سلام ، وعلي بن ربن والجاحظ ، وابن قتيبة ، وطيغور ، والمبرد ، وابن عبد ربه ، والمسعودي ، وابن جرير الطبري ، وابن دريد ، وابن الداية ، والصولي ، والأشعري ، وقدامة بن جعفر ، وابن حيان البستي ، وأبو الفرج الأصفهاني ، والقاضي علي بن عبدالعزيز ، والبلوي ، والهمداني ، والخوارزمي ، والقاضي التنوخي ، والباقلاني ، وابن هندو ، والتوحيدي ، والثعالبي ، والبيروني ،

(١) ونشر هذا الكتاب أيضا المجمع العلمي العربي بدمشق بتحقيق

محمد بن تاويت .

والماوردي ، وابن حزم ، وابن زيدون ، وعبدالقادر الجرجاني ، والبكري ،
والراغب الأصفهاني ، والغزالي ، والحريري ، والزمخشري ، وابن
القلاسي ، والبيهقي ، وابن عساكر ، والعماد الكاتب ، وياقوت الحموي ،
وعبداللطيف البغدادي ، وابن أبي أصيبعة ، وابن الخطيب ، وشيخ
الربوة ، وابن تيمية ، والصفدي ، وابن خلدون •

وقد تعددت أن أسجل أسماء الأعلام الذين ترجم لهم المؤلف ،
ليعلم من لم يطلع على كتابه هذا وليستفيد منه اذا احتاج الى الكتابة في
ترجمة من ترجماته • وقد أهدي كتابه الى استاذه الشيخ العلامة طاهر
الجزائري وقال في اهدائه : (الى روح من أشرب قلبي حب العرب ،
وهداني الى البحث في كتبهم صدر الحكماء سيدي واستاذي العلامة الشيخ
طاهر الجزائري) ، وجاء في مقدمته أن مؤلفه هذا « يحمل

سيرة من طالت عشرتي لهم ، واغترافي من معين أسفارهم من
رجال الاسلام ، وكان كثير غيرهم أحرىء أن يضموا اليهم ، فمغني منه
كوني لم أطلع ما كتبوا مطالعة متدبر متبحر ، أو كان ما غلب عليهم من
فروع العلم لم يكتب لي حظ الاشتغال به ، ولو حاولت أن أترجم لكل
عظيم من مؤلفي العرب ، لاقتضى أن أكتب لكل قرن خمسين مؤلفا على
الأقل ، وهذا مما يعجز الفرد عن الاضطلاع به • « وذكر أن القصد من
تذكر أعلام العرب والمسلمين من المؤلفين ووصف ما ألفوا « أن نظل على
اتصال بهم ، وفي ذلك شيء من الوفاء لهم ، ومعنى من معاني التقديس
لمن أبقوا لنا هذا المجد العظيم الذي فخر به عظماء العلماء على الدهر »
وانا لنجد في قسم من هذه التراجم نقصا لم يستوف الملامح الأصلية
لصاحب الترجمة ، وبعضها قد استوفى فيه السيرة وأبرز معالم صاحبها ،
والاستاذ محمد كرد علي يعترف صراحة باقتضاب بعضها « واني لمعترف
بقصوري عن الاحاطة بكل ما تجب الاشادة به من صنيع هؤلاء الأعلام ،
واذا بدا اقتضاب في وصف جوانب من حالاتهم ، فالسبب فيه قلة المصادر

التي يعتمد عليها ، وقد أطلت في مسائل رجوت منها أن تكون عوناً على تجلية الرجل الموصوف ، وقد تنطوي على أفكوهة طريفة » •

وترجمته لأستاذه الشيخ طاهر الجزائري أفضل نموذج يستطيع الباحث أن يحكم بها على نمط طريقته ، فقد جلى بواطن حياته ، وابرز صفاته وطبائعه ، وتكلم على أخلاقه وعاداته بأسهاب ، لأنه عرف أستاذه عن كُتب ، ولازمه ملازمة التلميذ ، وعاشره معاشرة الصديق ، فاطلع على بواطن أموره ، بله ظواهرها ، وتحسس عواطفه وميوله ، وسبر غور ثقافته ، ولس مواقفه الوطنية عملياً ، لذلك لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحاط بها علماً ، وأحصى منها الشيء الكثير •

والترجمة الثانية التي كتبها محمد كرد علي واحتواها كتابه ، هي ترجمة عبداللطيف البغدادي واخترتها لصلة المترجم بالعراق وبغداد ولشهرته العلمية وكثرة مؤلفاته وتكون حافزاً للبناء وقُدوة بالآباء ذوي المهمة العالية • قال : (١)

هذا عالم ندر ان يتسع صدر رجل ما اتسع له صدره من ضروب العلم والادب قال العلامة هوتسما : انه كان يعرف جميع العلوم المعروفة في عصره ، والسبب في تفننه في العلم نصيحة صدرت له من رجل مغربي نزل بغداد ، كان قال هو عنه يجلب القلوب بصورته ومنطقه وايهامه فملاً قلبه شوقاً الى العلوم كلها ، عد له ابن أبي أصيبعة زهاء مئة وخمسين كتاباً ومقالة ورسالة ، ومنها ما وقع في مجلدات ، والسماع الطبيعي مجلدان ومنها ردود على بعض الفلاسفة مثل ابن سينا والرازي وابن الهيثم ، ولم يطبع من جميع كتبه فيما علمنا سوى كتاب المشاهدة والاعتبار في أخبار مصر وفيه ترجمته بقلمه ، وفي هذا الكتاب الصغير حوادث مهمة وقعت في أيامه في مصر والشام وصفها وصف عيان ، فتحن اذن لا نعلم شيئاً من تصانيفه يسوغ لنا اصدار حكم عادل عليه •

قال ابن أبي أصيبعة ، كان كثير الاشتغال لا يخلي وقتاً من أوقاته

(١) كنوز الاجداد ص ٣٢٥ - ٣٣١ •

من النظر في الكتب والتصنيف والكتابة ، والذي وجدته في خطه أشياء كثيرة جدا بحيث أنه كتب كتبا كثيرة من تصانيف القدماء ، قال : وكان حسن الكلام لكثرة ما يرى من نفسه ويستقصي فضلاء زمانه وكثيرا من المتقدمين ، وكان يكثر الوقوع في علماء العجم ومصنفاتهم وخصوصا الشيخ ابن سينا ونظرائه ، ولما استوى حظه من الأخذ من علماء بغداد جاء الموصل فلم تعجبه ، واجتمع بكamal الدين بن يونس وكان ممن يقول بالكيمياء وعبدالمطيف يخالفه في ذلك فرحل عنها ونزل دمشق وفيها ألف كتبا كثيرة ، ثم توجه الى زيارة القدس ثم قصد الى صلاح الدين بظاهر عكا فاجتمع بهاء الدين بن شداد قاضي العسكر يومئذ قال : وكان قد اتصلت به شهرتي بالموصل فانسبط الي وأقبل علي ، وقال تجتمع بعماد الدين الكاتب ، فقمنا اليه وخيمته الى خيمة بهاء الدين ، فوجدته يكتب كتابا الى الديوان العزيز بقلم الثلث من غير مسودة وقال : هذا كتاب الى بلدكم ، وذكرني في مسائل في علم الكلام ، وقال قوموا بنا الى القاضي الفاضل فدخلنا عليه فرأيت شيئا ضئيلا كله رأس وقلب وهو يكتب ويملي على اثنين ، ووجهه وشفته تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في اخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملته أعضائه • وسألني القاضي الفاضل عن قوله سبحانه وتعالى : « حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها » وعن مسائل كثيرة ، ومع هذا فلا يقطع الكتابة والاملاء وقال لي ترجع الى دمشق وتجري عليك الجرايات ؟ فقلت : أريد مصر فقال : السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا وقتل المسلمين بها ، فقلت لا بد لي من مصر فكتب لي ورقة صغيرة الى وكيله بها ، فلما دخلت القاهرة جاءني وكيله وهو ابن سناء الملك ، وكان شيئا جليل القدر نافذ الأمر فأترلني دارا قد ازيحت عللها وجاءني بدنانير وغلة ، ثم مضى الى أرباب الدولة وقال : هذا ضيف القاضي الفاضل فدرت الهدايا والصلوات من كل جانب ، وكان كل عشرة أيام أو نحوها تصل تذكرة القاضي الفاضل الى ديوان مصر بمهمات الدولة وفيها فصل يؤكد الوصية في حقي ؛ وكان قصدي في مصر

ثلاثة : ياسين السيمائي ، والرئيس موسى بن ميمون اليهودي ، وأبو القاسم
الشارعي وكلهم جاءوني ، أما ياسين فوجدته محاليا كذابا مشعبذا يشهد
للشاقاني بالكيماء ويشهد له الشاقاني بالسيماء ويقول عنه انه يعمل أعمالا
يعجز موسى بن عمران عنها وانه يحضر الذهب المضروب متى شاء وبأي
مقدار شاء وبأي سكة شاء ، وانه يجعل ماء النيل خيمة ويجلس فيه
وأصحابه تحتها ، وكان ضعيف الحال • وجاءني موسى فوجدته فاضلا
لا في الغاية قد غلب عليه حب الرياسة وخدمة أرباب الدنيا • قال وكنت
ذات يوم بالمسجد وعندني جمع كثير فدخل شيخ رث الثياب نير الطلعة
مقبول الصورة فهابه الجمع ورفعوه فوقهم وأخذت في اتمام كلامي ، فلما
تصرم المجلس جاءني أمام المسجد وقال أتعرف هذا الشيخ ؟ هذا أبو
قاسم الشارعي فاعتنقته وقلت اياك أطلب فأخذته الى منزلي وأكلنا الطعام
وتقارضا الحديث فوجدته كما تشتهي الألسن وتلذ الأعين ، قال : وكنا
اذا تقارضا الحديث أغلبه بقوة الجدل وفضل اللسن ويغلبني بقوة الحججة
وظهور المحجة • وأنا لا تلتين قناتي لفخره ولا أحميد عن جادة الهوى
والتعصب برمزه ، فصار يحضرني شيئا بعد شيء من كتب أبي نصر
والاسكندر وثامسطيوس ، يؤنس بذلك نفاري ويلين عريكة شماسي حتى
عطف عليه •

وشاع ان صلاح الدين هادن الفرنج وعاد الى القدس فقادت
الضرورة الى التوجه اليه فأخذ من كتب القدمات ما أمكنه وتوجه الى القدس
قال : فرأيت ملكا عظيما يملأ العين روعة والقلوب محبة ، قريبا بعيدا
سهلا محبيا ، وأصحابه يتشبهون به ، يتسابقون الى المعروف كما قال تعالى :
(ونزعنا ما في صدورهم من غل) وأول ليل حضرته وجدت مجلسا حفلا
بأهل العلم يتذكرون في أصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع
والمشاركة ، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويثقفه في ذلك
ويأتي بكل معنى بديع وكان مهتما في بناء سور القدس وحفر خندقه ،
يتولى ذلك بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه ويتأسى به جميع الناس

الفقراء والاغنياء ، والاقوياء والضعفاء حتى العماد الكاتب والقاضي
الفاضل •

قال : وكتب لي صلاح الدين بثلاثين ديناراً في كل شهر على ديوان
الجامع بدمشق ، وأطلق أولاده رواتب حتى تقرر لي في كل شهر مائة
دينار ، ورجعت الى دمشق وأكبت على الاشتغال واقراء الناس بالجامع •
وبعد وفاة صلاح الدين عاد المترجم له الى مصر مع ابنه الملك العزيز •
وكان في تلك المدة يقريء الناس بالجامع الأزهر من أول النهار الى نحو
الساعة الرابعة ، ووسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره ، وآخر النهار
يرجع الى الجامع الأزهر فيقرأ قوم آخرون ، وأقام في القاهرة الى ان
ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب الديار المصرية وأكثر الشام والشرق ،
وتفرقت أولاد أخيه الملك الناصر صلاح الدين ، فتوجه الى القدس وأقام
بها مدة ثم عاد الى دمشق ومكث بها زمناً ينتفع الناس بعلمه ، ثم سافر الى
حلب وقصد بلاد الروم وأقام بها سنين كثيرة وكان في خدمة الملك
علاء الدين بن بهرام صاحب ارزنجان ، وكان مكيناً عنده عظيم المنزلة
وله منه - الجامكية الوافرة - والافتقادات الكثيرة ، ثم توجه الى ارزن
الروم ورجع الى ارزنجان فكماخ فديركي فملطية فحلب ، وأقام بحلب
يشغل عليه الناس ، وكان له من شهاب الدين طغريل الخادم أتاكب حلب
جار حسن ، ثم خطر له أن يحج ويجعل طريقه على بغداد وأن يقدم بها
للخليفة المستنصر بالله أشياء من تصانيفه ، ولما وصل بغداد مرض وتوفي
بها بعد أن غاب عنها خمسا وأربعين سنة •

ومن كلامه : ينبغي أن تحاسب نفسك كل ليلة اذا أويت الى منامك
وتتظنر ما اكتسبت في يومك من حسنة فتشكر الله عليها وما اكتسبت من
سيئة فتستغفر الله منها وتقلع عنها ، وترتب في نفسك ما تعمله في غدك من
الحسنات وتسأل الله الاعانة على ذلك • وقال : اوصيك أن لا تأخذ العلوم
من الكتب وان وثقت من نفسك بقوة الفهم ، وعليك بالاستاذين في كل
علم تطلب اكتسابه ولو كان الاستاذ ناقصاً فخذ عنه ما عنده حتى تجد

أكمل منه ، و عليك بتعظيمه وترحيبه ، وان قدرت أن تفيده من دنيات
فأفعل والا فلبسانك وثنائك ، واذا قرأت كتابا فأحرص كل الحرص على
أن تستظهره وتملك معناه وتوهم ان الكتاب قد عدم وانك مستغن عنه
لا تحزن لفقده واذا كنت مكبا على دراسة كتاب وتفهمه فاياك أن تشتغل
بآخر معه واصرف الزمان الذي تريد صرفه في غيره اليه ، واياك أن تشتغل
بعلمين دفعة واحدة ، وواظب على العلم الواحد سنة أو سنتين أو ما شاء
الله ، فاذا قضيت منه وطرك فانتقل الى علم آخر ولا تظن انك اذا حصلت
علما فقد اكتفيت ، بل تحتاج الى مراعاته لينمى ولا ينقص ، ومراعاته
تكون بالذاكرة والتفكر والاشتغال ، المبتدئ بالتحفظ والتعلم ومباحثة
الأقران ، واشتغال العالم بالتعليم والتصنيف ، واذا تصديت لتعليم علم أو
للمناظرة فيه فلا تمزج به غيره من العلوم ، فان كل علم مكتف بنفسه
مستغن عن غيره ، فان استعانتك في علم بعلم عجز عن استيفاء أقسامه ،
كمن يستعين بلغة في لغة اخرى اذا ضاقت عليه أو جهل بعضها ♦

قال وينبغي للانسان أن يقرأ التواريخ وأن يطلع على السير وتجارب
الامم فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم
وعاشرهم وعرف خيرهم وشهرهم قال : وينبغي أن تكون سيرتك سيرة
الصدر الاول فاقراء سيرة النبي عليه الصلاة والسلام وتتبع أفعاله وأحواله ،
واقنف آثاره وتشبه به ما أمكنك ويقدر طاقتك واذا وقفت على سيرته في
مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه ويقظته وتمرضه وتطيبه وتمتعه وتطيبه
ومعاملته مع ربه ومع أزواجه وأصحابه وأعدائه ، وفعلت السير من ذلك
فأنت السعيد كل السعيد ♦

قال : وينبغي أن تكثر اتهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها وتعرض
خواطرك على العلماء وعلى تصانيفهم وتثبت ولا تعجل ولا تعجب فمع
العجب العثار ومع الاستبداد الزلل ، ومن لم يعرق جبينه الى أبواب العلماء
لم يعرف في الفضيلة ، ومن لم يخجلوه لم يبجله الناس ومن لم يكتوه لم
يسود ، ومن لم يحتمل ألم التعلم لم يذق لذة العلم ومن لم يكدح لم

يفلح ، واذا خلوت من التعلم والتفكير فحرك لسانك بذكر الله وبتسبيحه
وخاصة عند النوم فيتشربه لبك ويتعجن في خيالك وتتكلم به في منامك ،
واذا حدث فرح وسرور ببعض امور الدنيا فاذا ذكر الموت وسرعة الزوال
وأصناف المنغصات واذا حزبك أمر فاسترجع ، واذا اعترتك غفلة فاستغفر
واجعل الموت نصب عينيك ، والعلم النقي زادك في الآخرة ، واذا أردت
أن تعصي الله فاطلب مكانا لا يراك فيه واعلم ان الناس عيون الله على العبد
يريهم خيره وان أخفاه وشره وان ستره ، فباطنه مكشوف لله والله يكشفه
لعباده فعليك أن تجعل باطنك خيرا من ظاهرك وسرك أصح من علانيتك ،
ولا تتألم اذا أعرضت عنك الدنيا فلو عرضت لك لشغلتك عن كسب
الفضائل وقلما يتعمق في العلم ذو الثروة الا أن يكون شريف الهمة جدا
أو أن يشرى بعد تحصيل العلم ، واني لا أقول ان الدنيا تعرض عن طالب
العلم بل هو الذي يعرض عنها لان همته مصروفة الى العلم فلا يبقى له
التفات الى الدنيا ، والدنيا انما تحصل بحرص وفكر في وجوها فاذا غفل
عن أسبابها لم تأته ، وأيضا فان طالب العلم تشرف نفسه عن الصنائع الرذلة
والمكاسب الدنية وعن أصناف التجارات ، وعن التذلل لأرباب الدنيا
والوقوف على أبوابهم ولبعض اخواننا بيت شعر :

من جد في طلب العلوم أفاته شرف العلوم دناءة التحصيل

وجميع طرق مكاسب الدنيا تحتاج الى فراغ لها وحذق فيها وصرف
الزمان اليها والمشتغل بالعلم لا يسعه شيء من ذلك وانما ينتظر أن تأتبه
الدنيا بلا سبب وتطلبه من غير أن يطلبها طلب مثلها ، وهذا ظلم منه
وعدوان ، ولكن اذا تمكن الرجل في العلم وشهر به خطب من كل جهة
وعرضت عليه المناصب وجاءته الدنيا صاغرة وأخذها وماء وجهه موفور
وعرضه ودينه مصون ، وأعلم أن للعلم عبقة وعرفا ينادي على صاحبه ونورا
وضياء يشرق عليه ويدل عليه كتاجر المسك لا يخفى مكانه ولا تجهل
بضاعته ، وكمن يمشي بمشعل في ليل مدلهم والعالم مع هذا محبوب أينما
كان وكيفما كان ولا يجد الا من يميل اليه ويؤثر قربه ويأس به ويرتاح

بمداناته واعلم ان العلوم تغور ثم تغور ، تغور في زمان وتغور في زمان بمنزلة النبات أو عيون المياه وتنقل من قوم الى قوم ، ومن صقع الى صقع ♦

عالم عظيم استجمع شروط العلم في ذاته وانقطع الا عما شغل قلبه به من صغره من الدرس والتدريس والتأليف والتصنيف ، فطم نفسه عن المظاهر التي لا تأتي المغرم بها الا عن طريق الدولة والسلطان ، ولا يتصدر في المجالس الا بقوة الملوك وما يفضلون به عليه من المراتب عظم موقعه من نفوس ملوك عصره وكانوا يغتبطون اذا رأى نزول ساحتهم وقبول أعطياتهم يستميلون قلبه بما يرضيه ليركوا له وقته يصرفه كما يجب في بث العلم في الناس ♦

في العادة أن تعظم شهرة العالم بعد وفاته وهذا على ما رأينا ضوّلت شهرته عما كانت عليه في حياته ، وكان الباعث على ذلك فقدان كتبه الا جزءاً صغيراً من كتاب وما صنعه من الاسفار غير قليل وما كتب له البقاء منها أقل من القليل ، دثرت كتبه لانها في موضوعات فلسفية لا يجيها الفقهاء والمحدثون والحكماء في ملتنا أفراد يعدون على الاصابع في عصور بعينها يعانونها في سر ويكتمون عن الدهماء أمرهم فسيحان من له هذا السر في خلقه ♦



وعقد الاستاذ محمد كرد علي ترجمة مختصرة على عبدالرحمن بن خلدون اقتبسها نموذجاً له في كتابة التراجم التي سلكها في كتابه كنوز الاجداد قال :

(جرى أكثر المؤلفين على اتباع سنن من قبلهم في نظام تأليفهم ونظام تفكيرهم لا يخرجون عما كتبوه ولا يبدلون فيما دونوه وقد بلغ بعضهم أن يأخذوا من الماضين الفاظهم ومعانيهم لا يخرجون منها حرفاً ولذلك هان التأليف على الضعاف وندر اليجاد والاجادة ♦ وفي أهل هذه الطبقة من أرباب التواليف نقرأ مئات من الصفحات ولا نخرج منها الا بزبدة قليلة

حتى ليسوء ظنك بالمؤلفين ، ونعتقد أن منهم من لم يجزؤ على التأليف الا
ليحشر نفسه في زمرةهم ، كان ابن خلدون من النوابغ الذين استعملوا
عقولهم فيما قرأوا ورددوا رأيهم فيما رويوا وفتح لنفسه باب الاستنباط
والاستنتاج ، فتحلى بعد نظره فيما كتب ، وأتى بالجديد الذي لم يؤثر
عمن قبله مذ كان الاسلام ، وما قلد القدماء في الموضوع الذي أهمه في
فلسفة التاريخ والاجتماع ، بل ابتدعه ابتداعا على غير مثال ، وكان التاريخ
الى عصر ابن خلدون لا يتعدى نقل الحوادث تنقل بالرواية كما ينقل
الحديث ، وغاية اجادة المجيد فيه أن ينقل ما قرأ وشهد وسمع بأمانة ،
ويترك للقارىء حريته يفكر بنفسه فيما انطوت عليه الحوادث من العبر ،
وقد تقرأ في التاريخ مجلدا ضخما للاوائل ولا تقع فيه على فكر لمؤلفه
ولا ترجيح لرواية على أخرى ، كأن المؤلف يخشى أن يكفر أو يفجر
اذا شذ عن طريق من تقدموه ، وقد يكتفي بعض من يترجمون للرجال
اذا حاولوا تصوير أحدهم على ما يعتقدونه الصواب أو يلغونوا كل من
لا ترضيهم سيرته وعقيدته ، ليثبتوا للملأ صحة اعتقادهم وسلامة أحكامهم ،
والمذاهب عندهم العامل الاعظم في المدح والقدح ، يجمعون لا يصرحون ،
فيظلمون الحق بما يتعمدون من القاء الظلام على سيرة من لا يسعهم الا
طرده من حضيرة الناجين ، كأن التاريخ بعض كلام الصوفية والباطنية ،
له ظاهر وباطن • ولما سعد العلم العربي بنوع ابن خلدون ، وطبق
التاريخ الغابر على الحاضر ، واستخرج من مادته المبعثرة عصارة مفيدة
تألف منها علم برأسه ، فيه دخل كبير للعقل ومجال للتفكير ، جعل منه
جسما حيا ، وأخرجه بحذاقته من عقمه وجدبه الى خصب وامراع ، ولم
يعد روايات مروية وعبارات مسرودة مرصوفة ، مطولاتها كمختصراتها ،
وغتها كسمينها ، وآض فنا يتفنن المقتنون في الأخذ منه والقياس على
قواعده ، وتبدت شخصية المؤلف فيما كتب ، وظهرت شجاعته في التصريح
بالحقائق الرائعة •

أعظم شرف للعالم العربي أن يكون واضع فلسفة التاريخ والاجتماع

عربيا صرفا بأصله وتربيته ومنشئه • كان أجداد ابن خلدون في حضرموت من عرب اليمن ينسبون الى وائل بن حجر من أقيال العرب ، وكان وائل بقية أبناء الملوك ، دخل على رسول الله فأدناه وقربه وبسط له رداءه وأجلسه عليه مع نفسه ، وقال : « اللهم ، بارك في وائل وولده » واستعمله النبي على الأقيال من حضرموت ، وقد دخل جد ابن خلدون خالد بن عثمان أو خلدون بن عثمان الأندلس في القرن الثالث ، ونزل بقرمونة في رهط من قومه الحضارمة ، ثم انتقل الى اشيلية في جند اليمن ، وتولى أفراد أسرته المناصب الجليلة في دول الأندلس ، ونزلوا في القرن السابع تونس ، وفيها ولد عبدالرحمن ، ونشأ وقرأ على علمائها علوم اللسان والشرع ، وقرأ الفلسفة والمنطق ، ودخل في خدمة الدولة وهو في الحادية والعشرين من عمره ، ثم اعتزل الخدمة ، ثم دخل في خدمة صاحب تلمسان ، ثم استدعي الى فاس بطلب علمائها سنة (٧٥٥هـ) فتقلد أمانة سر السلطان ، واغتم هذه الفرصة لاتمام علمه على علماء المغرب الاقصى • وفي سنة ٧٥٧ غضب عليه الملك وسجنه مرتين ، ففقي في الحبس سنتين ، ثم اعيد الى منصبه وجعل قاضيا للقضاة ، وعاد فنكب أيضا لما هلك الملك ، ثم سمح له بالذهاب الى ابن الاحمر صاحب غرناطة ، وسفر عنه الى ملك قشتالة الاسباني ، فأنجحت سفارته • وبعد زمن عاد الى افريقية (تونس) ، وتولى منصب الحاجب ، وجمع بين الحجابة والخطابة والتدريس في بلده ، وكانت له سفرات بين صاحب تلمسان وصاحب تونس لعقد تحالف بينهما ، وبعد حين تخلى عن منصبه في تلمسان بانهزام صاحبها ، وتولى لمن جاء بعده ما كان يتولاه من المناصب • وفي سنة ٧٧٤هـ رحل الى فاس ، ومنها الى غرناطة ، ففناه صاحبها الى تلمسان ، فلقى من أميرها كل تجلة ، وعندئذ رأى اعتزال خدمة الملوك ، وانقطع الى قلعة ابن سلامة حيث بدأ بتأليف تاريخه الكبير ، وحج في سنة ٧٨٤هـ ، وجاء الاسكندرية والقاهرة ، ودرس في الجامع الأزهر ، وعين قاضي المالكية في مصر ، وفي غضون هذه الايام نكب ابن

خلدون نكبة دونها النكبات ، وهو أن حرمه وأولاده وأمواله حملت في البحر من المغرب الى الاسكندرية ، ففرقت كلها في ميناء هذا الثغر ولم ينبح منهم انسان • وفي سنة ٨٠١ رافق سلطان مصر الى الشام في الحملة على تيمورلنك ، واجتمع الى هذا الفاتح ، وقدم له هدية كانت عبارة عن مصحف وسجادة وعلب حلوى مصرية ، وسأله الفاتح أن يكتب له رسالة في جغرافية بلدان المغرب فكتبها ، قال ابن خلدون لما اجتمع بتيمورلنك : سألتني أين بلدك ؟ قلت : بالمغرب الجواني ، كانت للملك الاعظم هنالك • فقال : وما معنى الجواني في وصف المغرب ؟ قلت : هو في عرف خطابهم معناه الداخلي أي الأبعد ، لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه ، فالأقرب الى هنا برقه وافريقية والمغرب الاوسط وتلمسان وبلاد زناته ، والاقصى فاس ومراكش وهو معنى الجواني ، فقال لي : وأين مكان طنجة من ملك المغرب ؟ فقلت : في الزاوية التي بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزقاق ، ومنها التعدية الى الاندلس لقرب مسافته ، لأن هناك نحو العشرين ميلا ، فقال : وسجلماسة ؟ قلت : في الحد ما بين الريف والرمال من جهة الجنوب ، فقال : لا يقنعني هذا ، وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها أقاليمها وأدانيها وجبالها وانهارها وقراها وامصارها • فقلت : يحصل ذلك بسعادتك ، وكتبت له بعد انصرافي من المجلس ما طلب من ذلك • قال : وأوعيت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون في قدر اثنتي عشرة من الكراريس المنصفة القطع ، قال : ودفعته اليه ، فأخذه من يدي ، وأمر موقعه بترجمته الى اللسان المغربي • • • وكان يحاذر أن يأمره تيمورلنك بالشخص معه الى سمرقند ، ففجا منه بلباقة ، ورجع أدراجه الى وادي النيل » •

وفي « معلمة الاسلام » : أن ابن خلدون ربما ظهرت فيه خصائص سياسية لامعة في المناصب الخطيرة التي تولاها ، بيد أنه لم يتردد قط في الابتعاد عن رئيس له بالأمن ليدخل من الغد في خدمة آخر ، وأن يكون على الملك السالف البأ ، وكان من مهارته بل من صدقه أن يسير الى جانب القوي • وقد تدخل مباشرة في عامة سياسة ممالك شمالي افريقية والاندلس

لعهده ، وكان له من جلاله منصبه ما تمكن معه من الحكم على هذه الدول
حكم العارف •

هذه حياة ابن خلدون السياسية التي أوحى اليه وضع تأليفه ، أعانه
على ذلك كما قال عن نفسه انقطاعه أربعة أعوام في قلعة اولاد سلامة ،
متخليا عن الشواغل ، وأكمل المقدمة على ذلك النحو الغريب ، الذي اهتدى
اليه في تلك الخلوة « فسالت فيها شأيب الكلام والمعاني على الفكر حتى
امتختت زبدتها وتألقت نتائجها » وأملى الكثير من حفظه ثم صحح ونقح
وراجع ، والمقدمة في طبيعة العمران وما يعرض له قال : انا استوفينا من
مسائله ما حسبناه كفاية ، ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح
وعلم مبين ، يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا ، فليس على مستبطن الفن
احصاء مسائله ، وانما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم
فيه ، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئا فشيئا الى أن يكمل ، وقال :
« وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه ، نجد منه مسائل تجري بالعرض
لأهل العلوم في براهين علومهم ، الا أنها غير مستوفاة ، فان فاتني شيء في
احصائه ، واشتبهت بغير مسائله للناظر المحقق اصلاحه ، ولي الفضل ،
لأنني نهجت له السبيل ، وأوضحت له الطريق » فلف ابن خلدون التاريخ
في مقدمته ، ولم يسبقه الى ذلك غير أفراد جاءت على أسلوات أقلامهم سوانح
قليلة لا تكاد تذكر في جنب هذه الافاضة ، وهذه القواعد التي سنها
والدساتير التي اخترعها مما لم يختل منه مع الأيام الا مالا بال له ، فقد
زيف أقوال الوضاعين في أحاديث المهدي ، وردها كلها من طريق النقل
والعقل ، وما جسر أحد قبله على نقض هذه الخرافة التي قال بها أهل
الأهواء ومن سعوا لاستخدام هذا الاسم لانشاء دولة جديدة ، وأبطل علم
الكيمياء وأنكر ثمرتها وقال باستحالة وجودها وما ينشأ عنها من المفاسد ،
وقال بفساد صناعة النجوم وتكلم على الجفر والملاحم فزيف هذين الفنين
تزييفا جيدا ، وتكلم في الدفائن والكنوز وقال انها لا أصل لها في علم
ولا خبر • جمع ابن خلدون كل ما تفرق في فقه الشريعة وفقه العلوم

وما الى ذلك ، ونسقتها ووحدها ، والقدر الذي جرؤ على التصريح به من الأفكار في هذا الباب لا يرتضيه كثير من المنظور اليهم في عصره ، وحاول أن يبطل الفلسفة وبين فساد منتحلها ، ومع هذا قال : « ان هذا العلم يشخذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجاج ، لتحصل ملكة الجودة والصواب في البراهين ، فيستولي الناظر فيها على ملكة الاتقان والصواب في الحجاج ، ورأى ألا يكتب أحد على الفلسفة اذا كان خلوا من علوم الملة • وقال : ان الفلسفة ببلاد الفرنجة من أهل رومية وما اليها من العدة الشمالية نافقة الأسواق لعده وان رسومها هناك متجددة ، ومجالس تعليمها متعددة ، ودعا الى تعلم الهندسة والعلوم العديدة (الحساب والجبر والمقابلة) وعلم الهيئة وعلم المنطق والطب والفلاحة ، وجمعهم في كلامه على علوم الطلسمات ، وقال : ان الشريعة جعلت السحر والطلسمات والشعوذة باباً واحدا لما فيها من الضرر وخصه بالخطر والتحريم ، وذكر الاصابة وما نفاها ، ونقل كلام غيره القائل ان القاتل بالسحر يقتل والقاتل بالعين لا يقتل ، لان هذا ليس مما يريده ويقصده ، واطال في بيان أسرار الحرف ونقل عن لقيهم حقيقة الزايرجة •

ومن أحكامه ما لم تنقضه الايام ، مثل قوله : « ان المغلوب مولع أبدا بالاقْتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته » ، و « ان خلق التجار نازل عن خلق الأشراف وبعيد عن المروءة » ، و « ان العلماء بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها • » ومن أحكامه ما انتقض مثل العصية في الدولة لاتدوم الا أربعة بطون أي مئة وعشرين سنة ، كما لا تدوم الثروة الا هذا القدر من السنين ، ومنها غلوه في الانحاء على العرب من أنهم اذا نزلوا بلداً أسرع اليها الخراب ، وأنهم أبعد الناس عن سياسة الملك وعن الصنائع ، والغالب أنه كان يقصد الأعراب سكان البوادي • فهؤلاء لم يكن لهم استعداد أهل المدن والقرى ، لذلك نزلت الشريعة في أهل المدن وهم الذين قبلوا الدعوة أولاً ونشروها ، ودعوا أن العرب أبعد الناس عن الصنائع ينقضها ما كان للأندلسيين من الصناعات العظيمة التي أدهشت الغربيين

لعهدهم ، وما هي الا من صنع العرب وقرائح علمائهم ومهندسيهم ، ودعواه
أن حملة العلم في الاسلام أكثرهم من العجم غير صحيحة ، ذلك لأن من
كان بعضهم يعدونهم أعاجم على الأغلب كانت اصول أكثرهم عربية وهم
نشأوا في ديار الفرس ، ثم ان الشعوب غير العربية التي تشرفت بالاسلام
أكثر عددا وأوسع ممالك من سكان جزيرة العرب الذين قاموا بعبء هذه
الدعوة في السياسة والجندية والادارة ، فشغل العرب بالأمر المهم ، وتركوا
الصنائع وما شابهها لأهل البلاد . ومع هذا كان من مدينة العرب في جزيرة
صقلية والأندلس ما هو مفخرة الزمان . وأخطأ في قوله انه يشترط في
الحاكم قلة الافراط في الذكاء ، لما يتبع ذلك من التعسف
وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس من طبعه ، قال :
وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة ، لأنه افراط
في الفكر ، كما أن البلادة افراط في الجمود ، والطرفان مذمومان
وهذا استنتاج في غير محله ، ذلك لأن الدول في أشد الحاجة الى الأذكاء
في جميع فروع أعمالها ، ولولا ذكاء مشهود في رجال بني أمية ، ما قاموا
بما قاموا به من الفتوح التي زينوها بمدنية كانت أرقى ما عرف من نوعها
الى أيامهم ، وقوله ان للدول أعمارا طبيعية ، وان الهرم اذا نزل في الدولة
لا يرتفع ، قد جاءت الأيام بخلافه ، فان من دول أوربة ما هو قائم منذ
قرون . وكلامه هذا ، أخذه من مشاهداته في دول افريقية وما إليها . خرج
ابن خلدون على المؤلف ، وما أحب مع هذا أن يجاري عوام المؤلفين في
بعض أحكامهم على ساسة الأمة قديما ، ولذلك قال فيه أحد المعاصرين :
انه المدافع عن الدول والمحامي عن الأفراد ، فهو رجل دولة يمعن النظر
كثيرا في التقارير التي تعرض عليه ، فيستخرج منها ما لا يحسن استخراجه
كل أحد ، وقد يعلو في اجتهاده الى درجة السمو ويكبر أحيانا ، من ذلك
انه هفا هفوة فظيعة لما جرى فيه عامة عصره على خرافاته ، فأثبت الكشف
ومعرفة الغيب بما يستعظم صدوره من مثل عقله ، فقال : وهذا الكشف
كثيرا ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدركه

سواهم ، وكذلك يدركون كثيرا من الواجهات قبل وقوعها ، ويتصرفون بهمهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية ، وتصير طوع ارادتهم • قال : وان الكلام في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات ، أمر صحيح غير منكر ، وان مال بعض العلماء الى انكارها فليس ذلك من الحق • وغريب قوله : وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير في أحوال العالم ليس معدودا من جنس السحر ، وانما هو بالامداد الآلهي ، لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها ، ولهم في المدد الآلهي حظ على قدر حالهم وايمانهم « وبهذا التحريف أثبت أنه من المحافظين مغال في صوفيته مأخوذ لمغربيته ، صانع من اعتقدوا هذا ، وكان يسعه لو لم يعتقد في هذه الخرافات أن يطرح بهذا المبحث عرض الحائط ، ولا يغير المقدمة في شيء بل ينقيها من العوسج والبلان ، وهذه الهنات في المقدمة كانت بمثابة عوذة لها من العين ، وبذلك يثبت عجز البشر وتغير أفكارهم بتغير القرون والاجيال • ومما يشير الى أنه من المحافظين أيضا ، دفاعه عن عثمان وخصومه ، وعن علي وأولاده ، وعن يزيد وأبيه ، وعن الحسين وجماعته ، كلهم في نظره مجتهدون ، وكلهم يريد خدمة الاسلام ، فقال : واياك التعرض لأحد منهم ، ولا تشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم ، والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت ، فهم أولى الناس بذلك ، وبهذا الكلام نزع ابن خلدون ثوب المؤرخ النقاد ، ولبس ثوب الواعظ القصاص ، أو هو يريد أن يتأدب أدب السياسي المهذب مع الجماعة ، لا يقول لصاحب الأمر ما يزعجه ، فيرضى بالحالة الحاضرة على علاتها ، ويحاول أن يكفم أفواه الرعية لأنها اذا قالت فعلت • وما حسب حسابا للأهواء البشرية والمطامع الدنيوية ، فكلهم ما أخطأوا في نظره ، وكأنه يزعم أنهم لا دخل لارادتهم التي خلقها الله لهم فيما قضاوا وأمضوا ، وأغرب من كل هذا قوله : وأعتقد مع ذلك ان اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة ، ليقندي كل واحد بمن يختار ، وقد قيل : أي عالم لا يهفو ، وأي صارم لا ينبو وأي جواد لا يكبو ؟ مقدمة ابن خلدون هي درة تاج

أعمال صاحبها ، وكتب رسائل وكتبا قبلها كانت من نمط تأليف معاصريه :
شرح مبهم ، وبسط موجز ، ونقل ما يحسن ، وتاريخه الكبير ليس فيه
من جديد الا القسم المتعلق بالعرب والبربر ، وأكثره منقول من الطبري
وابن الأثير . أما المقدمة فهي الكتاب الذي أحدث ثورة في أفكار العرب ،
وعُد من امهات كتب العالم ، ولا نعلم كتابا علميا ولا دينيا حاز شهرة
المقدمة ، حاشا الكتب الستة .

ان اختلاط ابن خلدون بملوك عصره ، واطلاعه على أسرارهم
وسياساتهم وما عاناه من أمرهم ومن ظلمهم عرف به ما يستتر في العادة عن
لا يلبسهم ولم يعمل لهم ، وتقلده الوظائف السياسية والادارية والقضائية ،
ومعرفته نفسية الملوك والعظماء ، ومنهم تيمورلنك المخرب العظيم ، كل
ذلك مما تفرد به ولم يتيسر لغيره ، أضف الى هذا وذاك الذكاء البراق
والأحكام الصحيحة التي خص بها دون سائر معاصريه ، حتى لقد ترجم له
صنوه وصديقه لسان الدين بن الخطيب بأنه متقدم في فنون عقلية ونقلية
وفخر من مفاخر الغرب ، قال هذا وابن خلدون في حد الكهولة ، فماذا
كان يقول فيه بعد أن نضج في كل شيء ؟ لا جرم أنه يقول انه مفخرة
الغرب والشرق والاسلام والعرب ، ولنا أن ندعي بعد كل هذا أن ابن
خلدون كان في تاريخه الكبير محافظا كسائر من تقدمه ، وفي المقدمة حرا
لأنه صاغها من علم واسع تخمر في قلبه وتقلب في صدره ، ثم أبرزها في
خمسة أشهر في هذه الحلة العجيبة ، ويقضي الانصاف بأن نسلك ابن
خلدون في سلك المجددين والمصلحين . ولما فوض اليه منصب الكتابة في
الدولة ، وهو في أول العقد الثالث من عمره ، صدرت الكتب عن ديوانه
خالية من السجع ، فاستغرب أهل الدولة هذا ، واتبعوه في طريقته ، وكانت
الدول الاسلامية لا يصدر عنها في تلك العصور الا المسجع والمزدوج ، وعلى
هذه الطريقة سار في مقدمته فأبدع وأفاد ، ولو خلت من الاسجاع المتكلفة
في فاتحتها لجات كلها كالعقد الثمين خرج من يد صائغ ماهر . وكان ابن
خلدون ينظم الشعر ، وشعره منحط عن نثره بكثير ، قال : انه تخدشت

ملكته فيه بما حفظ من المتون المنظومة بالشعر في الفقه والقراءات وغيرها ، وكان يحفظ القرآن وشيئا من كلام العرب وشعرائهم ، لكنه لم يكن من الحفظ لأنه يقول ان الحفظ عائق عن التفكير ، فاختار هو طريقا وسطا .
اسم ابن خلدون يخلد بمقدمته ، ففيها كل ابداعه * »

لقد صدرت دراسات واسعة في ابن خلدون ، آخرها دراسات الحلقة الدراسية الاجتماعية التي اقيمت في القاهرة سنة ١٩٦٣ وقدم فيها الباحثون المؤتمرون من مختلف البلاد العربية دراسات لم تترك ناحية من نواحي فلسفة ابن خلدون في التاريخ والاجتماع الا فصلتها وجلت دقائقها ، وأبرزت خطوطها العريضة * ومن قبل ذلك صدرت دراسة الاستاذ الكبير ساطع الحصري لابن خلدون وهي أوسع هذه الدراسات ، وصدق الاستاذ محمد كرد علي حين قال في ابن خلدون : « وأتى بالجديد الذي لم يؤثر عن قبله منذ كان الاسلام ، وما قلد القدماء في الموضوع الذي أهمه في فلسفة التاريخ والاجتماع ، بل ابتدعه ابتداعا على غير مثال * » ولا يشينه ما وقع له فيها من آراء قد عدها عليه الاستاذ محمد كرد علي من الخرافات ، وعد القول فيها جحودا ، فالكرامة والمعونة من الامور المغيبة عنا ، ولكن أثرها مشاهد ومتواتر عند من عرفوا بالزهد والعبادة وشفاء النفس ، وما ظهر من العلم لنا ، وما اوتينا منه الا قليلا * وقد يكون ابن خلدون قد سجل آراء في المعونات على أساس الرواية والنقل ، ولم يرد أن يكذب ما تناقلته العامة ، وربما حكته الخاصة أيضا * واذا جاز لنا أن نكذب أكثر ما يروى ، فلا يصح أن ننفي المعونة والخاصية التي اختص الله بها بعض خلقه اطلاقا *

وهذا موضوع ما يزال يرى فيه الناس من بعض الناس عجائب ومثيرات لم يصل العلم الى معرفة كنهها ، وليس للناس يد في تحليلها *

أما كتابه (اقوالنا وافعالنا) فقد طبع في دار احياء الكتب العربية بمصر سنة ١٩٤٦ في ٤٣١ صفحة من القطع الوسط تناول فيه كثيرا من مشكلاتنا

الاجتماعية والسياسية بمقالات عالج فيها نواحي مختلفة من قضايا البلاد العربية ، وعرض فيه لوصف طبقة معاصريه ، وكان الفضل في تأليفه لصديقه العلامة السيد حسن حسني باشا عبدالوهاب عالم تونس ، فلطالما حفزه على تدوين ما كان يقص عليه الاستاذ محمد كرد علي مما وقع له ، ويقول له ان في تدوينها كل فائدة للقراء ، ولا سيما أبناء الأجيال الصاعدة ، وجعل اهداءه الى الملك (فاروق) ملك مصر ، ومما جاء في الاهداء قوله : « حاولت في تألّفي الأخير « أقوالنا وأفعالنا » معالجة بعض مشاكلنا الاجتماعية ، وعرضت لوصف طبقة من الناس عاصرتها » .

كتب الاستاذ الشاعر شفيق جبيري في نقده عند ظهوره ، في مجلة المجمع العلمي ، وأعاد بعض ما كتب في محاضراته التي ألقاها في معهد الدراسات العليا ، قال : « عين تصل الى أعماق المجتمع فتقف على مساوئ أخلاقه وعاداته وأوضاعه فلا يفوتها شيء من خروج هذا المجتمع على نظام الحياة ومن استحكام مفاصل الأخلاق فيه كالكذب واللؤم والحسد والنفاق والبخل والتبذير وأشباه هذا كله ، فقد تصفحت هذه العين أحوال مجتمعنا نصف قرن ، وعاشر صاحبها الكبار والصغار ما لم يعاشره غيره ، ووقف من حسنات الناس وسيئاتهم على ما لم يقف عليه الا القليل من القوم ، فكأنما لمس صور الأخلاق بيديه ، وسمع سخافات الناس بأذنيه ، وتمكن من معرفة مواطن الضعف في شيمهم وطبائعهم سواء أكان هذا الضعف في سياستهم أم في وطنيتهم أم في دينهم أم في تربيتهم ، هذه خصائص الاستاذ العلامة رئيس مجعنا في تأليفه « أقوالنا وفعالنا » ، فكأنه مجموعة حواس مستيقظة لتتبع الأخلاق دقائقها وجلائلها ، ظواهرها وبواطنها ، ولم يقتصر على تتبع حركات الأخلاق وحدها ، وانما استقصى في حركات العقول في أميتها ونهضتها وثقافتها ، ولم يكتف بتصفح أحوال الحاضر ، وانما تصفح أحوال الماضي ، فهو حجة هذا العصر في معرفة ماضي العرب والعلم بأسباب عظمتهم وضعفهم ، ولم يجمد الاستاذ العلامة على ما عرفه من حاضر مجتمعنا وماضيه ، وانما مشى مع العصر ، واتصل بأطواره ، واقتبس عنه

ما نفع ، فاذا ذكرت نهضة الشام من خمسين سنة حتى يومنا هذا فهو على رأسها حامل لوائها » •

ضم الكتاب بين دفتيه أربعين مقالة في الاجتماع والسياسة ، والاخلاق والدين واللغة ، ، مثل : القول في وطنيتنا ، في عاداتنا ، في عاميتنا ، في انحطاطنا ، في نهضتنا الاخيرة ، في ثوراتنا في صحافتنا ، في الهمازين ، في سياستنا ، في مشايخنا ، في الاعلان والشهرة ، في الغربي والشرقي ، في الجامعة الاسلامية ، في الوحدة العربية ، في حقوق الانسان • من هذه العناوين وأمثالها من بقية الموضوعات ، يتضح لنا أفق الاستاذ الرئيس محمد كرد علي ونضج عقليته ونزعة الاصلاحية واتساع تفكيره ، واهتمامه بأبناء أمته ، يدعوهم الى فعل الخير ، ويوقظ انتباههم الى ما فيه نفعهم ، ويعالج ادواءهم ، ويصف لهم العلاج الناجع ، يفرس في نفوسهم الفضائل ، ويحث شروها ، يحدوهم الى العلم والمعرفة ، وهما الدعامتان اللتان يرتكز عليهما نهوض الفرد والجماعة « نصحنا المدمنين أن يقلعوا عن عاداتهم ، فضحكوا وأغربوا ، وأردنا المغامرين ان يكفوا ، فقال قائلهم : انا نعلم ما لا تعلمون ، فhezأوا وسخروا ، وذكرنا للبخلاء سوء أثر التقير ، فما توسطوا ولا اعتدلوا ، وكررنا على مسامع المسرفين عاقبة اسرافهم الويل ، فما ارعوا ولا أترنوا ، وحذرنا الكذابين عواقب كذبهم ، فما انتصحوا ولا صدقوا ، وصرخنا في الجاهلين صرخة كادت تسمع الصم ، فظنوا أننا نغالطهم فأصروا واستكبروا ، وطال الأمد على هذه الدعوى ، والمدمن ما برح على ادمانه ، والمقامر ما فتىء مثابرا على قماره ، وظل البخيل متمسكا ببخله ، والمسرف راضيا عن سرفه ، والكاذب مغتبطا بكذبه ، وانقضى العمر في أمل لم يتحقق منه بعض ما كان يرتجى ، وصرفت في هذا السبيل جهودا لم تسترد منها عشرين ، فهل من مطمع بعد هذا ان تجعل من جذع يابس غصنا نضيرا ، ومن جسم ميت كائنا حيا ؟ » في هذه الاسطر القليلة نلمس ثورة الاستاذ الرئيس ، ونحس أن اليأس قد تسرب الى نفسه انه ثار على ابناء مجتمعه الذين لا ينفعم وعظ الواعظين ، ولا يتعظون بارشاد المرشدين ، بل درجوا على ما ألفوا من عادات قاهرات ،

فراح يقرعهم بزواجره والألم يحز صدره ، والههم يعتلج بين جوانحه لما آل اليه أبناء أمته من الجمود والتأخر ، ولم يضبط أعصابه ونفذ صبره من نصحهم فراح يصب عليهم غضبه ويقرعهم أعنف تقريع ، وهذا كله نتيجة حرصه على نفع قومه ، وهو الذي وصف مزاجه بل فرط احساسه فقال :

« كان أحد المشايخ يسترضيني عن رجل أساء الي على احساني اليه ، ويورد ما أمرنا به من معاملة السيء والعدو ، فقلت له : اني خلقت كما خلق هؤلاء الذين تراهم من لحم ودم وعصب وعظم ، يفضيني ما يفضبهم ، ويرضيني ما يرضيهم ، وأرى السلامة في البعد عن أساؤوا ، ولا رجاء منهم أن يحسنوا ، ألوي وجهي عنهم لا أنظر اليهم . » والمصلح قمين أن يتحلى بالصبر ، ويدعو الناس بالحسنى ولا يلقاها الا أولو العزم ، ولو كانت الزواجر والنواهي تعالج الشرور وتحسم الناس ، لاصبحوا ملائكة على حد تعبير ابن خلدون ، لكثرة ما سمعوا من زواجر الانبياء والمرسلين ومواعظ الصالحين على كر الجديدين قال : « فأنا اكره الشر ، ولا أقصد الا مداواة صاحبه ، وأعشق العدل ، ولا أعضي عن يهدم عموده ، وأرغب في النظم السليمة ، ولا أغالط النفس في استصلاح الفاسد » واستصلاح الفاسد لا يكون عن طريق اللوم والزجر ، ولا يجتثه التوبيخ ، وانما يأتي عن طريق التهذيب والموعظة الحسنة والتربية في المدرسة والبيت والمجتمع . »

والاستاذ محمد كرد علي اذا كتب في ناحية اخرى غير الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، نجد أسلوبه يمتاز بالهدوء ويتعد من الانفعالات النفسية ، وتظهر عليه السكينة ، ويغلب على قلمه الوقار ودماثة الخلق ، مثل مقالاته في (القول في وطنيتنا ، وفي نهضتنا ، وفي عاميتنا ، وفي التاريخ الاسلامي) فاذا كتب في السياسة والأعيها والسياسيين واستغلالهم لمراكزهم في احتجاز المكاسب لانفسهم ولذوي قرباهم ومحسوبيهم ، نجده يفارق هدوءه ويعود الى انفعاله وثورته ، نستمع اليه يقول : « ورأينا بعض دعاة السياسة يستغلون الوطنية لمنافعهم الشخصية وللصعود الى منصات الحكم ،

فيعبثون بحقوق العامة ، ويلقونهم في مزلق تضعيها أوقانهم وعروضهم ، وكثيرا ما تودي بهم وبمصالح الوطن الحقيقية ، فالى هؤلاء المتجرين بأرواح غيرهم وأموالهم وراحتهم كتب أحد علماء الاخلاق من الانكليز « سمول سميلز » صفحة بديعة وجهها الى من يغشون الناس بادعاء الوطنية ، ثم ذكر هذه الصفحة الثائرة حين أراد أن يكبح من جماح قلمه ، ويحد من ثورته ، فاستعار قلم كاتب وجد أنه يأتلف مع نفسه ، فنفس عنها بلسان ذلك الكاتب الانكليزي •

وقال في ص ٦٢٩ الجزء الثاني من المذكرات (من أقوالنا وافعالنا) :
« للغريين طرق عجيبة في ايصال^(١) الخير الى من يعتقدون أنه ينفعهم من الشرقيين في مادياتهم أو معنوياتهم ، ذكر صديقي الاستاذ عبدالمجيد نافع في كتابه (السلام الاجتماعي) أسماء الوزراء المصريين الذين أدخلتهم الشركات الاجنبية في مصر بصفة مستشارين أو مساهمين لتعطيم مالا ، وتتفع بحسب الظاهر بأرائهم ، وان كان بعضهم لا يعرف شيئا من الامور الاقتصادية والمالية ، فحافظ عفيفي يتولى رياسة وادارة (٣٢) شركة عدا رئاسة بنك مصر ، وحسين سري (٧٢) شركة رياسة وادارة ، ومحمد علي فرغلي يتولى (٣٢) شركة ، ومحمد محمود خليل يتولى (١٤) شركة ، وهكذا حال محمد شريف صبري وعلي ماهر واسماعيل صدقي وعبدالمقصود وعلي الشمسي وعلي أمين وأحمد عبود ومحمود شكري وسابا حبشي وتوفيق دوس وحسن مظلوم وأحمد صديق وحسن صادق وحسن نشأة من أصحاب المقام الرفيع والدولة والمعالي والسعادة والعزة ، وكلهم يتولون بضع شركات تكون جملة رؤوس أموالها من المليون الى العشرين مليونا وأكثر ، أنشر هذا وان كنت لا أشك في أمانة بعض هؤلاء الرجال ، ولكن رضاهم بتقلد ما يتقلدون موضع نظر ، ذلك من الثابت أن المرء لا يوجد عمليين ، فكيف يوجد ثلاثين عملا ؟ وبعد صدور قانون الشركات كتبت احدى مجلاتها في معرض الدعاية ما يأتي : « نزولا على قانون الشركات

(١) الاصح ان يقول « في شراء الذمم » بدلا من « ايصال الخير » •

احتفظ شريف صبري باشا واسماعيل صدقي وحسين سري وحافظ عفيمي
ومحمود شكري ومحمد فرغلي وعلي يحيى ومحمد محمود خليل
وعبدالمقصود بالعضوية في عشر شركات لا غير ، وكان كل واحد عضوا في
أكثر من عشرين شركة » ♦

اقول : بما اغدق على الأعيان والرؤساء والسيوخ
من الأموال بواسطة الشركات ، أو الاقطاع ، أو المناصب ، اكتسب
المستعمرون شراء ذمم رجالات العهد الملكي أيام أسرة محمد علي ، من عهد
إسماعيل الى عهد الملك الماجن (فاروق) ، حتى قامت ثورة الاحرار في مصر
في ٢٣ تموز ١٩٥٢ ، فقضت على الفساد ، واجتشت جذور العمالة والخيانة ،
وأعدت للمصري كرامته ، وحفظت خيراته لابنائيه ♦

الاستاذ محمد كرد علي ، حصر نقده لسلوك كبراء مصر في أهون
الأمر وأقلها ضررا على مصر ، حصره في عدم تجويد الرئيس أو العضو
لعملين أو أكثر ، ولا أحسب ذلك منه الامدارة لاولئك الوزراء والكبراء ،
وأكثرهم من أصدقائه ، وهو يعلم أن جودة العمل ليست هي ما تطلبه
الشركة الاجنبية من صاحب المقام الرفيع ، وانما جل قصدها أن تشتري
بعضويته نفوذه لتستغله في تنفيذ مصالح الشركة على حساب الامة المصرية
ودفع مصالحها اذا تعارضت مع القوانين ومع مصالح المواطنين ، واشباع هذه
الطبقة المتنفذة على قاعدة (أطعم الفم تستح العين) ، مما ترك مصر تفرق
بالديون ، وجعل خيراتها لقمة سائغة ونهبها مقسما بيد الشركات الاجنبية ♦

(القول في ماضي القريب) فصل اخترته من كتاب «أقوالنا وافعالنا» لان فيه
حقائق تصدق على البلاد العربية باجمعها، وتكشف عن حالة اجتماعية عاشتها الامة
العربية ، لا يستثنى منها قطر عن أقطارها ، فهي (في الهوى سواء) : جهالة
عمياء ، وتخلف في العمران والاقتصاد والسياسة والمعرفة ♦ قال غفر الله له :
« كانت أدوار الحركة في الامة العربية أقل من أدوار الفتور ، وكانت
الادوار الاولى مما يرفع الرؤوس ، ويوجب المباهاة ، وما جاء بعدها يخجل

ويؤسف ، والسبب في استمرار القتور سخفاء الملوك وأشبه الفقهاء • الملوك أفسدوا الحكم والادارة ، والفقهاء عبثوا بالدين والقضاء ، ومتى تحكمت الأهواء في حكم الناس اضمحل أمرهم ، وإذا فسد شرع أمة فسدت فيها كل شيء وبذلك أصيبت العقول بالضعف ، والقرائح بالرکود ، والحضارة بالرجوع ، والشرائع اذا لم تنفع ، والعقول اذا لم تتجدد بالابتكار ، يضيق نطاقها ، ويتحيناها الوهن ، ووهن العقول مؤد حتما الى هلاك الانسان وخراب العمران • كان ماضي الامة يقوم على دعائم الدين والمدنية ، ولما انحطت هذه ضعف الدين نفسه ، ومناطق قوة الدين النفوذ الى لبابه ، لا الاكتفاء بقشوره ، وجوهره يتجلى في المعاملات أكثر من تجليه في العبادات ، والمعاملات تتعدى فائدتها الى المجموع ، والعبادات مقصورة منافعها على الفرد ، وما لا يقوى يضعف وما لا يزيد ينقص ، وليس للارتقاء حد ، وكذلك القول في الانحطاط • أوهم الجامدون هذه الامة أنها أرقى شعوب الخافقين ، وأنها ما دامت متمسكة بدينها لا يضرها التأخر في دنياها • أوهموهم ، وهم في القرن الثامن والتاسع والعاشر من الهجرة ، أنهم كما كانوا في القرن الاول والثاني والثالث ، تهابهم الامم ، وتقبس منهم فنها وعلمها وصناعتها ، وانهم القدوة الصالحة والمثال المحتذى • واتسعت هذه الدعوى مع الزمن ، حتى جاءت القرون الاخيرة ، وجمهور الامة لا يهتم لأكثر من قوت يومه ، لان رب الغد متكفل به ، وفي تلك العصور كان الغرب يعلو بحضارته الى فوق ، والشرق ينزل بحضارته الى تحت ، كان الغرب بدأ باتحاف العالم باختراعاته واكتشافاته واصلاح أدبه ، ونبغ فيه كبار الشعراء والكتاب ، والشرق ينحط حتى في بيانه وتيبانه • كانوا اذا قام امرؤ أنار الله بصره وبصيرته ، وحاول أن يدلهم على مواطن النقص فيهم ليدفعهم الى سبيل الكمال ، عدوه عدوا لأئمة خارجا على شريعتها ، ووصموه بالابتداع والضلالة ، وكفروه ، وقولوه ما لم يقل ، وعزوا اليه ما لم يخطر له في خاطر • وكمن من مجدد قام في الارض العثمانية ، وكانت الاقطار كلها من جملة ولاياتها الامراكش ، فكان نصيبه الهزء به وتزييف آرائه ، وليس أهون عليهم اذا خافوا سراية

دعوة مصلح من أن يشرده أو يسجنوه أو يتهموه بالجنون ، ويشتدون في ايدائه حتى يكاد يختل عقله بالفعل ، أو يقتلونه من أول يوم ، يريحونه ويستريحون منه ، وتضائل عمران هذه الملة تضاولاً أصبحت معه وليس غير جوامعها ومساجدها وزواياها مفخرة لها ، وليس أكثرها في طراز بنائه مما ينم عن ذوق وحسن هندسة • واذا وقع للملك أن كان على شيء من البصيرة « كقلاوون وبرقوق وبيبرس وتنكر » من دولة المماليك في مصر والشام ، وأحب أن يعمر بلاده وينتفع بقرائح من فيها من المهندسين والمعمارين ، لا تتعدى أعماله بناء جسر أو ترميم سور أو انشاء اصطبل أو اصلاح شراشيف قلعة ، واذا أفلح وأثبت تفوقه على غيره فببناء قصر له وقصور لابنائه وبناته • أما معظم السلاطين العثمانيين ، فلم تعد أعمالهم المساجد والتكايا ، ومن بنى سورا أو قلعة ، فلأسباب حربية قاهرة ، واذا أنشئت مدرسة فلا يعلم فيها الا ما أقره جماعة الدين فقط ، حتى لا يخرج عقلا أرقى من عقولهم ، ولا نفوسا أقرب الى الخير من نفوسهم ، والبلية في هؤلاء أنهم لم يجمعوا حتى في فقههم على رأي معين • يتناقضون ويتخالفون ويتشاكسون ويتقاتلون ، وما وجد التوحيد سيلا الى قلوب زعماء التوحيد ، لجا كل فريق في اثبات ما اعتقد الى الاستعانة بقوة السلطان والاستتصار بالعامه ، وكان من اختلاف السنة والشيعة ما أتى على مدن برمتها ، وقتلت خلائق بالألوف ، وأدت هذه المماحكات الضارة الى تباغض أهل القبلة على نحو ما أدى النزاع على الخلافة في القرن الاول الى قتل سبعين ألف مسلم في وقتي الجمل وصفين ، ثم نشأ الخلاف بين الحنابلة وغيرهم من أرباب المذاهب فخرّب جزء من مدينة بغداد ، وشغل الناس زمنا بهذه الاختلافات ، واحتفت علوم الحكمة في ظلمات الرجعية ، ونال القوي من الضعيف فأكره هذا على اتباع طريقة القوي ، فكانت النتيجة ويلا للغالب والمغلوب ، والله أعلم لمن الجنة يوم الحساب » • وقال : « لتصور مدينة من مدن الانحطاط يعد سكانها بعشرات الألوف ، ليس فيهم من له همة بالفكر غير أشباه الفقهاء وعملهم أن يؤموا الجماعة ويخطبوا في الجمع ويعظوا مواعظ يدور معظمها

على التزيد في الدنيا ، ويتولون من أمور القوم ما لا غنية من ممارسته
كمسائل الزواج والطلاق والوصايا والموارث والاقواق ، وما كانت المنازعات
بين الافراد والبيوت تنقطع ، لان ارباب الشأن عجزت من تنفيذ الاحكام ،
اولهم مآرب في دوام الخصومات بين الخلق ، يضعون لهم أوقاتهم باطالة
النظر في الدعاوي ، ويشغلهم باذكاء نار البغضاء بينهم ، وغدا القوم يعتقدون
أن الانسان لا يثري وينعم الا اذا احسن سرقة جاره وقريبه ، وتغلب عليه
بالحق والباطل • ثم لتصور بعد كيف يعيش أهل تلك القصة عيشا رتيا
لا هناء فيه ولا صفاء ، يتحكم في الحي صاحب الوجاهة فيه ، وليس لاحد
من الحرية الا بقدر ما يفضل به عليه سيد حارته وشيخ منزلته ، ولا من
الثروة الا ما تتغاضى له عنه حكومته ، والكبير والصغير يشرب كأس الذل
والبلاهة شرط أعظم في هذه البلية التي ما وصل فيها أحد الى معرفة شيء من
المعارف البشرية ، ولا بلغ غير أفراد قلائل جدا ، ما تم في العالم من الارتقاء
وليس أمامهم الا ما يزين لهم الرضا بما هم فيه ، هناك لا أمن على الارواح
ولا على الاعراض ، يتكدس السكان في بقعة ضيقة لا ترى الشمس والهواء
لينجوا بتجمعهم من اعتداء الحامية حماة الامن ، ومن سطو ارباب الشقاوة ،
فتحصدهم الامراض الوافدة والابوثة والطواعين • والسكان درجات في الظالم ،
الوالي يظلم المسلم ليأخذ منه أكثر ما يقدر عليه من الجباية والضرائب ،
ويرسل الى العاصمة ليثبت مركزه أسابيع أو أشهر ، والمتسلم يظلم من
كان تحت يده لبييض وجهه أمام الحاكم ولا يقطع عنه رزقه ، وهو يحتال
ليجلب له المنافع فيسلب ما ينعم به ويؤدي منه بعض مطالب المسلم ، والرعايا
يتظالمون لا يتنافسون ، والظالم الاكبر هو الحاكم الاكبر ، والعدل لا يعرف
في غير الكتب المقدسة ، وقد غدا الناس بما تسرب الى نفوسهم من الفساد
لا يرهبون العادل والعالم بقدر ما يرهبون الظالم والجاهل • تصوروا هذه
المدينة التي خلت من طيب طب العيون والمرض ويخفف آلام المتألمين ،
والخلق يهلكون في المدن - دع القرى - لأقل عارض يطرأ على صحتهم ،
ومن جسر فقال ان التطيب مشروع وان الآجال تزيد وتنقص على ما هو

رأي كبار علماء هذه الامة كفروه وبدعوه ، ويأويل من يرمى بمثل هذه التهم ، وليس في المدينة غير دجاجلة سلمت اليهم أرواح الخلق وأجسامهم ، أدركنا مدينة دمشق ، وليس فيها طيب قانوني ولا حقوقي قانوني ممن درسوا هذه الفروع على الاصول وعرفوا صناعتهم معرفة ناقبة كعهدي بها ، وليس فيها حيسوب ، لان الامة عاشت وتريد أن تعيش بدون حساب . أما العلوم فقد غدت عندهم أسماء لا مسميات لها ، أو من المعارف التي يستغنى عنها ، ذلك لان الامة لا تحب التقييد ، ولا ترغب في التدوين ، وهي سائرة على البركة في كل ما يصلحها . حدثني من اثق به أن والده أراد أواخر القرن الماضي أن يفتح كتابا في دمشق ، فرأى أنه لا يعرف من الحساب الا الجمع والطرح والضرب ، فقصد عارفا بالقسمة وعرض عليه أن يعلمه اياها مقابل ألفي قرش ، وبعد يومين صرح المعلم لتلميذه الجديد أن في تعلمه القسمة قطع رزقه ، ذلك لانه اذا كثر سواد العارفين بها في المدينة انصرفت الوجوه عنه . أما العلوم الطبيعية فما وقف على بعض حقائقها واحد في العشرة آلاف ، ويتلقف أكثر الجمهور من ذلك تخريفات من أفواه العجائز والزنجيات ، وما كان العقلاء يجروون أن يلفظوا اسم الطبيعة وعلوم الطبيعة ، لان البحث فيها مدرجة الى الكفر عند أشباه الفقهاء . فاذا أراد أحد أرباب النباهة ذكرها ، أطلق عليها اسم « خواص الأجسام » أو غير ذلك من الاسماء التي لا تكاد تنطبق على حقيقتها ، ليعبدوها من ذكر أسم الطبيعة ، لان من قال بالطبيعة وتعلم علومها اضاع دينه حتما . « ثم انهم قالوا بصوفية نخترل في وصفها ، وأقل ما ترتب عليها انشاء طرق كثيرة ، في مصر منها اليوم سبع وعشرون طريقة معترف بها - سرى في الداخلين فيها داء الاتكال والزهد في العمل الشريف ، وبلغت القحمة بهم أن قالوا ان الاعمال اليدوية غير شريفة ، وكان أعظم الامة في القرون الاولى لا يستكفون عن العمل بعض ساعات النهار في صناعة من الصناعات ، يتلهون بذلك أيام السعادة . فاذا احتاجوا اليها أيام الشقاء ، مارسوها فأغنتهم عن الاستجداء ، وما فسئت المعتقدات الضارة الى اليوم متحلية في بعض الكفور

والقرى البعيدة عن مواطن العلم ، ومرد كل هذا الى فشو الامية ، وما كان عدد من يقرؤون منذ مئة سنة يتجاوز الواحد أو الاثنين في المئة ، وكان حتى بعض من يعدون من الفقهاء لا يكتبون ، وقراءتهم قراءة عامية ، وغاية ما تعلموا أن حفظوا سور الصلاة وبعض الاحاديث الضعيفة في فضائل الايام والشهور والبلدان والاطعمة والاشربة والاناسي وشيئا من الرفائق والاشعار ، ومارسوا من أمور العبادات ما شاركهم الاطفال في معرفته ، ورووا عجائب آخر الزمان وأحاديث الدجال والمهدي والعفراريت مما لم يثبت من طريق مأمون ولا روي في كتاب معتمد صنفه ذو مسكة من عقل ، وكيف لا تتحط الامة في دينها وملك مصر منذ أوائل القرن الثامن يكتب لئابه في دمشق : « أن كل من يقرأ كتب الشيخ ابن تيمية حل دمه وماله » ، مع أن كتبه ما خرجت عن الدين الصحيح في شيء ، الا أنها حاربت البدع والمبتدعين ، وكانت المملكة على ما يظهر بأيدي الشافعية ، وابن تيمية حنبلي ، وتعادي أرباب المذاهب معروف موصوف « وقال : « ولقد عم الظلم في عصور الظلمات كل نظام ، لان الفوضى أصل عندهم ، ومن ذلك ظلم الرجال للنساء . حظروا تعليمهن الا الغزل ، وأغلظوا حجابهن ، وقصروا عملهن على التزين والتجمل ، وجعلوا منهن أداة سرور الرجال وآلة الولادة فقط ، وغمطوهن حقوقهن التي خولها الشرع لهن ، وآض المجتمع الاسلامي لارواء له ولا بهجة ، وحيث تفقد بشاشة النساء تسود الكآبة . ولما أفقرت العقول ، وانحطت الاخلاق ، واختل الوازع ، ارتضى الناس من العيش بالدون ، وظهرت عوارض المسكنة ، وعدمت الرفاهية ، وغدت المزرعة الكبيرة لا تساوي أكثر من بضعة آلاف قرش ، والقصر المنيف يشرى بألف قرش ، وصادق الآنسة الجليلة لا يساوي أكثر من خمسين أو سبعين درهما ، واختفى النقد الذهبي والفضي من التداول في الاسواق ، خبأه مالكوه في مخابئ أخفوا أمرها عن اعز ذوي قرباهم خوف المصادر ، فكان القوم يظنون اذا عثروا على مال مدفون في الجدران والارض أنه كنز من الكنوز المرصودة ، ورجع الناس من أهل القرى والمدن الى قانون

المقايضة في البيع والشراء على ما كانت الحال في العصور المتقهرة • أما السياسة ، فتولاها على الغالب زعنفة من القتلة السفاكين ممن لا يحللون ولا يحرمون ولا تهمهم الا مظاهرهم ومنافعهم ، من الصنف الذي يعتقد أن الغنى لا يتم الا بسلب الضعفاء والمجد لا يقوم الا على الجماعم ، وكانت القاصية والدانية للضعف المستحوذ على الناس عرضة كل حين للفتن الاهلية ، وكل من آنس من نفسه قوة يستجيش له أنصارا من الغوغاء ويقطع السابلة ويسلب الآمين ويروع المساكين • فاذا زادت قوته ، عدا فشق عصا الطاعة على صاحب السلطان الاكبر ، أو على الامير الذي في جواره ، ولا تسل عن حال الرعايا اذ ذاك كيف تضع ارواحهم وأموالهم بين العاصي ومن عصى عليه ، وما كان للسلام والاستقرار ، وهما من الاسباب في سعادة الشعوب ، من أثر محسوس في بلد وجيل وقرن ، والناس أبدا عبيد القوي يعطونه ما يشاء ويدهنون له كما يهوى ليأمنوا شره • واذا حدث لثائر أن وفق الى بسط سلطانه على أرض واسعة ، وعلق بعض الاغمار آمالهم على تغيير في صورة الحكم الجديد وعلى راحة نسبية تحتاجها الامة لتضميد جراحاتها وترميم ما خرب من مرافقها ، يجيء الخلف أنحس من السلف ، وهكذا دواليك ؛ لان الحكم لا يصل اليه يومئذ الا من كان على جانب من القسوة والجبروت ، ومن كان يحمل بين جنبيه روحا سداها الخبث ولحمتها الشر • أما الاصلاح ، فمن الكلمات التي لا معنى لها ، ولا يفهم مدلولها الا قلائل من أرباب الاذهان المفكرة ، وهم فئة قليلة تقصيهم أخلاقهم عن الوصول الى الحكم • وبضعف السياسة الاقليمية ، ضعفت السياسة العامة ، فكان من مجموع الأقطار العربية كتلة تمثل الانحلال أقيح تمثيل ، ومع هذا استبد كل طاغ بجزء من الارض ، وسمى نفسه خليفة أو ملكا أو أميرا يعسف من تحت يده ليستخرج ما يصرفه في أبهته من المال ، ومن أجل هذا الخلق يتظاهرون بالصلعكة ، لا يأكلون الا ما يسد الرمق ، ولا يلبسون الا مايستر العورة • وبتوالي عهد الخصاصة والمسكنة ، ضعف الذوق والشعور بالواجب ، وليس لاحد هدف أسمى تتطلب الامم تحقيقه على أيدي المصطفين

الاخيار من أبنائها ، وقوة الامم كما يقول « لوبون » بقوة طبقاتها المختارة لا بعدد نفوسها ، والمدنيات من صنع الطبقة العالية ، بهم تنهض • فاذا ما فقدتهم ، تسقط البلاد للحال في البؤس والفضى • وهذا ما كان محسوسا في البلاد العربية في قرونها الاخيرة » ••• وقال : « وكلما زاد اتباه العرب ، ظهرت مزايا عنصرهم واستعدادهم للامور النافعة ، وساعد على هذا الانبعاث ما لقوه من ضغط القريب والبعيد ، وكثرة الضغط تحدث انفجارا ، وقد تظهر الشدة مزايا الامم أكثر مما يظهرها الرخاء ، ويوري زنادها بأدنى احتكاك بحرارة • وطفق العربي يضم الى قديمه ما جد ، ويوجه مدينته وجهة لم يكن موليا أي شرع ، يدرك ضعفه ونقصه ، ويتلمس قوته وسيادته • وكلما رفع كابوس الاستعباد عن قطر لا يعتم أبنائه أن ينهضوا نهضة ما كان يتأتى تحقيق مثلها في الزمن الطويل ، ذلك لأن المتأخر في العادة يتناول في يسر ما تعب المتقدم في ايجاده دهرا وما لم يصل اليه الا بكثير من العناء والمفاداة » •

وقال : « سبقت مصر الى اقتباس مدينة الغرب ، لانها تقدمت غيرها الى التخلص من ربة الحكم العثماني ، وهي في موقع موات بين جزيرة العرب في آسيا وافريقية ، وافتتح ترعة السويس زاد اختلاط الغربيين بالشرقيين • وكانت مصر تحتفظ بجزء عظيم من تراث العرب بعد ذهاب دولتهم ، وأخذت تتمتع بشيء من الاستقرار منذ القرن الماضي ••• وبينما كانت تسري الدعوة للاخذ من العلوم التي امتازت أوروبا بها بمعرفة الحكومة المصرية نفسها ، قام أناس من أرباب البصائر بمحض ارادتهم وبدافع من غيرتهم يتمحضون للامر بالمعروف والنهي عن المنكر على أسلوب جديد ، ويجاهرون بالترحيب بكل علم لا يعرفه قومهم ، ويحملون على الجمهور حملة شعواء يدفعهم صوت الحق الذي كان يدوي في اعماق نفوسهم • بدأ الاصلاح في المظهرين الديني والديوي ، وسار كل منهما في طريقه الطبيعي يتعارضان ثم يتفقان ويختلفان ثم يجتمعان ، وكان السيد جمال الدين الافغاني من أول من نادوا بالاصلاح في هذا الشرق القريب ، قام بدعوته والناس شبه نيام في مصر وفي

غير مصر ، لا يخرجون عما ورد في الكتب ، ولا يعتبرون قولاً الا لرجل مات وشهد بحسن حاله بعض الحشويين • قام جمال الدين باصلاحه وأكثر شيوخ الازهر يحرمون ما لم يعرفوه من المعارف ، ويقولون بتكفير من يقول بكروية الارض ، وكان أجدادهم قالوا بهذا الرأي منذ الف ومئتي سنة ويدعون من لا يقول بأن الارض واقفة على قرن ثور ، الى غير ذلك من تخريفهم ، نادى باصلاحه أيام اكان العالم من الطبقة الاولى من الازهرين لا يعرف شيئاً من الجغرافيا والتأريخ والرياضيات ، وكان السيد ومن تابعه على مثل اليقين من أن الشرق اذا لم يبادر الى اللحاق بالغرب في اقتباس العلوم يهلك ، ولا يرحمه تعصبه ، ولا تجبر عثرته دعواه وتبججه • استجاب الشباب للدعوة الافغانية ودعوته الاجتماعية • وفي مقدمة المستجيبين له الشيخ محمد عبده ، خرج بارشاد شيخه الجديد من طور طالب علم على الطريقة القديمة غلب عليه التصوف والجمود الى عالم عصري يستعمل عقله ويدرك ما حدث في العالم من تجدد ، ويدعو اليه • وبث الافغاني حب قداماء العلماء ، ودعا الى الاقتصار على كتبهم واطراح كتب المحدثين لما تحمل من زوائد ، كما دعا الى الرجوع بالانشاء العربي الى عدم التكلف ، فبرز من حلقاته كتاب ابناء ، وحب اللغة العربية الى العرب ، ولطالما قال : ان العرب ما نجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط ، بل بفهمهم أحكامه والعمل بادابه ، وذلك ما تم ولا حصل الا باللسان ، أي بالعربية ، فكانت ارشاداته كالماء الشديد الحرارة ، غسل وضر العقول ، وأتى على ما علق فيها من فضلات وفضول الخ • • • • وقال :

« ولم يخل قطر من الاقطار العربية ولو كان مما تغلب البداوة عليه من أفراد أدركوا قصور أمتهم ، فراحوا يتمثلون بعض الافكار الحرة ، وينفثونها في قومهم • ومما ساعد في هذا الاصلاح أن غدا الدين يدرس على أساليب حديثة جديدة ، وأبطلت طريقة الازهر القديمة في التعليم ، وقامت معاهد التخصص تنشيء ناشئة منورة » •

أكتفي بهذا القدر من التلخيص لهذا الفصل الذي عنى به سورية

خاصة ، وينطبق قوله على سائر الاقطار العربية ، ولا سيما العراق الذي ظل محروما المعرفة الى أواخر القرن التاسع عشر ، فقد كانت الامية سائدة مدنه وقراه ، وربما لا تجد في المدينة الكبيرة الا بيتا او بيتين ممن يعرف القراءة والكتابة . والقليل من أمور الدين ، فيسمى رئيس هذا البيت أو الاسرة (العالم) وتعرف الاسرة بأسرة العلام (أي العلماء) ، والبدواة هي الغالبة تعم أكثر الناس ، والفقر هو السائد بين طبقات الناس ، والبساطة في العيش لا عن زهد ، وانما عن فقر ، هو الطابع الغالب على المجتمع العراقي ، والأمن مفقود داخل المدن ، والسلب والنهب يجريان ليلا ونهارا . وكانت بعض المحلات في بغداد في عصور تغلب الاعاجم تقيم الابواب المصفحة على منافذ الطرق ، ومن كانت له شبايك للتهوية يغلقها بصفائح من خلفها تفتح نهارا وتغلق ليلا لتحول دون دخول السراق ، ونهب الاولاد والبنات يحدث من الجند ، لذلك لا يخرج الولد او البنت الا بصحبة من يحميها من الاهل أو الخدم . أما حوادث السلب خارج المدن فيتعرض له المسافرون بين بغداد والموصل أو بين الحلة وكربلاء ، لذلك يتجمع المسافرون من مدينة لاخرى قوافل ، ولها منافحون من جند الحكومة أو من أفراد العشائر المتنفذة .



بعد أن تناولت بالبحث المفصل أهم مؤلفات الاستاذ محمد كرد علي ، رأيت من الايفاء للموضوع أن أجمل بقية مؤلفاته والكتب التي حققها ونشرها اتماما للفائدة :

١ - الآراء الاسلامية في عز العرب

طبع في القاهرة بمطبعة مصر سنة ١٩٣٤ ، والكتاب محاضرة القاها في مصر واندمج في كتابه الحضارة العربية والاسلامية وعدد صفحاته ١٨٦ .

٢ - الحكومة المصرية في الشام

محاضرة تاريخية نشرت في المجلد الاول من مجلة الزهراء لمحِب الدين الخطيب ، ثم طبعت ثانية في المطبعة السلفية ١٩٢٥ م .

٣ - الرحلة الأنثوية الى الأصقاع الحجازية

وهذه الرحلة واختها الرحلة الى الاستانة ، أغفلها لانهما ألفا للدعاية أيام الحرب العالمية الاولى وجمع الانصار للدولة العثمانية • طبعت بالمطبعة العلمية سنة ١٩١٦ م •

٤ - غابر الاندلس وحاضرها

وصف للاندلس فتحها وحضارتها وعمرانها مدنها آثارها الباقية • والكتاب اندمج في كتابه الحضارة العربية والاسلامية •

٥ - رواية المجرم البريء

أو قصة الفضيلة والرذيلة ، أغفلها المؤلف •

٦ - القديم والحديث

مقالات في القديم وآراء في الحديث والجدل الدائر دائما بينهما أو بين أنصارهما ، طبع في القاهرة عام ١٩٢٥ م في ٣٤٧ صفحة • ومن الكتب التي احيها بالنشر والتحقيق :

١ - رسائل البلغاء

طبع سنة ١٩٠٨ م ، ثم طبعه ثانية سنة ١٩٤٦ ، نشر فيه رسائل عدد من البلغاء مع حكم مأثورة لعبدالله بن المقفع ، وعبد الحميد الكاتب ، وابن شرف القيرواني ، وابن القارح ، وابن قتيبة ، وابن المدبر ، والبغدادى (أبي طاهر) وأبي العلاء ، وأردشير ، والحسن بن سهل ، ورشيد الدين الوطواط ، وصالح بن جناح ، ويحيى بن عدي •

٢ - سيرة أحمد بن طولون

تأليف ابى محمد عبدالله بن محمد المدينى البلوى ، حققها وعلق عليها ، وقدم لها • طبع الكتاب في مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٥٨ هـ •

٣ - حكماء الاسلام لليهقي

تأليف ظهير الدين أبي الحسين علي بن زيد اليهقي المولود عام ٤٩٩ هـ ، وهو غير اليهقي المحدث واليهقي الاديب ، وقد جاء في مقدمة

الاستاذ كرد علي للكتاب قوله : « وأتانا كتابه ببرهان آخر على ان المدينة الاسلامية وحدة لا تتجزأ ، وأن كل قطر متمم للاقطار الاخرى » وقد ترجم فيه لحكماء الاسلام واسهب بترجمة ابن سينا خاصة •

٤ - المستجاد من فعلات الأجواد

لابي علي المحسن بن علي التنوخي المتوفي سنة ٣٨٤ هـ • حققه ، وقدم له بدراسة تحليلية ، وقال في المقدمة « هذا سفر في أخبار الكرماء في الجاهلية والاسلام ، يحمل أدبا واحلاقا وتاريخا واجتماعا ، وعرض صور الكرماء ، كما عرض الجاحظ صور البخلاء فلمستجاد صورة جميلة من ادبنا القديم مبعث حضارتنا ، وهذا هو الفن الذي يقضي علينا الواجب أبدا أن نتذوقه •••• وهو الى هذا من خير ما تكشف به مقاييس الاخلاق في امتنا » • طبع الكتاب عام ١٩٤٦ في مطبعة الترقى بدمشق •

٥ - كتاب الأشربة

تأليف ابن قتيبة : مزج فيه المؤلف الادب بالفقه ، وكانت مسألة الأشربة قد شغلت القوامين على الشرع والافتاء في أيام المؤلف ، كل يقضي بمبلغ علمه وما وصل اليه من نصوص الكتاب والسنة ، فكتب ابن قتيبة رأيه مستندا الى أقوال الائمة ذاكرا ما تعاور هذه المسألة المتنازع عليها • وطبع الكتاب عام ١٩٤٧ في مطبعة الترقى بدمشق •

٦ - كتاب البيزرة (احوال جوارح الصيد)

تأليف بازيار العزيز بالله الفاطمي ، نظر فيه وعلق عليه الاستاذ محمد كرد علي • طبع الكتاب سنة ١٩٥٢ في مطبعة الترقى بدمشق •

المذكرات
في
النقد والسياسة والاجتماع

أسلوب هذا الكتاب بأجزائه الأربعة يختلف كل الاختلاف عما كتبه
الاستاذ محمد كرد علي في سائر كتبه ، ويختلف حتى عن أسلوب مقالاته
الإصلاحية والاجتماعية • تعرض في هذه المذكرات للرجال بأسمائهم ،
ووصف الناس بأعيانهم وصفاتهم من زاوية نظرتة الخاصة ، وربما خالفه
الكثيرون بهذه النظرة ، فأثار دويًا وضجة لم يثرها كتاب له من قبل ،
وأوجد له خصومات وعداوات كان صاحبها في غنى عنها لو التزم جانب
العافية وامسك قلمه أن يندفع مع عاطفته وجماح نفسه الثائرة • قال :
« ربما يتأثر بعض من عرضت لذكرهم بما قد يسخطهم ، فأنا لا أحفل
بغضبهم ، ولا أسعى إلى رضاهم ، لعلي تعمدت أحيانًا هتك سترهم ، لانهم
يهتكون بأعمالهم ستر هذه الأمة ولا يبألون » اذن فالاستاذ محمد كرد علي
لم يترفع أن يقابل السيئة بمثها ، ونزل إلى مستوى الرجل العادي بانسياقه
مع عواطفه : يبغض ويحب ، ويشفي صدره ممن أساء إليه ويتأثر ممن
أسلف إليه ذنبًا ، ولو كان الذنب تافها أو غير متعمد كرد زيارة أو الأشادة
بما أُلّف أو تقرّظ ما كتب ، وكان له عن هذا مندوحة في التورية عن
التصريح ، والإشارة عن التجريح والتعميم عن التخصيص • لكنه تنكب
ذلك إلى التعرية والتفضيح ولم يتأق أو يوارب ، فأثار نائرة من لمزهم أو
هاجمهم ، وعد متجافيا عن اللياقة التي هي ذمام عند أهل النهي والعلم أمثال
الاستاذ محمد كرد علي • عثر قلمه مع أصدقائه ومع علماء أدباء ووطنين
وسياسيين لهم مركزهم الأدبي والعلمي والاجتماعي ، وأحكام الناس عليهم
تختلف عن أحكامه التي كانت نتيجة لمزاجه الذي أقل ما يستطيع المرء أن
يرده إلى فرط احساسه والله سبحانه وتعالى أدبنا ، الا تناسى الفضل بيننا ،
وعذره أنه صريح ويخضع لقاعدة :

وعين الرضا عن كل عيب كليله

كما أن عين السخط تبدي المساويا

المذكرات لم تطرد فيها سيرة كاتبها ، ولم تتسلسل حوادثها كما هو معروف في كتب المذكرات ولم تتساقق فيها سيرة كاتبها حلقات تتصل كل حلقة بأختها وينتقل فيها مؤلفها من طور الى طور ومن دور لآخر من أدوار حياته وما جرى لها وما أثر فيها وأثرها في غيرها بحيث لم يخف سجية من سجايه أو لفته من لفتاته وخالجه من خلجاته بحيث نسمع ميوله وتفاريق حبه وبغضه صالحه وطالجه كما هو المعروف في المذكرات التي خلفها كبار الكتاب • لكننا نجد سيرته الشخصية مفرقة بين أغراض شتى من الأقوال والأفعال والاتصالات والمقالات ، وقد وضع غرضه منها في مقدمتها فقال : « ليس الموضوع الذي اعالجه الان ذا مكانة كبرى في ذاته اذا نظر اليه انه مذكرات شخصية » ، وقال في هامشها : « كنت أحرص في هذه المذكرات على ألا أتكلم عن نفسي ، ولا أقول : قلت وفعلت ، فتعذر ذلك ، لان أكثر ما فيها مما سمعته اذناي ورأته عياني ووعته نفسي ، فمن الصعب ذكره مجردا عن سامعه ورأيه وواعيه ، وهون علي هذا الأسلوب أن رأيتني لم آت بدعا وتابعت طريقة من سبقوني من الغربيين في تدوين مثل هذه الارتسامات » • وقال : « أصور بهذا التقييد طائفة ممن عشت بينهم ، صورة صادقة ، وادون كل حق عرفته ليشاركني أبناء هذا الجيل والذي بعده في الافكار على من أضجروني بقصورهم وآلوني بغرورهم • كتبت كتبا كان الجد سداها ولحمتها ، وما جوزت لنفسي الحياد عن قوانين المؤلفين ، ولا الصدود عن المتقدمين والمتأخرين ، وأريد هنا أن أتزع قيودا أثقلتني وأنا اراعيها ، وأن أبعد عن ذلك الطراز المقيد ، وأخرج الى هذا الاسلوب المطلق • أحاول اليوم ، وقد رأيت الدنيا مهزلة وذقت حلوها ومرها وكرعت خلها وخمرها ، أن أهزل أحيانا وأسخر أحيانا ، وأضحك أحيانا وابكي أحيانا ، لأن نفسي سئمت التزام الجد وتبرمت من الاضطراب فيه زمنا طويلا ، وطبيعتي تعصى على العيش الرتيب » • وقال : « ربما يتألم بعض من عرضت لذكورهم بما قد يسخطهم ، فأنا لا أحفل غضبهم ولا اسعى الى رضاهم ، ولعلي تعمدت أحيانا هتك سترهم لأنهم يهتكون بأعمالهم ستر

هذه الامة ولا يبالون ، واذا كنت لم استخذ أمام من كان في أيديهم النفع
 والضر ، فأنا لا أصانع من لا يرضيهم الا سكوتي عن مساوئهم • دأبت
 على قتال الاردياء ، والشباب غض والرغبة في اطالة حبل الاجل عظيمة ،
 فحري بي ألا أكف عنهم وأنا اطوي آخر مراحل العمر ، وأنفض اليد من
 بهرج الحياة • قصدت بما دونت التحذير من دجل الدجالين ، والتنبه على
 أحابيل المبطلين ، والعمل على مكافحة الظالمين ، ويعرف أن كل جيل لا يخلو
 من دعاة يخلو لهم الجهر بالحق مهما جشمهم ، ومن أفضل الطرق اليه
 ضرب السفهاء في وجوههم بعيوبهم ، جربت السكوت عن من لم يأتوا ببرهان واحد
 على حبهم الخير وما جنيت من الاغضاء الا البلاء • والساكت عن الحق
 شيطان أخرس » • بهذه المقدمة الصريحة يوضح منهجه في مذكراته ،
 ذلك المنهج اذن يهدف فيما يهدف ضرب السفهاء في وجوههم بعيوبهم ،
 وأنه جرب السكوت عن من لم يأتوا ببرهان واحد على حبهم للخير فما جني
 من جراء الاغضاء الا البلاء ، ومذهبه الجهر بالحق كما يترأى له الحق
 بنظره وحده ، غرضه أن يهتك ستر طائفة ممن أساءت اليه • هذا الهدف
 ليس كل ما كان يهدف المؤلف في مذكراته • لا ، المذكرات لم تقف عند
 هتك الاستار وتجسيد العيوب ، وانما حفلت بموضوعات كثيرة في الاخلاق
 والآداب والسياسة والتاريخ والاجتماع والادارة والصحافة ، وفيها ارتسامات
 سلك مع أصحابها التعريض ، وابتعد عن التصريح ، والتزم فيها التلويح
 بدلا من التفضيح ، فيها خواطر واحداث لم ينتظم فيها الزمن أو تتسلسل
 مع التاريخ ، وربما ذكر موضوعات لا صلة ببعضها من الفصول التي عقدها ،
 فيها مقالات تحتاج الى توضيح ، وفيها موضوعات لم تستكمل مادتها وقد
 لا تكون الصلة واضحة بحياة كاتبها • واني أود أن أنقل المقالة أو الكلمة
 التي ختم بها الاستاذ المؤلف مذكراته ، وفيها دفاعه وردوده على الذين نقدوا
 هذه المذكرات وانكروا عليه كثيرا من أحكامه (ص ١٣١٠) ، وهي هذه :
 « من حسن التوفيق أن نشرت مذكراتي في حياتي ، فسمعت مقاله
 فيها الناقدون والناقمون • زعم بعضهم أنني أغضبت الكثيرين وأرضيت

القليلين ، وأني تسرعت في الحكم على الحوادث والشخصيات • وكان عليه أن يعكس حكمه فيقول : اني أرضيت الكثيرين وأغضبت القليلين ، ذلك أن مجموع من تصفحوا الكتاب ، ومن المثقفين خاصة ، قد اكبروا حرته ، وصفقوا للشدة على أرباب السيرة الرديئة من العمال (الولاة) وغيرهم ، وما كان من غضبوا في الواقع الا طائفة قليلة من السياسيين والمتلاعبين ، وغير صحيح أنني تسرعت في الحكم على الحوادث والشخصيات فأنا ذكرت الماضي ولم أتعرض للمستقبل على ما يلائم روح المذكرات • كتبت ما شهدته وانكرته ، وشهده غيري وأنكره ، وما سجلت الا ما يجب تسجيله • أما ما كان محجوبا عن العيون فهو فيما أرى من علم الغيب ، وما أنا ولا غيري بعلم الغيب من العارفين ، حتى أضمن سلامة النفوس من العيوب أبدا ، أو أواخذ عما سيأتيه بعد حين من تعرضت لذكرهم • فحكومي اذن كان على ما وقع ، لا على ما سيقع ، أو سوف يقع •

وبعد ، فما كنت الا صادقا في حكمي على صاحب الثورة الاولى المشير حسني الزعيم ، وقد أعجب بثورته عقلاء الامم ، وما اختلف العارفون في عظم شخصيته • أما ما كتبت في رئيس الجمهورية الثالث ، فكلام غير منقوص بما كتبت في جده مثلا ، فهو غير جده • هو كان طموحا الى المجد بطرق له خاصة ، خالف فيها أصول الحكم ، فعطل الحدود ، ولم يرع القوانين ، وبذر الاموال ولم يصرفها في وجوهها ، وقرب الرعاع الجاهلين ، وأقصى النبلاء العارفين ، وأنا لا أسأل عما يطرأ على أخلاق الافراد ما داموا طول حياتهم عرضة لتغيير أفكارهم ومنازعتهم وارتركاب ما يبذل نظر الناس فيهم ويقل في الخلق من يسير على وتيرة واحدة طول حياته ، وأوجب المؤرخ على أي حال أن يحكم على من يعرض لهم بماضيهم وحاضرهم ولا شأن له بمستقبلهم ، فقد يكون الرجل في آخر عمره غيره في وسطه واوله ، فلا ملام على من ترجم له اذا اعتمد على ما رأى وسمع ما دام المرء مفطورا على الطمع يفعل فيه الزمان والمكان •

أقتطف مقتطفات من نقد كبار الناقدين ، ورد على بعضهم ، وغض

طرفه عن آخرين ممن نعموا عليه وشتموه • قال :

« قال صديقي الاستاذ علي عبدالرزاق باشا من علماء مصر من كتاب :
وجدتك في بعض المواقف مهاجما عنيفا في صراحة لا يمازجها حذر ، وفي
مواقف أخرى كنت أقرب الى المداورة وأدنى الى الابهام ، ولكنك في كلتا
الحالتين واضح العبارة ومستظرف ومجبوب • ولقد أكون وقفت موقف
الشك والتردد ازاء ما جرى به قلمك في بعض المواضع ، ولكن لم يخامرني
أدنى أثر للشك ولا للتردد في أنك وضعت بهذه المذكرات سجلا حافلا
بالحوادث مليئا بالمعلومات • وقال صديقي الاستاذ محمد بهجة الاثري
من علماء العراق من كلام على المذكرات في الجزء الاول من مجلة المجمع
العلمي العراقي (سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م ، ص : ٣٥١ ، ٣٥٣) :

« لست أزعم أن المؤلف قد سلم له كل ما دونه من ارتساماته وآرائه،
ولا سيما في السياسة والرجال ، فانه هو نفسه يعترف في آخر هذه المذكرات
(٩٩١) بأنه « ربما وقعت له هنات كان الاجدر أن يسلم منها كتابه » •
ثم يذكر السبب في وقوع هذه الهنات له فيقول : « وما كان السبب فيها
الا بعض من ادلوا لنا بمعلومات وهموا فيها • » ولتته أشار الى هذه
الهنات ، وبين وجه الخطأ الذي لم يعصم منه ، لتتميز مروياته عن انطباعاته
وآرائه ، وليعرف الناس - ومن حقهم ان يعرفوا - هذه الهنات التي وقعت
له (ومن فيك أحلى) • قال : وقد مررت في كتابه بأشياء لا أحسبها من
هذه الهنات التي عاناها ، بل هي من باب آخر مما يتصل بالسياسة وبالرجال ،
وعلى بعضها طابع العجلة والارتجال ، وعلى بعضها أثر الحدة و«الانفعال»،
وما يديرنا اذا أخذنا في سردها ، وهي ليست بالكثيرة ، أنه سيقول في
ردنا ما قاله في تلك الهنات : « من ذا الذي عصم من الخطأ ••• ؟ »
فيسد بوجهنا الطريق الى مجازبة أطراف الحوار • الى أن قال : وبديهي
أن من يكتب بهذا الاسلوب المطلق عن أهل عصر يعيش بين ظهرائهم ،
ويعطي كل انسان كتابه بشماله ، انما يعرض نفسه لغضب الناس وسوء
قالتهم في حقه ، كالذي حدث له مع أصحابه وأحبائه بمصر حين نقد

سلوكهم معه ، فثاروا عليه يناوشونه المطاعن وقوارص الكلام ، وليس بمثل هذه السهولة تنسخ المودات بين الاصدقاء ، وتسى العهود بين العلماء » •
وتلطف الاستاذ أحمد شكري فلاحظ في جريدة النصر قائلا :

« ان هذه المذكرات هي أكثر من مذكرات ، هي تاريخ وتحليل اشخاص ، واصدار أحكام مختلفة عليهم ، وأشهد أن الاستاذ كرد علي كان مؤرخا صارما ، فأصدر أحكامه جريئة على أشخاص أصبحوا ملك التاريخ ، ومنحتهم الامة العربية مكانا رفيعا في أفكارها وذكرياتهما ، وأنا لا اشك أن علامتنا صادق فيما يقول ، ولكن لعل للامر جوانب أخرى ، ولعل ما انتقده في أولئك صحيح ، ولكنه عبارة عن هنات شخصية وتصرفات توجبها ظروف لاستطيع تقديرها ، فان من المؤكد أن عبدالكريم الخليل ، والشيخ عبدالحميد الزهراوي والسيد عبدالغني العريسي والشيخ أحمد طباره ، وغيرهم من الشهداء الذين علقهم جمال باشا على أعواد المشانق عام ١٩١٦ في ساحة المرجة والبرج في دمشق وبيروت لم يكونوا معصومين من الأخطاء ، فهم بشر كغيرهم ، الا أن كونهم القافلة الاولى من شهداء النهضة العربية جعل لهم حرمة في النفوس ومكانة في القلوب ، فهم أول من فقدوا حياتهم لانهم أعبوا عن عقيدة عربية • أما أخطاؤهم الشخصية ، فالامة لا تأبه بها كثيرا ، ثم قال : انه كان يود أن أصدر عليهم أحكاما عامة تتناول عقيدتهم القومية ومبلغ اخلاصهم لها في معزل عن التصرفات الجزئية التي قاموا بها ، وقال : انه فاتني أن أبدي رأبي في أحمد جمال باشا ، مع اني أسهبت في ذكر العلاقات التي تربطه بي شخصيا ، والاتصالات القائمة بيننا حتى كاد يعتقد أن لي في جمال باشا رأيا آخر غير الرأي الذي اعتنقه المؤرخون العرب في ان هذا التركي سفاح غاشم يبغيض العرب » •
واجيب على هذا أنني ما طعنت في وطنية هؤلاء الاربعة الذين ذكرهم الاستاذ الناقد ، بل أشمرت الى أن بعضهم ظلموني بنسبتهم الي أمورا ما فعلتها ولا دخل لي فيها ، لو صدقها القائلون بالامر يومئذ لاودت بحياتي ، وأنا لم أشارك بالاحزاب العربية ، وما كان عملي منذ أنشأت

المقتبس الا عمل صحافي حر ، ولذلك لم أفسر ما عزاه الي الاستاذ الزهراوي الا أنه ينبغي اتهامي بما أنا منه بريء ، ولا يبالي بعدها عشت او قتلت • هذا وجه تعريفي ببعضهم ، وماذا أعمل وواجب المؤرخ أن يكتب للناس ما وقع ، وأنا لا أكتب كتاب أدب وعواطف ، بل أكتب تاريخاً ومذكرات جريت على هذا القانون معظم أيام حياتي في الصحافة أولاً والتأليف ثانياً ، مع علمي بأن عملي لا يرضي جميع الطبقات ولا يخليني من ملامة ، وكيف يريدني الاخ الناقد أذكر من ذكرته الا بالخير لشرف المقصد الذي أخذوا به ، ومنهم من استخدم اسمي ليروج بضاعته ، وان اعتقد اعتقاداً جازماً انه يلحق بي ضرراً ، ومنهم من حاول اتهامي زوراً بما صورته له أخلاقه ، وما عبأ بما يترتب على شهادته المعلولة ، وما أظن الناقد الحصيف الا موافقاً لي على أن من قتلهم الاتراك في الحرب الاولى من رجال العرب ليسوا كلهم من طراز واحد وان فيهم الشريف وفيهم من تجسس للغريب وشهد الزور ، وكلهم ليسوا كالاستاذة عبدالوهاب الانكليزي وشكري العسلي وسليم الجزائري وتوفيق بساط • أما طلب رأيي في أحمد جمال باشا فأذكر أنني وفيته حقه من وصف فضاعه في سوريا والاساتنة وأذنه وبغداد ، ولك أن تدعو من ارتكب هذه الجنايات سفاحاً وأكثر من سفاح ، والانصاف يقضي مع هذا الا نلقي عليه وحده كل ما وقع للعرب من قتل ، وأن نقسم الظلم بينه وبين حزبه حزب الاتحاد والترقي ، وهذا كان يقرر وجمال باشا ينفذ •

الواقع الذي يستند الى الوثائق وعلى المقررات الحزبية يدمغ جمال باشا • ووزارة الاتحاد والترقي كانت أعطت جمال باشا أحد اعضائها سلطات مطلقة يتصرف في ادارة المنطقة التي كان قائدها وقلما كان يرجع بأحكامه الى حزبه او حكومته ، ووجدت كتب رسمية تعكس تملل المركز من تصرفات جمال باشا وتستكر استبداده وادارته التي بناها على البطش والارهاب والتقتيل والتشريد ، والاستاذ محمد كرد علي أدري من غيره ، بهذه الحقائق ، وهو وان وفاه حقه من ذكر بطشه وتعسفه غير أنه في

أماكن كثيرة أطرى ادارته وخلقه ودينه وحزمه واحترامه للعلماء ، وقد منحه ثقته ، وعاونه في استئناف جريدة المقتبس ، وأدار له جريدة المشرق ، وأغدق عليه بالاموال والارزاق ، حتى والحكومة العثمانية في النزاع الاخير نجد جمال السفاح يوصي أمين الحزب في الاستانة أن يمنح كرد علي معاونات مالية سخية ، فلم يشأ ان يطالب بها وحكومة الاتحاديين تلفظ أنفاسها • وقد كتب ذلك في مذكراته • اقول : ان الذين رموا كرد علي بالهفات والاحكام المتجافية مع الحق أو مع عواطفهم ، نسوا أنه بشر ، ومهما تجرد فانه يخضع للهوى ، والرضى والسخط يتحكمان في الانسان مهما بلغ من درجات الكمال ، والعصمة لا تكون الا لنبي أو رسول ، ولا ننسى أيضا أن رأيه وهواه مع الخلافة العثمانية ، والخروج عليها في نظره مروق » •

في نهاية مقاله (الناقدون والناقمون) لخص نقد الدكتور أحمد أمين ، ورد عليه فكتب : « وجوز الدكتور أحمد أمين بك المصري لنفسه في نقد المذكرات الخروج على الانصاف ، وزيف كل ما عرفت به ، فطعن في أمانتي دون أن يأتي ببرهان ، وقال انه لا يرضيه أسلوبى في كتابتى ، ولا طريقتى في البحث ، أما أنا فيرضينى أسلوبه ويحسه ، ولا ترضينى بعض جوانب من أخلاقه » • وقال : « كل هذا وأحمد أمين لا يرضى الا أن يفترى عليّ وعلى التاريخ ، ليتخذ مما اختلق واسطة للطعن ، وما وجد غير الكذب سلاحا يقاتلنى به : أما أنا فما زلت على رأيى في أخلاقه مهما تحامل وتبجح •

ورأيت اتماما للفائدة أن انقل نقد ثلاثة من أعلام الادب والنقد ، ومن أصدقاء المؤلف ، أشار الى اثنين منهم ، ولخص نقدهم في آخر مذكراته ، كما قدمت ، وهما : الاستاذ محمد بهجة الاثري والاستاذ أحمد أمين ، والثالث كتب نقده بعد وفاة المؤلف في المحاضرات التي ألقاها على طلاب

معهد الدراسات العليا وهو الشاعر شفيق جبري عميد كلية الآداب في دمشق سابقا ♦

أما ملاحظات الاستاذ العلامة محمد بهجة الاثري ، وماآخذه على المذكرات فقد أجملها في المجلد الاول لمجلة المجمع العلمي العراقي (من ص : ٣٤٩-٣٥٦) حيث قال :

« مؤلف هذه المذكرات آريّ عبقرى كسبت به العربية والاسلام في هذا العصر خيرا كثيرا ، أخرس لسان الشعبوية ، وحسم باطل المضللين ، وحمى حوزة الحق ، ولد في دمشق حيث العروبة نابضة العرق ، والاسلام خفاق اللواء ، من أب كردي من مدينة السليمانية ، وأم شركسية من قفقاسيا ، فاستهوت عقله بلاغة العربية ، واستولى على لبه جمال الاسلام ، حتى فني في جبهما فناء العاشق في معشوقه ، وخدمهما بما تنوء به العصبه اولو القوة ♦ تخب به راحلة العمر الآن نحو الثمانين ، وهو في دؤوبه على خدمتهما والنضح عنهما واعلاء شأنهما كما كان في عنفوان شبابه ، تدر عروقه نشاطا ، ويتوثب ذهنه قوة ، ويزكو عمله الدائب خصبا ونماء ♦

وقد أنفق بواكير حياته في الدرس والتحصيل ومثاقفة العلماء والادباء ، وكان من أساتذته الشيخ طاهر الجزائري ومنزلته كمنزلة الشيخ محمد عبده في الديار المصرية ، ومنزلة أستاذنا العلامة السيد محمود شكري الالوسي في العراق ♦ وصرف كهولته وشيخوخته في كل عمل مفيد لدينه ولغته ووطنه ، فعانى الصحافة مدة طويلة ، والصحافة مختبر يعين على فهم الناس ومعرفة ألوان الحياة ♦ وغامر في ميادين السياسة فأدركه التوفيق والخيبة ، وذاق الحلو والمر ، وأوقعته جراته في مآزق كثيرة نجا منها بالهزائم الى مصر والحجاز ، ولكنها اسلمته الى ركوب المخاطر في الصحارى ، ومعاشرة أهل المدر والوبر ، وأكل جريش الحنطة وخبز الملة ، وشرب الماء الرنق والآسن ، والنوم بالعراء ، وتقلب في مناصب كبيرة ، وكان أحد القلائل الذين أوصلهم فضلهم وبلاغتهم الى الوزارة ، ونسدر من وصل اليها بهاتين الوسيلتين في بلاد العرب كافة في هذا العصر ♦ ثم انصرف عن

السياسة انصرافا تاما ، وآثر التفرغ للعلم والتأليف ، وهما في بلاده كما في كل بيأة ضيقة ، هين شأنهما مقصوصة أجنحتهما ، فرفع بجهاده لهما من شأنهما ، وطار بهما كل مطار . وقد رحل أربع رحلات الى بلاد الغرب يبحث في خزائن كتبها العظيمة عن الاصول التي تجلو حضارة العرب والاسلام في معارضها الفاتنة ، ويدرس أحوال الشعوب الغربية وطبائعها وشؤون العمران والادارة والنظام عندها ليكسب بذلك علما ينقله الى وطنه في طوره الجديد ، طور الانتقال والتجديد . وعمل على تنظيم دار الكتب بدمشق لتكون مرجعا ميسورا للباحثين ، وحث الناشئين على التعلم ، وشجعهم ، وامتد تشجيعه الى كل من توسم فيه نبوغا من الشاميين وغيرهم ، وافتتح بكتبه : (« خطط الشام » و « الاسلام والحضارة العربية » و « أمراء البيان » و « القديم والحديث » و « أقوالنا وافعالنا » و « المذكرات » وغيرها) عهدا جديدا في سورية للتأليف المبتكر الذي انقطعت الصلة بمثله منذ عصور . وأسس (المجمع العلمي العربي) وهو أعظم صرح للعلم قام في ديار العرب في أيامنا بمجهود رجل ، وقد لقي في سبيله الألاقي ، فلم تنه عن بنائه وتشيته وتبنيه ولفت أنظار الناس اليه ، رفع به اسم بلاده ، وخدم العلم والتاريخ ولغة العرب ، وجعله مثابة كبار العلماء والادباء من العرب والمستعربين من علماء المشرقيات ، وكان من نتاجه الطيب خمسة وعشرون مجلدا^(١) من مجلته التي حفلت بالروائع من آيات العلم والبحث والتحقيق ، وطائفة حسنة من الكتب النادرة أحيها بالنشر . وما برح يواصل جهاده في احياء التليد وابتكار الطريف في العلم والادب بهمة لا يعرفها الفتور ، ورغبة لا يدركها السأم ، وكذلك شأن المطبوعين على حب المعرفة واذاعة الخير .

وهذه المذكرات من آخر ما قدمه العلامة الجليل الى الامة العربية ، وهي مرآة حياته ، ومستودع أفكاره وآرائه ، وسجل العصر الذي عاشه والرجال الذين عاشهم وخالطهم في الشام ومصر وأوربة ، حفلت

(١) بلغت الآن أربعين مجلدا .

بصنوف من صور الحياة وخفايا الناس وألوان من التجارب والاختبارات والاحوال والنزعات والآراء والمثل والعبر في السياسة والاجتماع ، وفي الدين والثقافة ، وفي الاخلاق والعادات • عرض فيها للدول والجماعات كما عرض للأفراد ، وعني بالشؤون الكبار والصغار ، ونظر في كل ذلك الى القيم والاقدار من حيث آثارها ، فلم يقوّمها بالجاء والمنصب والمال والشهرة ، بل قومها بالفضل والادب والجهاد ونبل النفس ، فهي وأمثالها المعايير التي وزن بها الرجال والاعمال ، وأصدر عنها أحكامه ، فربما أعلى من شأن حوذي لاحسانه وطيبة نفسه ، وحط من قدر زعيم من زعماء المال أو الجاه والمنصب لان سيرته مؤذية ، أو لانه لاخير عنده ولا نفع للامة من حياته ، وهكذا خاض في شؤون وأحوال شتى ، ودون ارتساماته وآراءه في صراحة وصدق ، فسمى الاشياء بأسمائها ، وجلا كثيرا من الحقائق الخفية عواري ليس عليها ثياب ، ولا من دونها ستر أو حجاب • وهذا هو الذي يجدي تدوينه في باب التجديد والاصلاح •

لست أزعّم أن المؤلف قد سلم له كل ما دونه من ارتساماته وآرائه ، ولاسيما في السياسة والرجال ، فانه هو نفسه يعترف في آخر هذه المذكرات بأنه « ربما وقعت له هنات كان الاجدر أن يسلم منها كتابه » ، ثم يذكر السبب في وقوع هذه الهنات له فيقول : « وما كان السبب فيها الا بعض من أدلوا لنا بمعلومات وهموا فيها » • وليته أشار الى هذه الهنات وبين وجه الخطأ الذي لم يعصم منه ، لتمييز مروياته عن انطباعاته وآرائه ، وليعرف الناس - ومن حقهم أن يعرفوا هذه الهنات التي وقعت له ، و (من فيك أحلى) •

وقد مررت في كتابه بأشياء لا أحسبها من هذه الهنات التي عنها ، بل هي من باب آخر مما يتصل بالسياسة وبالرجال ، وعلى بعضها طابع العجلة والارتجال ، وعلى بعضها أثر الحدة و « الانفعال » ، وما يدرينا اذا أخذنا في سرداها ، وهي ليست بالكثيرة ، أنه سيقول في ردنا ما قاله في تلك الهنات (٩٩١) : « ومن ذا الذي عصم من الخطأ ؟ والاجتهاد يختلف في

الحكم على من اشتركوا في معاناة المصالح العامة اختلافه في أنصافهم على ما يوجب الحق ، ويكفي المؤلف وهو يفيض في مسائل متشعبة أن يحتمل الى قرائه ما خبره بنفسه « ، فيسد بوجهنا الطريق الى مجاذبته أطراف الحوار !

[وهو يقدم هذه (المذكرات) فيقول : « ليس الموضوع الذي أعالجه الآن ذا مكانة كبرى اذا نظر اليه أنه مذكرات شخصية كتبها رجل ما كان في مقام تشخص اليه أبصار العالم ، ولا هو من أمة كان له التقديم في مجرى سياستها ••• • »]

« ونقول على سبيل الواقع ، وهي غير سبيل المؤلف في هذا التواضع : ان موضوع مذكراته انما يتمتع عندنا في جملته بمكانة ملحوظة من ناحيتين : شخصية المؤلف الذي يتميز بطول الخبرة ، وصدق اللهجة ، وصراحة الاداء ، وبحسبه أنه في مقام تشخص اليه أبصار قومه ان لم يكن في المقام الذي تشخص اليه أبصار العالم ، وهو انما يكتب لقومه لا للعالم ، وللعالم اذا شاء أن يستفيد مما كتب ، ففي خبرته ثروة إنسانية لا غنى عنها للمستفيد من أي أمة كان •

هذه ناحية ، والناحية الاخرى هي مزية الكتاب من حيث أنه حفلت صفحاته الـ ٩٩٢ بمسائل متشعبة مما اضطرت به الحياة في مصر والنسام وغيرهما من أقطار العرب ، وخبرها المؤلف بنفسه في مدى ستين عاما ، أي منذ وعيه ومعاناته الصحافة والسياسة وهو شاب يافع ، وقد عاصر ظهور اليقظة ، وسائر ما لابسها من أحداث وتطورات وكان له في معظمها رأي ومقال ، وتلك مزية جلية منظور اليها من حيث انها تستمتع بفضيلة الاختبار الشخصي ، وهي ليست بالميسورة لكل أحد في معظم الاحوال • وليست هذه اليقظة التي يدون المؤلف ارتساماته عنها وآراءه فيها ، وقد جاءت بعد سبات طويل غط فيه العرب والمسلمون غطيظا أحقبا ، بهينة الشآن او قليلة الخير أو ضعيفة الاثر في الحياة العربية كما يظن الطان لاول وهلة، حين يجدها لم تؤت بعد اكلها ، ومن عادة الناس أن يقرنوا أحكامهم

بالنتائج لا المقدمات ، واذ كانت النتائج لم تظهر بعد ، وقد تلوح للانظار بعيدا بلوغها ، فهم لا يحسون حسا قويا آثار هذا التطور في كل ناحية من نواحي الحياة ، ولذلك هم لا يكبرون شيئا من أسيائه ، بل لعلهم لا يرون في الغالب الا نقائصه ، وتظل اذهانهم عالقة بصور الماضي وأطيافه ، وغافلة عما يختلج دونهم من نوازع التقدم والحياة • فان لم يكبر السواد مصدر هذه المذكرات ، كما يريد المؤلف أن يظن ، فالخواص الذين يقدرون قيم الاشياء حق قدرها جد عليمين بقيمة هذا المصدر ، واذ كان « من الرجال من يعظم في العيون بقدر ما لأمته من عظمة » فالعلماء بالحقائق لا تغيب عن بالهم عظمة الامة الاسلامية التي منها المؤلف ، في أبان مجدها ، وفيما تركته من تراث يسعى المؤلف ونظراؤه في احياؤه ، واذ قل مشاركونا في الشعور بعظمة أمتنا في التاريخ فبحسبنا - نحن العرب - شعورنا بها ، ذلك الشعور البالغ الذي يحفزنا الى البناء كما بنى أوائلنا ، ويجعل كل بناء منا عظيم القدر في عيوننا بقدر ما في نفوسنا من شعور بعظمة أمتنا ، وإيمان بمجدها ••

كتب المؤلف كتبا كثيرة « كان الجد سداها ولحمتها ، وما جوتز لنفسه الحياد عن قوانين المؤلفين ، ولا الصدود عن آيين المتقدمين والمتأخرين ، و « أراد هنا في المذكرات أن ينزع قيودا أثقلته وهو يراعيها ، وأن يبعد عن ذلك الطراز المقيد ويخرج الى الاسلوب المطلق » ، وقال : « أحاول اليوم ، وقد رأيت الدنيا مهزلة ، وذقت حلوها ومرها ، وكرعت خمرها وخلها ، أن أهزل أحيانا ، وأسخر أحيانا ، وأضحك أحيانا ، وابكي أحيانا ، لان نفسي سئمت التزام الجد ، وتبرمت من الاضطراب فيه زما طويلا ، وطبيعتي تعصى على الشيء الرتيب » •

[وكذلك قال زهير بن أبي سلمى من قبل :

سئمت تكاليف الحياة ، ومن يعيش ثمانين حولا - لا أبالك - يسأم !
وبديهي أن من يكتب بهذا الاسلوب المطلق عن أهل عصر يعيش بين ظهرانيهم ، ويعطي كل انسان كتابه بشماله ، انما يعرض نفسه لغضب

الناس وسوء قائلهم في حقه ، كالذي حدث له من بعض أصحابه وأجابه
بمصر حين نقد سلوكهم معه فثاروا عليه يناوشونه المطاعن وقوارص الكلام ،
وليس بمثل هذه السهولة تنسخ المودات بين الاصدقاء وتنسى العهود بين
العلماء ♦ [

» ولكن المؤلف الذي أراد أن ينزع قيود الجدهنا ، قد غلبه الجدي في
أحيان كثيرة ، وعقد العزم ألا يحفل غضب انسان كائنا من كان ، مذ قال :
« ربما يتألم بعض من عرضت لذكرهم بما يسخطهم ، فأنا لا أحفل غضبهم ،
ولا أسمى الى رضاهم ، ولعلي تعمدت أحيانا هتك سترهم لانهم يهتكون
بأعمالهم ستر هذه الامة لا يبالون » ♦ وهو يعني بهؤلاء غير من عنيتهم من
رجال العلم والادب ، وهم من أجل اصدقائه ، وما أحد منهم هتك ستر هذه
الامة بحمد الله ♦ ثم يمضى في حديثه بل في ثورته فيقول : « واذا كنت لم
أستخذ أمام من كان في أيديهم النفع والضر ، فأنا لا أصانع من لا يرضيهم
الا سكوتي عن مساويهم ♦ دأبت على قتال الاردياء ، والشباب غض ، والرغبة
في اطالة جبل الاجل عظيمة ، فحري بي ألا أكف عنهم ، وأنا أطوي آخر
مراحل العمر ، وأنفض اليد من بهرج الحياة ♦ قصدت بما دونت التحذير
من دجل الدجالين ، والتنبيه على أحابيل المبطلين ، والعمل على مكافحة
الظالمين ، ليعرف أن كل جيل لا يخلو من دعاة يحلو لهم الجهر بالحق
مهما جشمهم ، ومن أفضل الطرق اليه ضرب السفهاء في وجوههم بعيوبهم ♦
جربت السكوت عن من لم يأتوا ببرهان واحد على حب الخير ، وما جنيت من
الاغضاء الا البلاء ♦ الجهر بالحق ، ومقاومة الظلم ، من أول مراتب
النهوض ، والساكت عن الحق شيطان أخرس » ♦ هذا هو روح المذكرات ،
أردت النص عليه من كلام المؤلف ، لانه يحدد ما أرادته من كتابتها تحديدا
دقيقا في ايجاز ووضوح ♦ وهو روح قوي ، خالج معظم صفحاتها ، وكان
في بعضها - كما تحسه في هذا التقديم من كلام المؤلف - كالسيل الهدار ،
يدوي صوته ويخرب آتية ، ولكنه ينشأ مما يسبح من غرينه على الارضين
الصالحة نفع كبير ♦ والحق أن المجتمعات لا يمكن أن تحيا بالمصانعة والرياء ،

بل لعلها لا يقتلها شيء كما تقتلها هذه العيوب التي يتصف بها كثيرون ممن يتصدون لقيادة الرأي العام فيتملقونه ويصرفونه بهذه الاساليب ، وهم في الواقع لا يقودونه الى الرشاد كما يظنون ، بل يقودونه الى الضلال والهلاك وما يشعرون ، وصديقك من صدقك لا من صدقك » • لقد نفض لنا مؤانف المذكرات الحر بهذا الاسلوب الجريء خوالج نفسه وآلامها وآمالها ، يريد اصلاح المجتمع الذي عاش فيه وتطهيره من لوثاته ، و « كان يحرص فيها ألا يتكلم على نفسه ، وألا يقول : قلت وفعلت ، فتعذر - ذلك ؛ لان أكثر ما فيها مما سمعته أذناه ، ورأته عيناه ، ووعته نفسه ، فمن الصعب ذكره مجردا من سامعه ورائيه وواعيه • وهون عليه هذا الاسلوب أن رأى نفسه لم يأت بدعا ، وتابع طريقة من سبقوه من الغربيين في تدوين مثل هذه الارتسامات » • وأنت في كتاب المؤلف هذا ، ان كنت جالسته ، كأنك تسمعه يحدثك فتتجسم لك معانيه بما يرن في أذنك من صوته الاجش ، وتتخيله من صورة أدائه للكلام أداء يتفرد به في صراحته وطلاوته وحلاوته •

فأسلوبه كتابا أسلوبه متحدثا ، وهو أسلوب مطمع ممتنع ، يختلط بأجزاء النفس ، ويأخذ بمجامع القلب ، لانه فيض القريحة ، ووحى الطبيعة ، وقل في الكتاب من يكتب لك كما يحاورك ويخاطبك ليؤثر فيك • وسدى كلامه ولحمته الفصاحة والسلاسة ، يندر أن تلفيه مترخفا في لفظه أو تعبيره • ومن أروع منشآته في هذه المذكرات ، فصل عنوانه (في عشر الثمانين) • جود فيه غاية التجويد ، أنقل لك ذروا منه ، لانه يلخص منازعه ويقف قارئه على بلاغته • وبعد أن روى بعض مقاطع هذا الفصل قال في ختام تقريره أو نقده : « ولعلي ، بعد هذا ، لن اجد وصفا لهذه المذكرات خيرا مما وصف به الاستاذ ابن العميد كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، قال : انها « تعلم العقل أولا ، والادب ثانيا » ، وكذلك هذه المذكرات ، وذكرت متزهات الدنيا بين يدي أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ، فقال : « هذه متزهات العيون ، فأين أتم من متزهات

القلوب؟» قالوا: «وما هي؟» قال: «كتب الجاحظ، وأشعار المحدثين، ونوادر أبي العيناء» • وأنا أضيف إليها رابعا: كتاب «المذكرات»، فهو بدع في كتب هذا العصر، وما يرجى من نفعه أمتع وأفضل وأغزر •

اطلع الاستاذ أحمد أمين، رحمه الله، على الجزء الاول والثاني من المذكرات، فكتب تعقيباته في مجلة الثقافة، ثم نشر نقده هذا في الجزء الثامن من (فيض الخاطر) الصفحات ١٢٨ - ١٣٣، ولم يشأ الا أن يجزي السيئة بمثلها وأقسى منها، وتناسى الفضل بينهما، ولم يرع للصداقة ذمامها ولا للعلم حقوقه، وان كان الباديء أظلم، قال غفر الله لهما:

«نشر الاستاذ كرد علي جزئين من مذكراته ضمنهما ترجمة حياته، وهي حياة طويلة حافلة، فقد عاش الاستاذ في أوساط مختلفة، ورحل رحلات كثيرة في الشرق والغرب، وانغمس في السياسة واكتوى بنارها، واشتغل بالصحافة مدة طويلة، والصحافة من أكبر المدارس في معرفة الحياة وألوانها، وصادق كثيرا من رجال الادب والسياسة والعلم والمال والاعمال، وخبرهم وأطال عشرتهم، وعمر بحمد الله عمرا طويلا، فقد ذكر في مذكراته أنه في عشر الثمانين، وتقلب في مناصب كبيرة حتى كان وزيرا أكثر من خمس سنوات، فالمذكرات مظنة الافادة والامتع، وقد صاحبت الاستاذ كرد علي مدة طويلة: جالسته في مجمع فؤاد الاول في مصر واستمعت الى آرائه وبحوثه، وجالسته في لجنة التأليف والترجمة يوم كان يغشاها، وفي مجمع دمشق أيام كنت أزورها، وكونت فيه رأيا بعد طول الخبرة، هو أنه واسع الاطلاع على الكتب العربية، عليم بمصادر الموضوعات المختلفة وبخزائن الكتب، وهي شيمة أخذها من أستاذه الشيخ طاهر الجزائري، فقد كان رحمه الله بحثة في الكتب، عليما بخفاياها، حسن التقدير لغتها وسميها، وقد أفاد الاستاذ كرد علي العالم العربي بما ألفه في هذه الناحية ككتابه «خطط الشام» وبما نشر من كتب من مثل رسائل البلغاء وأخبار أحمد بن طولون • ولكنه اذا عدا هذا الطور، فتعرض

لبحث مبتكر أو لنقد لما قرأ ، أو تعقيب على قول ، لم يعجبني كثيرا لا في آرائه ولا أسلوبه • فأراه لا تصدر عن أفق واسع ولا نظر شامل ولا عمق كاف ، وأسلوبه متعثر ليس فيه رونق أو صفاء ، ونكاته ونوادره تستجلب الضحك عليها لا الضحك منها ، وكنت لا أرتاح لكثير من تصرفاته ، فهو اذا لقي أحدا من معارفه عانقه ، وبالغ في مدحه في وجهه حتى يخجله ، وأنتى على تأليفه وكتبه ، ولو لم يكن له تأليف ولا كتاب ، والله أعلم بما يقوله من ورائه ، وجاءت مذكراته هذه مصداقا لما أقول من قلة الذوق وسخافة في الحكم وتقويم ما ليست له قيمة وتحقير ما له قيمة ، وهؤلاء المصريون الذين كان يلقاهم فيعانتهم ويشيد بذكرهم قد انقلب عليهم انقلابا عجيبا لسبب عجيب أيضا • أسوق لذلك مثلا لطيفا ، فقد كتب في الجزء الثاني مقالا عنوانه : (كتاب الى حبيب) كتبه الى معالي محمد حلمي باشا يصب نغمته على أدياء مصر ويسبهم ويقدم فيهم أفضح القبح ، ولماذا ؟ لأنهم لم يقرظوا كتبه ، ولم يشيدوا بذكره ، أو نحو ذلك من توافه الأسباب • اسمعه يقول :

« وماذا أقول في مجلاتكم وصحفكم ، وأحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة بعد أن كان يكتب لي أنه كان لقيَ فرفته ، تنكر لي بأخرة ، وأعمته التجارة وجمع الأرباح ، ونسي أصحابه ومن عاونوه على اكتساب الشهرة ، وصديقي أحمد أمين كأكثر المشتغلين بالعلم في مصر أشغل من ذات النحيين ، ما سمعت منه كلمة طيبة لا باللسان ولا بالقلم منذ عرفته ، وأنا شهد الله ما تركت باباً من أبواب الدعاية له منذ ظهوره في التأليف • سأله أحد تلاميذه من الحلبيين عن رأيه في ، فقال : تسألني رأيي في بلدك ؟ انه أعرف المعاصرين بالمصادر • وهناك في مجمع فؤاد الأول من هم عجيبة الزملاء ، هناك رئيسه أحمد لطفي السيد باشا الفيلسوف ، وكثيراً ما نوهت به وأردت اخواني في المجمع العلمي العربي من أول تأسيسه أن يختاروه عضوا مراسلا فانتخبوه ، وما تنازل أن يحييهم بكلمة شكر فيما أذكر ، ولم يغلط خلال خمسين سنة أن يقابل جميلا بمثله ، كأنه

يعتقد أن ما أقوم به نحوه واجبي ، وأنه من عالم غير هذا العالم ، وشتان نقله
وخفتي ، وفرق بين جنسيتي وجنسيته ، وهو مصري وأنا شامي • ثم أبان
سبب سخطه عليه فذكر أن لطفي باشا دعاه وزملاءه الى نادي محمد علي ،
فلحظ لطفي باشا أن بين الأعضاء الأجانب رجلا له لقب وزير ، فدعاه الى
الجلوس في مقام التكرمة ، وترك كرد علي وصحبه • وأغرب من ذلك كله
قسوته على الاستاذ محمود شلتوت ، أتدري السبب ؟ انه سبب يستوجب
الاستغراق في الضحك من غير شك ، قال حفظه الله : كان الشيخ محمود
شلتوت لي صديقاً قديماً عرفته في دار آل عبدالرزاق الأكارم ، ولما اضطره
الشيخ الظواهري في الأزهر كنت من أول الحانقين عليه ، ولما نفس خناقه
وأعيد الى منصبه فرحت له كثيرا • أتدري ماذا كان مقامي عند عضو جماعة
كبار العلماء ؟ كان منه أن أهداني كتابا له ، وكتب على ظهره (آية لصاحب
العزة فلان) أحسبه كان يريد أن يلقبه بصاحب المعالي بدلا من صاحب العزة
ثم قال الاستاذ أحمد أمين : هذا ما جناه الاستاذ شلتوت وما استحق من أجله
من الاستاذ كرد علي اللوم والتعنيف والتأيب حتى ختم ذلك بقوله : ان
المباينات بين أرباب العمائم وأرباب الطرابيش قديمة لاتحتاج الى بيان •
وهكذا وهكذا من أمثال هذه الاحكام العجيبة للاسباب الغريبة ، ألا يدري
الاستاذ أن الحكم على الاشخاص اذا كان ميزانه مدحا للكتاب أو عدم مدحه ،
أو الافراط في الالقاب أو التقصير فيها ، أو نحو ذلك من توافه الامور ، كان
حكما سخيفا لا يقام له وزن ، وكان أشبه ما يكون بحكم الاطفال اذ يجبون
شخصا لانه يضحك في وجوههم أو يقدم لهم قطعة من الحلوى • أما الرجال
العظماء أمثال الاستاذ فيمیزان الاحكام عندهم يجب ألا يكون الاحداث
الشخصية الصغيرة ، وانما قيمتهم الحقيقية وصفاتهم الذاتية ، ولو حكم على
جمال الدين الافغاني ونابليون وبسمارك ، بل لو حكم على الانبياء والمرسلين
بميزان الاستاذ هذا ، لكانت النتيجة غريبة عجيبة ، فليس منهم الا من عبس
ولم يقرظ وانتقد احيانا في مرارة وعاقب احيانا في شدة ، ومع كل هذا لم
تدخل هذه الاعمال كلها في الميزان الصحيح للحكم عليهم ، لأنها توافه

لا يأبه بها الا التافهون ، ومن أجل هذه النظرة التافهة لم ينل أحد من اعجاب الامتاذ محمد كرد علي في مصر ما نالته جمعية (البعوكة) فقد كتب في محاسنها صفات ثناء واعجاب لم ينلها أحد من الكبراء ولا العظماء ولا المؤسسات العلمية والادبية ، ثم في الكتاب مصداق لقللة الذوق ، فهو يصف المشتغلين بالعلم في مصر بأنهم أشغل من ذات النحيين ، وأحيل الاستاذ الكبير على أي كتاب في الامثال أو على لسان العرب في مادة (نحي) ليعلم مضرب المثل وليعلم أيضا انه لا يصح أن يستعمله في مثل هذا الموضع الا من تجرد من كل ذوق • ويشاء أدبه أيضا بعد أن مدح لجنة التأليف وذكر فضلها عليه في أنها طبعت له ثلاث كتب ، وأعادت طبعها ، وعاملته معاملة حسنة - شاء أدبه بعد كل هذا أن يصفها في ثانيا المدح بأنها عصابة • ولكن لا بأس ، فالذوق شيء ليس في الكتب ويحاول الاستاذ في مذكراته أن يظهر في مظهر الوطني الكبير والمصلح العظيم والاخلاقي المثالي ، ولكن لا يلبث أن يخونه قلمه ، فيكشف عن نفسه ، ويذكر مثلا أنه عمل وزيراً مع حقي العظم والشيخ تاج الدين الحسيني خمس سنين وسبعة أشهر في ظل الانتداب الفرنسي ، ثم هو يطلق قلمه فيهما بالنقد والذم والتجريح ، ويصفهما بضعف الشخصية والمحسوبية والخضوع للسلطة الفرنسية خضوعاً تاماً مطلقاً وتنفيذ أوامرها مهما كانت ضارة بالبلاد ، الى آخر ما قاله فيهما ، والرجل الاخلاقي المثالي لا يسبح لنفسه أن يشغل الوزارة أكثر من خمس سنين مع مثل هذين الرجلين لو صدق قوله فيهما ، ان الرجل الشجاع يرفض أن يعمل مع من يعتقد أنه يضر البلاد مهما ادعى أنه يريد الإصلاح ، وأنكى من ذلك أنه يذكر أنه يشتغل معهما رغم أنفهما ، ولم يحمه في الوزارة ويضغط عليهما في ابقائه الا السلطة الفرنسية ، أيرى الاستاذ أن حب الفرنسيين لبقائه كان صادراً عن غفلة منهم ، فيظنوا فيه أنه يشايعهم ، وهو في الحقيقة يناهضهم ؟ أو أنهم يعلمون حق العلم حقائق الرجال ومن ينفعهم ومن يضرهم ، وأنهم لولا ما يجدون فيه من خدمة كبيرة لهم ما أبقوه لحظة ولا تنهزوا فرصة غضب رؤسائه عليه فأخرجوه من الوزارة مغتبطين

مسرورين • وقال : وآخر ما كنت آمله فيه أن يتحرى الصدق فيما يقول ، ولكن خاب أملي في هذا أيضا فقد رأيتَه يذكر عني حادثين أشهد بالله انهما كاذبتان ، كما يذكر كثيرا من الاحداث عن أشخاص متعددين في مصر والشام يكذبونها وينكرونها ، وأسوأ ما في هذا أنه يشكك القراء في كل ما صدر عنه حتى في كتابه تاريخ خطط الشام والحضارة الاسلامية ، فمن يدري ؟ لعله استباح لنفسه من خلق الاحداث ما استباحه في الرواية من الاحياء ، وبهذا لم يكن أساء لنفسه فقط ، ولكنه أساء الى المؤرخين جميعا الخ • • • »

وأستساء ، وربما يتساءل معي القراء : أهكذا يكون تسامح العلماء ، وبمثل هذا تفسخ روابط الصداقة ، وتحل العهود التي أخذها الله على العلماء ؟ أترى الاستاذ أحمد أمين رحمه الله يحكم هذه الاحكام عن المذكرات وصاحبها لو لم يجد فيها ذلك النقد عليه الذي وجهه ، وهو لا يخرج عن عتب الصديق ؟ وهل كان يرمي صديقه بالتزوير والكذب لو وجد اطراء وتمجيذا ، وهل من النصفة أن يتناسى الفضل ، ويبخس حق الصديق ويتهم في أماته ويرمى بالاختلاق وهو المعروف عنه بين أقرانه وأبناء عصره ومن زامله من أعضاء المجلس العلمي أنه امرؤ جنت عليه صراحته ، وانه ما عرف التقية وينعى على المتأقين ، وانه امرؤ ثبت يتحرى الصدق ويمحص الرواية ويدقق الخبر ، وقد خدم العرب والاسلام ودافع عنهما كل من تصدى لهما بالطعن أو النقد غير النزيه ؟ واتهمه بالعمالة للفرنسيين وحاشاه أن يكون عميلا ، وكل ما عرف عنه أنه كان يجب آداب اللغة الفرنسية ، ومن يقرأ الفصول التي كتبها في العمال الفرنسيين ومظالمهم في سورية وشمال افريقية والحملات التي سجلها في مذكراته وفي مجلته وجريدته ، يدرك أن الاستاذ أحمد أمين قد ظلمه وما كان في نقده منصفا • وتقسيم سورية انما هي خطة استعمارية ، وليس لمحمد كرد علي ولا لغيره رأي في اقرارها أو رفضها • والنقد ، بعد كل هذا وذاك ، لم يشخص مواطن الضعف بقدر ما أظهر تشفي صدر كاتبه وأبرز نعمته ، ومقابلة

السيئة بمنثلها واكثر منها ، وحاول عامدا أن يشكك القراء في كل ما صدر من مؤلفات محمد كرد علي التي خدمت الاسلام والعروبة ، وبرزت حضارتها ، وجلت مفاخرها القومية والانسانية .

وهذه مقتبسات من الفصل الذي كتبه الاستاذ الشاعر شفيق جبري ، عميد كلية الآداب بدمشق سابقا ، وأحد أعضاء المجمع العلمي العربي وزميل محمد كرد علي في نواحي كثيرة من حياته أيام وزاراته وأيام رئاسته للمجمع وغيرها ، وقد قرأ ما كتب وألف ، ونقده في مواضع كثيرة ، فلأحكامه ونقده اعتبارات تحمل في تضاعيف سطورها الانصاف والصدق والحق ، قال :

« افتتح محمد كرد علي حياته بضوضاء وختمها بضوضاء ، ولكن شتان بين الفاتحة والخاتمة . لقد درس المجتمع في أول حياته مجردا من رجاله ، تعرض لأخلاق المجتمع وحدها ولأوضاعها وحدها ، فكتب له بعض التأثير في هذا المجتمع . ثم درسه في آخر حياته في رجالهم أنفسهم . تعرض لأخلاق رجال بأسمائهم وأوضاع أناس بأعيانهم ، فغثر بعض العثار ، فلم يكن في التخصيص مثل توفيقه في التعميم ، لأنه في التعميم عمل بعقله وحده فأصاب ، وفي التخصيص عمل بمزاجه بلحمه ودمه بعصبه وعظمه ، فكان لهذا المزاج بعض الاثر في جملة من اعوجاجات ظهرت في طائفة من مذكراته » . وقال : « اذا كنت قد أفردت فصلا للكلام على مذكرات كرد علي ، فالسبب في هذا الافراد أن كتاب المذكرات لما صدر قد ترك دويا ، فهل نشأ هذا الدوي عن اسلوب الكتاب ، أم عن موضوعاته ؟ ولا بأس ان نجيب عن هذا السؤال بالرجوع الى مقدمة المذكرات ، لنرى ما هو الغرض الذي رمى اليه صاحبها . قال كرد علي في أول سطر : « وليس الموضوع الذي أعالجه الآن ذا مكانة كبرى في ذاته اذا نظر اليه أنه مذكرات شخصية كتبها رجل ما كان في مقام تشخص أبصار العالم اليه ، ولا هو من أمة كان له التقديم والتأخير في مجرى سياستها » . واقتبس فقرات وجملا مما كتبه

كرد علي عن موضوع المذكرات سبق لي اقتباسها والاشارة اليها •
قال : « هذه هي الغاية التي رمى اليها كرد علي في مذكراته ، وهي
غاية لا غموض فيها ، صريحة لا لبس عليها • انه كما قال في مزاجه مرة :
من لحم ودم وعصب وعظم ، فهو يسخط كما يسخط الناس ، ويرضى كما
يرضى الناس ، ويحب كما يحب الناس ، ويبغض كما يبغض الناس ، فهو
لا يختلف من هذه الناحية عن البشر ، فلم يشأ أن يرتفع عن هذا البشر في
غضبه ورضاه ، في حبه وبغضه ، لا يريد أن يفارق الدنيا وفي نفسه آلام لم
يفشها • انه يريد أن يجازي السيئة بسيئة مثلها » • وقال : « ولكن الذي
نريد أن نعرفه : هل دون الحق مطلقا من كل أثر من آثار اللحم والدم
والعصب والعظم ، أم دون هذا الحق بحسب شعوره الخاص وحواسه
الخاصة ؟ ولنبحث عن موطن من مواطن هذا الحق •

« حاضر مرة سنة ١٩١٩ ، أي لما كان الأمير فيصل في بلاد الشام ،
فقال : « فأمرنا هو الذي وضع المسألة العربية على بساط البحث ، ووجه
اليها أنظار العالم الغربي ، وكانت مسألتنا من قبل مدمجة في المسألة الشرقية •
فميز بصحة عقله بين المسألتين الشرقية والعربية النخ • ثم عاد بعد تسع
وعشرين سنة فكتب في الجزء الثاني من مذكراته سطورا ، عنوانها (رأي
سديد) أشار فيها الى كتاب ورد عليه من الأمير فيصل من باريز ، قال فيه :
« وفي الكتاب برنامج يجب الجري عليه في الشام من دعاية معتدلة لا تمس
حكومة من الحكومات ، وكان كل ما قاله سديدا ، وأنا أقر هنا بأنني كنت
أشك في بعض أقواله ، ولكن الايام أثبتت أنه كان يعرف ما لانعرف ، وكان
لا يرى أن ييوح بالحقيقة كلها ، ونحن كنا على أحر من الجمر لانعرف
مسيرنا • قيدت هذا هنا لأخلص منه الى القول بأن ما يعرفه الملوك قد لا يعرفه
السوقة ، رحم الله الملك فيصل عداد حسناته وأياديه البيض على العرب »
فقال الاستاذ شفيق جبيري : « هل من مدح أرفع من هذا المدح ؟ أتمدح
الملوك بأكثر من صحة عقولها وسداد آرائها وأيادها البيض على رعاياها ؟
فلننظر بعد هذا الذي قال كرد علي في فيصل قبل سنة من هذا القول ، أي

في الجزء الاول من مذكراته ، فقد عقد له فصلا طويلا جاء في بعضه :
« وأكثر ما ضر بذلك الملك وعجل في القضاء عليه الاعتماد على الصعاليك
الأعمار ، ومعظمهم أطفال في السياسة يريدون الظهور والانتفاع قبل كل
شيء » ، وقال في هذا الفصل نفسه : « ومن أسباب زوال ملك فيصل من
الشام ضعف ارادته ، ومن ضعف ارادته انه كان من أسرع ما يكون الى
نقض القانون فيعفو في الحال عن التمس منه الصفح عنه » فكيف يمدح
هذا الامير بصحة عقله وسداد رأيه وأياديه البيض على العرب ، ثم يصير هذا
كله الى ضعف الارادة وسوء السياسة ؟ ولنسرع بعد هذا الى موطن آخر من
مواطن الحق الذي دونه الاستاذ محمد كرد علي نرى في الجزء الثالث هذا
العنوان : « بطل دمشق » ، ومن يقرأ هذا العنوان يبادر ذهنه من فوره الى
البطولة وفضيلتها ، ولكن من هو هذا البطل ؟ « هو الزعيم حسني الزعيم قائد
الجيش السوري الذي ثار على الظلم وغضب للحق وقضى على من أفسدوا
عمود الحكم ، وما استعان بالأجنبي على تحقيق غرضه الشريف ، فعد المنقذ
الاعظم حقا وصدقا » هو الزعيم ابن دمشق الذي أدهش العالم بثورته ، فقد
وثب وثبة جبارة للنهوض بسورية ، فحق لوالده صديقي الشهيد العلامة
الشيخ رضا الزعيم أن يعقب في قبره بأن انجب للعرب مثل هذا النجب » ♦
ثم نجد في الجزء الرابع من المذكرات بلاغين أصدرهما قائد الجيش
والقوى المسلحة الزعيم سامي الحناوي ، بعد مقتل الزعيم حسني الزعيم ،
وردت في البلاغ الأول هذه العبارات في سياسة حسني الزعيم : « ولكنه
ما لبث حتى امتسبت له الامور أن أخذ يتناول هو وجيشه الى أموال الامة ،
فيبدرونها بالاثم والباطل ، والى كرامة البلاد ومقدساتها فيدوسونها ويلوثونها
ويعبثون بقوانين الامة وحرقات الافراد » ♦
وورد في البلاغ الثاني هذا الكلام :

« نجت البلاد من طاغيتها المجرم الباغي الذي حاد عن الجادة
المستقيمة ، وعتا عتواً كبيراً ، بعد أن وعد المواعيد الخلافة ، وخذع الخاصة
والعامّة ، وتظاهر بحب الخير والغيرة على الوطن ، الى أن استتب له الامور ،

فكشف عن حقيقة نفسه ، وأخذ يسير البلاد بحسب أهوائه » • وفي البلاغين أشياء كثيرة من هذا القبيل يطول ذكرها ، ولقد دون كرد علي هذين البلاغين بحذافيرهما ، وقال في آخرهما : « هذا ما نشره اللواء الحناوي على الناس ، ومعظم ما قاله في المشير حسني الزعيم غير صحيح » •

فاذا كانت المذكرات كتاب تأريخ يعتمد عليه في المستقبل ، فان هذه الحاشية لا معنى لها • ان ما نسب الى حسني الزعيم ، لا يرد بقول القائل هذا غير صحيح ، انما ترد الحجة بالحجة ، وينقض الدليل بالدليل ؛ فان الذي يقول في حسني الزعيم : أدهش العالم بثورته هذا الذي انجبه والده للعرب ، ان الذي يقول فيه هذا القول لزمه أن يدافع عنه اذا نسبت اليه مساويء ، لا بل لزمه أن يدفع عن نفسه اذا كان رأيه فيه : نجيب العرب ، « الا ان كرد علي لم يفعل شيئاً من ذلك ، فهل ضاقت عليه مسالك الحجج؟ هل أعيته براهين الدفاع؟ فبأي شيء يدافع عن رجل أقل صفاته الجنون؟ » • فالاستاذ محمد كرد علي لم يدون كل حق عرفه الناس ، وانما دون كل حق أعتقد هو نفسه أنه حق وخالفه أكثر الناس فيه ، دون حقا صادف هوى في نفسه ، وكان باطلا في نفوس الناس من هذا الشكل رأيه في حسني الزعيم » • وقال :

هذه نماذج من الحق أراد كرد علي تدوينه في مذكراته ، واذا شئنا أن نبحث عن مثل هذه النقائص في (كتاب المذكرات) رأينا منها شيئا كثيرا ، وكان صاحب المذكرات شعر بنقائضه ، فقال في موضع من مواضع مذكراته في سطور عنوانها أنا والعقيدة : « أما بعد ، فلا يطلب ممن كثر اطلاعه على الآراء المختلفة أن يظل على رأي واحد طول عمره في عويص المسائل » وما وجه الاستغراب في ذلك؟ قد ترى الرأي ، فتكشف لك أمور كانت غامضة عنك ، فترجع عن رأيك الاول ، وقد تحكم على شخص أو زعيم كأمثال حسني الزعيم فاذا تولى أهلك الحرث والنسل • كم من العسكريين الثائرين حملتهم شعوبهم على أكفهم ، وهتفوا بوطنيتهم ، وحيوهم بالتجلة والتكريم ، وما هي الا أيام واذا به ينحرف عن مبادئ ثورته ، واذا به لاهم

له الا أن يكون الأوحى ، ولو أغرق البلاد ببحر من الدماء • فما ذنب محمد كرد علي اذا اشتملت مذكراته على أحكام آخرها يناقض أولها ، والمرء يخلق طوراً بعد أطوار » • في رأيي انها أخبار مروية وليست أحكاما •

وقال الاستاذ شفيق : « على أنه ليس من الانصاف في شيء أن نقول في مذكرات كرد علي انها كلها على هذا الشكل من النقائص ، فقد اشتملت من جهة ثانية على طائفة من صور صحيحة غلبت العvisية على تصويرها ، ولكن غلب الحق أيضا على هذا التصوير • وكيف كان الأمر ، فان الناحية التي برز فيها كرد علي في مذكراته انما هي جملة من الخواطر العامة التي ليس فيها تعريض بأشخاص بأعيانهم ، وقد حملته الجرأة في بعض المواطن على التعرض لموضوعات لا يسهل على كل واحد التعرض لها ، من هذا النحو قوله في فصل عنوانه « مع مواطنينا » : ألفت الحكومة مجلسا للميرة ، فكان رؤساؤه ومرؤوسوه من النصارى ، فزار أحد الظرفاء مكاتبه في دار الحكومة ، فلما وقع نظره على المستخدمين ، قال : هذه بيعة للنصارى ، لا ينقصها الا الناقوس • وقال أحد المفكرين من رجال السياسة لأحد أرباب السلطة العليا : ان تسعة وتسعين وثلاثة أرباع ممن ينتج الحنطة في سورية هم من أهل الاسلام ، أما كان من الانصاف أن تنصبوا عضوا واحدا منهم في مجلس الميرة مع مواطنيهم النصارى ، وذلك نزولا على اعتبارات ما زلتم أنتم تراعونها ، وقد جرت عادة كبار النصارى اذا وسد اليهم أمر من أمور الحكم ألا يصطنعوا غير أبناء مذهبهم ، يستكثرون من استخدامهم في مختلف درجات الاعمال ، ولا يعينون المسلم الا كارهين » •

ان مثل هذا الرأي لا يتجاسر على الاعلان به الا محمد كرد علي ، وسواء أكان هذا القول حقا أم كان غير حق ، ان الناس يتهيئون الافضاء به جهراً في بلاد يقيم بها أصحاب أديان مختلفة ، لأنه قد يؤدي الى شيء من التفريق » •

وقال : « لا ينبغي لنا أن نفتش في أكثر مذكرات كرد علي عن حق مدون ، والتاريخ وحده سينظر في هذا كله ، فينخله ، ويخرج الرديء من

الجيد ، والخبيث من الصالح • ولكن ماذا يهم هذا التأريخ من أمر وزراء ورؤساء وزارات وشيوخ وقضاة ، لا صلة للتأريخ بهم ، ولا ذكر لهم في هذا التأريخ اذا انتقضت حياتهم أنتقضت أخبارهم » •

أعجب لهذا الرأي الذي يقول به الاستاذ شفيق جبري والتأريخ ما هو اذا لم يُعن بأعمال الوزراء ورؤساء وزارات وشيوخ وقضاة ؟ أليست أعمالهم هي مادة التأريخ ؟ وهذه هي المادة الحية في التأريخ السياسي ، سجل المرحوم أفعال هؤلاء الذين أداروا الحكم في سورية بعضهم أو كلهم ، وأثروا في حياتها السياسية والاجتماعية ، وكانوا سببا في تخلف هذا القطر أم تقدمه ، فصورهم في الصورة التي رأهم فيها ، وندد بأعمالهم ، وربما كان في تنديده شيء من ارضاء نفسه ، الا أنه أدى مادة للتأريخ يغربلها المؤرخ المنصف بعد حين ، وكان عليه أن يتذكر قوله : « ان من اعظم العوامل في ترقية المجتمع بأخلاقه وعلمه نقد المساويء ونشر المحاسن » •

وقال : « ان موضوعات المذكرات كثيرة ، فيها كل شيء ، فيها أدب واجتماع وأخلاق وسياسة وتأريخ • فلماذا تقتصر على الالتفات الى هتك الاستار ، ونهمل هذه الموضوعات كلها ، لتبعد قليلا عن هذه الاستار المهتوكة ؟ » وقال :

« ولنضرب مثلا نظرتة للشعر والتأريخ ، وهما موضوع محاضرتة التي ألقاها في حلب ، وناقش آراءه حول الأدب والتأريخ ، ورد عليه أن يكون التأريخ مجردا من العاطفة » •

وقال : « اننا نعتقد أن أكثر المؤرخين يكتبون بعواطفهم لا بعقولهم ، فقد تمر بهم أشياء فيها محاسن لا تصادف هوى في قلوبهم ، فيكتبونها بحسب أمر جنهم لا بحسب حقائقها ، وقد تمر بهم أمور توافق اهواءهم وفيها مقابح كثيرة ، فيجعلون سيئاتها حسنات • فتجريد التأريخ من العاطفة لا يخلو من بعض المبالغة » • ودافع عن الشعر دفاع الشاعر المتحمس لمادته المعتز بشعره ، وختم نقده بقوله :

« هذا بعض ما عن لي من القول في مذكرات فيها خطأ كثير وصواب

كثير ، ، فيها انحرافات كثيرة وحقائق كثيرة ، رحم الله صاحب هذا الصواب
وهذه الحقائق ، وتجاوز عن خطئه وانحرافاته ، ولا أسميها انحرافات ،
وانما هي الصراحة المكشوفة والطبيعة التي جبل عليها المرحوم محمد كرد
علي ، وكان له في التورية والمعاريض غنى » •

وكتب الدكتور سامي الدهان عن هذه المذكرات في كتابه (محمد كرد
علي : حياته وآثاره) ، وهو كتاب مختصر نشره في ذكرى وفاة محمد كرد
علي ، قال :

« المذكرات أربعة أجزاء في ١٣٢٠ صفحة ، نشر بدمشق سنة
١٩٤٨ - ١٩٥١ • راج اسلوب المذكرات في العصر الحاضر على غرار الآداب
الغربية مما كتبه روسو وغيره ، فأصدر الدكتور طه حسين (الايام) ،
والمازني رسم حياته في كثير من فصول كتبه ، وأنشأ أحمد أمين وغيره في
تقليد هذا الطراز • أما الاستاذ كرد علي ، فدعاش في بيآت مختلفة ، ورأى
دولا عدة وأقطارا متباينة ، فرسم حياته وما وقع له خلال هذه الحياة في
الشرق والغرب على شكل مقالات لا يربط بينها الا أنها من ذاكرته ، وقد
تحدث فيها عن اسفاره ووزارته وهجرته من الشام وموقف الحكومات
التركية والفرنسية والانكليزية وعملائها منه • وما صنعه في سبيل بلاده
وما يؤخذ عليه من أخطاء ، والكتاب صريح جريء ، يصف ما للرجل
وما عليه ، وهو شبيه بمذكرات الغربيين لولا أنه غير مرتب على التاريخ وليس
مبواباً على الموضوعات ، فكأنه مجموعة أفكار تعرض له ، فيمليها ويرسلها الى
المطبعة • وقد فضح الكتاب أسماء كثيرة ، ومدح شخصيات عجيبة ، وغلبت
عليه العاطفة ، فقد بدأ بتدوين هذه المذكرات حوالي سنة ١٩٣٨ وسنه قد
زادت على الستين وذاكرته ما تزال قوية تسجل دقائق الاشياء ومنسي الالوان
وشتيت التفاصيل والملاحظات ، وقد انقسم الناس في هذه المذكرات الى مجذ
ومستنكر لغلبة الهجوم فيها على بعض السياسيين والحزبيين من رؤساء
ومرؤوسين ، ولكنها تنفع المؤرخ وتفيد الباحث ، فتفصل ما أهمله التاريخ ،

وتتوسع في تصوير العصر ، فكأنها تنمة لخطط الشام ، وتاريخ لصدر القرن العشرين على أسلوب المذكرات • أما الهجاء ، فيذهب مع الريح ، وتبقى الصور الحقة في أمور الدولة العثمانية وأسرار الانتداب ومزايا الاستقلال وفي موقفه من هذه العهود جميعا • وقد لخص ذلك بقوله : « ولا أمثل لما يدعوني معاناة ما أعانيه الا بمسألتين ، صرفت فيهما جانبا من اهتمامي منذ وعيت على نفسي ، وهما الاستثمار التركي ببلاد العرب والاستعمار الافرنسي في بلاد الاسلام » وظل يكتب في المذكرات حتى أواخر أيامه ، ووعد أنه لا يشني عنها قائلا : « ما دمت أتمكن من مسك القلم ، وأصبر على التحديق في الخطوط التي أخطها » • وكان وفيا للوعد ما وقت له الأيام • وكان على أن يظهر الجزء الخامس والسادس بعده لو عاش لهما ، ولكن العمر قصير والزمان غادر ، فسكت اللسان عن اكمال مابدا ، ووقف بيانه عن كشف سائر المؤامرات التي حيكت ضده خلال حياته » •

هذا كلام أستاذ جامعي عرف بدقة البحث وسداد الرأي ، فأنصف الاستاذ الرئيس أستاذ الجيل في سورية ، ولم يشأ أن يتناول على رجل خدم بلاده وجنى من وراء خدمته خيرا قليلا وشرا كثيرا على حد قوله ، وأصبح لا يملك قولا ولا ردا ، ولا نفعا ولا ضرا ، انتصف من خصومه بذكر مساويهم ، ولم يستر عليهم ، ولم يهرب سلطانهم كما لم يخش أعلامهم « ومن ذا الذي ترضي سجاياها كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه » •

ومن المذكرات ما كتبه الاستاذ محمد كرد علي بعنوان : « سياستي مع المتدينين » يعني بهم المندوبين الساميين الفرنسيين : قال : « قامت سياستي مع المتدينين على الصراحة التي لا أستطيع الخروج منها ولو حاولته ، وعلى صدق العمل وصدق القول ، فكانوا أحيانا يعجبون بما يسمعون مني ويصدقوني كما أصدقهم على الأغلب ، وبالغفون باحترامي ورفع مقامي • جرت بيني وبين المسيو « روبر دى كر » أمين السر العام في المفوضية العليا محادثات ومجاورات اقتضاها وجودي في الخدمة ،

وكان كثيرا ما يذكر ما لي من صراحة ويصارعني بأشياء ما أظن يصارع بها
 كثيرين ، ويخاطبني اذا خلونا بأنفسنا بدون ألقاب وبصيغة المفرد مخاطبة
 الصديق صديقه ، وكان قبل أن يتولى منصبه صحفيا ، وقلت له مرة : ان
 الصحافة توصل الى كل شيء ، فقال : هذه كلمتي وأنا أبو عذرها ، وزارني
 مرة في المجمع العلمي وغبطني على اقامتي ، وقال لي : انه يتمنى أن يكون
 مثلي في دائرة صغيرة كدائرتي ، يتوفر على اصلاحها ، ولا تحب نفسه القيام
 بأمور لم يخلق لها وان عدت في العرف كبيرة • وكان وقف له على باب
 المجمع موقف التعظيم ثلثة من رجال الشرطة يحيونه بصفته وكيل المفوض
 السامي ، فقال : لا أحب هذه المظاهر وما خلقت لهذه القيود المتعبة • وسألني
 مرة : لماذا لا ترشح نفسك عضوا للمجلس النيابي ؟ فاني بما أعرف من
 محبة الاهالي لك ينتخبونك للنيابة عنهم • فقلت له : اني أحب تقسيم
 الاعمال ، واعقد النجاح فيه ، فأنا أستطيع أن أبر شؤون المعارف وأرأس
 المجمع العلمي ، ودخولي في النيابة يخرجني عن خطتي واختصاصي ، وأرى
 غيري أحق مني بأن يتولى النيابة عن الأمة ، فقال : ان من اعتاد مثلك ممارسة
 القضايا العلمية المقررة ، يصعب عليه أن يكون بوقا لغيره ، ولما انفصل عن
 منصبه في سورية ، وأصبح عضوا عن دولته أمام جمعية الامم للدفاع عن
 الانتداب في سورية ولبنان ، كان كل سنة يعود الى ديارنا ليتزود بالمعلومات
 الجديدة لتقريره السنوي عن الانتداب ، وكان يطلب مني كل مرة أن يتحدث
 الي ، فأذكر له ما كان الأهالي يشكون منه ، وتتكلم بحرية كلام اثنين يهمهما
 نجاح أمر البلاد • وجاء في بعض السنين يطلب مني الاجتماع به كالعادة ،
 فخففت اليه ، وكانت سورية تغلي كالمرجل ، والاهلون على أحر من الجمر
 من التسوية في حل قضيتهم ، وقد سئمت تبدل أوضاع الحكم علي غير
 جدوى ، وأشرف الساحل والداخل على الافلاس لما منينا به من بليلة
 التقسيم ، ونكبة النقد المترزل الاسعار ، وبما نصب في الحدود من الحواجز
 الجمركية ، وأحببت التوسع في القول مع صاحبي لعلمي بسعة صدره وسعة
 علمه ، وقلت عسى أن ينقل كلامي الى من يهمهم الامر ، فيكون منه بعض

النفع لهم ولأمني خصوصا وهو يعرف اخلاصي لهم وحبني لمدينتهم ، وأني لا أغش ولا أخادع ، وقلت له : اني مهما أحببتكم ، فاني أحب هذه الديار أكثر منكم ، وبلادي ومصلحة بلادي أولا ثم أتم •

وقال لي مرة : ان ما أتته فرنسا في الجزائر في القرن الماضي لاتستطيع أن تأتي مثله في سورية على هذا العهد ، ومما قلته له : لا ينجيكم من العنت ، ولا ينجي أرضنا من هذا الخراب السائرة اليه ، الا ربط لبنان بسورية ربط اتحاد أو وحدة ، فالساحل يكمل الداخل ، وكلاهما لا يعيش وحده ، ونحن لسنا متعصين على ما يصورنا بعض رجال لبنان ، ونحب أن نعيش مع اللبنانيين كما عشنا معهم أجيالا على قاعدة الحكم الذاتي ، واذا تعذر عليكم ذلك ، فنتجون من القيل والقال باعادة لبنان الى ما كان عليه من الحدود في العهد العثماني ، وتعيدون الى سورية الأصقاع التي ما كانت تعد من لبنان ، وأتم وسعتم حدوده بضمكم اليه أفضية لا يحب أهلها أن يدخلوا فيه ، مثل صيدا وصور ومرجعيون وحاصبيا وراشيا والبقاع وبعبك والحصن وعمار وطرابلس ، وطرابلس هذه منفذ سورية الطبيعي الى البحر ، وأهلها من قد رأيتم في المطالبة بالانضمام الى حكومة دمشق • فقال : ان طرابلس والحصن وعمار هي أرض لبنانية منذ القديم ، ولا سبيل الى ضمها الى سورية ، فقلت : انها ما كانت في دور من أدوار التاريخ معدودة من لبنان ، وما هي الا قسم من سورية ، وهي سورية جغرافيا وطوبوغرافيا واداريا ، فقال : انها ضمت الى لبنان منذ اثنتي عشرة سنة ، فمن ينزعها منه ؟ فقلت له : ينزعها الذي ابتدعها أول مرة ، وضمها الى لبنان بجرة قلم ، وما عليه الا أن يجري عليها قلمه مرة أخرى ، فاصفر وجهه لما سمع مني هذا ، وتأفف ، وعبس ، وأظهر تمللا ما أولته الا ان يود قطع الحديث والاكتفاء بما قلت وأن اعجل بالخروج ، وودعني وداعا فاترا باردا ما تعودته منه في الايام الماضية ، وعاد في السنة التالية وكأنه أدرك ما بدر منه في العام الماضي وأني ربما كنت متأثرا من معاملته لي على ما بيننا من صداقة ، فتوسط للاجتماع صديقي بنونور مستشار المعارف في المفوضية العليا ، فقلت له : تفضل وأبلغ المسيو دي

كراني ولا شك كما قال : ولكن أمتي صديقتي أكثر منه ،
انك تعرف حق المعرفة أنني من انصار الوحدة السورية ، وقد كتبت هذا في
بعض كتبي الاخيرة وقلته جهره ، ودعوت اليه في الملأ وما خفت ولا جنت
من التصريح في كل فرصة وفي كل مجلس بهذا الرأي • ولما ذكرت له
الوحدة في آخر جلسة لي امتعض من قولي ، وتبرم به ، وتمنى لو وجد
سبيلا ليخرجني من غرفته قبل أن انجز حديثي الذي طلبه مني ، وتجاهل
أن من طبعي ألا أقول الا ما أعرف ولا اناق ، لذلك عزمت على ألا القاه
بعدها » •



وفي الجزء الثاني من ص ٣٦٦-٣٨٧ تحدث عن علاقاته مع الفرنسيين
من مستشارين ومندوبين ساميين وزائرين ، وفيه تتجلى حقيقة علاقة الاستاذ
محمد كرد علي بفرنسة والمنتدين الذين كانوا يسيئون الى سمعتها
ويغضونها لدى الشعوب التي حكمتها عن طريق الاستعمار أمثال (ش) أحد
كبار موظفيهم في سورية ، قلت لأحد نواب فرنسة ، وقد زار الاستاذ في
دمشق أن (ش) أحد كبار موظفيكم عندنا قد ترك المجال لزوجته تستلم
هدايا المهدين ، حتى صار لها من الحلبي والجواهر ما لو عزمت أن تضعه على
أطرافها دفعة واحدة ما استطاعت ان تنهض به لكثرت ، وعندكم رجال أفضل
من هذه الطبقة التي تبغثون بها لنا ، فهلا رميتم غيرنا بجماعة المستعمرات ،
وخصصتمونا برجال يأتون من طريق فرنسة ، لا من طريق مستعمراتكم ،
وما هي أيام الا ونقل المشكو منه ، وأعاضونا عن هذا العامل بعامل مثله وأحظ
منه (ف) ، وكان هذا أسرق من فأر وذا نفس وضيعة ، حتى رضي أن
يدفع عنه رئيس الدولة أجور مبيته وثمان طعامه في الفندق أعواما ، وقلت
لأحد أصحابي منهم : ان وجود مثل هذا الموظف عار وشنار ، انه لا يمثل
نفسه ، بل يمثل دولة عظيمة ، فكيف يليق أن يستف هذا الاسفاف ؟ ومن
غريب الاتفاق أن معظم أهل الاستقامة من عمالهم لم يملكوا في ربوعنا طويلا
ليروا المصلحتين ، مصلحة امتهم ومصلحتنا » وقال : لأحد رجال الاتداب

في معرض انتقاده لسياسة الفرنسيين في سورية السياسة الجشعة المفرقة المتسفة : « وقلت له : اني أغض عن هذا التقصير ، ولكن أمرا واحدا لا يجاب عليه ، وسياستكم اقتضته ، وقد أضر بنا كثيرا ، وأعني به تقسيم سورية الى دول ، وأتم ترونها اذا أنصفتكم ، لا يتألف منها مع فلسطين وشرق الاردن أكثر من دولة صغيرة ، وقد حركتم عرق الطائفية في النفوس ، وأذكيتم جذوة التعصب الديني بين أبناء الوطن ، فزادوا تباغضا ، وهم أحوج ما يكونون أن يتحابوا ، وزدتموهم تباعدا من السواد الاعظم من السكان ومصالحتهم في التقارب والتفاهم ، واعتمدتم على غير المسلمين في دواوينكم ، فبرهنتم على تحزب لا ينطبق مع الاصول التي عرفت عنكم » • في هذا الفصل تفنيد لاتهام المرحوم الاستاذ أحمد أمين لمحمد كرد علي بمآلاته للاستعمار الفرنسي ، ورد على بطلان دعواه في موضوع تقسيم سورية الى دويلات وأنه كان موافقا لسياسة التقسيم •

الرئيس محمد كرد علي يصرح بحبه لفرنسة بحكم دراساته لأدابها ، ومعرفته للغتها ، وولعه بقراءة آراء فلاسفتها ، واعجابه بأحرارها ، ولكنه شديد الكراهية للمستعمرين من أبناءها ، كثير الانتقاد لتصرفاتهم وسوء سياستهم • وقد اصطدم مع عدد كبير منهم في أثناء وزارته ، وبحكم علاقته كان صريحا معهم لا يفض الطرف عن مسيء منهم ولو كان في ذلك جلب الأذى والحرمان له • وكتب تحت عنوان (فرنسة في شمال افريقية) ص ٧٣٦ - ٧٣٧ فصلا غفلا عن التاريخ كعاداته في فصول هذه المذكرات ، وهو نقص عجيب أن يقع من الاستاذ محمد كرد علي الدقيق في التوقيت والترتيب ، قال :

« من أفضع أنواع الاستعمار استعمار فرنسة ، قام في كل قطر احتله على نزع الثروة من أيدي المواطنين ، وعلى نشر الجهل والفساد بينهم ، وعلى تربيتهم تربية خنوع وذلة ، ليكون لها منهم الى الابد عبيد وخول يؤمرون فيطيعون بدون أخذ ورد • قرأت منذ نشأت كثيرا من كتب الثقات من

الفرنسيين في نقد مياسة فرنسة في مستعمراتها الاسلامية ، وتدبرت تلاعب ساستهم في تلك الاقطار ، فما شهدت - شهد الله - الا الظلم المجسم ، وارهاق الخلق باسم المدنية ، وآخر ما قرأته في مجلة الثقافة المصرية العدد (٤٣٨) مقالة للاستاذ عبدالجبار جوهر ذكر فيها تأريخ استعمار فرنسا للجزائر ، نقلا عن المضبطة الرسمية في نتائج فتنة الجزائر (١١ نموز ١٩٤٥) ، ونقل ما دار في المجلس الاستشاري وما قاله أحد أعضائه من الفرنسيين من أن الانتقام كان فظيعا ، ذلك أن قتل بعض الاوربيين ادى الى اعدام ٤٩ مسجوناً . ولما رأوا أن العدد لا يكفي ويلزم لاتمامه بأحد عشر شخصا ، أخذوا من صفوف المسجونين أتوا به العدد ، وقتلوهم كلهم رميا بالرصاص . وقال : ان الحاكم العام على الجزائر أجاب على سؤال وجه اليه ، فقال : ان احدى وأربعين قرية دكت بالطائرات والوحدات البحرية ، فلم ينج منها ديار ولا حيوان » .

وقال : « تلك شهادة فرنسي مسؤول في مجلس رسمي ، وهذه عقلية الفرنسيين في كل بلد نزلوه ، وطمعوا في استعمارهم . هكذا كانوا في افريقية وآسيا وأمريكا . وهكذا كانوا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين » وختم فصله قائلاً : « وأنا اعتقد اعتقادا جازما أن بلاد الاسلام ستخرج من حكم فرنسة ان لم يكن عاجلا فأجلا ، ذلك لأن ظلمها بلغ أقصى حد لا تطيقه النفوس البشرية ، ومهما استعملت فرنسة خنق الحرية في الاقطار التي استولت عليها لا بد أن ينفذ أهلها عنهم غبار الذل يوما فيتمتعون باستقلالهم الذي يحبه لهم كل انسان فيه روح الانسانية » .

من فصل للاستاذ كتيبه في الجزء الرابع ص ١٠٠٣-١٠٠٦ ردا على عتاب المستشرق الفرنسي الاستاذ ماسنيون وأود أن ابنه القاريء الكريم الى أن ماسنيون له علاقة شخصية في دوائر الاستخبارات العسكرية ، وصلاته بدوائر الاستعمار وثيقة ، ولتذكر فعالياته في لبنان يوم عمل على سلخ لبنان عن سورية ، وضم أفضية ونواحي لم تكن مرتبطة به من قبل أودع

الاستعمار الفرنسي تحت تصرفه مبالغ طائلة من الذهب ، وراح يستأجر الرؤساء والادباء والمتنفذين ، نثر على رؤوسهم الباونات الذهبية ، فاشترى أصوات الاهلين زورا وكذبا وكذبا وكذبا ضد الحكم العربي ، وكان ارساله الى بغداد زمن الدولة العثمانية من قبل دوائر الاستعمار الفرنسية ♦

« عتب علي الاستاذ ماسنيون لطعني في المذكرات باستعمار فرنسا ونعبي على ظلمها المسلمين في شمال افريقية ، وعجب أن ختمت صداقتي مع دولته بهذه الحملة المنكرة التي ما كانت تتوقع مني ، وأنا أيضا آسف أن يضطرنني ظلم الظلمة الى استعمال هذا اللسان مع فرنسة ، خصوصا وأنا أحبها وأحب شعبها ولغتها وآدابها وعلماءها ، ولي منهم أصدقاء أباهي بمحبتهم ولا أنسى لطفهم ووفاءهم ، وفي مقدمتهم العلامة ماسنيون ، وأنى لي أن اختار السكوت على أعمال الفرنسيين في بلاد الاسلام ♦ والعالم المتمدن ومنهم بعض أهالي فرنسة تألموا يوم ضرب جندهم دمشق ، وخربوا دار ندوتها وكانوا قد تحينوا وقت انعقاد مجلس النواب فخذفوه بحممهم ، ليقتضوا على المجلس ومن فيه ، دع ما أتوه من الفطائع في سائر المدن السورية ، وكل ذلك ليكرهها سورية على قبول معاهدة تنافي مصلحتها ، ولا أعرض هنا لما ارتكبه جيشهم في الثورة السورية فقتلوا الأبرياء في بيوتهم وحقولهم وفي الشوارع والساحات ، وخربوا بقنابلهم وقذائفهم جزءا مهما من مدينة دمشق ، ودكوا كثيرا من معالمها التاريخية ، ودمروا قراها واريافها ، فكانت الخسارة عظيمة لا تعوض ♦ سار الفرنسيين في حكمهم المسلمين على خطة واحدة في الظلم لم يغيروها منذ هبوا يعتدون على الشعوب الضعيفة ، يزهدون أرواح السكان بلا رحمة ، ويستصفون أرضهم بغير الحق ، ويمنعون التعليم عنهم ليقوهم بهائم في صور آدمية ، ومن هنا أتت كراهية المسلمين للاستعمار الفرنسي ولعنهم زبائنته في السر والجهر ، ومتى أحب المظلوم ظالمة ، ومتى صفا قلب المستعبد لمستعبده ؟

خالفت فرنسة في الجزائر أبسط قواعد الانسانية منذ وضعت قدمها

فيها ، وكانت سياستها من أول الفتح الى أن خضع لها القطر خضوعا كاملا تدور على نزع الاملاك من أصحابها واعطائها من لا يحسن استثمارها من الفرنسيين ارتكبوا لتحقيق هذا الغرض من أنواع الظلم ما ترتجف الاقلام من كتبه •

وما أتاه الجنرال (بليسيه) من اهلاك قبيلة بنسائها وأطفالها حرقا بالنار داخل الغار الذي التجأوا اليه يشبه ما أتاه الجنرال (أوليفا روجه) في دمشق يوم ارتحلهم عنها في العهد الاخير ، حقائق لا يجهلها السيد ماسنيون فيما أحسب ، وليس هو بحمد الله من المكابرين ، وما قول صديقي أيضا في آخر دفعة للمستعمرين وهي الفتنة التي دكوا فيها احدى واربعين قرية جزائرية أمنة في تموز ١٩٤٥ لاتهام أهلها بقتل بعض الاوربيين ، فأهلكت السلطة في الحال ستين رجلا من سكانها رميا بالرصاص ، انتخبتهم على ما اتفق بلا تحقيق ولا محاكمة ، ودمرت قراهم بالطائرات من الجو ، والوحدات البحرية من البحر ، وقدر عدد من قضاوا بهذا الطيش الاستعماري من ١٢ الى ١٥ الف » • أما الاحصاءات الوطنية ، فتقدر صرعى هذا البطش بـ ٤٥ ألف قتيل •

« رأى المستعمرون في هذه العقوبة الجائرة فرصة لآبادة جانب من الجزائريين ، ولو كان مقصدهم التأديب واحقاق الحق لسلموا المتهمين الى القضاء ، وأخرجوا الفاعلين من بين هؤلاء الالوف من الابرياء • ولكن الاستعمار الفرنسي قام في كل عصوره على الظلم • وليس مستعمرة القرن العشرين في بغيهم اقل من مستعمرة القرون قبله ، وآخر ما نقله لنا البرق من أخبار استثمارهم المقوت ما كان يوم ٣٠ حزيران ١٩٥٠ في تونس وقد أدى سمو الباي صلاة الجمعة في المسجد الكبير ، فاجتمع المسلمون يحيونه ويطالبون باستقلالهم ، فما كان من السلطة الا أن أمرت الحامية بمهاجمة المسلمين داخل المسجد وخارجه ، وأخذوا يقذفونهم بالقنابل المسيلة للدموع ، ثم انقضوا عليهم بمدافعهم الرشاشة ، فسقط مئة وعشرون قتيلًا عدا الجرحى في باحة المسجد وأمام بابه وفي الساحة الواقعة أمامه ، وصرع عدد من النساء

والاطفال برصاص مسدسات الجند ، ومن غريب ما أتته حكومة تونس المستعمرة في (تطاويس) بالوطنيين الابرياء ، ويجري الآن تعذيبهم والتنكيل بهم ، واجبارهم على الاعمال الشاقة ، وحمل القذارات ، وتركهم بدون طعام • ادون هذا والجيش الفرنسي المحتل في مراكش يضرب في مدافعه وقنابله أبرياء المراكشيين ، وسلطانهم شبه معتقل ، وقد سلب حرية ، وحيل بينه وبين رعيته ؛ لأن أمته طالبت باستقلالها ، ويكفي أن يجري اسم الاستقلال في اللسن حتى تزهق الارواح من المئين والالوف من الوطنيين ، وقد سبق لهم في شهر نيسان من سنة ١٩٤٧ أثناء زيارة السلطان محمد الخامس مدينة طنجة أن أطلقوا مدافعهم الرشاشة ، فحصلت (٥٦٣٠) من أهالي البلاد ، نعم (٥٦٣٠) قتيلًا ، ولو احصي من قتلوا في هذه الاقطار الثلاثة المنكوبة بالاستعمار الفرنسي لبلغوا ألاف الالوف ، فما قول السيد ماسينيون بهذه الفضائح التي لا تزال تتكرر في مستعمرات جمهوريته ، وكثيرا ما شاهدت عقلاء فرنسة أنفسهم ينتقدون هذه السياسة ، فكيف بي ان امتنع عن الحملة على رجال الاستعمار وقتلهم ابناء جنسي ، واني لأعتقد أن ما كتبت في هذه (المذكرات) وفي (الاسلام والحضارة العربية) وفي (القديم والحديث) في موضوع استعمار القوم يوافقني عليه ثلاثة أرباع سكان فرنسة ، ولا يتحرج المنصف منهم من القول ان معاملة المستعمرين لجماعة المسلمين هو العدوان المستديم والظلم الذي قلما شهدت البشرية أفظع منه ، وان استبداد فرنسة في الجزائر ثم في تونس ثم في مراكش كان من أشد ما عهد من ضروب الاستبداد ، وما كان لأمة أفحش جيش أعدائها القتل فيها أن تتناسى سيئاته ، لأن فيه بعض قواد فطرت قلوبهم على الرحمة ، وما وقع على المغلوبين من حيف لم يصدر عن رأي الرحماء منهم ، أحسن علماء فرنسا للانسانية ، ورجال الاستعمار من أبنائها أسأؤوا لاهل الاسلام خاصة ولكل شرقي دخلوه عامة » •

وكتب فصلا بعنوان (تدمير فرنسة بلادنا) بعد ضربها مؤخرا دمشق

وحلب وحماة وحمص واللاذقية وغيرها من البلاد الشامية العامرة ، فكان صورة من صور الوحشية البشعة التي كانت تمارسها فرنسا على يد جيوشها مع أمة عزلاء ضعيفة كل جنايتها أنها لا تحمل الذل ، وتطالب أن تعامل بكرامة ، قال :

« ضربت فرنسا أمة عزلاء ضربا قصدت به فرض معاهدة على ديارنا بالارهاب والقوة ، وادعت أن العامة في دمشق استنقزوها باحراقهم سيارة لها من سيارات النقل أمام البرلمان ، فما وسعها الا تدمير دار الندوة على رأس من فيه من النواب ، وحاولت أن يكون عدوانها ساعة اجتماع المجلس تحت قبة البرلمان ، وكان من لطف القدر أن النصاب لم يحصل ، ففضت الجلسة وتحول قسم من الحاضرين الى دار زميلهم خالد العظم ، فلما علمت الحامية باجتماعهم ، بادرت الى ضرب قصره الفخم ، فلم تصبه ، وأصابت دارا مصاحبة له فدمرتها .»

وقد أثبتت التحقيقات اثباتا لا مجال للشك فيه أن فرنسة ضربت ما ضربت ظلما وعدوانا ، فكان ما ارتكبته سببا في اخراجها من ديارنا .» وقال : « ولطالما أتوا مثل هذا العمل الأخرق في الاقطار التي استعمروها . هذا ما أتاه الفرنسيون في القرن العشرين ، وهم الذين مننوا على العالم بأنهم وضعوا حقوق الانسان ، وحرروا العالم من ظلم الملوك ، وما تأريخهم منذ ثلاث مئة سنة أكثر من اعتداء قوي على ضعيف . أما استعمارهم ، فهو من نوع الاستعمار الذي لا يغبطون عليه ، ولقد أتى زمن عليّ كنت فيه أدعو الى الأخذ من مدينة فرنسة ، واجاهر بحب فرنسة المتمدنة ، وأكره الى النفوس فرنسة المستعمرة ، ولكن العمل الاخير زهدني في مدينة أحببتها ودعوت اليها .»

كنت الى يوم ضرب دمشق أعتقد أن الرهبان والراهبات قوم استهواهم دينهم ، فتطوعوا في بث دعوته ، وأخذوا على أنفسهم خدمة الانسانية وتخفيف آلامها ، فأثبتت الكارثة الاخيرة أنهم شر أدوات الاستعمار ، وأن دعوى

بعضهم خدمة دينهم نفاق وزور ، وكيف لعمرى زينت لهم تعاليم المسيح القائمة على الرحمة والشفقة ازهاق أرواح الابرياء من مخالفيهم في الدين ، ظهرت أديار الرهبان والراهبات هذه المرة أنها ثكنات عسكرية وحصون تدمير ، وأن بعض من أووا إليها لا يختلفون عن القتلة واللصوص • روى لي ثقة أن راهبة فرنسيسكانية أشارت الى جندي سنغالي يوم ضرب دمشق في وضح النهار أن يطلق عيارا ناريا على أحد الشخصيات المعروفة وهو يجتاز الشارع ، وشوهد أحد الرهبان من أحد الاخوة المريميين يطلق من مدفع رشاش نارا حامية في حي قريب من قرية المزرة وهو متمشح بلباسه الاسود ، ثم دخل بيتا ينهب لما تراه له أنه خال من أهله ، ولو لم يرو هاتين القصتين ثقات من أصحابي ما صدقت صدور مثل هذه الفظائع من أناس يدينون بدين المحبة • وأخبرت أيضا أن المستشفى الفرنسي يوم الواقعة الكبرى ، لم يقبل أحدا ممن جرحوا يوم العدوان ، وقد ثبت أن قائد التدمير أمر بضرب المستشفى الوطني ، فارتاع المرضى وخرجوا هائمين على وجوههم الى الشوارع ، وأن بعض جنده اعتدوا على بعض المرضات ، وكان بعض المستشارين من الفرنسيين في مقدمة الجيش يطلقون نيرانهم على الاهلين ، وهم يعدون أرقى فئة من المدنيين الذين أتونا بهم لتعليمنا أصول الحكم - بزعمهم - ولم يروا من كل حكومة وطنية ومن كل مواطن الا الحرمة والاعتراف بفضلهم ، انهزموا أمام عدوهم في أرضهم أقبح هزيمة ، وانقلبوا يعدون على الآمنين في أرضنا أمام الالمان كالنعامة يوم دحورهم واستأسدو في عقر دارنا ؛ وما كان أكثرهم في الواقع الا قتلة ومشردين •

حدثني صديقي الاستاذ فخري البارودي ، وكان وكل اليه أمر رد المنهوبات الى أربابها في عاصمة سورية ، أن أكثر بيوت ضباط الفرنسيين وقوادهم ملأى بالامتعة التي سرقوها من بيوت السكان ، وأن القائد العام (الجنرال أوليفا روجه) كان مثالا مخجلا في هذا الباب ، سرق كل ما طالت يده اليه من دور الاهلين ومن دار المجلس البلدي ، وسرق في جملة

ما سرق صندوق الحديد وحمله الى منزله ، وحاول فتحه بمطرقة عظيمة ،
فما استطاع نزع قفله ، وكان فيه ستون ألف ليرة سورية • وقد سرق
مقدارا كثيرا من الكتب النادرة من خزانة المجلس ، الى غير ذلك من النفائس
التي استحل أخذها ، وما حال عظم رتبته دون أن يحشر نفسه في عداد
اللصوص • وقل أن نجا ضابط من ضباطهم من تلويث يده بالدم الحرام
والمال الحرام ، لا عجب أن تجري حكومة فرنسة على هذه الخطة العوجاء
في ديارنا وكل ديار نزلت فيها من الشرق والغرب ، وأن يستحل أفراد
جيشها أموال الضعفاء ، فان حكومتها ما زالت تتأمر على أموال رعاياها
أنفسهم • وفي اختلاساتهم في شركة بناما وستافسكي ، مثال مصغر من أخلاق
رجال السياسة والمال في فرنسة اشترك النواب والوزراء في هذه السرقات
العظيمة ، فأتوا ببرهان آخر على انحلال أمرهم « وقال : « والعلة في تقهقرها
رجال جنديتها وأرباب الاموال فيها ، عشق الضباط الأوسمة والرتب ،
تلمظوا بحلواء الغنائم فاستهانوا بأرواح من نزلوا عليهم ، واستحل المليون
كل محرم لزيادة رؤوس أموالهم » •

وختم فصله هذا بجملته صائبة من مقال لأنتول فرانس ، وصف بها
حكومات فرنسا ، والحق أنها وصف على موصوف ، لم يعد فيها الحقيقة
التي عليها فرنسا منذ قيام ثورتها الدموية وان رافقتها أفكار انسانية تحررية
لم تعرف التطبيق في أرضها ولم تزايل بطون الكتب • « أما عيوب فرنسا في
معاملتها رعاياها ومعاملتها من تنزل عليهم ، فيعرفها عقلاء أبنائها أكثر منا ،
وقد كتبوا فيها الكتب العظيمة ، ونحن نقول على حسابنا ان فرنسا بغيرسة
بعض رجالها في الشام وضيق نظرهم أصّلوا العداوة والبغضاء ، حتى في
صدور أصحابهم القدماء ، وخسروا بذلك ثقة أمة كانت تعاملهم بأمانة ،
فاضطهدوها الى نزع يدها منهم » •

ولعل فيما نقلته من أقواله وأحكامه على الاستعمار الفرنسي القدر
الكافي لتبرئته من تهمة الجنوح مع فرنسة ، ومعاونته لحكامها ، ورغبته في

حكمتها لسورية ، وما اقتبسته من مذكراته في هذا الباب ، ان هو الا غيض من فيض مما كتبه في المستعمرين الفرنسيين والسياسة الفرنسية الجائرة برغم حبه للقطها ومدنيتها وآراء أحرارها ، ورحم الله الرصافي شاعر العروبة كأنه نظر بمنظار الغيب حين توقع بطش الجيش الفرنسي بالشعب السوري ودكه لعمرانها وانتهابه لخيراتها ، وحذر المؤتمرين في فرسة أن ينخدعوا لوعودها الخادعة ، وذلك في قصيدة وجهها الى العريسي وأصحابه الذين عقدوا مؤتمرهم في باريز ، وهو المؤتمر القومي والداعي لاستقلال البلاد العربية ، قال :

قل للعريسي والأنباء شائعة ،	والصحف تروي لنا عنه الأعاجيبا :
علام تعقد في باريز مؤتمرا	ما كنت فيه برأي القوم مندوبا ؟
وهل تعمد (حقي العظم) فعلته	لما نمى خبرا (للطان) مكذوبا
اذ راح يستنجد الافرنج منتصفا	كأنه حمل يستنجد الذنبا
لو كان في غير (باريز) تألبهم	ما كنت أحسبهم قوما مناكيبا
لكن (باريز) ما زالت مطامعها	ترنو الى (الشام) تصعيدا وتصويا
ولم تنزل كل يوم من سياستها	تلقي العراقيل فيها والعراقيبا
هل يأمن القوم أن يحتل ساحتهم	جيش يدك من (الشام) الأهاضيبا ؟

* * *

وتكلم على هلال رمضان^(١) ، فقال :

كل سنة تحدث ببلدة في بلاد الاسلام من أجل اثبات هلال رمضان وشوال وذوي الحجة ، والمحاكم الشرعية حتى بعد ارتقاء علم الفلك واتقان المراصد الفلكية ، لا تزال مصرة على اثبات الهلال بالعين المجردة لا تعمد

(١) ما زلنا نعاني هذه الفوضى والانقسام وقد تولد الاختلاف والتقولات ، في رمضان هذه السنة ١٣٨٦ صامت جميع الاقطار الاسلامية على اثبات الرؤيا في السعودية يوم الجمعة وشذ العراق فصام يوم السبت وعيدت السعودية والكويت يوم الجمعة ٢٩ وافطر العراق ومصر وبقية الاقطار يوم السبت وصام آخرون يوم السبت وعيدوا يوم الاحد افسد هذا فوضى ؟

على الارصاد لأن الماضين ما عرفوا اثبات الأهلة بهذه الطرق الجديدة فلا بد من شهادة شاهدين وقد يكونان من العمص العمش ، يشهدان انما رأيا القمر ساعة ولد فيتناولان ما جرت العادة باعطائه من جعل لمن يشهد هذه الشهادة وعندما يصوم المسلمون أو يفطرون وتناقش أصحاب الفتيا في هذه المعضلة ففريق يقول برؤية العين في الاثبات وآخر يوافق على رصد القمر في المرصد ويؤكد انها أقرب الى الثقة وألقوا في هذه المعضلة الخطيرة كتبنا ورسائل وظل كل فريق مصرا على رأيه وقد قبلت مصر سيدة العالم الاسلامي في الشرع نظرية المرصد وأنقذت بلادها من الفوضى ، ولا تزال الشام متعنتة لا يعينها ان جعلت من مسألة الرؤيا مهزلة يضحك منها الاجانب • حقيقة نحن جامدون الى حد السخف لا ننزع القديم البالي بالسرعة الواجبة ولا ننزع الى الجديد النافع بدون جدال لا طائل تحته •

اسلوبه الإنشائي

أسلوب الاستاذ محمد كرد علي الترسل ، لا يعنى بالمحسنات البديعية ولا بالسجع والترصيع بدعة الصاحب وابن العميد • وكان متأثرا في رسله باستاذيه الشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري اللذين نزعا عن قلميهما أغلال الصنعة التي شاع أسلوبها من عهد القاضي الفاضل ، واستمر الكتاب يمارسونها الى أوائل القرن العشرين ، وان كان بين الكتاب من نص على الكتاب التزامهم لهذه الطريقة أمثال المفسر الكبير السيد محمود شهاب الدين الالوسي والأفغاني والعلامة السيد محمود شكري ، فقد كانوا من أوائل الكتاب الذين تحرروا من أغلال السجع بالرغم من وجود بعض أنصار هذا القديم في عهد الاستاذ محمد كرد علي من زملائه وشيوخه ؛ تتجلى نزعته ضد السجع فيما كتبه الى صديقه الامير^(١) شكيب أرسلان ، وكان يزاول الكتابة على طريقة القدماء ، فكتب اليه يلومه ، قال : « وحديث السجع أنت عرفت رأيي فيه ، ولعلك تذكر أنني كنت لفت نظرك الى ما أسميت به كتاب رحلتك الى الحجاز (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى أسمى مطاف) ، وقلت لك يومئذ : ان القارىء مهما بلغ من ثقوب ذهنه لا يدرك لأول وهلة معنى هذا العنوان المسجوع الا بكثير من اجهاد الفكر ، وهكذا كدت باستمساكك بالسجع في بعض المقامات والغلو في تقييظ من ترى تقييظه أن تنسينا حسناتك في كلامك المرسل ، وأنا على ما تعلم من أحرص الناس على تخليده وتأييده (يريد الترسل) •

بحقك هل رأيت لأحد من بلغاء القرون الاولى سجعا في شيء من

(١) اجاب الامير شكيب : طالما نقيمت علينا التسجيع ، واقمت علينا من النكير بعدد انواع البديع ، وعددت سجع الحمام من قبل فجع الحمام واعتبرت نفائس الجناس من وساوس الخناس ، ثم يقول له : او لعلك حصرت السجع والجناس بفاتحة المجلة (يريد المقتبس) كقاعة الاستقبال من البيت فلا بد من مراعاة الامور الرسمية والسجع رسمي في المقدمات) •

أسماء كتبهم؟ وهذا الجاحظ وابن المقفع وهذه أسماء كتبهما ورسائلهما ، هل وجدت لهم سجعا تتقزز منه كصاحبك أبي اسحاق الصابي الذي أفسد اللغة على علو مكانته في الادب ، بما سجع ورصع؟ وأظنك موافقي على رأيي في أن السجع أضعف ملكات المؤلفين من عهد ابن العميد الى زمن أستاذنا الشيخ محمد عبده الذي قضى بقوة حكومته على استعمال السجع في الصحف والرسائل الرسمية فعد عمله أكبر حسنة من حسناته ، ولولا عمله ما دخلت اللغة في هذا الاسلوب الممتع الذي نقرؤه اليوم للمثنيين والمؤلفين ، ورجو أن تعود به اللغة الى رونقها السالف من الرشاقة والجزالة » ♦

أوضح لنا الاستاذ قراءاته والكتاب الذين تأثر بهم أسلوبه ، فكان القرآن الكريم على رأس هذه القراءات ، قال : « اني أتلو القرآن بتدبر ، قرأته على أساليب مختلفة لفهمه وتمثل بلاغته ، واني طالعت طرفا صالحا من كتب الحديث كالبخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة ، وحفظت المعلقات السبع وطرفا صالحا من دواوين العرب ، وحفظت نحو نصف ديوان المتنبي وعدة قصائد لعمر بن أبي ربيعة والبحثري وأبي تمام والرضي وابن الرومي والطغرائي والارجاني والمعري وعلي بن عبدالعزيز وغيرهم من الشعراء المحدثين والمخضرمين ، وتدارست الكامل للمبرد والعقد الفريد لابن عبد ربه والتأريخ للعتبي والمثل السائر لابن الاثير » ♦

وكان في مطلع طلبه قد حفظ مقامات الحريري ورسائل الهمداني ومقاماته ورسائل الخوارزمي وبديعية النابلسي ، فكادت هذه الكتب تفسد أسلوبه ، قال : « وما أخرجني من تكلف النسخ على منوال المتأخرين كالتقاضي الفاضل والصابي وابن الاثير ، الا الولوج بعد حين برسائل عبدالحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ والتوحيدي » وبهذه العبارة صراحة تشير الى عزوفه عن أسلوب المتأخرين الذين اتخذوا أسلوب السجع والزخرفة أسلوبا لهم ، وتعلقه بالمرسل السهل الذي يجري مع طبع الكاتب ، قال :

« وعمدت الى الكتابة المرسلة بدون تكلف الأسجاع والازدواج » ♦

وقد أوردت نماذج كثيرة من أسلوبه خلال عرضي لكتبه ، ولا سيما

في (أمرأ البيان) و (كنوز الأجداد) و (غرائب الاغتراب) ، نستشف منها الرقة في الأسلوب وانتخاب المفردات ذات الدلالة الموضوعية من غير تعقيد أو تفضيم أو تكلف ، فلا يتقصد الاستعارة أو التجنيس أو المطابقة الا اذا جاءت عفواً ولا يتصيد السجع ، ولا يجعل همه الترصيع ، وانما يرسل قلمه على طبعه ، وجمله تارة تطول وحيناً تقصر ، يُعنى بالمعاني أكثر مما يعنى بالمباني ، وربما وصف فنراه وجود عبارته ويرصع جملة ، وتلمح الاشرار في وصفه • اقرأ وصفه لباريس والمتحف السلطاني والغوطة ، وحديثه مع نفسه وذكره لشبابه ، تجد السهل الممتنع • وأحب الألفاظ الى نفسه ، ما سهل على الاذن ، ورق على اللسان ، ووقع في أسلوب القدماء واحتوتها سور القرآن ، « تغلب على كتابته فكرة الاستقصاء ، وكأنه يريد أن يذكر كل ما يعلم » فيتدفق بفيض غزير من المعاني ، وعلم كثير نتيجة مطالعته وخلاصة ما رأى وسمع •

يقول الاستاذ شفيق جبيري في الفصل الذي عقده في كتابه (محاضرات عن محمد كرد علي) ص ١٠١ ، تناول فيه فن الاستاذ محمد كرد علي ، وبعد أن أوضح أثر أساليب أساطين البيان من أمثال الجاحظ وابي حيان التوحيدي والغزالي وأضرابهم من رجال العلم والاجتماع والتاريخ والفلسفة والعمران ، وممارسته لمذاهب بيانهم ، واختمار أساليبهم في نفسه الذين أطال عشرتهم وقرأ لهم كثيراً ، قال :

« ولكن هذا البيان الرائع في أكثره قد عملت فيه عوامل ثانية غير الذي ذكرناه ، فلسنا نشك في أن عناية محمد كرد علي بمطالعه للكثير من كتب الفرنجة كان لها أثر كبير في أسلوبه ، فقد أعطته هذه الكتب في كثير من مواطن كلامه دقة في التعبير ووضوحاً في التصوير ، فأضيفت هذه الخصائص الى خصائص أعطته اياها كتب البلغاء من العرب ، فازداد رونقها وعظمت روعتها » •

« هذا ولا ينبغي لنا أن ننسى أن محمد كرد علي قد مارس الصحافة زمناً طويلاً ، فزادت هذه الصناعة في بديهته لما كان يفاجأ به في معظم الاحوال

من أفكار وأخبار لا مندوحة له عن الاسراع في صياغتها ، وكما تزيد الصحافة في البديهة ، فكذلك هي تزيد في الطبع ، لأن الصحفي لا يتسع وقته للتزويق والتنميق ، فلا بد له من الانشاء على سجيته • وقد نسبها الصحافة بالمغطس في الحمام ، فكما أن الانسان يغطس في المغطس فيطرح جسمه فيه ما علق به من الوسخ ثم يخرج نظيفا نقياً ، فكذلك القلم يغطس في الصحافة فتنتقيه على ممر الايام من كثير من العيوب « لا شك أن المران والممارسة تكسب صاحبها مرونة وقدرة ولا سيما اذا مدها الكاتب بروادف من الثقافة اضافة على الاصاله في الطبع مع تمثله لأساليب الكتاب من الابناء ، لذلك وجدنا الاستاذ محمد كرد علمي قد رزق بيانا مشرقاً وأسلوباً سهلاً ، لم يتخذ أسلوب كاتب معين ، ولم يحتذ بليغا بعينه ، وانما تمثل أساليب البلغاء قدماء ومحدثين ، فصلح أسلوبه للعقل أولاً وللعاطفة ثانياً ، وأبرز ما في كتاباته السهولة والابانة والقدرة على اعطاء كل موضوع ما يستحقه ويتطابق مقتضى حاله وزمنه • أما الشعر فلم يعانه طويلاً ، ومعاناته له كانت أيام صباه ، فقد مال الى الشعر وحفظ من عيونه الشيء الكثير والعديد من القصائد ، قال :

« وكنت بدأت بنظم الشعر ، فنهاني عن تعاطيه أستاذي المبارك ، وأرادني على اتقان الانشاء فقط وما ينبغي له من الادوات ، لئلا يشغلني الشعر بلذته عن طلب العلم ، فصدعت بأمره كما كنت قبلت نصيحة والذي بترك الانشاد (الغناء) بصوت رخيم ، لان ذلك كان يعد في نظره شيئاً وضيقاً ، كما روى ذلك عن شيخه • وهكذا حرمني والدى الموسيقى ، وحرمني شيخخي الشعر » •

وان فاته قول الشعر ، فلم تفته لغته وأخيلته ، فاننا نجد في محابته لنفسه الذي نقلناه من المذكرات آخر الجزء الثاني نجد العاطفة المنسوبة والشعر المشور والأخيلة الوجدانية ، وفي المذكرات بأجزائها الأربعة وفي كتبه العديدة ووصفه لرحلاته ، الكثير مما يدخل بلغة الشعر •
كتب مودعا غوطة دمشق وقد بارحها الى الاستانة مع الوفد السوري

أوائل الحرب العظمى الاولى ، قال :

« وداعا غوطة الفيحاء ، مجلى الطبيعة ، ومغنى الأنس ، وروضة
الطيبات ، ومهبط التجليات • سلام زكي كتربتك المسكية وجمال بسطك
السندسية ، عطر كأنوار أدواحك الجنية ، وتحية طيبة تتساقط على عمرانك
تساقط الوابل والطل على جناتك الغيياء ، وحراجك الغلباء ، وأشجارك
الميلاء ، وغلتك الكثيرة الاتاء • سلام غوطة دمشق كلما غردت أطيارك ،
فملك على المشاعر سجع الحمام واليمام ، وهديل العنديل والهزار ، وتعريد
العصفور والشحرور ، كيف لا تستهوين النفس ونعيمق الغربان وتقيق
الضفادع اذا رددهما الصدى في لياليك يفسرهما القلب بمعان لا نفهم منهما
في الكور الاخرى كما يفسر في النهار ثغاء الماعز ، وجوار البقر ، وخوار
الثيران » •

أما أسلوبه في الموضوعات الاجتماعية والدعوة الاصلاحية ، فهو السهل
المتنع الذي يقصد به الابانة عن الفكرة التي يريد الافصاح عنها ، فيرسل
كتابته على سجيته على طريقة كتاب الاجتماع والاصلاح •

وهذا مقطع من مقال كتبه في المذكرات بعنوان (مدينة الرسول) ،
قال : « تأملت كثيرا في مسجد الرسول أثناء الصلاة وغيرها ، فما رأيت الا
خشوعا من جميع من يختلفون الى الحضرة النبوية الشريفة ، ولا سيما من
غير الناطقين بالعربية ، فقلت في نفسي ، وقد سمعت خطبة الجمعة وهي
لا تخرج عن حد التزهيد في العمل والاعراض عن الدنيا ، كسائر خطب
الجوامع في بلاد الاسلام خلافا لما كانت عليه سنة السلف الصالح ، ولكن
لبس الاسلام لبس الفرو مقلوبا » كما قال علي كرم الله وجهه ، فوا رحمته
لغربة الاسلام ! لو أدار هذه القوة المعنوية رجال دين سليم وعقل راجح ،
لكانت فوائد هذا الاجتماع من حيث الدين والمدنية أضعاف أضعاف فوائده
اليوم ، فكما أرسل عليه الصلاة والسلام شعاعا من نور حكمته قلب به
العالم ، وغَيَّرَ بشريعته الطاهرة الارحاء ، هكذا يحمل دعاة دينه والمؤتمنون
على ترائه وسياسة المهتدين بهديه ما تستتير به العقول في هذا المجمع ، ويعم

ضياؤه سكان الخافقين ، وهذا من القوى المهمة التي أضعتها ، وكم أضعنا مواهب وقوى » ♦

وتحدث عن (الشدة في الاصلاح)^(١) فقال :

« من يعدُّ نقد الأخلاق بما لا يروق المنتقدين غيبة وتعييبا ، هو ولا شك من الجاهلين بما تصلح عليه المجتمعات وتفسد ، ومن حكمت عليه حنيلته بالسكوت عن النقائص لا يجوز أن يقدر بمن يجب القدر فيه ، فهو ارتجاعي معطل ، يسره أن يرى قومه في عماية وغواية ، وضال مضل لا يدرك حكمة الأديان والشرائع من يجب الفوضى الى الخلق ، ويحاول ارجاعهم الى الجاهلية الاولى ، ويترك كل واحد وما يختار ، يكذب ويسرق ويعتدي ويرتكب الموبقات عامة ♦ وبعد ، فماذا كانت حال الانسانية يا ترى لولا خوف الضعيف من القوي ، وخشية الشقي من سلطانه ، وحذر المتلاعبين من كشف مساويهم ؟ لا جرم أن من يذهب الى اقرار كل أحد على هواه يعد مشعبدا ممخرقا ، دوننا في هذه المذكرات بعض آراء في الاصلاح استدعاها المقام ، معتقدين أننا لا نصل الى تزيين الحسنات الا اذا أحللتنا السيئات بكل ما فيها من قبح وشناعة وأنحينا على من يعبث بحقوق الجماعة اعتقادا منا بأن ذلك اللص الذي دللنا عليه لو كان عمله لا يتعدى الا نفسه لطوبناه على غره ♦ أما وسيئاته تتناول الأمة ، فنحن لا نبالي بمن يجادلنا فيما لا سبيل الى الجدل فيه ، وشأننا معه شأن الجراح يقبض بيده على المبضع يشق الجرح النغار ، لا تأخذه شفقة بصاحبه أو يخرج من جسمه المادة القاتلة » ♦

وتحت عنوان (الاشتراكية في مصر)^(٢) كتب :

« الاستاذ عبدالرحمن البيلي من وزراء مصر ومن رجال المحاماة فيها ،

(١) المذكرات ص ٩٩٠ ♦

(٢) المذكرات ٨٥٣

رزقه الله الغنى فأحسن التصرف به ، وأخرجت منه التجارب والدرس اشتراكيا معتدلا ، لا من الصنف الذي يدعو الى الاشتراكية باللسان وهو في ذاته من أقصى أرباب الأموال ، هو يشارك فلاحيه في نعمته مشاركة لا تنقص من ماله وتزيد في ريع مزرعته ، هو من طبقة تنظر الى المستقبل بعين البصيرة ، وتدرك أن الغني اذا لم يعطف على الفقير ، فالعاقبة عليه وخيمة • وآخر ما ذكرت الصحف من أعمال هذه الدراكة أن اتخذ من يوم النصف من شعبان من كل سنة يوم بر ، وجعل من بره تزويج خمسة شبان من أبناءقريته على نفقته الخاصة ، يقدم لهم هدية العرس من ماله ، وهي مسكن صحي لطيف مع جهازه وأدواته وفرشه وبقرة حلوب ، يعمل هذا ويقول : نحن في عصر جديد ، يجب أن تكون فيه محبة الزارع للمالك هي الراية الشرعية التي تنضوي تحتها القلوب •

لا جرم ان الاستاذ البيلي هو المالك الحقيقي للارض بما يصنع من خير لمزارعيه ، ينفعهم ويتنفع بهم ، وسيقطف هو وأولاده ثمرة ما تجود يده على الفقراء ، يتمتعهم بما يتمتع هو به ، وينقلهم بجميل صنعه الى حالة من العيش لو حصل عليها جمهرة أرباب الزرع ما كان الفرق كثيرا بين فقير وغني ، ولما خشى الاغنياء غدرات النظم الجديدة • وقال : « ان ثلاثة أرباع المصريين من الفلاحين والعمال وصغار الزراع يعيشون في فقر مدقع ، يفتك بهم الجوع والمرض ، لا يجدون حتى عيش الكفاف ، بل لا يجدون جرعة من الماء الصالح للشرب ، وان اجور العمال في الزراعة قد بلغت من التفاهة حدا يهبط الى مستوى الحيوان او ما هو دونه بكثير ، وان الثروة الزراعية في مصر موزعة توزيعا عجيبا ، فيينا نجد ملاك الارض يقرب عددهم من مليونين ونصف مليون نجد ان من هذا للعدد نحو مليونين لا يزيد متوسط ما يملكه الواحد على عشرة قراريط » كتب هذا سنة ١٩٤٩ • قال : « وما زلت أقول للمصريين ان في تسعة عشر مليونا يشقون اباا لينعم مليون من السكان ، وان من السخف أن يصرف مليون جنيه على فتح شارع في القاهرة أو الاسكندرية للتباهي ، ولا يصلح ماء الشرب للفلاح ، ولا تعنى

الحكومة بتعليمه لتخرجه من البهيمية الى الانسانية ، واذا قلت : سكان الريف ، فانما اعني مصر بأجمعها اذ يمثلون ٨٠٪ من مجموع السكان ، وتقوم على أكتافهم وسواعدهم النهضة الزراعية والصناعية والعمرائية ، ومن بينهم ينبت القادة وجنود الوطن وعدته في الدفاع ، وفي النشاط التنفيذي والمهني ، وفي كل ميادين العمل ، ومدارج الكفاية البشرية وبناء مصر الحديثة الناهضة ، يقوم على دعامة أولى هي النهضة بالريف وتهيئة وسائل الحياة الكريمة لسكانه وفي هذا الميدان ينبغي ان تتجه جهودنا جميعا وفي كل بقعة من بقاع الريف وكل قرية من قرأه يجب أن تتوافر المرافق العامة الانتاجية والاجتماعية والصحية والثقافية والعمرائية » ♦

هذا الذي دعا اليه المصلح محمد كرد علي قبل عشرين سنة أو يزيد ، هو ما قام بتحقيقه واقامة معلمه في ربوع مصر رائد القومية العربية ومفجر نورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ جمال عبدالناصر فحول المجتمع المصري الى مجتمع اشتراكي ، تتحقق فيه الكفاية للمواطن المصري ، وتكفل له عيش الكرامة ، وتعلمه العزة ، وتخرجه من الخنوع والمذلة مذلة الحاجة وحيرة الجهل وضنى المرض ، وحول القطر المصري الى قطر صناعي زراعي يسعى للاكتفاء الذاتي ، وقد حصل على ما أراد ، ورفع الدخل القومي الى أمثال أمثال ما كان عليه ، وانتزع الملكية الكبيرة في الارض ووزعها على صغار الزراع ، وأمم المصانع والشركات الاجنبية ، وأشرك العامل في الارباح ، ورفع الاجور ، ووضع حدا ادنى لاجر العامل ليمنع استغلال اصحاب رؤوس الاموال ، وأوجد من الشعب المصري شعبا يحافظ على كرامته ويدافع عن استقلاله ، وأصبح يعمل لتحرير الاجزاء المنكوبة بالاستعمار ، ويسهم فعليا باستتاب السلام العالمي ، حتى رفع اسم مصر والامة العربية عاليا ♦

هذه شذرات أختارها من أقواله وكتاباتاته التي نشرها في مذكراته وكتبه المختلفة ♦ قال : « انك تستغل بالعبث ، اذا حاولت أن تجعل من البحيل

كريما ، ومن الطائش حليما ، ومن الجهول عليما ، ومن المعجب بنفسه
حكيمًا » ♦

« من أعظم البلاء أن يملي جاهل على عالم ارادته ، ويطمع في متابعته
على هواه دون اعتراض » ♦

« ليس ما يجري من دموع الفقراء أقل مما يشربه الاغنياء من الخمر »
« أنت الاحزاب السياسية الى الوزارات في هذا الشرق القريب بأناس
لا يعرفون من أمرها الا ما يعرف الحداد من صنعة الساعاتي » ♦

« نشأت مع الانتداب في سورية ولبنان طبقة من الوزراء لا يمتازون
عن اللصوص الا بتأنقهم بلباسهم وركوبهم أفخر السيارات ، وكان هؤلاء
للصوص يرضون المتدينين بموالات الهدايا ، ويشاطرونهم المغامم ، ويسميتون
في الاخلاص للفرنسيين » ♦

« بعض عمال الدولة يستهدون الناس ، والهدية رشوة مقنعة بقناع
شفاف » ♦

وكتب في شؤون مختلفة مقطعات ألحقها بالجزء الرابع من المذكرات،
وأحسبها فكرا تخطر له في أوقات متراخية ، فيدونها يجمع بينها موضوع
أو تؤلفها وحدة ، اختار منها فصلا بعنوان (أمالي) جمع املاء على نسق
أمالي الكتاب المتقدمين أمثال أبي علي القفالي ، والسيد
المرتضى ، وغيرهم في الادب والاجتماع والسياسة والصداقة والعمران
والنقد والدين ، قال : « العملة من أشرف الناس ، فيدون بما تصنعه
أيديهم ، وبأكلون رزقهم حلالا ، وهم أقل الخلق فضولا » ♦

« بعض الناس يعادونك وأنت لا تعرف أنك أسأت اليهم ، هكذا كان
حالي مع بعض كبار العمال (الولاة) ، وما أدري أكان ذلك عن منافسة
أو حسد » ♦

« أولاد الفقراء أحرص على اكتساب العلم من أبناء الاغنياء ، وابن الفقير

أحسن خلقا من ابن الغني ، والبنات^(١) أكثر من الصبيان في الدرس » •
« لذوي اليسار أخلاق خاصة على ماهو الظاهر من حالهم ، هم قلما يخلصون الود لأحد ، ولا يقومون بما يترتب عليهم من الواجبات ، وكيف يصدقون مع من يعتقدون أنهم لا يملكون كما يملكون » •
« في الأصدقاء من يرعون صداقتك ما داموا ينتفعون منك • فإذا حدث أن كان لهم من هذه الصداقة ما يتوهمون أنه يؤذيهم ، مشوا مع من يتخلون النفع منه ، وتخلوا عنك ، فإذا أيقنوا أنه انكشف لك ما خالفوا فيه القواعد المرعية بين الأصدقاء ، أقبلوا يعتذرون اليك ، فياك بعد هذا أن تدعوهم أصدقاء ، فهم معارف عرفتهم ، ولفظة الصديق كبيرة عليهم » •
« من يحاول أن يرأس قومه بالمكر ، يفقد متى ظهر أمره حتى ما كان له من صفات حسنة • »

« ما ارتاحت نفسي الى صحبة المتكبر ولو كان ملكا ، وكنت أفر من عشرة المتكبرين فرار السليم من الأجب ، وكثيرا ما أتكبر عليهم بأكثر مما تكبروا علي » •

« لا يروق اللؤماء أن يسمعوا ثناء على أحد ، كأن في الثناء على من يستحقه نقصا في تكرمتهم ، وخطا من أقدارهم » •
« يصغر الحاسد عمل المحسود ابدا ، وأنت لا تقطع لسان الحاسد الا اذا سألته أن يعدد لك محامده ، وسؤالك هذا صفة في وجهه وضربة على أم رأسه » •

« المثابرة أس النجاح ، رأيت بيوتاً تجارية على شفير الافلاس ، وكان من مثابرة القائمين عليها أن استعادت بالصدق قوتها ومكاتها ، ورجعت الى خير مما كانت ترجو » •
« يخرج أرباب العبقریات من صفوف الطبقة الوسطى والدنيا أكثر

(١) نتائج الامتحانات العامة في الدراسة الاعدادية وحتى الكليات ، تؤيد قول الاستاذ محمد كرد علي اذ ان نسبة النجاح غالبا في مدارس البنات اعلى منها في مدارس البنين ، فهن أصبر على الدرس •

مما يخرجون من صفوف الطبقة العليا ، ذلك لأن هؤلاء مشاغيل بمباهج الحياة عن كل ما يجلب الخير ويدفع الشر . ♦

« حري بمن جاوز السبعين وصحته منهزمة ان يتخلى عن الاعمال العامة برضاه لمن كانوا في سن تساعدهم على السعي أكثر منه ، رأيت الطمع يقوى في مثل من كانوا في هذه السن من الشيوخ ، فظهر لي صدق ما قالوه قديما من أن المرء يشيب وتشيب معه خصلتان الحرص وطول الامل » ♦
« لا تنظر الى اخوانك نظر الزاهد في محبتهم ♦ اذا اشتهر ذلك عنك ، لا يبقى لك من يعطف عليك » ♦

« شاهدت في بعض الرؤساء من الكذب والتزوير والدس ما لو قسم على أهل حي كانت من المدن الفاجرة ، ومع هذا يعد الاغبياء ذلك منه دهاء وسياسة » ♦

« استغرب بعض المفكرين اهداء أحد امراء العرب ثلاث سيارات فخمة لمن وراقصتين ♦ وانفاقه أربع مئة ألف دولار على مآدب أقيمت في أمريكا ، فقلت : هذا مال لم يتعب منقحه في جنيه » ♦

« في أي طبقة الملوك تضع يا ترى من يبذر الاموال تبذير جنون ، وأهل بلاده يمرضون ولا من يطبهم ، ويجوعون ولا من يطعمهم ، ويعرون ولا من يلبسهم ، ويجهلون ولا من يعلمهم » ♦

« لو كانت القصور التي يشيدها آل سعود في مملكتهم تبنى بأيدي ابناء الحجاز ونجد ، لهان الامر ؛ لانه يكون منها رزق لسكان تلك الديار ، ولكن معظم موادها وبناتها وفرشها وفراشيها من أمريكا شريكة المملكة العربية السعودية في النفط الذي تستثمره أمريكا ، فكأن هذي تعطي باليمنى وتأخذ بالشمال ! » ♦

« يوم يقدر العلماء مقدار التبعات التي تقع على عواتقهم ، يصبح الناس بألف خير ♦ »

« اذا لم يكن العالم على مستوى متقارب بين علمه وأخلاقه ، فأى مجلد

من مجلدات العلم انفع منه ومن عمله ، أي أن الجماد والصامت في هذه الحال أفضل من ذلك الانسان الناطق » •

وحتم الاستاذ الرئيس الجزء الثاني من (المذكرات) بفصل عنوانه (في عشر الثمانين) ، وهو أدل ما يكون على أسلوبه المتأنق واشراق ديباجته ، وأجلى ما تنطوي عليه نفسه من خلق وطبع وتجربة كانت خلاصة لما هدته اليه فطرته السليمة وما أفاده من علم وأدب وصحبة للعلماء والادباء وقرءات طالت وتنوعت • قال :

« يا نفس ! هو ذا الحادي يهيب بك لاجتياز المرحلة الاخيرة ، دراك وخفي في خف من أثقالك للحاق بمن تقدموك من الاهل والعشير ، فالوقت ضاق ، وانت على اوفاز ، والمنزل منزل قلعة •

يا نفس ! ♦♦ لا تغضبي ولا تعتبي ، فقد عمرت طويلا ، ومتعت كثيرا ، وفنتت بجمال الوجوه وجلال الطبيعة ، وهمت بصنع الخالق والمخلوق ، واستكثرت من الخلان والمعارف ، وسعدت اذ كنت أقرب الى التفاؤل من التشاؤم ، والى الرجاء أدنى من القنوط ، والى السرور أكثر من الغم ، وعشت في سلطان الرضا طيبة الطعمة لا يد لاحد عندك • علموك ما كانوا يأملون منه اعدادك للتجارة تغنين كما اغتنى أجدادك ، فأخفق تقديرهم ، وهدتك الفطرة لامور أخرى رفعتها فوق كل اعتبار ، وصرفت فيها نقد عمرك اعتقادا منك أن فيها سعادة لك ولغيرك ، أخذت من أشياخ أدخلوا الملل عليك بدساتير لهم حفظوها ، وما اهتموا الى العمل بها ، وانصرف عنهم بشكوك ومغميات ما انحل لك بعضها ، حتى اتصلت بمن خرجوك فيما غلب عليك ، وأصبحت تنظرين في الامور نظر العارفين ، واقتديت بأرباب العقول قبلك فيما لم ينكشف لك سره ، فسلمت كما سلموا ، واستسلمت كما استسلموا ، واغبتت أن أرضيت هواك فيما قرأت وبحثت وفيما سجلت ودونت •

وحظك الحظ فما ألفت الا أولي الفضل ، وما حرصت الا على صداقتهم ، ولا اختلفت الا الى مجالسهم ، وما شافك الا اسماع اخبارهم ،

وكنت على الاكثر لا تصحيين الا من تستفيدين من علمه وتجربته ، وتفرين
من الاحاديث الغثة فرارك من الطعام الواحد والمنظر الواحد والنعم الواحد ،
وما كنت كذلك شهد الله في حبك ووفائك •

هان عليك ما أنفقت في الضئيل من المعرفة التي كتب لك تحصيلها ،
وكان استغراقك ساعة واحدة فيما ولعت به يوازي أكثر المسرات
والشهوات • درجت على بغض الفوضى وحب النظام ، وآثرت ثورة الافكار
على ثورة السلاح ، ودققت في حساب يومك وغدك ، وأيقنت ألا مجد
الا عن طريق المعرفة فأحرزت لك شهرة سعت وراءها لاول امرك • فلما
بلغت ما أربى على رجائك ، رحمت تزهدين فيما صرت اليه ، وتندمين على
فترات ضاعت سدى ، وان اكسبتك مرانة ومرونة ، وافادتك عبرة وتجربة •
كان يلذك ما ينهال عليك من الضربات في تأييد الحق وتقويم المائل ، حتى
صار ذلك فيك خلقا وجبله ، وما عبأت بمن كانوا يحاولون التسلق الى
الشهرة بالخط منك ، وكنت تفرحين بما يتم اذا أسفر عن تحقيق شيء مما
تتوهمين غناه •

علمتكم الايام التحلم وما كنت حليلة ، وزينت لك اللين وكنت جامحة ،
وأخذت من حوادث الدهر دروسا في الصبر والاناة بقدر ما سمح به
مزاجك ، وما تقاضيت الناس ما لا يملكون ، وعذرت بعضهم على ما هم
فيه ، وما كلفت الايام ضد طباعها ، وما أحببت ان تستشمرين أحدا ولا أن
يستمررك أحد ، وقلما أتيت شيئا وندمت عليه ، وما حزنت لرزية في مال
يلا جاء بقدر حزنك لفقد الحبيب وفراق الصديق ، وبخاصة اذا كان
ممن خدموا العلم والعقل بعقولهم ، وشادوا للفضل تصور اعز من فضلهم ،
وكنت تتخلين عن أصحابك في أفراحهم ولا تتركينهم في اتراحهم ، كأنك
من اخوان الضراء لا اخوان السراء • اذا أقبلت الدنيا على الصاحب
تبتعدين عنه ، وان أدبرت تكثرين من مؤاساته ، واكثر ما آذاك في طويل
أيامك ان كنت تشهدين قوى عظيمة ضائعة ، وطريق الاصلاح مهيع امام
اصحاب السلطان وهم لا يسلكونه ، فطالبت طغاة الاستبداد بالقيام بواجباتهم ،

فساءتهم جرأتك عليهم ، وتربصوا بك الدوائر وقاتلت الشعوبيين اعداء العرب من الترك والصهيونيين والافرنج ، فشق عليهم سماع صوت الحق ، وما استطاعوا أن ينالوا منك على ما حشروا من أبلستهم وافقروا من افكهم ، وانت عزلى لا سلاح لك الا الحق الذي أخذ من قلبك والا الغرام باستعادة عظمة الامة والملة •

ومن أشق ما مر لك أن كان أرباب المحك يحملونك على اثبات المثبت والتدليل على البديهي ، وان اضطررت الى عشرة قوم كان الجهل فاشيا في سوادهم الاعظم ، وقضى عليك بعد ذهاب من أخذت من أدبهم واستهوتك بأخلاقهم أن تسمعي هراء أدعياء لو أنصفوا لعادوا الى الكتاب يتبدأون بالعلم من كتاب الهجاء •

عادك من عادك عداء المتباينين في العقلية والثقافة ، ووجهوا اليك من التهم ما كان في وسعك رده لو جوزت اضاءة الوقت في مهاراتهم ، ومما قرفوك به أنك مستبدة فيما يبدو لك مفرطة في حرية رأيك ، حلوة الصداقة مرة العداوة ، ضنينة بجاهك ، تكثرين من قول لا ، أكثر من قول : نعم ، وهم يريدونك على أن تشهدني للمحق والمبطل ، وتدخلي فيما يعنيك وما لا يعنيك ، وقاعدتهم ألا ضرر من العبث بحقوق الجماعة اذا كان منه تنفيس كربة الفرد ، ومن مألوفهم أن كل من قصد انسانا في أمر يقضي عليه الظرف الا يرده خائبا •

وعابوك انك تظهرين بمظهر الشذوذ والخشونة في الاحايين ، وتخرجين على بعض مصطلحات القوم ، فتكسرين قيود الرسميات ، وتبالغين برعاية من لا تجب مراعاته ، اذا تخيلت فيه ناحية أعجبتك فتلبسينه ثونا أطول من قامته ، وتجعلينه في عيون البعيد والقريب والبغض والحبيب •

يا نفس ! الحق مر ، والصادع به معذب ، وصاحبه أبدا هدف لظعن الطاعنين • ومن يحاول اصلاحا وتجديدا ، فهو عرضة للمصفقين والمصفرين ، ولا يكرثك هذا ، فالملتون ما اعتادوا ان يستجيبوا لاول صارخ يحاول زحزحتهم عن عقائدهم ، ومتى هس أرباب الأرواح الجامدة لمن يحاول

ادخال روح جديد عليهم ، والناس ما خلقوا كلهم عقلاء حكماء ، وكيف
تطمعين يا نفس في رضا الظالم والجاهل ، وأنت ما حلالك غير مكافحة
المستبدين والسارقين ومنازدة المخرقين والمضللين ؟ وكنت معهم بين عاملين ،
اما اقرارهم على فسادهم فتعدين من المنافقين ، واما الانكار عليهم وتحمل آذاهم
فتقومين بواجب وتؤدين دينا • سخرت من المتجرين بالوطنية على المتآكلين
بالدين ، وعشت بالواعظين على الادب وعبت المدجلين بالعلم ، وعند نفسك
أنك لم تتحالمي ولم تجالمي ، وأنت أنصفت من انتقدت وما تعمدت أذى
من زيفت كلامه وخالفك في آرائه ، ومن يحاول تهجين المعتقدات والقضاء
على الخرافات والترهات لا يطرب صوته كل سامع • أنت أردت العقل أن
يجري طليقا من القيود الثقيلة ، وأصحاب الاهواء حبيب اليهم الجمود على
قديمهم والاكتفاء بما ورثوه من آبائهم وجدودهم ، وما خطر ببالهم أن
يعملوا أفكارهم في اقتباس الاصلح ، ولا أن يتعبوا أنفسهم في ادراك ما لم
يسبق لهم معاناته •

أنت يا نفس لم تحسدي وحسدت ، ولم تسمي وشمت بك ، والى
هذا كنت تهللين بسقوط المنافقين والمتجسسين ، وتهللين يوم يدب التمزيق
في أموال جمعت ببيع المروءة وفساد الذمة •

أنت ما عادت الا مأفون الرأي ، وما شاكست الا زعانف الحشوية ،
ولا تأففت الا من زبانية السياسة ، واذا غلوت في القضاء على غلوائهم
فعذرک كونك من الآدميين ، يجوز عليك ما يجوز عليهم من ضعف وغلط ،
والتيار قد يقذف بالواقف في جريته الى مخاضات لا يختارها •

كرهت يا نفس التعصب والعصية ، وحاربت الجهل والامية ،
وفضحت مذاهب الصوفية والباطنية ، ومقت الحزبية والجمعيات السرية ،
وتفانيت في الدعوة الى الاستقلال وحب القومية ، ودعوت جهرة للعرب
والعربية وللاسلام والمدنية الغربية • خطة واسعة لو اقتصر فيها ، لحف
حملها ، ولجاعت الثمرة اكثر جنى وألذ طعاما ، ولكن من الامور ما لا تتجلى
للبنائر أسراره لاول نظرة ، وللایام والبیات حکمها ، والغيب عنك مسنور •

عاشرت اجيالا ثلاثة : كان في الاول معلموك ومؤدبوك ، وفي الثاني اخوانك ومعارفك ، وفي الثالث المستحسنون والمستهجنون لعملك • وكان جيلك الاول خيرا لاجيالك لما تخلله من آمال وأحلام ، وبشارات بما كنت ترتجبن في دنياك من استفاضة الصيت واردة النفع • جهدت كأن الموت لا يلاقيك ، وكنت كل يوم تتوقعينه ، فما قصر حسابك له من أجلك ، ولا زاد فيه ، وتعرضت للهلاك غير مرة فنجوت ، لا بحسن حيلتك ، بل بقضاء وقدر ؛ وادركت بأخرة أن ليس في العالم أمس واليوم وغدا غير التكرار ، وأن البشر في بلاء ومحنة ، فاذا خرجت من هذه القافية وحسابك عدل سيئاتك ، أو شالت الحسنات قليلا في ميزانك ، فقد فزت فوزا عظيما • وانت اذا لم يحقق الزمن أغراضك كلها ، فلست أول من أعوزته القوة وخانه التوفيق ، ولا أول من يرد فدفن بالتراب ، فلا تسألي خالقك بعد الذي جرى لك الا العفو والعافية » •

كان الشروع في كتابة الجزء الاول والثاني من المذكرات أول شهر نشبت فيه الحرب الثانية ، أي في أيلول سنة ١٩٣٩م ، وانتهى من آخر فصل منها في أواخر حزيران سنة ١٩٤٨ ، وكتب بعدهما الجزء الثالث والرابع ، وكان من خطته أن يتبعها بجزء خامس ، ولكن الموت أوقف قلمه وما يزال في السراج زيت ، وفي المصباح نور ، وفي النفس آمال عراض ، رحمه الله رحمة واسعة ، فقد أدى الامانة ، وخدم العروبة والاسلام ، ونفع الناس في كل مكان ، وستحتفي الخصومات ، ويبقى ماينفع الناس •

عِلَاقَتُهُ بِالْمَشَاهِيرِ

عقد فصلا مسهبها في الرجال الذين عرفهم في مصر ، وفي لقاءات مع النخبة الصالحة من أهل الفضل من شهوراء وكتاب وعلماء ، عرفهم وعقد معهم صداقات ومودات قبل أن يعرف الخصومات والعداوات ، وقبل أن يكون في مركز يثير عليه حسد الحساد ، آثرت اقتباسه لما فيه من وصف للمجتمع القاهري العلمي والادبي والاجتماعي وللرجال البارزين من مصريين وغير مصريين ، في مطلع القرن العشرين والحياة الجديدة التي كانوا يحيونها قال (ص ٢٥١ - ٢٥٨ الجزء الاول من المذكرات) :

« دخلت مصر لأول مرة سنة ١٩٠١م ، وبدأت أعرف الى رجالها ولا سيما رجال الصحافة منهم ، وكانت كثيرتهم الغامرة يومئذ من أبناء سوريا ، ولا سيما من لبنان ، وكان الشيخ عبدالحميد الزهراوي الحمصي نزيل دمشق ألفت رسالة في الفقه والتصوف وطلب مني أن أطبعها له في القاهرة ففعلت ، وعرف اسم الطابع من البريد لان الرسائل الواردة تفتح كلها ، وعمل الجواسيس من هذه الرسالة موضوعا يتقربون به الى ولاية الامور ، فكان طابع الرسالة كمؤلفها من المغضوب عليهم ، فاضطرت الى البقاء في القاهرة ريثما تسكن العاصفة وينسى الذنب الذي اقترفته .

وكانت جريدة (مصباح الشرق) أرقى جريدة أسبوعية صدرت ، وحررها محمد بك المويلحي ، ويؤازره ابراهيم المويلحي من أكبر كتاب ذلك العصر وأقدرهم على كتابة الهزل في الجسد ، ويطبعها بالمطبعة العمومية بشارع عبدالعزيز حيث يطبع (الرائد المصري) الذي بدأت أحرر فيه في الشهر الثاني من نزولي مصر ، ولم أجرؤ على التعرف الى المويلحيين وخصوصا الاب ، وتباعدت عنه لما رأيته ينال كثيرا من أستاذي الشيخ محمد عبده ويتقول عليه ما لم يقله ، وينسب اليه أمورا لم يفعلها . وقيل : انه كان مدفوعا الى ذلك من مقام عال ، وأنا كنت أعشق الشيخ ، وأفتخر

بالاتسب اليه ، واعجب بلاغته والقائه ، وأدهش بسيرته وحريته ، و كنت
أحضر دروسه في التفسير مرتين في الاسبوع في الرواق العباسي في الازهر ،
وأغشى مجلسه الخاص في داره بعين شمس مرة في الاسبوع ، وسمعت
أحد الحاضرين في بعض مجالسه يقول والمجلس غاص بأصحاب الشيخ :
أرى ابراهيم المويلحي في هذه الايام ساكتا عن مولانا الشيخ ؟ فقال الشيخ :
أحمد الله على ذلك ، ولولا أن الاسد مصاب بالنسيان لافترس جميع
الحيوانات •

لقيت من الشيخ محمد عبده أول تشرفي به ما استعبدني ، لقد قال
لجماعته ساعة اجتماعنا : انه قرأ كل ما كتب في مشروع السكة الحديدية
الحجازية ، فلم يدرك الغاية منها ، ولا تخيل عظم هذا العمل • فلما قرأ
ما كتبه ، و اشار الي ، في مجلة المقتطف ، وقع في مقالتي على ما لم يقع
على مثله في الجرائد الاخرى • فعندما شخصت الابصار الي ، وقد عرفني
الى جماعته بما قال تعريفا مقبولا نفغني ، وما أظنه يقصد بالتنويه بعملني الا
الاخذ بيد شاب مغمور الى طريق الشهرة ، وبالفعل كان من حسن حظي
ان تعرفت بعد هذه الجلسة الى كثير من الرجال ما كان يتيسر لي أن أعرف
أمثالهم في أشهر طويلة ، وكان يوم الاستقبال في داره بعين شمس أعظم واسطة
لمعرفة طبقات مختلفة من أعيان الامة وعلمائها وقضاتها ورجال سياستها وغيرهم ،
كان الشيخ الى علمه الواسع رجل سياسة عظيم ، يستخدم الاساليب السياسية
لنفع الامة • رأيت الشيخ محمد شاکر ، وكان من أذكى الازهرين في
عصره ، يحمل في بعض الصحف على الشيخ بامضاء مستعار ، وما راعني وأنا
عنده في عين شمس جالس في المجلس وما كان أتى أحد من الزوار الا
والشيخ محمد شاکر يحضر ويسلم على الشيخ تسليم حب وتعظيم ، ويقبل
راحة الشيخ من قفاها وباطنها ويبالغ في احترامه ، فاستغربت ذلك ، وكان
الشيخ لاحظ هذا ، فما زادني على نظرة بابتسامة وعلمت بعد ذلك ان الشيخ
هو الذي اشار على الشيخ محمد شاکر أن يغمزه في الاحايين ، ذلك لان
الشيخ كان يريد اصلاح معهد الاسكندرية ، وما كان يرى من رجال الازهر

من يحسن الاضطلاع بذلك غير الشيخ شاکر ، واعتقد ان الجنب العالی لا یرضی بالشیخ محمد شاکر لهذا العمل اذا کان موصی علیه من الشیخ محمد عبده ، فأوعز الی الشیخ محمد شاکر ان یرفع الخلاف مع الشیخ ، فتم له ما أراد من اصلاح المعهد السکندری علی يد الشیخ محمد شاکر • وکان المشهور أن الشیخ شاکر من أخصاء الشیخ محمد عبده ، وهو الذی أقترح علی لورد کرورمر أن یرفعه قاضی قضاة السودان لكفائه وبعد همته ، وکنت أعلم أن الخدیوی عباس کان یعجب بالشیخ محمد عبده ويعتمد علی رأیه ويستشيره فی الازمات ، ثم غضب علیه فتقدمت بعض الصحف تنادي باسقاطه ، وقيل ان سبب غضبه منبعت من کونه قاوم عباسا فی بعض مسائله الخاصة فی الاوقاف ، وکان ذلك مبدأ العداوة ، وکان العبث بأموال الاوقاف السبب الاکید فی جعل وزارة الاوقاف الی برأسها کسائر وزارات مصر تابعة لمجلس الوزراء مستقلة فی موازنتها • کان الفضل فی تقديمي الی فضلاء المصریین فی رحلتي الی الی مصر ، لصديقي رفیق العظم والسید محمد رشید رضا ، وکان من أعظم أمانی النفس أن أتعرف الی علماء القطر وأدبائه ، ففرت منهم بنفر لم اشهد مثلهم فی أرض الشام ، ولا سیما جماعة الشیخ محمد عبده ، وجماعة دار العلوم ، وهم ایضا من اصدقاء الشیخ یفتخرون بالانتساب الیه ، وکان شوقي الیهم لا یوصف بعد أن غادرت القطر المصری فی رحلتي الی الی علی الأعود الیه لکثرة ما کنت متبرما بالعيش فیہ • فلما أقمت شهرا فی بلدي ، عاد الحنین الی مصر وأهلها وما أعظم تبدلات الحالات النفسیة ! کان أصحاب الشیخ المفتی بحکم منصبه أخلاطا ، المتخرجون من دار العلوم نمطا واحدا وتعتقد اجتماعات هؤلاء کل مساء فی قهوة (منابا) امام حدیقة الازبکیة ، والیها کان یختلف المسایخ والافندیة والبکوات والبشوات من امثال :

محمد المهدي ، أحمد الاسکندری ، محمد الخضري ، وعبدالعزيز شاولیش ، وحسن توفیق العدل ، سلطان محمد ، حفني ناصيف ، احمد ابراهیم ، حسن منصور ، محمد دياب ، محمد عبدالمطلب ، وکلهم تلاميذ دار العلوم وأكثرهم یدرس فیها أو فی مدارس أخرى ، وکان یرأسنا الدكتور

عثمان باشا نائب مدير القصر العيني ، وهو عالم بالطب والمواليد الثلاثة ، وله تأليف جليلة ، وثقافته فرنسية ، يحسن هذه اللغة كما يحسنها ادباؤها ، ويختلف الينا شاعر النيل حافظ ابراهيم ، ولا تسلم عن روعة هذا المجلس وان كان أكثر من فيه من الشبان ، ولكن شبان ولا كالشبان ، ومجلسهم في الحقيقة مجلس علمي في مقهى تسمع فيه من كل فن خبرا ، هذا عدا من يختلف الى هذا المقهى من رجال العلم والادب ، وكان مجيئهم على غير اطراد ، أمثال علي بهجة ، واسماعيل رأفت ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، ومحمد جمعة ، واحمد فتاح ، وبصورة مستديمة امام العبد الشاعر ، ويجيء الى هذا المجلس بعض الصحفيين وان كان عشهم في قهوة (اسبلنديدار) في شارع ابراهيم باشا ، وهناك : محمد مسعود ، حافظ عوض ، داوود بركات ، يوسف الخازن ، أحمد الافي ، صادق عنبر ، نجيب شاهين ، اسكندر شاهين ، محمد السباعي ، ولي الدين يكن ، ابراهيم سليم التجار ، سليم سر كيس ، علي يوسف ، الياس فياض ، طانوس عبده ، سامي قصيري ، توفيق حبيب ، يوسف يكن ، يوسف البستاني ، مصطفى الدمياطي ، احمد سليمي ، ومن علماء سوريا وادباؤها : سليمان البستاني ، رفيق العظم ، شبلي شميل ، عبدالرحمن الكواكبي ، خليل سعادة ، رشيد رضا ، خليل مطران ، داوود عمون * وبعد حين انضم اليهم طاهر الجزائري ، ولاجله كان يحضر أحيانا أحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا العالمان المشهوران ، ويتردد اليها كثير من رجال القضاء والادارة أمثال : محمود رشاد ، واسكندر عمون ، وسعيد شقير ، ونعوم شقير ، و ابراهيم منصور * وهناك كثير من الادباء والعلماء لا يختلفون الى المقاهي كثيرا ويقصدهم من يريدهم في بيوتهم ومكاتبهم ، أمثال : قاسم أمين ، وفتح زغلول ، وحسن عاصم ، ومحمد فريد ، ومحمود سالم ، ومحمود الشقيطي ، و ابراهيم اليازجي ، ويعقوب صروف ، وفارس نمر ، ومحمود سامي البارودي ، واسماعيل صبري ، وأحمد شوقي ، وعبدالعزيز فهمي ، وأحمد لطفي السيد ، و جرجي زيدان ، وعلي يوسف ،

ومصطفى كامل ، وأحمد كمال ، واسماعيل حسنين ، ومحمد البيلاوي ،
وعبدالحميد البكري ، وعبدالعزيز محمد ، وعبدالمحسن الكاظمي *
ولم يكن يذكر في مصر يومئذ من يتولون زعامة الآداب والعلوم اليوم ،
مثل : مصطفى المراغي ، وعلي مسرور الزنكلوني ، ومحمود ابو العيون ،
وطه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، ومصطفى عبدالرزاق ، وعبدالرحمن
الرافعي ، وأمين الرافعي ، ومصطفى صادق الرافعي ، وأحمد أمين ، وأحمد
زكي ، وعلي ابراهيم ، وعبدالقادر حمزة ، وأنطون الجميل ، وخليل نابت ،
وعباس محمود العقاد ، وابراهيم عبدالقادر المازني ، وعبدالمنعم رياض ،
ومحمود شلتوت ، ومحمود عزمي ، وأحمد حسنين ، وصادق جوهر ،
وعبدالحميد العبادي ، وعبدالوهاب عزام ، وعبدالرحمن عزام الخ * * * »

وقد أورد منهم تسعين اسما ، قال انه عرفهم في الدور الاخير ، وهم
الذين يهيمنون على ناصية الادب والشعر والعلم في مصر قرأ كتبهم ومقالاتهم ،
وعاشرهم وجالسهم ، ووصفهم بأنهم جيل جميل وأكثرهم بين الاربعين
والخمسين حين صاحبهم أو قرأ لهم ، قال : « ولعل هناك من يمانلهم في
القطر ، لم أخط بملقائهم ، وأعرفهم من كتبهم أمثال : أمين سامي ، ومحمد
فريد وجدي وهم في حقيقتهم علماء مفكرون ، أو هم ممن شغلتهم مناصبهم
عن اظهار علمهم ، واشتهروا في ناحية اخرى ، ما نسوا خدمة الآداب على
كثرة ما لديهم من الشواغل ، عرفت منهم : حافظ عفيفي ، وأحمد شفيق ،
وعلي ماهر ، وبهي الدين بركات ، وطلعت حرب ، ومحمد علي علوبة ،
ومحمد حلمي عيسى ، ونجيب الهلالي ، وصبري أبو علم ، ومحمد
العشماوي ، وعلي الشمسي ، وجعفر ولي ، ومحمود رياض ، وعلي زكي
العرابي ، والسيد أحمد صقر ، وشوقي ضيف *

أخرجت مصر في العهد الاخير عظماء في معظم الفنون والعلوم ، وتغير
نظام الازهر ، فأخذ يخرج من دار العلوم والجامعة طبقات من الابداء والباحثين
ما كان لمصر ولا للشرق العربي عهد بأمثالهم ، فنبغوا ، وساعدهم على نبوغهم
كونهم من أمة متأقفة منذ عهد محمد علي الكبير ، وكان لهم مما تدر ديارهم

من أخلاف الرزق ويفيض فيها من معين الغنى أكبر معوان على التثيف والتعلم ، يضاف الى ذلك ما خص به المصري من ذكاء فطري ، وما امتازت به أرضه لقربها من أوروبا ، فكان احتكاكهم بالغربيين أكثر من جميع أمم الشرق ، ولا يكاد يجول في الخاطر فن الا وتجد فيه اليوم اخصائيا أو عدة اخصائيين ، وأكثر ما غلب عليهم من العلوم علم الحقوق والطب والهندسة والري ، وهم متأخرون في التجارة والصناعة ، لا يضاهاون في مضمارها الرومي والارمني واليهودي والطليناني والسوري من سكان حوض البحر المتوسط » ♦

وقال : « ان من عرفتهم من الرجال في هذا البلد ، قد شغلوني عن غيرهم ، واستهواني لطفهم وأدبهم أن استكثر من الصحاب ، وللصداقة قواعد لا بد من مراعاتها ، وهي مشاركة الصديق صديقه في فرحه وترحه وفي كل حالاته ، لا بد له من ذلك في السفر والحضر ♦ فاذا كثر على المرء عدد الاصحاب ، فله أن يختار حالا من حالين : اما ان ينصرف الى عمله فيضعف عن وفاء حقهم ، انكم كلكم معاشر المصريين تحبون بما فطرتم عليه من حسن العشرة ورقة الخصال وحضور الذهن وجميل الآداب وكرم النفس » ♦

وقال : ورجل واحد لا ينهض بواجبات كثيرين ، ومطالب الحياة وافرة ، وشهوات النفس لا تقف عند حد ، ولا بد للمرء من تحقيقها ، والعمر قصير ، والزمان غادر غير عاذر ♦ «



كانت للاستاذ محمد كرد علي ، بحكم مركزه الصحفي والادبي والمجمعي ، لقاءات وصداقات ومراسلات مع كثير من زعماء البلاد العربية والتركية ومع أدباء الامتين وشعرائهما ، كما كانت له لقاءات مع أشهر المستشرقين وعلماء الاستشراق ♦ ذكر هذه العلاقات في كتبه المختلفة ورحلاته الكثيرة وزياراته لتركية ولبنان وفلسطين والحجاز وانكلترا وفرنسة وهولندا وبلجيكا وسويسرة والمانيا ، وحضوره مؤتمر المستشرقين ، وزيارة علماء هذه

الاقطار للشام ولقاءتهم له ومكاتباتهم اياه في شؤون الاستشراق ، كل ذلك جعل له عددا كبيرا من المعارف والاصدقاء لا حصر لهم •

فكانت له صداقة وتعارف مع أكثر ولاية الشام في العهد العثماني ، ولكن أكثرهم مودة له من هؤلاء (خلوصي بك والي الشام) أيام الحرب العالمية الاولى ، والقائد العام للجيش الرابع ورئيس الادارة لسورية ولبنان وفلسطين أحمد جمال باشا (السفاح) ، والذي كان يبيت لمحمد كرد علي أسوأ المصير اذ كان يحمل عنه فكرة المعارضة للحكم العثماني ويحسب انه من عملاء فرنسة بحكم ثقافته وصلاته ببعض قناصلها في الشام ، ولكنه بعد أن تجل له تعلقه بعثمانيته برغم حبه للعرب ونضاله عنهم وتفاجره بمجدهم ، تبين لجمال باشا وطنية الاستاذ عن طريق الوثائق والرسائل والتقارير التي كانت محفوظة في قنصليات فرنسة في حلب والشام وبيروت والاسطانة ، حين استولت عليها السلطات التركية وانها كانت توصي بعدم التعامل أو الوثوق بمحمد كرد علي لعثمانيته وعدائه للاستعمار بأي أشكاله وبمختلف مصادره وجمال باشا هو الذي حملة على استئناف اصدار جريدته (المقتبس) ، وغذاها بأمواله ، وقضى ديونها ، ومن بعدها جعله رئيسا لجريدة (الشرق) التي كانت تنطق بلسان الجيش الرابع واسم جمال الدين باشا ، واختاره في الوفد الرسمي الذي بعثه جمال الى استانبول والى ساحة الحرب في الجبهة الشرقية (غاليولي) وكان الوفد يضم نخبة من علماء وادباء سوريا ولبنان وفلسطين برئاسة الشقيري ، وقضى الوفد شهرين اطلع فيها على معالم الاسطانة وعلى الجهاز الحربي وفيها كانت له لقاءات مع الخليفة محمد رشاد والامير يوسف عز الدين ولي العهد ، ومع شيخ الاسلام ورئيس الوزراء الصدر الاعظم ووزير الداخلية طلعت ووزير الحربية أنور ، ومع قائد البحرية ، وتعرف الى رؤساء تحرير الصحف التركية التي تصدر في الاسطانة واداراتها ، والاعيان والنواب ، وفي ساحة الحرب تعرف على القائد العام لجبهة غاليولي (ليمان باشا) وعلى مصطفى كمال باشا الذي أكرم وفادتهم • ولقاءاته وخطبه ، فصلت اخبارها في الفصل الذي عقده لتلك الرحلة ، وكانت له صداقات

مع عدد من علماء وأدباء العراق ، منهم من صادقهم بالمراسلة وزمالة العضوية ومنهم باللقاءات والزيارات التي يقومون بها في اثناء وجودهم في دمشق أو مرورهم بها • ومن هذه النخبة الصالحة : العلامة الكبير السيد محمود شكري الالوسي ، والاب انستاس الكرمللي ، والاستاذ الشاعر معروف الرصافي ، والاستاذ طه الراوي ، والاستاذ منير القاضي ، والاديب الشاعر محمد بهجة الاثري ، والشيخ محمد رضا الشيبسي ، وعبدالعزیز الشواف ، وأحمد حامد الصراف ، والدكتور مصطفى جواد • وكانت له مع أكثرهم مودات وتبادل رسائل في شؤون ادبية ونقدية •

كما كانت له مع ادباء وعلماء لبنان وفلسطين صداقات ومساجلات واخوانيات وفي مقدمتهم الشقيري ، والريماوي ، وأحمد رضا ، والغلايبي ، والريحاني ، والزين ، والاميران الزعيمان (شكيت ارسلان وعادل ارسلان) والامير فيصل بن الحسين و ابراهيم اليازجي ، والبستاني الكبير وأمين الحسيني ، وبدراالدين النعماني ، واسكندر معلوف ، وأمين معلوف ، ولويس شيخو ، وجبر ضومط ، وفيليب طرازي •

كانت صلاته بالمستشرقين وثيقة ، على رأسهم الامير الايطالي كياتاني الذي رحب به في مكتبته شهرا كاملا ينهل من معارفها ووثائقها التي جمعها في تاريخ العرب والمسلمين ، ومنهم ماسنيون وكانت بينهما مراسلات ومباحثات ، منها عتب ماسنيون عليه بسبب حملاته الصائبة على الاستعمار الفرنسي البغض وعلى مظالم المستعمرين الفرنسيين ووحشيتهم مع ابناء سورية والمغرب العربي ، ومنهم دوسو ، وگي ، وجويدي ، ونلينو ، وهارتمن ، وبروكلمن ، ومارغليوث ، وجب ، وبراون ، وهوتسما ، وموته ، ومايكل آسن ، وعبدالكریم جرمانوس ، وفيشر ، وبلاشير • وغير هؤلاء لا اعداد لهم من هنود وجاويين وتركستانيين وعرب ومستشرقين ، هؤلاء غير السياسيين والامراء من امثال آل لطف الله ، وآل السعود وعلى رأسهم صقر الجزيرة المغفور له الملك عبدالعزيز السعود ، والخدو عباس ، والملك فؤاد ، وفاروق ، والركابي ، وآل العظم والشيخ تاج الدين •

وَطَنِيْنُهُ وَحَيْنُهُ اِلَى مَرَاتِعِ صَبَاہ

كتب في الغوطة كتابا طبع في المجمع العلمي العربي طبعته الاولى سنة ١٩٤٩ و زاد فيه وأعاد طبعه سنة ١٩٥٢ وكان الدافع لجمع أخبار غوطة دمشق حبه لمراتع صباه وحنينه لمرباع شبابه ووفائه لجنه كهولته وشيخوخته • صور الاستاذ غوطة دمشق وأبرز أخبارها وجسد مفاتها وأحوالها وشرح جغرافيتها وزراعتها وقال :

(ونحن على يقين ان وراء ما رسمنا أشياء كثيرة لو قبض لنا الظفر بها لانتظمت بها السلسلة المفقودة واتصل السند الضائع) •

اعتمد على مصادر كثيرة ليوصل ماضي الغوطة بحاضرها وكان تاريخ ابن عساكر أهم ما اعتمد من الكتب التي كشفت عن أخبار القرن السادس وما قبله من القرون ، واستعان بما دونه ابن المهنا الداراني في تأريخ داريا وابن أبي العجائز في تسمية من كان بدمشق وغوطتها من بني امية ، وبما دونه السمساطي في كتاب (الديرة) وما ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان وما جاء فيه من ذكر قرى الغوطة ومن خرج منها وكتاب شيخ الربوة (عجائب البر والبحر) وتفرد به بأشياء في الكلام على الغوطة ، ورسائل ابن عبد الهادي في بعض خطط الشام وما دونه ابن طولون الصالحي من أسماء دمشق في القرن العاشر اتخذ هذه المراجع ومادتها مادة لكتابه ، كما اقتبس معلومات قيمة وردت عرضا لمؤرخين دمشقيين كابن القلانسي والقمراني والظاهري وأبي شامة والذهبي وابن خلكان وابن فضل الله العمري والصفدي وابن العماد •

لقد امتازت الغوطة بخصائص كثيرة تفرقت بالبقاع على ما تلمسه وتحسه فيما ستقرؤه في هذه الباكورة وطرز موضوعه بكثير من الشعر وكشف عن غوامض الموضوع ، وهو شعر لم يُعَنَّ بجمعه جامع قبل المؤلف ، وانما كان موزعا تفاريق في كتب

الخطط والسير ، والمؤلف بعد كل ما راجع من مؤلفات وتراجم - ابن
 الغوطة ، عاش عمره يتغنى بجمالها ، ويشيد بذكرها ، أحبها وأحب أثمارها
 وأطيافها ، أشجارها وأنهارها ، سكانها وقراها ، ألف كل شيء فيها ، فقد
 عاشها سبعين سنة ونيفا ، وما استهوته بقعة كما استهوته الغوطة ، فله في
 ربوعها شؤون وشجون ، ومرح وحين • استظل ظلها الظليل ، واستمرأ
 مطعمها وماءها ، ولم ير وردا أنفع للظمأ من وردها ، من قراها : النيران ،
 والقيصتين ، وبيت لهبا ، وبرزة • والغوطة الغربية والشرقية والشمالية
 والجنوبية ، ومن مائها البريص الذي ورد في شعر حسان بن ثابت يمدح بني
 غسان ، وكانت الغوطة من منازلهم وعمائرهم :

لله در عصاة نادمتهم يوما (بجلق) في الزمان الاول
 أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية المعجم المخول
 يسقون من ورد (البريص) عليهم (بردى) يصفون بالرحيق السلسل
 وثاها ابن الساعاتي فقال :

سقى الله عهد النيرين عباده وعيشا لنا (بالغوطين) تصرما
 فلم أر ظلا سابغا غير ظله ، ولم أر وردا غيرها ينقع الظما
 عروس حصان كل يوم زفافها من الدهر عيدا للسماح وموسما
 له ركبت خيل الأمانى مغيرة وما ركبت الا لتغنى وتغما

والكتاب بجملته كتاب تأريخ ، وأدب ، وشعر وجغرافيا ، ووصف ،
 ولغة ، واجتماع • ومن أمتع فصوله (وحي الغوطة) قال رحمه الله :

« أتى لي في الغوطة سبعون سنة ، تسلمني الطفولة الى الشباب ،
 والشباب الى الكهولة ، والكهولة الى الشيخوخة . ولاقيت ربيعها وصيفها
 وخريفها وشتاءها ، وأدهشتني أرضها وسماؤها ، وما فتئت منذ وعيت أقرأ
 في صفحة وجهها الفتان آيات الابداع والاعجاز • في ربوعها شهدت الطبيعة
 تقسو وتلين ، وتغضب وترضى ، وتشح وتسمح ، فراغني جمالها وجلالها ،
 وشافني تزيتها واتزانها . نشقت أنفاس رباها وهي ترفل في زهرها ووردها ،

واستهوتني مجردة من ورقها وثمرها ونباتها ، فأخذت بها كاسية عارية
وطابت لي مطيبة وتفلة • تربة تبقل وتمحل ، وأدواح تعقم وتثمر ، وجداول
تغور وتفور ، وآبار تفيض وتغيض ، وجو يغيثم ويصحو ، ودو يعبس
ويضحك ، وهناك هناء ، وهناك يسر ، وهناك شقاء ، وهناك عسر •

أتى الجراد غير مرة على زرعها وثمرها ، وسطت الحشرات على
خضرها وشجرها ، وأحرق الصقيع حبوبها وفاكهتها ، وعدا الموتان على
دواجنها وماشيتها ، وطفا الماء على أدنى بقاعها فأودى بما أبتت وبسقت ،
وعادت هذه الأم الرؤوم تدر على أبنائها لبنا طيبا ، وتفيض عليهم من عطفها
وحانها كل جميل •

عهدي بها دمن وعشرات المزارع الخربة بما توالى عليها من نكبات
الزلازل والسيول والأوبئة والمجاعات الى جانب ألوف الأفدنة ، تصيح
بالدؤوب حدائق غلبا ، وكانت بالأمس بين مستنقع وبيل ومرج أفيح • في
الغوطة قرى كبيرة تداعت ، وقرى كبيرة لم يعف رسمها ، وفيها أشجار
لا تعيش غير بضع سنين ، وأخرى مباركة يحسب عمرها بالقرون •

همت بسحرها في سحرها ، وبشمسها تأفل وراء شجرها ، وراقني
وابلها وطلها ، ونداها وضبابها ، وجليدها وصمدها ، وثلجها وبردها ،
ودمقها وزمهريرها ، ونسيمها وأعاصيرها •

غننتي طيورها بأطيب الأنعام ترددها من وكناتها في جناتها ، وما تبرمت
الأذن بنعيق البوم ، ونعيق الغربان ، وعواء بنات آوى ، ونباح الكلاب ،
ونقيق الضفادع في المظلم والمقمر من لياليها ، واهتزت الديكة تصيح ، والغنم
تتأج ، والمعيز تنغو ، والبقر يخور ، والخيول تصهل ، والحمير تنهق • أدركت
أجيالا ثلاثة من الناس ، وقبلي رأى الراؤون ألوف الألوف ، وكلهم كان
شأنهم شأننا • خلقوا على صورتنا ، وركبت فيهم أحاسيسنا وغرائزنا ،
واستحكمت فيهم الشهوات والمطامع ، وكانت لهم آمال وأحلام ، نزع
صالحهم وطالحهم ، وراح لطيفهم وكثيفهم ، وما عرفوا لم جاؤوا ولا الى
أين ذهبوا؟ ولم جدوا وجهدوا؟ ولم انصرفوا على ألا يرجعوا؟ أما أجسامهم

فقدنخرت وتبخرت وتبعثرت ذراتها في الفضاء ، وأما أرواحهم فانتقلت الى عالم لم تدركه بالحس ولا قدر معنا بحساب ، وما علمنا عنه الا ما أشار اليه الكتاب .

ذهب من درجوا على هذا الصعيد الطيب ، تاركين ما كدحوا وجمعوا ، ناسين من أحبوا وأبغضوا ، وما حال دون قفولهم عطف الأمهات والزوجات ، ولا بكاء الاولاد والاحوات . هلك الفقير والغني ، والصحيح والمريض ، والحبيب والبغض ، وناح النساء على الأعزة الذاهين يندبن ويولولن ، ثم لحق النائحات والنوادر بالصحاب والصواحب .

حقا ان الغوطة كانت على الايام ساحة تحول ، تحولت فيها حتى أزياء الجنسيتين من سكانها ، فغير الرجال في هذه الحقبه لباس رؤوسهم ثلاث مرات ، وكذلك دأب النساء بملاءتهن . شاطرت القوم أفراحهم وأتراحهم ، وكاثرتهم في مواسمهم وأعيادهم ، ورأيتهم يلبسون الخلق البالي ، ورأيتهم يلبسون الزواق الحرير . شاهدتهم يطعمون أطيب الطعام وأمرأه ، وشاهدتهم لايشبعون من خبز الذرة والشعير . راقبتهم في سكوتهم وهوساتهم ، وفي تلاتلهم ومشاكلهم ، وفي سعتهم وضيقهم ، وعاشرتهم وسامرتهم على نقص محسوس في تربيتهم . أدركتهم يستعوضون عن اللبن والطين والقصب والكلس في بنيانهم بالقرميد والآجر والحجر والاسمنت ، وعهدتهم يمتطون الفره من الخيل والبغال والحمير ، ويحملون أثقالهم على الجمال ويجرونها بالثيران ، ثم اتخذوا المركبات والعجلات ، وركبوا الدراجات والسيارات .

أدركتهم تبيض الأمية وتفرخ في رؤوسهم ، ويعم الجهل كبيرهم وصغيرهم وذكورهم واناثهم ، وما كانت عقول الأذكيا منهم تصل الى أبعد من القرى المجاورة ، واغبتت أن صار بضعة في الألف من شبانهم وكهولهم يتلون الصحف والكتب ، ويستطلعون طلع الأخبار ، ويعينهم النظر في المصالح العامة ، ويظهرون في مظهر من يحاول مجاراة الزمن في حضارته ، يستبدلون الادوات الحديثة في الحرث والتذرية والعصر والاستخراج بأدواتهم القديمة التي جمدت على حالة واحدة لم تتبدل من عهد عاد وشمود ، وكل ذلك ببطء

وتناقل ، ليناسب اقتباسها الزروع والغراس عندهم ، تنمو بحرارة معتدلة ،
وإذا سقيت سقيت بمقدار •

أقليم تتصادم عناصر الطبيعة فيه بلا انقطاع ، الفناء رابض أبدا الى
جانب البقاء ، والتبدل والتلون على قيد غلوة من الاستقرار ، عاينت كل هذا
فرجعت بمنظر متشاكلة لا تزال تتكرر على مر الجديدين ، لم أهد سبيلا
الى تعليلها ، ولا أدركت ولا أدرك أرباب المدارك هذا السر الدفين في صدر
الليل والنهار •

هنا يسدو للعين كفاح الغوطي في كسبه ورزقه وصراعه في سبيل
شهواته وأثرته • هنا تلمح جور القوي على الضعيف ، وأن الانسان في هذه
الارحاء كان على نحو ما هو في كل مكان ظالما ومظلوما ، وقتالا ومقتولا ،
وعزيزا وذليلا •

لحظت ابن الغوطة موسعا عليه ، ولاحظته مقترا عليه ،
عهدته مرهقا بضروب الجبايات ، وألفيته يؤدي الجباية طية بها نفسه •
وجدت الفلاح لا ينسل القدر اللازم من الاولاد يستعين بهم على استخراج
خيرات حقوله ، ولقيته وقد زاد السكان ستة أضعاف في ستة عقود ، وإذا
بأرباب الضياع تضيق بهم رباعهم ، فلا يجزئهم ربيع ما يملكون ، وعادوا
يقتنون الارض بالثمن العالي ويغفلون في الغرام بها ، وهم الذين يحاذرون
امتلاك شبر من ترابها فرارا من المغارم والعوارض •

حزنت على الغوطي عبدا ، وفرحت له حرا ، آلمني عبوسه وتشاؤمه
وسرني ضحكه واستبشاره • كان يرمضني كلما وقعت عيني عليه يسخر
كالبهائم ، ويقنع بالسياط ، ويلطم ويلكم وهو صابر خانع ، ثم ابتهجت به
يوم نفس خناقه ، وعومل معاملة الانسان • أما هو ، فلم يلبث أن نسي
ما كان يحل به ، وعاد يتمرد ويطغى •

نظرت اليه يتهافت على تجويد زراعته ، ونظرته يهمل اثاره تربته
ويزهد في رعية ماشيته • طالعه يحيي الليالي لا يبالي أذى البرد اذا كان
في سقي زرعه وجمع حبه وثمره ، وطالعه في حمارة القيط يكد وسط حقله

في حر يزهق الأنفاس وهو جد طروب كأنه في مجلس انس يلذه ما يسمع
ويرى ، وسجلت أن ضواري الغوطة لا تستشري ، والشر في أرجائها محكوم
عليه بالزوال ♦

ثبت لي هذا بعد أن رأيت ثعالبها وضباعها توشك أن تبيد ، وبعد أن
أيقنت أن كواسرها وجوارحها أقل من عصافيرها وحمامها ، وقيدت من
أخبار الغوطة أنها منعمة محسنة على وجه الدهر ، وأن بنيتها أصحاب مضاء
يعودون لكل يوم قسطه من العمل ، ويقسمون جهودهم أقساما ، بحسب
المواسم على ما قسمت الفطرة سنتهم الى فصول استوفى فيها كل فصل حكمه ،
وان في أرضهم المحبوبة لمعظم بلاد العرب قوى منظمة مستثمرة الى جنب قوى
ضائعة منتشرة ♦

وكتب عن دمشق^(١) فصلا مسهبا يفيض بالحب والاخلاص لهذه
المدينة التي يكن لها اصدق الود من ذلك قوله :

« ولولا ان في طبيعة الدمشقين حيوية عجيبة في الصنائع والتجارة
لاصبح أهلها بادية لكثرة ما لقوا من الشدائد ، ولقد أثبتوا في جميع الادوار
أنهم في صنائعهم آية وان الاتقان دأبهم ، وصنائعهم منوعة تبدأ من هندسة
المباني وتنتهي بالفرش والآنية ، وتجارتهم كانت منذ القديم تمتد من الشرق
الى الغرب ، واذا ساعدتهم الاحوال السياسية ووقفت الحروب حقبة من
الزمن ارتاشوا واعتنوا واذا احتلت الحال ضنوا بأموالهم وخزنوها في
صناديقهم ، وكانوا الى أواخر القرن الماضي اذا أمن التاجر شريكه وقد يكون
بدويا نجديا يسلمه الوفا من الدنانير بدون سند ويتنظره اعواما حتى يتم
تجارته على ما يجب ، فالثقة كانت على أتمها بين التجار بعضهم مع بعض
وبين التجار والمستهلكين ، وفي كل بلد نزله الدمشقي للتجارة اغتنى في
سنين قليلة هذا اذا كان على استعداد لمعاطة التجارة ولائم جو الارض التي
حل فيها صحنه وفي الامثال العامية (اعرج الشام وصل الصين) وقال :

ولدمشق في باب العلم أيام غرر كانت محجا لطلابها منذ عهد

(١) المذكرات ١٦٥ ♦

الصحابة الى يوم الناس هذا ، وعلمهم كان الكتاب والسنة او علوم القرآن
والفقه والاصول والكلام والحديث ثم اللغة والادب والطب والتاريخ والملك
والرياضيات والهندسة وغيرها ، كان المشتغلون بعلوم الشرع والادب اكثر
عددا من المتصرفين الى علوم القدماء او ما نسميه العلوم العصرية ، ومن كان
يظن ان دمشق كان فيها الى اواخر القرن التاسع اربع مدارس طيبة
ومدرسة هندسة ، واشتهر من ابنائها رجال في جميع الفنون ومنهم من
اشتهروا شهرة عالمية كابن تيمية وهو في الاسلام كلوثيروس في النصرانية .
وامتازت دمشق بكثرة محدثيها كما امتازت بكبار مؤرخيها ، والعلاقة بين
الحديث والتاريخ معروفة ، خرج منها مؤرخون ومحدثون من العيار العالي
لم تخرج مثلهم مصر ولا غيرها ، خرج منها ابن عساكر وابن خلكان
والذهبي وابن كثير وابن أبي اصيبعة والصفدي وابن فضل الله العمري وابن
القلانسي وغيرهم وهذان الاخيران كانا من رجال السياسة ولهما مكانة
عظيمة في دولتي الفاطميين والمماليك ، وخرج منها شعراء عظماء كفيان
الشاعوري وابن حيوس وابن عزين واضرابهم وما خلا عصر من عصورها
من شعراء مجيدين ومؤرخين محققين واطباء ماهرين ومهندسين باوعين
وقل فيهم الفلاسفة كما قلوا في مصر ، وما خلت دمشق في كل عصر من
رجال قوالين بالحق من علمائها يجروؤن على الملوك ويردونهم الى صراط
الحق والشرع ويضيقون عليهم الخناق في التحديد من الجباية حتى لا يرهق
الناس باسرافهم ومنهم العز بن عبدالسلام والنوى ، وكان السلاطين والولاة
ترتجف أعصابهم منهما يخشونهما كخشية الله ، ولما مات العز بن عبدالسلام
قال الملك الظاهر بيبرس : الآن ملكت ، وفي حياته ما كنت آمن على نفسي
لانه في مكنته ان يخلعني كل ساعة لماله من منزلة في قلوب الناس . وكثير
من العلماء من كانوا يقفون موقف المرشد الناصح مع الملوك لا يلتوون في
الحق ومنهم من ارتضوا أن يكونوا تحت جناح أرباب السلطان لتسلم لهم
مظاهرهم وديناهم .

وقال : ومن اخلاق الدمشقيين انهم يستسلمون لرؤسائهم على الأكثر

ويعطفون على الفقير ويكرمون الغريب ، واحقادهم ضعيفة بالقياس الى غيرهم من الشعوب ، وسرعان ما يقلدون في اقتباس ما يقربهم من الحضارة ، ويتأدبون مع الكبير وقد يصدرون عن رأيه ، ويجبون الطرب ، ويفهمون النكتة ولهم في باب الهزل يد طولى ، ويوم الجد هم ممن يفاخر بهم ولهم استعداد خاص لتلقف اللغات الغربية وهم شعب اقرب الى الدين منه الى الالحاد ، والمواطنون على اختلاف اديانهم يتحابون كما يتحاب اهل الدين الواحد ، وفي الوطنية كلهم سواء لا تخرج الاقلية عن رأي الاكثرية .

وبعجبني عن دمشق انها تتخيل الى اليوم انها في حكم بني امية مسؤولة عن كل ما يحدث في العالم العربي ، اذا نزلت كارثة بمسلمي الصين كانت في مقدمة من يواسيهم وان حل بلاء بأبن مراكش ولم تمد اليه يد المعونة خجلت من قصورها ، وهي في الثورة أول من يرفع علمها وفي السلم الكل في الكل ، فاذا كانت الحال ندعو الى الوحدة السورية ترفع صوتها أول الصارخين وفي الدعوة الى الوحدة العربية تنادي اول المنادين وفي الدعوة الى الاتحاد الاسلامي هي أمها وابوها وفي كل دعوة جديدة تتقدم لا تتأخر وتحمل من الاعباء ما يفوق طاقتها وتقوم بواجبها وبأكثر من واجبها كما كان منها الحرب الفلسطينية فاحتضنت اللاجئين اليها من الفلسطينيين كما تحضن ابناءها وبناتها . هذه دمشق وانا عند نفسي اني ماوصفت الا ما شاهدت وما حدثت الا بما علمت وقلت فيها ما قلت بريئاً من التعصب والعصية » .

غاضب الانراك من أجلها وناصب الفرنسيين العدا من جراء مظالمهم وفي ما كتبه عن المنتدبين الفرنسيين والولاة العثمانيين دليل ناصع على وطنيته وصدق محبته لامته ووطنه .



والى القاريء نماذج من كتاباته في الوطنية :

١ - « ظن بعض المشتغلين بالصحافة أن الجرائد باب من أبواب الكسب فقط ، والماهر من يكون خراجا ولاجا ، وهذا ما زهدني في

الصحافة منذ قام المتجرون بالوطنية • ولقد اقترح علي كثير من أن أعود الى اصدار (المقتبس) ، فاعتذرت قائلاً : ان نفسي سئمت منذ سنين هذه الصناعة ، وقد رأيت كل حكومة منذ عهد الترك تحاول أن تفسد أرباب الصحف حتى غدا معظم الصحفيين يجوزون لانفسهم أن يقبضوا زمن السلم معونات من بعض الدول ومن الشركات ومن كل من يريد أن ينتفع من الثروة العامة ، وصعب على الشريف أن يمتهن هذه المهنة التي عز فيها الصدق ، وهي من أشد ما يكون احتياجا له ، ومن المتعذر أن تسقط على صحيفة لم تلوث بما لوثت به الصحف في الغرب • عدوا الجرائد متجرا ومرترقا يحل لصاحبها كل مال ، فخرجت هذه الاداة الجميلة عما وضعت له من نقل صادق الاحاديث والدعايات الوطنية النافعة والدعوة الى الحق والمدنية •

لو تيسر لي الاسباب ، لاصدرت جريدة أوزع أكثرها مجانا ، أبتعد بها عن كل ما يندس سمعتها ، واعتقد أن صوت مثل هذه الصحيفة يصل الى أعماق القلوب ، ويؤثر في الامة التأثير المطلوب ، لاني أنوخي أن أصونها عن كل ما يكون منه استخفاف بالقراء أي بالكذب عليهم والتضليل لهم ، الجرائد مرآة الامة ، واذا أراد الغربي أن يحكم علينا بما ينكشف في هذه المرآة واعتقد أن هذه الصحف ناطقة بما في قلوبنا معبرة عن تربيتنا وأخلاقنا فالويل لنا ثم الويل !

السياسة صعبة المراس جدا ، ولا سيما الجزء العملي منها ، وأظن أحسن تعريف لها أنها خلاصة العقل البشري وزبدة علوم العالم ، ويحتاج صاحبها الى حسن فراسة وبعد نظر وبديهة مطواعة وقريحة فياضة ودرس متواصل •

٢ - « ان أرضاً^(١) كانت عس العظماء في الاسلام ، أخرجت بني امية وعلماءهم وهي مهد العجائب والاديان وآية الجمال الطبيعي في البلدان ، حرية ان تزار ، وتتعهد بالذكرى • فهي من أقصاها الى أقصاها

(١) مقطع من كلمة وجوها الى مؤتمر المستشرقين الدولي في اكسفورد ،

يدعوهم فيها لزيارة سورية •

متحف طبيعي ، حيثما انقلب المرء يرى عظمة القدماء وبدائع الطبيعة الساحرة • وان ما في خزائنا من المخطوطات التي تنتظر منكم أن تتعاون على اخراجها للناس ، وما في ديارنا من مصانع وآثار ، جدير بأن يزار ، وان تقدر تلك العقول التي أنتجت « •

٣ - « للآثر القديم من الوقع في النفس ما ليس للآثر الحديث ، فان الاول يذكر بأمور كثيرة : يذكر بمجد السلف وأيديهم البيضاء وارانتهم الصحيحة ، يذكرنا بأن فلانا الذي تحترمه الامة بنى ذلك المصنع وتلك الدار ، وأن فلانا العالم درس هناك أو كان يآلف المكان الفلاني • وكم من أثر تاريخي أو مصنع من مصانعنا نمر به لا نحفل بما فيه من عبر ، ولو كنا على شيء من مزية أجدادنا ما زهدنا هذا الزهد الشبع في ترائهم ، ولو اقتبسنا المدنية الحديثة بمحاسنها ومساوئها ، لرأيتنا أسرع الى التقاط آثار الجدود والاحتفاظ بها من الماء الى الحدور • لا تستطيع أمة أن تقطع بينها وبين ماضيها ، خصوصا اذا كانت ذات غابر عظيم كغابر الامة العربية ، قام على أساس متين وتقاليد جميلة ومقدسات متسلسلة ، أما ونحن لا نرقى بدون القديم والخذ من نافع الحديث ، فواجب العقلاء أن يفكروا في أقرب الطرق الى بلوغ هذه الغاية ، وهذا لا يتم بغير احياء دور العلم ومعاهد الفضل » •

٤ - « انتفع الشام ، وهو القطر الشقيق الاصغر لمصر المحبوبة ، بالنهضة المصرية أكثر من عامة الاقطار العربية ، للجوار وأواصر القربى وكثرة الشباب بينهما ، ولان أقدارهما في عهد الدول الاسلامية كانت واحدة ، وحياتهما الاجتماعية متجانسة ، هكذا كانت مصر والشام في دولة الراشدين والدولة الأموية فالعباسية فالطولونية فالفاطمية فالايوبية فدولة الاتراك والمماليك فدولة الجراكسة فدولة الترك العثمانية ، وكانت مصر مبعث حضارة في معظم أزمانها ، كما كانت في العقود الاخيرة من حياتها ملجأ ومعصماً للاحرار ومبوءة ممتازة للعلم الاسلامي تأخذ عنها الاقطار والامصار » •

٥ - « منذ مئة سنة والقطر المصري ينهض نحو الترقى ، ويحذو مثال الغرب في نهوضه • وكان من قبل لولا جامعة الأزهر الدينية أشبه بكثير من بلاد العرب في قلة العلم والنور • وبالأزهر المعمور لم ينفك المصريون على اختلاف أعصارهم وأدوارهم أن يكون فيهم من اذا سئل سدد في علوم الشريعة وما يلزمها من علوم البيان » •

٦ - « لمصر ولرجال مصر ، ولا نكران للجميل ، أثر ظاهر في الامة العربية والاسلام • فاذا ذكرنا مصر ، فاننا نذكر آخر دولة انحطت من ممالك العرب ، وأول دولة نهضت فيه • انا بترداد اسم مصر نذكر أمة حفظت لنا تراث الأجداد ، تنوه بشعب كريم انتفع بلساننا ومشخصاتنا • ولولا مصر بعد عهد الجراكسة والترك ، لاضمحت العربية ومقوماتها ، ولتأخر نهوض العرب قرونا ، وكنا أقرب الى الاندماج في غيرنا من العناصر المتغلبة ، ولساءت حالتنا العلمية أكثر مما ساءت وشاهدنا ونشاهد تخريباتها في جسم جامعتنا ومجتمعنا » •

٧ - « يتهمونني بالتحامل على دولة الترك العثمانيين ، ويقولون ان (خطط الشام) و (الاسلام والحضارة العربية) و (القديم والحديث) من تألّفي ملئت بالظعن على هذه الدولة وما كان لرجل تلقى ثقافة أمة وأدبها ودرس تاريخها بلغتها وغير لغتها وعاش شطرا كبيرا من حياته بين أهلها وفي ظل حكمها وعاشر طبقاتها ودرس نفسيها الا أن يعرف عنها أكثر مما يعرفه الراضون عنها ، وهم من طبقة اغتنت بسرقتها وصرقه رعاياها ، وارتاشت بأكل أموال الاوقاف واستصفاة المدارس والمساجد ، أو كانت على الأقل من موظفيها ، أو كان غرامها بتزيين صدورها برتبها وأوسمتها ، أو ممن استهواهم الدين ، فشجع لتلك الدولة عندهم كونها مسلمة لا حرج عليها اذا ظلمت واستبدت •

أنا لا أنكر أنني أنظر في تاريخ العثمانيين نظر العربي ، لا نظر التركي ، ولما ظهر كتابي (خطط الشام) قرأه أحد الاتراك في أنقرة ، فقال : ما كنا

نظن ان فلانا يحكم على حكمنا الديار الشامية هذا الحكم الجائر ، ولو
أنصف لقال : ترى هل اختلق وكذب ، أو قال ما وقع ؟ فالمخترق والكذاب
لا يصح أن يمسك قلمًا ويكتب تاريخًا ، فان كنت بالغت على رأيهم في
وصف عهدهم الحديث عندنا ، فالعهد القديم من كتبه ؟ أليسوا مؤرخين
منا ومنهم ، شهدوا ظلم التركي وسوء ادارته ؟ لو تجردنا من كل عاطفة ،
وهذا من المتعذر ، لما حكمنا على دولتهم مهما تسامحنا الا بأنها دولة ظالمة ،
قضت أيامها كلها في الفوضى والاستبداد ، وخربت المدينة التي سقطت
عليها في الاقطار الواسعة التي احتلتها ، وما أحدثت لها مدينة يعتد بها » •

٨ - « تعلم - أيدك الله (١) - كم جهدت لازالة الفوارق من بين
المصريين والشاميين ، واني كنت أنحي على قومي انحاء شديدا لما عرف
بعضهم من معاكسة مصر في استقلالها ، وكتبت في ذلك المقالات الكثيرة
منذ كنت محررا في (المؤيد) حتى مل مني من ولدوا في أرضي وأعرضوا
عني وحاربوني في مادياتي ، وتعلم أن ليس في مصر من الشاميين من خدمها
مثلما خدمتها أنا بدون عوض ولا غرض • فقد جاءت علي أيام فيها وأنا
أحمل ريع ملكي في الشام وأرتفق به في مصر مختارا ، والانكليز يعرضون
بما عندهم من ذهب براق استهوى كثيرا من كبار رجالكم ، أما أنا ، فما
أخذت منكم منذ دخلت مصر ١٩٠١م وساما ولا رتبة ولا لقبًا ولا راتبًا ولا
عطية ولا هدية ولله الحمد والمنة ، وكنت أبدا مرتاحا لعملتي ، وأعده
واجبا علي » •

٩ - « ولقد أبان المصريون ومن اندمج في جملتهم من السوريين
هناك عن أريحية وكرم ، وهادوا مجمعا بزهاء ألف وست مئة مجلد
في مختلف العلوم • وممن جاد في هذا السبيل بالكتب النافعة ، العلامة
الكبير أحمد تيمور باشا أحد أعضاء مجلس الشيوخ ومن أعضاء مجمعا
العلمي • فقد أبت مروءته أن يبقى فضله مقصورا على معاونة الجمع بعلمه

(١) من رسالة له بعث بها الى صديقه محمد حلمي عيسى باشا ، من
الوزراء المصريين •

ورأيه وكتبه وغيرته الفاتمة على مجد السلف وانهاض الخلف ، فأهدى الى المتحف العربي تحفة من أئمن التحف التي دخلت مجمعنا حتى اليوم ، وهي مجموعة من النقود الذهبية والفضية والنحاسية والزجاجية وأختام قديمة منها ما زبر على الاحجار الكريمة ، فجاء من أنفس ما حوت الخزائن من الطرائف » •

١٠ - ولما ظهر ضحى الاسلام كتب فيه :

« كان اماما في استقرائه واستنتاجه ، واماما في جميل أسلوبه وحسن مآناه وقل جدا في تأليف المعاصرين ما كتب له الايغال مع الاجادة الى هذا المدى البعيد • ذلك ان المؤلف قد خص بالصبر على الاقتباس من مصنفات القدماء والمحدثين ، وعرف بالرفق في احكامه على الموافق والمخالف ، وقل من ضبط نفسه مثله ، وندر من رزق مثله اعتدال دم عند مواجهة المصاعب » •

١١ - « أنا من المعجبين بأسلوب الدكتور طه حسين ، وممن يستحلي على الاغلب تكراره للمعنى الواحد في جمل كثيرة ، وربما كان يجري في هذا النمط من الانشاء على غير مثال يحتذيه ، وليس في كتاب العصر بمنحاه ضريب ولا نظير » •

١٢ - « يجب الجمهور المطاعن وتلذذ له ، ويشغف بالمماحكات مهما كان لونها ، وأتى زمن والجريدة التي تخلو من هذه المهاترات لاتكاد تقرأ حتى ليضطر أربابها أن يخلقوا موضوعات يناقشون فيها غيرهم ، ويتحينون الفرص لفتح أبواب المطاعن لتروج جرائدهم الكاسدة ، وكان القوم يتلقفون الصحف التي ترى رواجها بالقذف في الاعراض ، كما يتلقفون أعز شيء عليهم ، واذا نفذت أعدادها يدفعون في اقتناء النسخة الواحدة عشرة أضعافها ، وأكثرهم يؤيدون فريقا على فريق ، ويزينون لهذا ما ينكرونه على ذلك ، والجمهور مجنون ، ونعوذ بالله من جنون الجماهير ، النقد شيء ، والطعن شيء آخر • وقل أن رأيت أحدا من المنورين اتسع صدره لنقد الناقدين ، ومن هنا جاء امساك النقاد عن النقد النافع لئلا ينزعج المنتقد عليه ، ويتخذ من

ناقده عدوا له ، ورأى النقاد في مصر على عهدهما الاخير أن يدهن بعضهم لبعض ويسكتوا عن نقد ما ينتقد ، وفي النقد حياة المجتمعات ، والمنتقد يزيد قدره اذا ما تلقى الانتقاد بالقبول ، ولقد بلغت القحة ببعض اصحاب النفوس الصغيرة أن توهمت أن كل أعمالها سديدة ، لا تستحق الا الاعجاب والتقريظ » ♦

١٣ - « قال : أحد علماء المشرقيات وكان قضي سنين في القاهرة ان من سوء حظ النقد في مصر أن معظم النقاد ينزلون العاصمة فتضطربهم واجبات الجوار والمعرفة الى أن يصانع بعضهم بعضا ، ولو كانوا متفرقين في البلدان المختلفة لا يرى الواحد صاحبه كل يوم لجسروا على نقد من يجب نقده منهم ، ولما أصيبوا في هذا الشأن بحياء لا محل له » ♦



وتحت عنوان (قلة حياء) كتب معلقا على خبر ورد في جريدة (أخبار اليوم) فحواه ان وزارة الخارجية المصرية طلبت الى وزارة خارجية فرنسا السماح لها بانشاء قنصليات في طنجة والدار البيضاء وغيرها من بلاد المغرب الاقصى وتأسيس مدارس مصرية هناك وان الحكومة الفرنسية رفضت هذا الطلب ، وذكرت هذه الجريدة بان القسم المغربي لمجلس شورى الحكومة دعسي للاجتماع لاستماع بيان الحكومة عن التعليم فوجه احد الاعضاء الوطنيين سوءا الى الجنرال (جوان) المندوب الفرنسي في مراكش عن سياسة الحكومة وموقفها من العون الثقافي الذي ترغب الحكومة المصرية أن تقدمه الى المغاربة ، فرد الجنرال المذكور قائلا :

(يسوءني ان تظلمة من المغاربة تنظر الى مصر والدول العربية مثل هذه النظرة ويسوءني أيضا أن تنتظر مراكش عونا ثقافيا من هذه الدول في حين ان العكس هو الذي ينبغي أن يكون ، فالمغاربة اذ يلتمسون العون من الشرق يتجاهلون ان المغرب اكثر رقيا وثقافة من مصر ، وان الاتجاه الى الشرق هو أكبر خطأ ترتكبه المغرب ويجب ان تتجه الى اوربا بدلا من

ان تتجه الى مصر) الخ . . . فكتب الاستاذ كلمة بعنوان قلة حياء قال فيها (هذا منطلق ممثل فرنسا الأكبر في المغرب الأقصى وهذه السياسة في تعليم المراكشيين هي عين السياسة التي اتبعتها فرنسا في كل بلد اسلامي احتلته ، وكلام مندوب فرنسا في جلسة مجلس الشورى المراكشي كلام من يحاول انكار الحقائق الظاهرة ومن لا يخجل من التصريح بالكذب على رؤوس الاشهاد وألف برهان يكذبه . مراكش أرقى من مصر ؟ هذه دعوى من أسخف ما سمع لا يقول بها عاقل وكيف تدعى بلاد ليس فيها بعد احتلالها أكثر من أربعين سنة مدرسة ثانوية واحدة انها ارقى من مصر ؟ . . . وبعد فانا كلما اردنا تجنب الكلام عن سياسة فرنسا مع العرب والمسلمين ترانا مدفوعين بعامل انساني وقومي الى تزييف خطتها ونقد مناهج سياستها ونعتقد اعتقادا جازما ان الكذب الذي يجري على السنة رجال الاستعمار وفي صحفهم كل يوم لا يؤول بغير احتقار العالم والعبث بالحق جهارا ، ان مصر على رأينا مصرة على فتح مدارس لها وقصليات في أرض مراكش ، فاذا لم تجب الدولة المحتلة على هذا الطلب المعقول تغلق مصر المدارس الفرنسية في وادي النيل وما دامت فرنسا تحتفظ بطريقتها السقيمة في استعمارها ما دامت وهي عاجزة في مملكتها الاصلية أنى لها أن تدير ممالك عظيمة كالجزائر وتونس ومراكش تخالفها في جنسها ودينها ومدنيتها وهي لم تر من ساستها منذ احتلت الجزائر سنة ١٨٣٠ سوى الشر والضرر^(١) .

مراجـع الكـتاب

- ١ - خطط الشام ، ٦ أجزاء ، مطبعة الترقـي - دمشق ١٩٢٥
- ٢ - الاسلام والحضارة العربية جزءان ١٩٣٤ مطبعة دار الكتب
- ٣ - غرائب الاغتراب الطبعة الثانية مطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٢٣
- ٤ - أمراء البيان مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٣٧
- ٥ - القديم والحديث مطبعة الترقـي سنة ١٣٤٣ هـ
- ٦ - دمشق مدينة السحر والشعر سلسلة اقرأ مطبعة المعارف سنة ١٩٤٤
- ٧ - كنوز الاجداد مطبعة الترقـي بدمشق سنة ١٩٥٠
- ٨ - اقوالنا وافعالنا دار احياء الكتب في مصر سنة ١٩٤٦
- ٩ - البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية المطبعة العلمية بيروت سنة ١٩١٦
- ١٠ - الرحلة الانورية الى المدينة المنورة المطبعة العلمية بيروت سنة ١٩١٦
- ١١ - غابر الاندلس وحاضرها مطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٢٣
- ١٢ - غوطة دمشق مطبعة الترقـي ١٩٥٢
- ١٣ - المذكرات الجزء الاول مطبعة الترقـي دمشق سنة ١٩٤٨
- ١٤ - المذكرات الجزء الثاني مطبعة الترقـي دمشق سنة ١٩٤٨
- ١٥ - المذكرات الجزء الثالث مطبعة الترقـي دمشق سنة ١٩٤٩
- ١٦ - المذكرات الجزء الرابع مطبعة الترقـي دمشق سنة ١٩٥١
- ١٧ - رسائل البلغاء الطبعة الاخيرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٤٦
- ١٨ - سيرة احمد بن طولون مطبعة الترقـي بدمشق سنة ١٩٣٩
- ١٩ - حكماء الاسلام للبيهقي مطبعة الترقـي دمشق سنة ١٩٤٦
- ٢٠ - المستجد من فعلات الاجواد طبع عام ١٩٤٦ مطبعة الترقـي
- ٢١ - كتاب الاشربة لابن قتيبة طبع عام ١٩٤٧ مطبعة الترقـي
- ٢٢ - كتاب البيزرة ، مطبعة الترقـي - دمشق ١٩٥٣
- ٢٣ - محمد كرد علي في خطط الشام ، الجزء السادس : ص ٤١١ - ٤٢٥ بقلمه
- ٢٤ - جمال باشا المذكرات ٣٣٨

- ٢٥- أحمد أمين - فيض الخاطر ١ : ٢٨١-٢٨٢ رد على المذكرات
- ٢٦- الادباء الخمس المعاصرون للاستاذ اسماعيل عبد الحميد
- ٢٧- محاضرات الاستاذ شفيق جبيري : (محمد كرد علي) في معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة
- ٢٨- محمد كرد علي كتبه وأدبه ، للاستاذ سامي الدهان
- ٢٩- المطالعات في الكتب والحياة للاستاذ عباس العقاد من ١٨٠-١٨٦
- ٣٠- أعلام العرب للاستاذ فائز سلامة من ١٧٤-١٧٩
- ٣١- معجم المؤلفين للاستاذ عمر رضا كحالة : محمد كرد علي : الجزء العاشر ص ١٦٢
- ٣٢- كتاب وشخصيات للاستاذ سيد قطب ٣٤٦-٣٥٠
- ٣٣- أشهر مشاهير أدباء الشرق ١: ٨٢-١١٢
- ٣٤- ترجمة محمد كرد علي المذكرات ج ١ : ٧٩-٨١
- ٣٥- الادب العربي المعاصر للاستاذ سامي الكيالي ١٣، ١٤، ٢٨، ١١٦
- ٣٦- تاريخ المجمع العلمي العربي للاستاذ احمد الفتوح ، مطبعة الترقى بدمشق ١٩٥٦
- ٣٧- مجلة الثقافة س ١١ ع: ٥٤٢ أحمد أمين
- ٣٨- مجلة الثقافة ٢: ٩٣ احمد صقر ، ٣٤٢-٣٤٤
- ٣٩- مجلة الثقافة ٢: ١١١٧-١١١٨ أحمد محرم
- ٤٠- مجلة الثقافة ٢: ٦٢٧ عبد السلام النجار
- ٤١- الحرية بغداد ١: ٧٥-٨٠ والحرية ٢: ١٣٧-١٤٢ عز الدين علم الدين
- ٤٢- مجلة الرسالة ٣: ١٢٧٩-١٢٨٠ ، ١٥٥٥ شكيب أرسلان
- ٤٣- مجلة الرسالة ٩: ١٣٠٢ علي الحوماني ، الرسالة ٨/ ١٠٥٧ الى ١٠٦٠
- ٤٤- الكاتب المصري ٥: ١٧٨-١٨٠
- ٤٥- مجلة الكتاب ٤: ١٤٤٠-١٤٤١ ، ٤٦٥: ٧ ، ٢٨٤
- ٤٦- مجلة الكتاب ١٢: ٥٧٧-٥٧٩ زكي المحاسني
- ٤٧- مجلة المجمع العلمي العربي دمشق : محاضراته ، ومقالاته من ١-٣٠
- ٤٨- مجلة لغة العرب ٤: ٥٤٤-٥٥٩ ، ٦: ٢٣٠-٢٣١ ، ٧٣-٧١: ٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣
- ٤٩- نقد وتعليق ومقالات في مجلة المجمع العلمي العربي لعارف نكدي ، شفيق جبيري ، محمد بهجة البيطار ، وداد السكاكيني ، جعفر الحسيني ، مصطفى الشهابي ، كامل عياد - روجعت المجلدات ٩ ، ١٠ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤
- ٥٠- المقتبس المجلد الخامس والمجلد السادس
- ٥١- مجلة المجمع العلمي العراقي ١: ص ٣٥١ ، ٣٥٣ للاستاذ الشاعر محمد بهجة الاثري
- ٥٢- الحكومة المصرية محاضرة ل محمد كرد علي ، مجلة الزهراء لمحبه الدين الخطيب

- ٥٣- مجلة المقتطف
 ٥٤- أدهم الجندي : أعلام العرب والفن ٢٣٦
 ٥٥- الصحافة الادبية مجلة المجمع العلمي العربي محاضرات الدكتور شكري
 فيصل
 ٥٦- فارس الخوري حياته وعصره للدكتور جورج حداد وحنا خباز
 ٥٧- الامير شكيب ارسلان للدكتور سامي الدهان سنة ١٩٥٨
 ٥٨- سوريا من الاحتلال حتى الجلاء للدكتور نجيب الارمنازي ١٩٥٣
 ٥٩- تاريخ الثورة السورية للدكتور محي الدين السفرجلاني
 ٦٠- الصحافة العربية نشأتها وتطورها لاديب مروه
 ٦١- قدماء ومعاصرون للدكتور سامي الدهان

وتوخيا للفائدة وحبا بتيسير البحث المنهجي لمن يرغب في الاستزادة والتوسع في دراسته ، ويطلع على ما كتبه فيه معاصروه ، ويلهم بمقالاته ومحاضراته وتأليفه ، رأيت أن أثبت المراجع المتعلقة بمحمد كرد علي التي اشار اليها الاستاذان عمر رضا كحالة في موسوعته (معجم المؤلفين) ، ويوسف أسعد داغر في كتابه (مصادر الدراسة الادبية) . والى القارىء ما ورد في معجم المؤلفين :

(خ) فهرس المؤلفين بالظاهرية (ط) محمد كرد علي خطط الشام ٦ :
 ٤٢٥-٤١١ جمال باشا المذكرات ٣٢٨ ، أحمد أمين : فيض الخاطر ١ :
 ٢٨١-٢٨٢ اسماعيل عبدالحميد : الادياء الخمس ، شفيق جبيري : محمد
 كرد علي ، سامي الدهان : محمد كرد علي ، عباس العقاد : المطالعات
 في الكتب والحياة ١٨٠-١٨٦ صالح سوداني : الاسرار السياسية ٢٦٠-
 ٢٦١ ، فائز سلامة : أعلام العرب ١٧٤-١٧٩ ، سيد قطب : كتاب
 وشخصيات ٣٤٦-٣٥٠ ، محمد عبدالفتاح : اشهر مشاهير أدباء دمشق ١ :
 ٨٢-١١٢ ، من هو : ٦٣٩-٦٤٠ فخري البارودي : المذكرات ١ : ٧٩-٨١ ،
 محمد كرد علي : المذكرات ، فهرس الازهرية ٦ : ٢٦٤ ، المكتبة البلدية ،
 فهرس الادب ٧٠ ، سامي الكيالي : الادب العربي المعاصر في سورية ١٣ ،
 ١٤ ، ٢٨ ، ١٠٧ ، ١١٦ ، حسن الريس : شخصية محمد كرد علي ،
 فهرس دار الكتب المصرية ، الملحق الاول للجزء الثالث ٦٧ فهرس دارالكتب
 المصرية ٤ : ١٦٤ ، ١٦٧ ، ٦ : ٣٤ ، ٤٥ ، ٨ : ١٧ ، ١٢٢ ، ١٨٨ شفيق جبيري
 مقدمة الادب العربي للكيالي ، بروكلمان : ٤٣٠-٤٣٤ .

(م) صلاح الدين المنجد : الاديب س ٩ ، ع ٦ ص ٥٧ ، ٥٨ ، ١٠٤ ،
 ص ٥٣ ، الاديب س ١٢ ، ع ٥٤ ، ص ٧٦ شفيق جبيري : الاديب س ١٦ ،
 ع ٦ ، ص ٧٩ ، حسني كنعان : التمدن الاسلامي ٢١ : ٦٩٢-٦٩٣ ، ٢٤ :
 ٤٠-٤٤ . أحمد صقر : الثقافة ٢ : ٩٣ ، الثقافة ٢ : ٣٤٣-٣٤٤ . أحمد
 محرم : الثقافة ٢ : ١١٧-١١١٨ . أحمد أمين الثقافة س ١١ ، ع ٥٤٢ ،
 ص ٦ - ٩ س ١٢ ع ٦١٤ ، ص ٦٠ . عبدالسلام النجار : الثقافة س ١٣ ع

- ٦٢٧ ، ص ٢٤ • الحديث ٢ : ١٨٨ ، ٢٠٦-٢٠٨ ، ٣ : ٥١٦-٥١٧ •
 وجيه بيضون : الحديث ١٥ : ٢٤٢-٢٤٣ ، ٣١٦ ، الحديث ١٢ : ٣١٩ •
 الحديث ٢٠ : ٦٥٠ ، سامي الكيالي : الحديث ٢٧ : ٢٢٤ ، ٢٢٥ •
 الحديث ، عداد أيار ١٩٥٣م ، شفيق جبيري : الحديث ٣١ : ٣٦٤ - ٣٧٥ •
 عز الدين التنوخي : الحرية ، بغداد ١ : ٧٥-٨٠ والحرية ٢ : ١٣٧-١٤٢ ،
 ٢٩٩-٢٩٩ ، الحسناء ، بيروت ١ : ٢٤٧-٢٤٨ ، الحقائق بدمشق ١ :
 ٢٦٩-٢٧٢ ، ٤٦٩-٤٧٢ ، ٤٧٥-٤٧٩ ، ٢ : ١١٨-١٢٠ • أنستاس
 الكرمللي : دمشق ٢ : ٤٤٥-٤٤٦ ، الرسالة بالقاهرة ٣ : ١٩٨ • شكيب
 أرسلان : الرسالة ٣ : ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٥٥٥ ، الرسالة ٩ : ١٣٠٢ •
 علي الحوماني الرسالة ١٨ : ١٠٥٧-١٠٦٠ ، الزهراء بالقاهرة ٢ : ٤٠٩ ،
 ٤١٠ ، ٥ : ٢٢٨-٢٢٩ ، الزهور ١ : ١٠١ ، ٢ : ١٨٦ • السلام بتطوان
 س ١ ، ع ١ : ٣٣ ، ٣٤ ، الضياء ٨ : ١٨٠ • العرفان ٢ : ١٢٣ ، ٩ :
 ٢٧٤ ، ١٠ : ٢٩٥-٢٩٧ ، الحوماني : العرفان ١١ : ٦٥-٦٧ ، ١٩٣-
 ١٩٨ ، العرفان ١٢ : ٢١٨-٢١٩ • أديب النقي : العرفان ١٩ : ٥٥٥-
 ٥٦٠ العرفان ٣٧ : ٧٠٣-٧٠٤ ، ٣٩ : ٤٠٢ ، محمد سعيد العريان ،
 الكاتب المصري ٥ : ١٧٩-١٨٠ • الكتاب ٤ : ١٤٤٠-١٤٤١ ، ٦ : ٤٦٥ ،
 ٧ : ٢٨٤-٢٨٥ ، ٩ : ٧٤٥-٧٤٧ ، ٨٦٢ ، ٨٦٤ ، ١٠ : ٦٣٨ -
 ٦٣٩ ، ١١ : ٢١٦ ، ٢١٧ ، وداد السكاكيني الكتاب ١١ : ٦١٠-٦١٢ •
 زكي المحاسني : الكتاب ١٢ : ٥٧٧-٥٧٩ ، الكلية ، بيروت ١١ : ١٤٢ •
 أسد رستم : الكلية ١٢ : ٤١-٤٥ ، الكلية ١٢ : ١٥٧-١٥٩ ، ١٥ : ٤٩٨ ،
 لغة العرب ٤ : ٥٤٤-٥٥٩ ، ٦ : ٢٣٠-٢٣١ ، ٨ : ٧١-٧٣ ، ١٤٩ ، ١٥١ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٣ • مجلة سركييس : ٦ : ٣٠٩ ، ٥٩٨ ، مجلة المجمع العلمي
 ٥ : ١٩٣-١٩٥ • عارف النكدي : مجلة المجمع ٦ : ٣٢٦-٣٢٨ ، ٧ :
 ٥١٠-٥١٨ ، ١٠ : ٥٩-٦١ ، محمد كرد علي : مجلة المجمع ٩ : ١٢١-
 ١٢٢ ، شفيق جبيري : مجلة المجمع : ١٩ : ٣٥٨ ، ٢٢ : ١٥٠-١٥١ ،
 وداد السكاكيني مجلة المجمع ٢٤ : ١١٥-١١٨ ، محمد بهجة البيطار :
 مجلة المجمع ٢٥ : ١٤٢-١٤٦ ، مجلة المجمع ٢٨ : ٣١٩ ، جعفر الحسني :
 مجلة المجمع ٢٩ : ٢٩٨ ، ٢٩ : ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، سامي الدهان : مجلة
 المجمع ٣٠ : ٢١١-٢٥٢ ، مصطفى الشهابي ٣٠ : ٣٢٨-٣٣٢ • مجلة
 المجمع ٣١ : ٣٦٩ ، ٥٣٧ • مصطفى الشهابي ٣٢ : ٥١٦-٥١٧ • كامل
 عياد : مجلة المجمع ٣٤ : ١٦٥-١٩١ ، شفيق جبيري : مجلة المجمع ٣٤ :
 ٣٩٠-٣٩٢ مجلة مجمع فؤاد ١ : ١٣ المسرة ١٢ : ٦٣٥ ، المشرق ٢ :
 ٧٣٧-٧٤٧ ، المقتبس ٨ : ٧١٠-٧١١ ، المقتطف ٤٣ : ٥٩١ ، ٥٩٢ ،
 ٧٠ : ٤٥٨-٤٦٠ ، ٥٨٠-٥٨٢ ، ٧٢ : ٤٦٢ ، محمود محمد شاكر : المقتطف
 ٨٦ : ١٠٩-١١٢ ، المكتبة ١ : ٢٤ ، ٢٥ ، المنار ٧٢٠ ، ١٣ : ٤٢٠ •
 المنتقد ٢ : ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، المواهب بالارجنتين س ٩ ، ع ٤ ، ص ٤٠

النبراس ٢: ٣٥ ، ٣٦ ، النجم بالموصل ١: ٣٣٧ ، الهلال ١٤: ٢٥٥ الورود
س ٦ ، ع ٢ ، ص ١٥ .



اما ماجاء في (مصادر الدراسة الادبية) فهو :

مؤلفاته

- ١ - الادارة الاسلامية في عز العرب ، القاهرة ، مطبعة مصر ١٩٣٤ ،
- ٢ - الاسلام والحضارة العربية ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤
مجلدان نقده صلاح الدين المنجد في مجلة المجمع ١٦ : ٣٣٠ ، نقده
في مجلة الرسالة ٣: ١٩٩
- ٣ - أقوالنا وأفعالنا : مصر ، دار احياء الكتب القومية ١٩٤٦ ص ٤٣١
- ٤ - أمراء البيان : القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
مجلدان . نقده أحمد صقر في الثقافة مجلد ٢: ١٩٤٠ ، ٩٣ مع كلمة
في النقد الادبي
- ٥ - الحكومة المصرية في الشام : محاضرة تاريخية ، نشرت أولا في المجلد
الاول من مجلة الزهراء لصاحبها محب الدين الخطيب ، ثم طبعت على
حدة في مصر ، المطبعة السلفية ١٩٢٥ .
- ٦ - خطط الشام دمشق ١٩٢٥ في ١٩١٨ صفحة ٦ مجلدات ، نقده في
مجلة لغة العرب ٤: ٥٤٥-٥٥٩ الجزء الاول : الحوماني في مجلة العرفان
١١ : ٦٥ ، ١٩٣ ، ٣٢٠ المجلد الاول والثاني . عارف النكدي : مجلة
المجمع ٥: ٤٣٨ ، ٥٣١ المجلد الثالث . في مجلة لغة العرب ٨: ٧٢ مجلد
٧: ٥١٠-٥١٨ المجلد الرابع في العرفان ١٢: ٢١٨ المجلد الرابع ، الاب
هنري لامنس في المشرق ٢٣ سنة ١٩٢٥: ٧٢ ، ٥٥٦ ، ٥٦١ ، ٥٦٧ ،
٧٩٦ المجلد الاول ومجلد ٢٤: ٨٧٥ ، ومجلد ٢٨: ٩٥٢ المجلد السادس
أسد رستم : مجلة الكلية ١٢: ٤١
- ٧ - الرحلة الانورية الى الاصقاع الحجازية والشامية ، بيروت ، المطبعة
العلمية سنة ١٩١٦
- ٨ - دمشق مدينة السحر والشعر ، القاهرة ، مطبعة المعارف س ١٥٢
سلسلة اقرأ
- ٩ - غابر الاندلس وحاضرها ، مصر ، المطبعة الرحمانية ١٩٢٣ ص ١٩٠
- ١٠ - غرائب الغرب : جزآن ، طبعة اولى ١٩١٠ ، وطبعة ثانية سنة ١٩٢٣
المكتبة الاهلية ١٩٢٣ وظهر قسم مهم منه في مجلة المقتبس المجلد ٤، ٥،
نقده فارس الخوري في مجلة المجمع العلمي ٤: ٨٢ ، عباس العقاد في
البلاغ ١٢ شباط ١٩٢٤ وفي كتاب مطالعات في الكتب والحياة ، ص
١٨٠ في المقتطف ٣٧ : ١٩١٠ ، ٩١٢ ، في المشرق ١٩ : ٨٧٢ عزالدين
علم الدين في الحرية ، ١ : ٧٥

- ١١- غوطة دمشق : المجمع العلمي العربي ١٩٤٩ ص ٢٩١
- ١٢- القديم والحديث ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ص ٣٤٧ نقده سليم عنجوري في مجلة المجمع العربي ٥ ص ٢٤٢
- ١٣- كنوز الاجداد : دمشق ، المجمع العلمي العربي : ١٩٥٠-٤٣٨
- ١٤- المذكرات : دمشق ، مطبعة الترقوي ١٩٤٨ ثلاثة اجزاء (صدر الرابع)
- ١٥- البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية بالاشتراك مع محمد الباقر وعبدالباسط وحسين الحبال بيروت ١٩١٦
- ١٦- تاريخ الحضارة ، تأليف شارل سنيوبوس ، الجزء الاول : حضارة الامم القديمة ، نقده في المقتبس ٣: ٧١٩ في المقتطف ٣٤
- ١٧- رواية المجرم البريء
- ١٨- قصة الفضيلة والرزيلة
- وقد أحيا بالنشر العلمي المؤلفات التالية :
- ١٩- رسائل البلغاء : القاهرة ، طبعة ثانية ١٩٤٦
- ٢٠- سيرة ابن طولون (وذكر من نقده)
- ٢١- حكماء الاسلام للبيهقي ، دمشق ١٩٤٦
- ٢٢- كتاب الاشربة تأليف ابن قتيبة ، دمشق ١٩٤٧
- كتب خاصة به**
- عثمان الكعك - محمد كرد علي - تونس جمعية الاتحاد الثقافي ١٩٥٤

ص ٣٨

كتب تناولته

- ١ - فايز سلامة : أعلام العرب في السياسة والادب
- ٢ - محمد عبدالفتاح : أشهر مشاهير أدباء الشرق
- ٣ - أدهم الجندبي : أعلام العرب والفن ٢٣٦

مقالات المجلات العربية

أديب التقى : الى الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي في دمشق ، مجلة العرفان ، مجلد ٩ : ٥٥٥ رد على نقد مؤلفات السيد البغدادي مصطفى جواد : أوهام محمد كرد علي اللغوية ، مجلة العرفان ١٧ :

٤٨٠ ،

الاب هنري لامانس : الانتقاد والدروس التاريخية في سوريا ، المشرق مجلد ٢ : ١٩٢٢

نقد ماجاء في كتابه غابر الاندلس وحاضرها . احمد محرم : كيف عرفت الاستاذ محمد كرد علي ، مجلة الثقافة ٢: ١٩٤٠ ، ١١١٦ ، مجلة العرفان : ١٥ : ٩٧٣ . مجلة الحسناء ١ : ٢٤٠

تقدير

أقدم أصدق التثناء إلى السادة الافاضل الذين أسهموا باخراج هذا الكتاب واخص بالذكر مديرية الثقافة العامة في وزارة الارشاد وانوه بالجهد المشكور للاستاذ العلامة محمد بهجة الاثري الذي راجع الكتاب وقدم له وابدى ملاحظاته القيمة وتوجيهاته الغنية ، وكذلك اثنى جهد الصديق الفاضل عبدالحميد العلوجي الذي وقف على طبعه ووضع فهرسه فلهما أجزل الشكر وعاطر التثناء .

المؤلف

فهرس الاعلام

- آدم ٤١
آدم متز ٢٠٧
آسين بلاسيوس ٨١
آل السعود ٤٨ ، ٢٩٩
آل عبدالرزاق ٢٦٢
آل عثمان ٧٧
ابراهيم باشا المصري ١٤٤
ابراهيم بك (حاجب السلطان محمد رشاد) ١٠٣
ابراهيم سليم النجار ٥٥ ، ٣١٠
ابراهيم الصولي ١٨٩
ابراهيم عبدالقادر المازني ٥٥ ، ٣١١
ابراهيم الكيلاني ٢٠٨ ، ٢٠٩
ابراهيم منصور ٣١٠
ابراهيم المويلحي ٣٠٧ ، ٣٠٨
ابراهيم اليازجي ٢٢ ، ٣١٠ ، ٣١٤
ابن أبي اصيبعة ٢١٠ ، ٢١١ ، ٣٢٣
ابن أبي حصينة ١٥٥
ابن أبي العجائز ٣١٧
ابن أبي كديه ١٧
ابن الاثير ٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٩٠
ابن الاحمر ٢١٩
ابن بصاقه ١٧
ابن بطوطة ٦٥ ، ٦٩ ، ١٦٧ ، ١٧١
ابن تيمية ٢١ ، ٣٢ ، ٢١٠ ، ٢٣٦ ، ٣٢٣
ابن جبير ٦٥ ، ٦٩ ، ١٧٠
ابن جرير الطبري ٢٠٩ ، ٢٢٥
ابن جني ١٥٥ ، ١٩٧
ابن الجوزي ١٤٨
ابن حزم ٢١ ، ٢١٠
ابن الحنبلي = محمد بن ابراهيم الحلبي
ابن حوقل ٦٩

- ابن حيان البستي ٤٢ ، ٢٠٩
ابن حيوس ١٥٣ ، ٣٢٣
ابن خرداذبه ١٢٣
ابن الخطيب ٢١٠
ابن خلدون ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩
ابن خلكان ٣١٧ ، ٣٢٣
ابن الداية ٢٠٩
ابن دريد ٢٠٩ ، ٢٥٩
ابن رائق ١٩٥
ابن الرومي ٢٠ ، ٢٩٠
ابن زيدون ٢١٠
ابن الساعاتي ٣١٨
ابن سعد ٤١
ابن سناء الملك ٢١٢
ابن سهلان ١٥١
ابن سينا ١٥١ ، ١٨٥ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٤٢
ابن شرف القيرواني ٢٤١
ابن صاعد الانصاري ٤٢
ابن طولون الصالحي ٣١٧
ابن عبد ربه ٢٠ ، ٢٠٩ ، ٢٩٠
ابن عبد الهادي ٣١٧
ابن عساكر ١٥٢ ، ١٥٤ ، ٢١٠ ، ٣١٧ ، ٣٢٣
ابن العماد ٣١٧
ابن العميد ١٥٨ ، ١٨٩ ، ٢٥٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠
ابن عنين ١٤٨ ، ١٥١ ، ٣٢٣
ابن الفرات ٢٠٣
ابن فضلان ٦٥
ابن فضل الله العمري ١٧١ ، ٣١٧ ، ٣٢٣
ابن القارح ٢٤١
ابن قتيبة ٤٢ ، ١٥١ ، ٢٠٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢
ابن قزمان ١١٩
ابن القلانسي ٢١٠ ، ٣١٧ ، ٣٢٣
ابن قيم الجوزية ٢١
ابن كتاكت ١٧
ابن كثير ٣٢٣
ابن المدبر ٢٤١

ابن المعتز ٧٧
 ابن المقفع ٢٠ ، ٣٣ ، ٤٣ ، ١٨٩ ، ٢٠٩ ، ٢٤١ ، ٢٩٠
 ابن المهنا الداراني ٣١٧
 ابن نباتة ٤٢ ، ٤٣
 ابن النقيب ١٥٥
 ابن هندو ٢٠٩
 ابن الهيثم ١٥١ ، ٢١١
 ابو أحمد المهرجاني ٢٠٥
 ابو ادريس الخولاني ١٦٧
 ابو اسحاق الصابي ١٩ ، ٢٠ ، ٢٩٠
 ابو بكر بن ايوب ٢١٤
 ابو بكر الخوارزمي = محمد بن العباس
 ابو بكر الشافعي ١٩٦
 ابو تمام ٢٠ ، ٢٩٠
 ابو الحسن الاشعري ٢٠٩
 ابو الحسن العامري ١٩٦
 ابو حيان التوحيدي ٢٠ ، ١٤٤ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧
 ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
 أبو الخير عابدين ١٠٨
 أبو الدرداء ١٦٧
 أبو سليمان الداراني ٢٠٠
 ابو سليمان المنطقي = محمد بن بهرام
 ابو شامة ٣١٧
 ابو طاهر البغدادي ٢٤١
 أبو عبد الله ابن الاحمر ٩٢
 ابو عبد الله الزنجاني ١٣٨
 ابو العلاء المعري ٢٠ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢٤١ ، ٢٩٠
 أبو علي القالي ٢٩٧
 أبو عمرو بن العلاء ١٩٩
 ابو العيناء ٢٦٠
 ابو الفرج الاصفهاني ١٩ ، ٢٠٩
 أبو القاسم الشارعي ٢١٣
 ابو نصر ٢١٣
 ابو النفيس الرياضي ١٩٦
 ابو نواس ١٥٥
 أثافي (الميسيو) ٥٩
 احسان عباس ٢٠٨

- احمد (السلطان) ٧٤
 احمد ابراهيم ٥٥ ، ٣٠٩
 أحمد الاسكندردي ٥٥ ، ١٣٨ ، ٣٠٩
 أحمد الالفي ٥٥ ، ٣١٠
 احمد امين ٢٠٨ ، ٢٥٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ ،
 ٣١١
 احمد تيمور ٥٥ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ، ١٦٦ ، ٣١٠ ، ٣٢٨
 أحمد الثاني ٧٧
 احمد الجزائر ١٤٤
 احمد جمال باشا ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ،
 ١٢٠ ، ١٢١ ، ٣١٣ (راجع ايضا : جمال السفاح)
 احمد حامد الاصراف ٣١٤
 احمد حسن الزيات ٥٥ ، ١٤٩ ، ٢٦١
 احمد حسنين ٣١١
 أحمد حشمة باشا ٣٧
 احمد بن حنبل ٤٨
 احمد رضا ١٢٩ ، ١٣٧ ، ٣١٤
 احمد زكي باشا ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٥٥ ، ٧٩ ، ١٢٨ ، ١٦٢ ، ٣١٠ ،
 ٣١١
 احمد الزين ٢٠٨ ، ٣١٤
 احمد سليمي ٣١٠
 احمد شفيق ٣١١
 احمد شكري ٢٥٠
 أحمد شوقي ٢٢ ، ٧٠ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٧٣
 احمد صديق ٢٣٠
 احمد صقر ٣١١
 احمد طباره ٢٥٠
 احمد بن طولون ٢٤١ ، ٢٦٠
 احمد عبود ٢٣٠
 احمد عيسى ١٣٨
 احمد فارس الشدياق ٢٢ ، ٦٥ ، ٨٥
 احمد فتاح ٥٥ ، ٣١٠
 احمد كرد علي ٥١ ، ٦١
 احمد كمال باشا ١٣٨ ، ٣١١
 احمد لطفي السيد ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٣١٠
 احمد محمد الحوفي ٢٠٨
 احمد بن يوسف الكاتب ١٨٩

الاخطل ١٦٧
 ادوارد مرقص ١٣٨
 الارجاني ٢٠ ، ٢٩٠
 اردشير ٢٤١
 ارنلط (البرنس) ١٢٣
 اسحاق بن يحيى الختلي ١٧٠
 أسد رستم ١٦٦
 الاسدي ١٤٧
 اسعد الحكيم ١٣٧ ، ١٥٥
 اسعد الشقيري ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٢٠ ، ٣١٤
 اسعد طلس ١٥٥
 الاسكندر ٢١٣
 اسكندر الثاني ٧٧
 اسكندر شاهين ٥٥ ، ٣١٠
 اسكندر عمون ٣١٠
 اسكندر معلوف ٣١٤
 الاسكندر المقدوني ٧٣ ، ٧٤
 اسماعيل حسنين ٣١١
 اسماعيل رأفت ٥٥ ، ٣١٠
 اسماعيل صدقي ٢٣٠ ، ٢٣١
 اسماعيل النابلسي ٢٠ ، ٤٦ ، ٢٩٠
 الاصفهاني = أبو الفرج
 الاصمعي ١٥٥
 الياس فياض ٥٥ ، ٣١٠
 امام العبد ٥٥ ، ٣١٠
 امرؤ القيس ١١٨ ، ١٦٧
 أمين الحسيني ٣١٤
 امين الرافعي ٣١١
 امين الريحاني ١١ ، ٣١٤
 امين سامي ٣١١
 امين سويد ١٢٦
 امين المعلوف ١٣٨ ، ٣١٤
 انتول فرانس ١٤٥ ، ٢٨٣
 انستاس الكرملي ١٢٨ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٦٦ ، ٣١٤
 انطون الجميل ٣١١
 انور باشا ١٠٥ ، ١١٤ ، ١٢١
 انيس الخوري المقدسي ١٦٦

انيس سلوم ١٢٦ ، ١٢٨ ،
اوليفا روجه ٢٧٩ ، ٢٨٢ ،
بارتلمي سان هيلير ١٧٨
باقر الشيببي ١٤١
الباقلاني ٢٠٩
باي تونس ٢٧٩
البتاني ١٥١
البحتري ٢٠ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ٢٩٠
البخاري ٢٩٠
بدر الداغستاني ١٦٣
بدرالدين النعساني ١٠٩ ، ١٢٨ ، ٣١٤
بدوي الجبل ١٣٩
بديع الزمان الهمداني ٢٠٩ ، ٢٩٠
براون ١٢٩ ، ١٣٨ ، ٣١٤
برقوق ٢٣٣
بروكلمن ١٢٩ ، ٣١٤
البريدي ١٩٥
بسمارك ٢٦٢
بشر بن الوليد الاموي ١٦٧
البكري ٢١٠
بلاشير ٣١٤
البلوي ٢٠٩
بليسيه ٢٧٩
بنتام ١٩
بهاء الدين ٣٠
بهي الدين بركات ٣١١
البوريني ١٤٧
بولس الخولي ١٢٨
بونسو (المسيو) ١٣٤
بونور ٢٧٤
بيبرس البندقداري ١٢٦
البيروني ١٥١ ، ٢٠٩
البيهقي ٢١٠
تابنيت بن اشمونازار ٧٣
تاج الدين بدرالدين ١٠٩
تاج الدين الحسيني ١٣٣ ، ١٣٩ ، ٢٦٣ ، ٣١٤
تنكز ٢٣٣

التنوخي (القاضي) ٢٠٩
 التوحيدى = ابو حيان
 توفيق الاتاسى ١٠٨
 توفيق بساط ٢٥١
 توفيق حبيب ٣١٠
 توفيق دوس ٢٣٠
 تيمورلنك ١٤٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥
 تين ١٩ ، ٨٦
 تامسطينوس ٢١٣
 الثعالبي ٢٠٩
 الجاحظ ٢٠ ، ٢٣ ، ٤٢ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
 ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢٤٢ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
 جب ٣١٤
 جبر ضومط ١٢٨ ، ٣١٤
 جرجى زيدان ٣١٠
 جرجيس منشى ١٣٨
 الجزار ١٣
 جعفر الحسنى (الامير) ١٣٧ ، ١٥٢
 جعفر ولى ٣١١
 جلال الدين البخارى ٤٤
 جلال الدين الرومى ١١٩
 جمال باشا المرسينى ٦٠
 جمال الدين الافغانى ١٣ ، ٢٠ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٢ ، ٢٨٩ ،
 ٢٥٠ ، ١٠٩ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥٠ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥١ (وانظر أيضا : أحمد جمال باشا)
 جمال عبدالناصر ٢٩٦
 جمعة اسماعيل ٢٠
 جميل البحرى ١٦٦
 جميل صدقى الزهاوى ٢٢
 جميل صليبا ١٣٧ ، ١٥٢
 جميل مردم ١٣٣
 جوان (الجنرال) ٣٣٠
 جوزيف ليان ١٣٥
 جويدى ٨١ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ، ٣١٤
 حافظ ابراهيم ٢٢ ، ٥٥ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ٣١٠
 حافظ عفيفى ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٣١١

- حافظ عوض ٤٩ ، ٥٥ ، ٣١٠
حبيب العبيدي ١٠٩ ، ١١٣ ،
الحريري ١٩ ، ٢٠ ، ٢١٠ ، ٢٩٠
حسان بن ثابت ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٣١٨
حسن توفيق العدل ٥٥ ، ٣٠٩
حسن حسني عبدالوهاب ١٢٨ ، ١٥٥ ، ٢٢٧
حسن السنديوي ٢٠٧
الحسن بن سهل ٢٤١
حسن صادق ٢٣٠
حسن عاصم ٣١٠
حسن مظلوم ٢٣٠
حسن منصور ٥٥ ، ٣٠٩
حسن نشأة ٢٣٠
حسني الزعيم ٢٤٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨
حسني سبيح ١٣٧
حسين (الشريف) ١١٣
حسين الجبال ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٨
حسين سري ٢٣٠ ، ٢٣١
الحسين بن علي ٢٢٤
حفني ناصيف ٥٥ ، ٣٠٩
حقي العظم ١٣٣ ، ١٤٠ ، ٢٦٣ ، ٢٨٤
حمدي ياشا ١٢٦
خالد بن عثمان ٢١٩
خالد العظم ١٣٤ ، ٢٨١
خلدون بن عثمان ٢١٩
خلوصي بك ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٣١٣
خليل ثابت ٣١١
خليل سعادة ٣١٠
خليل مردم ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،
١٦٣ ، ١٥٣
خليل مطران ٥٥ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ٣١٠
الخوارزمي ١٩ ، ٢٠
دارا ٧٤
داوود بركات ٥٥ ، ٣١٠
داوود الجلبلي ١٣٨
داوود الطائي ١٩٩
داوود عمون ٥٥ ، ٣١٠

- الداية الصغير ٤٤
 الدجال ٢٣٦
 درويش ابو العافية ١٤٢
 دنلوب ٥٠
 دوسو ١٢٩ ، ٣١٤
 دى سوترلاند ٨٩
 الذهبي ٣١٧ ، ٣٢٣
 الرازي = محمد بن زكريا
 الرازي ١٩٥
 الراغب الاصفهاني ٤٣ ، ١٥١ ، ٢١٠
 راغب الطباخ ١٣٧
 ربيرا ٨١ ، ٨٢
 رشيد الدين الوطواط ٢٤١
 الرصافي = معروف الرصافي
 رضا باشا ١٥٩
 رضا الزعيم ٢٦٧
 رضا نوري ١١
 رفيق العظم ٥٤ ، ٥٥ ، ١٣٨ ، ١٥٦ ، ٣١٠
 الركابي = علي رضا
 رنان ١٩ ، ١٨٠
 روبر دي كر ٢٧٢ ، ٢٧٥
 روبنسون ١٨٧
 روسو ٢١٧
 الريحاني = أمين الريحاني
 زكريا ابراهيم ٢٠٨
 زكي مبارك ٢٠٧
 زكي مغامز ١٢٩
 الزمخشري ١٩ ، ٢١٠
 الزهاوي = جميل صدقي
 زهير بن أبي سلمى ٢٥٧
 زيد بن رفاعة ٢٠٤
 سابا حشي ٢٣٠
 ساطع الحصري ١٢٧ ، ١٣٢ ، ٢٢٦
 سامي الحناوي ٢٦٧ ، ٢٦٨
 سامي الدهان ٢١ ، ١٥٣ ، ٢٧١
 سامي العظم ١٦٣
 سامي قصيري ٣١٠

السبكي ١٩٧
 سينسر ١٩
 سترستين (ك.و.) ١٥٢
 سعد الله الجابري ١٣٥
 سعيد الافغاني ١٥٣
 سعيد شقير ٣١٠
 سعيد الكرمي ١٢٦ ، ١٢٨
 سفيان الثوري ٢٠٠
 سلطان محمد ٥٥ ، ٣٠٩
 سليمان البستاني ٥٥ ، ٣١٠
 سليمان الظاهر ١٣٧
 سليم الاول ٧٦
 سليم البخاري ١٣ ، ١٩ ، ٢١ ، ٤٤ ، ١٢٩ ، ١٣٧ ، ١٦٦
 سليم الجزائري ٢٥١
 سليم الجندي ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٥٠
 سليم سر كيس ٥٥ ، ٣١٠
 سليم عنجوري ١٣٧
 سليم اليعقوبي ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٨
 سمنوف ١٨٢
 سمول سميلز ٢٣٠
 السميساطي ٣١٧
 سهل بن هارون ٢٠ ، ١٤٤ ، ١٨٩
 سيبويه ٤٦ ، ٤٩
 السيد صقر ٢٠٩
 سيف الدولة الحمداني ١٤١
 سيمون ١٩ ، ١٦٠
 شارل بلا ١٩٤
 شارل ريشه ١٨٥
 شارل سنيوبوس ١٦١
 شارل مارتل ١٧٩ ، ١٨٢
 الشاقاني ٢١٣
 شبلي شميل ٥٥ ، ٣١٠
 الشريف الرضي ٢٠ ، ٢٩٠
 الشريف المرتضى ٢٩٧
 شفيق جبيري ٢٣ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٦٤ ، ١٩٣ ، ٢٢٧ ،
 ٢٥٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٩١
 شكري العسلي ٥٠ ، ٢٥١

- شكري فيصل ١٥٥
شكري القوتلي ١٤١
شكيب ارسلان ٢٢ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٦٦ ، ١٧٦ ،
٣١٤ ، ٢٨٩
شهاب الدين الألوسي ١٥٩ ، ٢٨٩
شهاب الدين طغريل ٢١٤
شوشون باشا ١١٣
شوقي = أحمد شوقي
شوقي ضيف ٣١١
شيخ الربوة ١٦٧ ، ١٧١ ، ٢١٠ ، ٣١٧
الصابي = أبو اسحاق الصابي
الصاحب بن عباد ٢٨٩
صادق جوهر ٣١١
صادق عنبر ٥٥ ، ٣١٠
صالح بن جناح ٤٣ ، ٢٤١
صبري أبو علم ٣١١
صدراب ٧٣
صدرالدين الشيرازي ١٥٥
صدرالدين القونوي ١١٩
صدرالدين الكنغراوي ١٥٣
الصفدي = صلاح الدين الصفدي
صفي الدين الحلبي ١٤٧
صلاح الدين الايوبي ٢٩ ، ١١١ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤
صلاح الدين الصفدي ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٣١٧ ، ٣٢٣
صلاح الدين المنجد ١٥٢ ، ١٥٤
صمصام الدولة ٢٠٤
الصوفي ٢٠٥
الصولي ٢٠٩
طانيوس عبده ٥٥ ، ٣١٠
طاهر أبو السعود ١٠٨
طاهر الجزائري ١٣ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٥
٤٢ ، ٤٣ ، ٥٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ،
١٤٧ ، ١٦٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ، ٢٨٩ ، ٣١٠
الطبري = ابن جرير
طرفة بن العبد ١٤٢
الطغرائي ٢٠ ، ٢٩٠
طلعت حرب باشا ١٠٥ ، ٣١١

الطناحي ٤٦

طه الحاجري ١٩٤

طه حسين ٢٠ ، ٥٥ ، ٢٧١ ، ٣١١ ، ٣٢٩

طه الراوي ١٣٨ ، ١٤١ ، ٣١٤

طيفور ٢٠٩

الظاهر بيبرس البندقداري ٣٠ ، ٢٣٣ ، ٣٢٣

الظاهري ١٦٧ ، ١٧٢ ، ٣١٧

ظهير الدين البيهقي ١٥١ ، ٢٤١

الظواهري ٢٦٢

عادل ارسلان ٣١٤

عادل محمد كرد علي ٥٧

عارف حكمة ١٢٥

عارف النكدي ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦

عامر بن الجراح ١٢٧

عباس الثاني (الخدوي) ٣٤ ، ٣٠٩ ، ٣١٤

عباس الصفوي ٧٦

عباس محمود العقاد ٢٠ ، ٥٥ ، ٣١١

عبدالباسط الانسي ٩٦

عبدالجبار جومرد ٢٧٧

عبدالجبار الخولاني ١٥٣

عبدالحميد (السلطان) ١٢٣

عبدالحميد البكري ٣١١

عبدالحميد الزهر اوي ٥٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٣٠٧

عبدالحميد العبادي ٣١١

عبدالحميد العلوجي ٣٣٩

عبدالحميد الكاتب ٢٠ ، ١٤٥ ، ١٨٩ ، ٢٤١ ، ٢٩٠

عبدالرحمن بدوي ٢٠٨

عبدالرحمن البيلي ٢٩٤ ، ٢٩٥

عبدالرحمن الرافعي ٣١١

عبدالرحمن عزام ٣١١

عبدالرحمن الكواكبي ٣١٠

عبدالرحمن الناصر ١٩٥

عبدالرزاق محي الدين ٢٠٨ ، ٢٠٩

عبدالسلام هارون ١٩٤

عبدالعزیز (السلطان) ٧٧ ، ٧٨

عبدالعزیز البشري ١٣٨

عبدالعزیز السعود ٣١٤

عبدالعزيز شاويش ٥٥ ، ٣٠٩
 عبدالعزيز الشواف ٣١٤
 عبدالعزيز محمد ٣١١
 عبدالغني العريسي ٢٥٠ ، ٢٨٤
 عبدالقادر الجرجاني ٢١٠
 عبدالقادر حمزة ٣١١
 عبدالقادر الخطيب ١٠٣ ، ١٠٩
 عبدالقادر المبارك ١٣٧ ، ١٤٢
 عبدالقادر بن محمد النعمي ١٥٢
 عبدالقادر المغربي ١٢٨ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٢
 عبدالكريم جرمانوس ٣١٤
 عبدالكريم الخليل ٢٥٠
 عبدالكريم عويضة ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٣
 عبداللطيف البغدادي ٢١٠ ، ٢١٢
 عبدالله الجبوري ١٥٥
 عبدالله الخشاب ٣٨
 عبدالله رعد ١٣٧
 عبدالله فكري ٦٥
 عبدالله بن محمد البلوي ٢٤١
 عبدالله بن محمد الضعيف ١٧
 عبدالله مخلص ١٣٨ ، ١٦٦
 عبدالله بن المقفع = ابن المقفع
 عبدالمجيد (السلطان) ٧٥
 عبدالمجيد نافع ٢٣٠
 عبدالمحسن الاسطواني ١٠٨
 عبدالمحسن الكاظمي ٣١١
 عبدالمقصود ٢٣٠ ، ٢٣١
 عبدالملك بن مروان ١٦٧
 عبدالمنعم رياض ٣١١
 عبدالوهاب الانكليزي ٢٥١
 عبدالوهاب عزام ٣١١
 العتبي ٢٠ ، ٢٩٠
 عثمان (جد العثمانيين) ١٠٦ ، ١١٩
 عثمان باشا (الدكتور) ٣١٠
 عثمان بن عفان ٢٢٤
 عزالدين علمالدين التنوخي ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٥٥
 العز بن عبدالسلام ٣٢٣

- عزمي بك (والي بيروت) ١٢٠ ، ١٦٥
عزمي بك (والي سورية) ١٢٠
العزيز بالله الفاطمي ٢٤٢
عطاء العجلاني ١٠٨
علاءالدين بن بهرام ٢١٤
علي ابراهيم ٣١١
علي بن أبي طالب ١٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢٩٣
علي أمين ٢٣٠
علي بهجة ٥٥ ، ٣١٠
علي بن الجهم ١٥٢
علي بن ربن ٢٠٩
علي رضا الركابي ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٣
علي الريموي ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ٣١٤
علي زكي العراقي ٣١١
علي الشرقي ١٤١
علي الشمسي ٢٣٠ ، ٣١١
علي عبدالرزاق ٢٤٩
علي بن عبدالعزيز الجرجاني ٢٠ ، ٣٥ ، ٢٠٩ ، ٢٩٠
علي بن عيسى الرماني ١٩٦ ، ٢٠٣
علي ماهر ٢٣٠ ، ٣١١
علي بن محمد (القاضي) ١٩٧
علي محمود طه المهندس ٢٢
علي مسرور الزنكلوني ٣١١
علي منيف ١٢٠
علي بن هارون الزنجاني ٢٠٥
علي يحيى ٢٣١
علي يوسف ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٣١٠
عمادالدين الاصفهاني ١٥٤ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤
عمر بن أبي زبيعة ٢٠ ، ٢٩٠
عمر بن الخطاب ١٨٨
عمر رضا كحالة ١٥٥
عمر صالح البرغوثي ١٦٦
عمرو بن العاص ١٨٧
عمرو بن قمينة ١١٨
عمرو بن مسعدة ١٨٩
عمر بن يوسف ابن رسول ١٥٢ ، ١٦١ ، ٣١١
عوض = حافظ عوض

عيسى اسكندر المعلوف ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٦٦ ،
غاندي ٤٢
غبريالي (ف) ١٥٠
الغزالي ٢١ ، ٢١٠ ، ٢٩١
غليوم الاول ٧٧
غوستاف لوبون ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣
غولذ زيهير ٣٦
الفارابي ١٥١
فارس الخوري ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢
فارس نمر ٣١٠
فاروق (ملك مصر) ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٣١٤
فان فلوتن ١٩٤
فتحي زغلول ٣١٠
فتيان الشاغوري ٣٢٣
فخري البارودي ١٦٣ ، ٢٨٢
فران (المستشرق) ٨٢
فرنسيسكو فيلا سباسا ٩٥
فريد (كنية محمد كرد علي) ١٦
الفضل بن الربيع ١٥٥
فكتوريا (ملكة انكلترا) ٧٧
فؤاد (الملك) ٣١٤
فؤاد الخطيب ١٢٧
فوزي الغزي ١٦٣
فوزي المعلوف ٩٥
فولتير ١٩
فيصل بن الحسين ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٣١٤
فيشر ٣١٤
فيليب الثاني ٩١
فيليب حتي ١٦٦
فيليب الرابع ٩١
فيليب طرازي ١٢٨ ، ٣١٤
قاسم أمين ٢٠ ، ٣١٠
القاسم بن سلام ٢٠٩
القاضي الفاضل ٢٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠
القاهر ١٩٥
قدامة بن جعفر ٢٠٩
القرماني ١١٩ ، ٣١٧

- قسطنطين (قيصر الروم) ٧٦
 القفطي ٢٠٣
 قلاوون ٢٣٣
 القلقشندي ١٦٧ ، ١٧١
 قوت القلوب الدمرداشية ١٧٧
 كارلايل ١٨٢
 كائتاني ٢١ ، ٢٢ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٢٩ ، ١٦٢ ، ٣١٤
 كثير عزة ١٢٣
 الكرمي ١٣٩
 كرومر (اللورد) ٥٠ ، ٣٠٩
 كرينكو ١٣٨
 كلود فارير ١٨٢
 كمال الدين بن يونس ٢١٢
 كي ١٢٩ ، ٣١٤
 لا مانس (هنري) ١١ ، ١٦٦
 لسان الدين ابن الخطيب ٢٢٥
 لطفي الحفار ١٦٣
 لوثر ب ستوارد ١٨٣
 لوثيروس ٣٢٣
 لويجي رينالدي ١٨٢
 لويس شيخو ١١ ، ١٢٨ ، ١٤٩ ، ١٦٦ ، ٣١٤
 لويس ماسنيون ١٢٩ ، ١٣٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣١٤
 ليमान باشا ١١٣ ، ٣١٣
 ليوني كائتاني = كائتاني
 مارغليوث ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٥٠ ، ٣١٤
 ماسنيون = لويس ماسنيون
 المأمون (الخليفة) ١٠٠
 الماوردجي ٢١٠
 مايكل آسن ١٢٩ ، ٣١٤
 المبارك = محمد المبارك
 المبرد ٢٠٩ ، ٢٩٠
 متري قندلفت ١٢٨
 المتقي ١٩٥
 المتلمس ١٦٧
 المتنبئ ٢٠ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٩٧ ، ٢٩٠
 متى بن عدي ٢٠١ ، ٢٠٣
 محب الدين الخطيب ٢٤٠

- محسن الامين ١٣٧
 محسن البرازي ١٣٥
 المحسن بن علي التنوخي ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢٤٢
 محمد بن ابراهيم الحلبي ١٥٠
 محمد اسعاف النشاشيبي ١٣٨
 محمد باشا البلطجي ٧٧
 محمد الباقر ٩٦
 محمد الببلاوي ٣١١
 محمد بهجة الاثري ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ،
 ٢٥٣ ، ٣١٤ ، ٣٣٩
 محمد بهجة البيطار ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٥٣
 محمد بن بهرام السجستاني ٢٠٥
 محمد بن تاويت ٢٠٩
 محمد جمعة ٣١٠
 محمد حسين هيكل ٥٥ ، ٣١١
 محمد الحلبي ١٠٨
 محمد حلمي عيسى باشا ٢٦١ ، ٣١١ ، ٣٢٨
 محمد الخامس ٢٨٠
 محمد الخضري ٥٥ ، ٣٠٩
 محمد دياب ٥٥ ، ٣٠٩
 محمد راسم بك ١١٩
 محمد رشاد ١٠٣ ، ٣١٣
 محمد رشيد رضا ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٤٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٠
 محمد رضا الشيبيني ١٣٨ ، ١٤١ ، ٣١٤
 محمد بن زكريا الرازي ١٥١ ، ١٨٥ ، ٢١١
 محمد السباعي ٥٥ ، ٣١٠
 محمد شاكر ٣٠٨ ، ٣٠٩
 محمد شريف صبري ٢٣٠ ، ٢٣١
 محمد بن شنب ١٢٨
 محمد الطنطاوي ١٨
 محمد بن العباس ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢٩٠
 محمد عبدالفتاح ٢٠
 محمد بن عبدالله (ص) ١٠٦ ، ١٢٥ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ،
 ١٨٧ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٩٣
 محمد عبدالمطلب ٥٥ ، ٣٠٩
 محمد بن عبدالمملك الزيات ١٨٩

محمد عبده ١٣ ، ٢٠ ، ٣٦ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٢٣٩ ، ٢٥٣ ، ٢٨٩ ،
٣٠٩ ، ٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ٢٩٠

محمد بن عبدلوهاب ٤٨

محمد العثماوي ٣١١

محمد علي باشا ٣١١

محمد علي العابد ١٤٠

محمد علي علوبة ٣١١

محمد علي فرغلي ٢٣٠ ، ٢٣١

محمد الفاتح ١٠٦ ، ١١٦

محمد فريد ٣١٠

محمد فريد وجدتي ٣١١

محمد لطفي جمعة ٥٥

محمد المبارك ١٣ ، ١٩ ، ٢١ ، ٤٧ ، ١٢٩ ، ١٥٩ ، ٢٩٢

محمد محمود خليل ٢٣٠ ، ٢٣١

محمد مراد ١٠٨

محمد مسعود ٤٩ ، ٥٥ ، ٣١٠

محمد بن معشر البستي ٢٠٥

محمد المهدي ٥٥ ، ٣٠٩

محمد مهدي البصير ١٤١

محمد مهدي الجواهري ١٤١

محمد الهراوي ١٤٠

محمد المويلحي ٣٠٧

محمود أبو العيون ٣١١

محمود الثاني ٧٦ ، ١٢٥

محمود رشاد ٣١٠

محمود رياض ٣١١

محمود سالم ٣١٠

محمود ساهي البارودي ٣١٠

محمود شكري ٢٣٠ ، ٢٣١

محمود شكري الالوسي ٣٩ ، ١٢٨ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٥٩ ، ٢٥٣ ، ٢٨٩ ،

٣١٤

محمود شلتوت ٢٦٢ ، ٣١١

محمود الشنقيطي ٣١٠

محمود صبري البارودي ٢٢ ، ١٤٨

محمود عزمي ٣١١

مدحت باشا ٣٠

مدحت بك ١٢٠

مراد الرابع ٧٥ ، ٧٧
مرشد خاطر ١٣٧ ، ١٤٢
مرمري (الاب) ١٦٦
مروان بن الحكم ١٧٣
المروزي ١٩٦
المستكفي ١٩٥
المستنصر بالله ٢١٤
المستورد القرشي ١٨٦
مسعود = محمد مسعود
مسعود الكواكبي ١٣٧ ، ١٤٢
المسعودي ٦٥ ، ٦٩ ، ٢٠٩
مسكويه ٤٣ ، ١٥١
مسلم بن الحجاج ٢٩٠
مسلمة بن أحمد المجريطي ١٥٢
مصطفى جواد ٣١٤
مصطفى الديمياطي ٣١٠
مصطفى الرابع ٧٥
مصطفى الشهابي (الامير) ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٦٤
مصطفى صادق الرافعي ٢٠ ، ٣١١
مصطفى عبد الخالق ١٢٠
مصطفى عبدالرزاق ٣١١
مصطفى الغلاييني ٣١٤
مصطفى كامل ٣١١
مصطفى كمال باشا ١١٤ ، ٣١٣
مصطفى لطف المنفلوطي ٢٠ ، ٢٢ ، ٥٥ ، ١٣٨ ، ٣١٠
مصطفى المراغي ٣١١
مصطفى واصف الشقلاي ٤٦
معاوية بن أبي سفيان ١٦٧
معاوية بن عبدالكريم الضال ١٧
معروف الرصافي ٢٢ ، ١٤١ ، ٢٨٤ ، ٣١٤
المقتدر ١٩٥
المقدسي ١٦٧ ، ١٧٠
الملك السعيد ١٢٦
الملك العزيز ٢١٤

منلا خنكار = جلال الدين الرومي

منير القاضي ٣١٤

المهدي ٢٢١ ، ٢٣٦

المهدي (الخليفة) ١٢٧

موسى بن عمران ٢١٣

موسى بن ميمون ٢١٣

مونتسكيو ١٩

مونتته ١٢٩ ، ٣١٤

المويلحي ٢٢

الميداني ٤٢

نابغة بني شيبان ١٦٧

النابغة الذبياني ١٦٧

النابلسي = اسماعيل النابلسي

نابليون ٢٦٢

ناصيف اليازجي ٢٢

نجيب الرئيس ٥٧ ، ١٣٩

نجيب شاهين ٥٥ ، ٣١٠

نجيب الهلالي ٣١١

نخلة ذريق ١٢٨

نصيب ١٦٧

نظيف الخالدي ١٢٣

نعوم شقير ٣١٠

نقولا شحاذه ٤٩

نلينو ١٢٩ ، ١٣٨ ، ٣١٤

النووي ٣٢٣

هارتمن (مارتن) ١٢٩ ، ١٦٢ ، ٣١٤

هارون الرشيد ٧٥

الهمداني ٢٠

هوتسما ١٢٩ ، ٣١٤

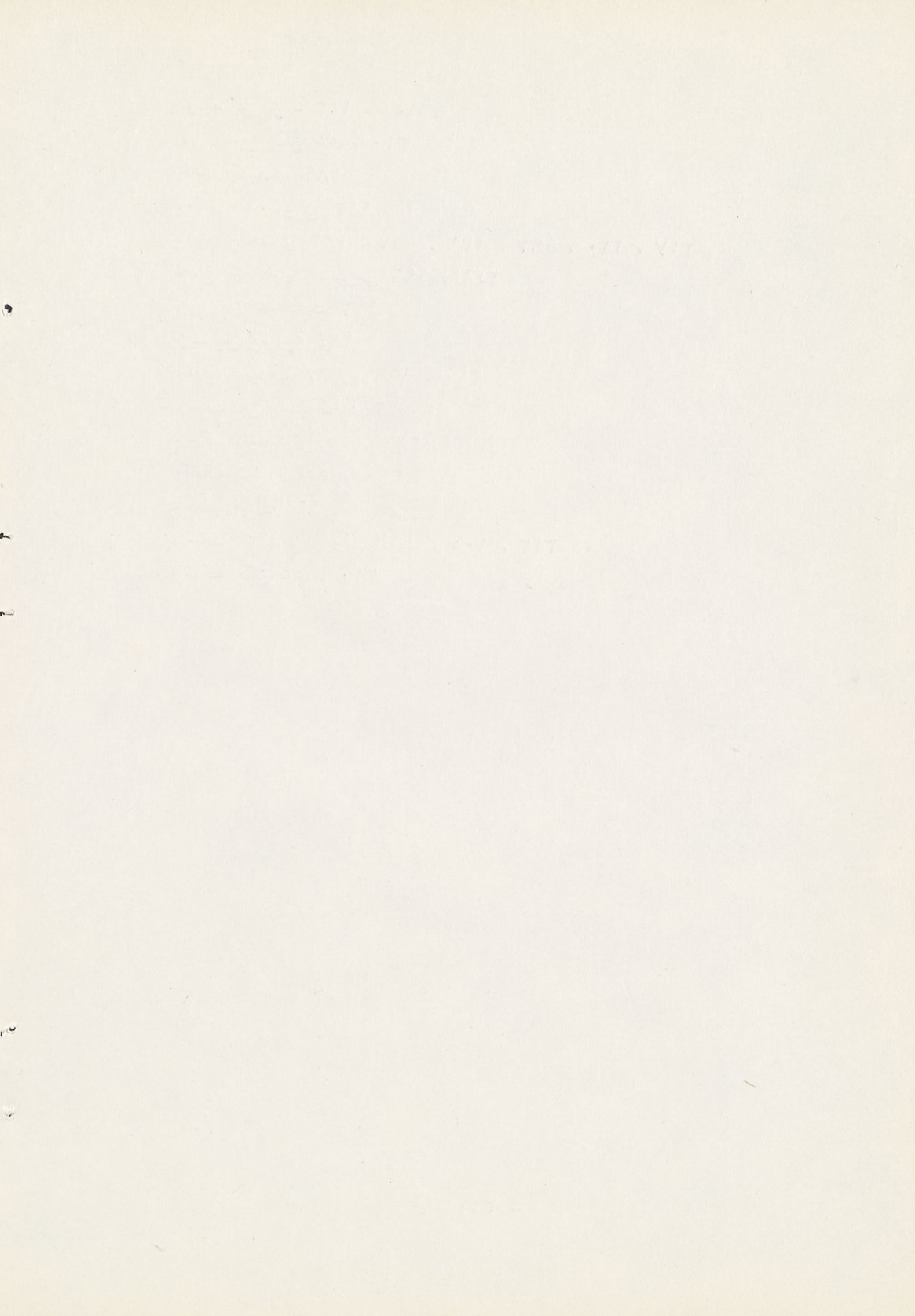
واثل بن حجر ٢١٩

الوأواء الدمشقي ١٥٣

وضاح اليمن ١٤٩

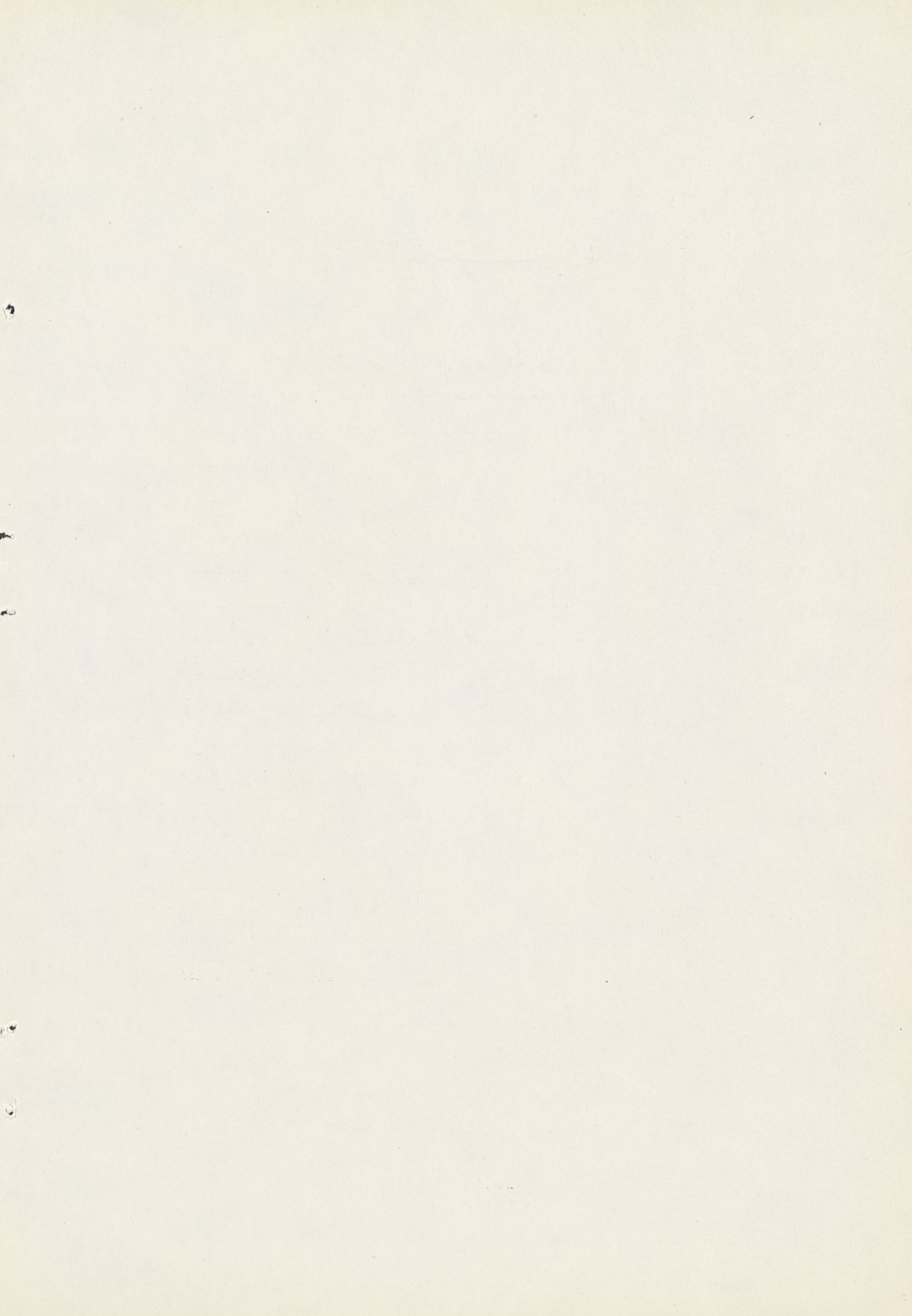
الوليد بن عبدالمملك ١٦٧

- الوليد بن يزيد ١٢٣ ، ١٥٠
ولي الدين يكن ٥٥ ، ٣١٠
وندل كلبلاند ١٨٩
ياسين السيميائي ٢١٣
ياقوت الحموي ١٢٣ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٣١٧
يحيى بن عدتي التكريتي ١٩٦ ، ٢٤١
يزيد بن عبد الملك ١٢٣
يزيد بن معاوية ٢٢٤
يعقوب صروف ١٢٨ ، ١٦٦ ، ٣١٠
يوسف بن اسباط ٢٠٠
يوسف البستاني ٥٥ ، ٣١٠
يوسف الخازن ٥٥ ، ٣١٠
يوسف صادر ٩٦
يوسف عز الدين (ولي العهد) ١٠٥ ، ٣١٣
يوسف يكن ٥٥ ، ٣١٠



المحتوى

٥	تحية الى محمد كرد علي للشاعر معروف الرصافي
٧	المقدمة - بقلم الاستاذ العلامة محمد بهجة الاثري
٩	الاستاذ الرئيس محمد كرد علي
١١	جهاده واسرته
١٨	نشأته وثقافته
٢٧	اساتذته
٢٩	الشيخ طاهر الجزائري
٤٤	الشيخ سليم البخاري
٤٥	محمد كرد علي في الصحافة
٦٥	رحلاته
١٢٦	في المجمع العلمي العربي
١٥٦	مؤلفاته وما حققه من كتب التراث
٢٤٣	المذكرات في النقد والسياسة والاجتماع
٢٨٧	اسلوبه الانشائي
٣٠٥	علاقته بالمشاهير
٣١٥	وطنيته وحنينه الى مراتع صباه
٣٣٣	مراجع الكتاب
٣٣٩	تقدير
٣٤١	فهرس الاعلام



وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة

صدرت عن مديرية الثقافة في وزارة الثقافة والارشاد المطبوعات التالية :

- الثلث
فلس دينار
- أولاً - سلسلة كتب التراث
- ١ - الدر النقي في علم الموسيقى : للقادري الرفاعي الموصلبي
وتحقيق الشيخ جلال الحنفي - ٥٠ -
- ٢ - ديوان عدي بن زيد العبادي : تحقيق وجمع السيد
محمد عبد الجبار المعيد - ٣٠٠ -
- ٣ - مذهب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء
لياسين بن خيرالله العمري - تحقيق السيد رجاء
السامرائي - ٣٠٠ -
- ثانياً - سلسلة الكتب المترجمة
- ١ - الاصطلاحات الموسيقية : تأليف أ. كاظم
نقله الى العربية عن التركية : ابراهيم الداقوقي
ملحق - ١ - المستدرك على الاصطلاحات الموسيقية :
للمؤلف نفسه وتعريب ابراهيم الداقوقي - ١٠٠ -
- ٢ - رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر
نقله الى العربية عن الالمانية الدكتور محمود حسين الامين
قدم له وعلق عليه السيد سامم الآلوسي - ٢٠٠ -
- ثالثاً - سلسلة الكتب الحديثة
- ١ - رائد الموسيقى العربية : تأليف عبد الحميد العلوجي - ٢٠٠ -
- ٢ - معجم الموسيقى العربية : تأليف الدكتور حسين علي محفوظ - ٢٠٠ -
- ٣ - جولة في علوم الموسيقى العربية : تأليف الاستاذ ميخائيل
خليل الله ويردي - ٥٠ -
- ٤ - الحرية : تأليف ابراهيم الخال - ١٠٠ -

التمن

فلس دينار

- ٥ - موجز دليل آثار سامراء : اعداد سالم الآلوسي - ٥٠ -
٦ - موجز دليل آثار الكوفة : اعداد سالم الآلوسي - ٥٠ -
٧ - النظام القانوني للمؤسسات العامة والتأمين في القانون العراقي : تأليف الاستاذ حامد مصطفى - ٣٥٠ -
٨ - علي محمود طه ٠٠٠ الشاعر والانسان : تأليف انور المعداوي - ٢٠٠ -
٩ - مؤلفات ابن الجوزي : تأليف عبدالحميد العلوجي - ٢٥٠ -
١٠ - أبو تمام الطائي : تأليف الاستاذ خضر الطائي - ١٥٠ -
١١ - من شعرائنا المنسيين : تأليف الاستاذ عبدالله الجبوري - ٢٠٠ -
١٢ - محمد كرد علي - تأليف الاستاذ جمال الدين الآلوسي - ٣٠٠ -
١٣ - أدباء المؤتمر - للاستاذ عبدالرزاق الهلالي - ٢٠٠ -
١٤ - بدر شاكر السياب - للاستاذ عبدالجبار داود البصري - ١٥٠ -

رابعاً - سلسلة الثقافة العامة

- ١ - المواسم الادبية عند العرب : تأليف عبدالحميد العلوجي - ١٠٠ -
٢ - الادباء العراقيون المعاصرون وانتاجهم : تأليف سعدون الريس - ٥٠ -
٣ - تطور الحركة الوطنية التونسية منذ الحماية حتى الاستقلال : تأليف الدكتور لؤي بحري (نفدت نسخه) - ٥٠ -
٤ - العلم للجميع : اعداد كامل الدباغ - ٥٠ -

خامساً - سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث

- ١ - اللهب الملقى - شعر حافظ جميل - ٣٥٠ -

اعتذار

وقع بين دفتي هذا الكتاب سهو عجزت عن تداركه ، ولا أملك بعد ان استأثر الله عز وجل بالعصمة الا التشبث بالاعتذار ، راجيا من القاريء الكريم ان يصلح ما أشير اليه في ما يلي :

(المؤلف)

الصواب	الخطأ	س	ص
آراءه	ارائه	١٣	٨
من مدينة السليمانية	مدينة السليمانية	٣	١٦
ما قرأنا	قرأنا	١١	٢٥
الحاكمون	الحكم	١٧	٣٢
تقنعوهم	تقتفوهم	١٥	٤١
(مكرر مع وقوع خطأ فيه ، والصواب ما ذكر في السطر ٢٢ من الصفحة نفسها)	وبينما نجد الى خمسة ملايين ونصف	٢٠	١١٧
يراسل	يرسل	١٢	١٣٠
يعرف	يصرف	٢٤	١٣٣
كتبت	كتب	٢٠	١٤١
الدبور	الدبوب	١٨	١٦٨
عفت	عضت	٢	١٨٢
روحا	ردحا	٣	١٨٤
جيوشه	حيوشه	١٧	١٨٧
وكان	وكانت	١٣	١٩٦
مخايلا	محاليا	٢	٢١٣
يضير	يغير	١١	٢٢٤
التزهد	التزيد	١	٢٣٤
يثرى	يثري	٦	٢٣٤
شعراء	شهداء	٢	٣٠٧
صادقهم	صادقتهم	١	٣١٤

Index

This index is intended to give a general idea of the contents of the book and to show the order in which the chapters are arranged. It is not intended to be a complete list of the subjects treated in the book.

Page	Chapter	Section	Page
1	I	1.1	1
11	I	1.2	11
11	I	1.3	11
11	I	1.4	11
11	I	1.5	11
11	I	1.6	11
11	I	1.7	11
11	I	1.8	11
11	I	1.9	11
11	I	1.10	11
11	I	1.11	11
11	I	1.12	11
11	I	1.13	11
11	I	1.14	11
11	I	1.15	11
11	I	1.16	11
11	I	1.17	11
11	I	1.18	11
11	I	1.19	11
11	I	1.20	11
11	I	1.21	11
11	I	1.22	11
11	I	1.23	11
11	I	1.24	11
11	I	1.25	11
11	I	1.26	11
11	I	1.27	11
11	I	1.28	11
11	I	1.29	11
11	I	1.30	11
11	I	1.31	11
11	I	1.32	11
11	I	1.33	11
11	I	1.34	11
11	I	1.35	11
11	I	1.36	11
11	I	1.37	11
11	I	1.38	11
11	I	1.39	11
11	I	1.40	11
11	I	1.41	11
11	I	1.42	11
11	I	1.43	11
11	I	1.44	11
11	I	1.45	11
11	I	1.46	11
11	I	1.47	11
11	I	1.48	11
11	I	1.49	11
11	I	1.50	11



ثمن النسخة (٣٠٠) فلس

دار الجمهورية
بغداد
١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م